موسوعة
أسماء الله الحسنى
وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الثاني

المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار
القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوسُوعَة
أسماء الله الحسنى
وَأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots – بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد – بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـــينا ـ بناء الجـــابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 – 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 – 2458541

بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْـــرِسُ المَوْضُوعَات

المُتَكَبِّر جل جلاله

المتكبر اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ويعني : ذاته العلية ، المرتفعة عن المقارنة أو الشبه ، وفي ذلك يقول لسان العرب : « المتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده »[1] . وقال ابن الأثير : « المتكبر العظيم ذو الكبرياء ، والمتعالي عن صفات الخلق »[2] .

والكبرياء في لسان العرب : « العظمة والمُلك وهي كمال الذات ولا يوصف بها إلا ٱلله تعالىٰ . وكَبُرَ تعني عَظُمَ ، والتكبير التعظيم . أمَّا الاستكبار فهو الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً »[3] .

الاستكبار استعلاء عن الحقيقة وجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجَّة دامغة ، فالمستكبر يقف علىٰ الحقيقة ويغض النظر عنها ، بعدم اعترافه بأنها الحق . وهـٰذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة ، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حق .

قال تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[4] .

---

(1) لسان العرب المحيط ، ، ج 3، ص 210 .

(2) المصدر السابق، ج 3، ص 210 .

(3) المصدر السابق، ج 3، ص 210 .

(4) الأعراف، 146 .

قال الزجاج : « معنىٰ يتكبرون أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم ، وهـٰذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة »[1] .

ومن الآية السابقة يتضح أنَّ الذين يتكبرون في الأرض هم الذين يتكبرون بغير الحق ، وهـٰذا يعني أن للتكبر صفتين :

الصفة الأولىٰ : هي التكبر بالحق ، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلل من شأن مرتكبيها ، وهـٰذه من صفات الخالق والخلفاء المتصفين بصفاته ، الذين يقولون الحق ويعملون علىٰ إحقاقه ولو كره الكافرون والمجرمون ، أي أنهم الذين يتعالون بإعلائهم كلام ٱلله تعالىٰ في الأرض ، وإن حكموا بين الناس حكموا بالعدل ، وإن قالوا صدقوا ، وإن عملوا أصلحوا .

الصفة الثانية : التكبر عن الحق ، بالحياد عنه والميل كل الميل إلىٰ ما يؤدي إلىٰ إخفائه ومغالبته بالباطل ، والمتكبرون عن الحق هم الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلل من شأن مرتكبيها ، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي ٱلله ورسوله ولا تُرضي المؤمنين المستخلفين في الأرض ، وهـٰؤلاء هم الذين إن قالوا كذبوا ، وإن عملوا أفسدوا .

إنَّ المفسدين هم الذين يتكبرون عن الإصلاح ، أمَّا المصلحون فهم الذين يتكبرون بفعله ، وفي هـٰذا الأمر قال تعالىٰ في إبليس عندما استكبر عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2] . إنَّ استكبار إبليس كان استكباراً عن الحق ، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبراً بالحق . والسجود يدل ويُعبِّرُ عن

(1) مجدي صور الشورىٰ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 78.

(2) البقرة، 34.

الطاعة وفي هـٰذا الأمر ظهرت الاحتمالات الآتية :

الاحتمال الأول : أن السجود طاعة لمن أصدر الأمر وهو ٱلله تعالىٰ .

الاحتمال الثاني : أنَّ السجود اعتراف بتميز آدم في خلقه . قال عز وجل : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] .

الاحتمال الثالث : أنَّ السجود استغفار لله عما قاله الملائكة عندما قال لهم جل جلاله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] .

الاحتمال الرابع : التسليم بالعلم الذي يعلمه ٱلله عز وجل ، والذي أظهر شيئاً منه لآدم حتىٰ أظهر لهم منه شيئاً وهو مقدرته علىٰ إنباء الملائكة بما لا يعلمون .

وفي كل الاحتمالات الأربع السابقة فالسجود لله تعالىٰ سواء لطاعة أمره ، أو الاعتراف له فيما اختاره وفضّله ، أو لعلمه بالغيب الذي لا يعلمون منه شيئاً ، أو لأنه استغفار له جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] . الذين يستكبرون عن عبادة ٱلله تعالىٰ ، هم الذين لا يلتزمون بما يأمر وبما ينهىٰ ، أي أنهم العاصون غير الطائعين لعبادته ، وهـٰؤلاء هم الذين سيدخلون جهنم . فالاستكبار : عدم الاعتراف بالشيء برغم وجوده ، إنه الجحود والميل إلىٰ ارتكاب ما يخالف الحق ، وفي هـٰذا الأمر تواطؤ مع

---

(1) التين، 4.

(2) البقرة، 30.

(3) غافر، 60.

ما لا يرضي ٱلله عز وجل مما يجعل الاستجابة لهـٰؤلاء هي الدخول في جهنم . وفي مقابل ذلك تكون الاستجابة لمن يسأل ٱلله أو يدعوه بالعبادة المدخلة إلىٰ الجنة . وعليه فالذين يستكبرون عما أمر ٱلله به ونهىٰ عنه ، يكونون في أسفل سافلين ، والذين يتكبرون مع ما أمر ٱلله به ونهىٰ عنه سيكونون في عليين . ولذلك فالله المتكبر جل جلاله يودُّ لعباده الذين استخلفهم في الأرض أن يتكبروا عن النواقص فيكونوا من المتكبرين مع تكبره ، ولذا فهم لا يتكبرون إلا بالحق .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(1) . لن يستنكف المسيح تعني : لن يأنف ولن يحتشم في كونه عبداً لله تعالىٰ ، بل إنه المتكبر بالعبادة أي المتعالي بها عن النواقص ، ولذا فإن العبادة تعالٍ مع وحدانية المتكبر ورفعته . وكذلك الحال مع الملائكة الذين هم في حالة تكبر مع ما يأمر به المتكبر الأعظم ، أي أنهم الملتزمون بالطاعة والعبادة لأمر ٱلله تعالىٰ . وفي حالتي التكبر مع والتكبر عن ، تكون المجازاة إمَّا بوفرة في الأجور وزيادة من فضل ٱلله للذين يعملون الصالحات ، وإما بالعذاب الأليم للذين يعملون السيئات .

الذين يعملون السيئات هم المتكبرون عن الطاعة والعبادة لله تعالىٰ ، وهم الذين قال فيهم رسول ٱلله ﷺ : « لا يدخل الجنة أحدٌ في قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولا يدخل النار أحدٌ في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان »(2) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

(1) النساء ، 172 - 173 .

(2) صحيح ابن حبان ، ج 1 ، ص 440 .

ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[1] . المتواضعون من عباد الرحمـٰن هم الذين يمشون علىٰ الأرض هوناً ، أي بلين وثبات مخافة من تكبر في غير محله ، واحتراماً للأرض التي منها خلقوا وفيها استخلفوا . وهـٰؤلاء هم الذين يلتزمون بما أمر ٱلله تعالىٰ ، ويتصفون بالطاعة والعبادة ، مع دعائهم بما يدفعهم إلىٰ الإصلاح ويُحفزهم عليه ، ويبعدهم عن الإفساد في الأرض التي أمرهم ٱلله بالإصلاح والإحسان فيها .

وحتىٰ لا يسود التكبر وتفسد الأرض جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي ٱلله عنه قال : « قال رسول ٱلله ﷺ إنَّ ٱلله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحدكم علىٰ أحد ولا يبغي أحد علىٰ أحد »[2] . وفي حديث آخر رواه الترمذي قال رسول ٱلله ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم علىٰ النار ؟ ـ أو تحرم عليه النار ـ تحرم علىٰ كل قريب هين لين سهل »[3] .

وقال عروة بن الزبير رضي ٱلله عنهما : « رأيت عمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه علىٰ عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هـٰذا . فقال : لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسي نخوة ، فأردت أن أكسرها »[4] .

(1) الفرقان، 63 ـ 68 .
(2) سنن الترمذي، ج 7، ص 279 .
(3) المصدر السابق، ج 9، ص 28 .
(4) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية، ج 3، ص 302 .

المتكبر الحق هو المتكبر بصفاته الحسان المتعالي بها إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، والمتكبر بالإضافة هو المقتدي بما ترمي إليه صفات المتكبر جل جلاله ، أما المتكبر أو المستكبر بغير حق فهو الظالم لنفسه وعقله وبدنه وروحه ، وهـٰذا الظلم المُركَّب يجعله في الدنيا يعيش القلق والألم معاً ، وفي الآخرة يذوق العذاب الشديد ، ولهـٰذا فهو لم يستخلف في الأرض ولن يُستخلف في الجنة .

المتكبر المطلق : هو المتعالي علىٰ عرشه ، والمتكبر عن ظلم عباده ، وملكه لا يزول ، وهو لا يخشىٰ أحداً . أمَّا المتكبر بالإضافة فهو الذي يخشىٰ ٱلله ولا يخشىٰ غيره في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وهو المتكبر عن الرذيلة والسيئات ونقيصة الآخرين أو ظلمهم . ولهـٰذا فهو المعني بالاستخلاف في الأرض دون غيره ، وهـٰذا الأمر يجعل من الاستخلاف خصوصية تحتوي كل المؤمنين الطائعين العابدين الحامدين الشاكرين المسبحين المتكبرين بحمد ٱلله تعالىٰ .

والمتكبر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة ويأبىٰ إظهارها ولا يأخذ بها ، ويشرك آخرين فيها وهم لا علاقة لهم بها ، وهـٰؤلاء إذا دعاهم لا يستجيبون له قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ

﴿ هَاتُوا۟ بُرۡهَـٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴾[1] . بطبيعة الحال لا برهان لهم إلا التكبر بغير حق ، ولهـٰذا فالتكبر بغير حق جرم كبير يُدخل مرتكبه النار . والذين أمنوا وأطاعوا وعملوا الصالحات واقتدوا بصفات المتكبر الحسان نالوا الأجر الكبير المدخل للجنة .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2] . وله الكبرياء تعني : المتعالي بآياته العظام القابلة للملاحظة والمشاهدة والإدراك العقلي دون لبسٍ أو غموض ، فالنجوم والكواكب والشروق والغروب آيات عظام في السماء ، والكنوز التي تكوِّن الأرض من ماءٍ دافقٍ ومعاشٍ طيب ومعادنَ نفيسة ذات وفرة بين أيدي الناس . والمستخلفون في الأرض هم الذين يوقنون أنه الحق فيزدادون إيماناً والذين كفروا بنعمة ربهم يجحدون . ومن يجحد نعمة ربه ، لن يكون لله خليفة في الأرض ، فخلفاء ٱلله في الأرض هم الذين يتصفون بصفات من ٱلله تعالىٰ . أما أولـٰئك الجاحدون الناكرون ليس لهم من صفات ٱلله شيء ، ومن لا يتصف بصفات ٱلله الحسان لا خير فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾[3] . الاستكبار من عمل الشيطان ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُوا۟ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾[4] إن امتناع إبليس عن السجود لآدم كان معصية لأمر ٱلله وهـٰذا الامتناع هو تكبر عن الطاعة وعدم الاعتراف بقول الحق وفعل الحق ، وهـٰذا التكبر هو المعصية التي بها لُعِنَ إبليس . أما أولـٰئك الذين لا يستكبرون فهم الطائعون لأمر ٱلله تعالىٰ ،

---

(1) النمل، 59ـ64.
(2) الجاثية، 36، 37.
(3) الأعراف، 206.
(4) البقرة، 34.

وغير المتكبرين عليه ، وفي الآية السابقة المعنيون بالطاعة هم الملائكة الكرام الذين سجدوا لله تعالىٰ اعترافاً وإيماناً بأنه الحق وقوله الحق سبحانه وتعالىٰ عما يصفون .

قال تعالىٰ : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[1] قلوبهم منكرة تعني ، جاحدة للحق ، ولا تعمل علىٰ إظهاره ، وهم في ذلك مستكبرون مع أنَّ الحق من المتكبر جل جلاله . ولهٰذا دائماً الاستكبار لا يخفي الحقيقة ، بل في نظرية التحليل النفسي الاستكبار اعتراف غير مُعلن ، ولٰكن يمكن استنباطه والعمل علىٰ إظهاره بالتي هي أحسن وذلك بعد إجراء عملية التحليل للشخصية المستكبرة عن الحق . وهٰؤلاء هم الذين قال فيهم عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] فكأن لم يسمعها تعني : أنه سمعها ولٰكنه لم يأخذ بها ولا يعمل بها ، وهٰذه دليل إثبات التكبر بغير حق ، ودليل إثبات أن التكبر عن الحق لا يضعف الحق في شيء أو يلغيه ، وإن الجحود من البعض يدل علىٰ أن البعض قد آمن ولم يتكبر عنها ، وبهٰذا التكبر يستمد صفته من المتكبر المطلق .

يقول أبو حامد الغزالي : « المتكبر من العباد هو الزاهد العارف الذي يتكبر عن كل شيء سوىٰ الحق تعالىٰ »[3] .

المتكبر بالإضافة هو خليفة ٱلله في الأرض الذي إن دعي لنقيصة تكبَّر

---

(1) النحل، 22، 23.

(2) الجاثية، 7 - 8.

(3) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. بيروت ـ دار الكتب العلمية، ص 52.

عنها ، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته ، وإن لم يستطع فلا ينهر ، ولذا فالتكبر صفة محتملة للإيجاب والسلب . فتكبر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي صفة إيجابية . وارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض صفة سلبية . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾[1] وهـم لا يستكبـرون تعني : أنهم يعترفون بالإعجاز الإلهي في آياته العظام ، وبالتالي هم الذين يتعاظمون معها علواً ورفعة حتىٰ ينالوا الهيبة . والسجود اعتراف وتسليم وتكبر مع المتكبر لا تكبر مع من سواه . وهم الذين كلما رأوا آية أو نزلت عليهم آية وحدوا ٱلله وكبروه تكبيراً أي عظموه وقدسوه تقديساً . فالمتكبر بكماله وجماله يتكبر ، والمؤمن بإيمانه يستعلي ، والذين لا كمال فيهم ولا جمال ولا يؤمنون فهم الأذلاء الذين رضوا بأن يكونوا خوالف . ومن يرتضي بأن يخالف الحقائق أو ينكرها يفتقد الحجة ، ومن لا حجة له لا شرع في حكمه ، ومن لا شرع في حكمه ظالم ، ومن يظلم لا يتعاظم ، ومن لا يتعاظم يركن ويستكين في مستنقعات الرذيلة والوضاعة . ولذلك فالاستكبار عن الحق ليس بحق .

المتكبر الحق هو المتكبر عن الرذيلة والوضاعة والسفاهة ، والعازة والجهل ، والمرض والتعب والجوع وعن الصاحبة والولد والشبيه والمثل . إنه الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤاً أحد ، ولم يكن له ولي من الأمر ، يضاعف الحسنات ويمحو السيئات ، ويغفر الذنوب ، ويكيد كيد الكائدين ، ويزلزل الأرض ومن عليها ، يحيي ويميت ، فعَّال لما يُريد ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، يُتصف به ولا يَتصف بأحد ، يعلم الغيب ولا يُطلع عليه أحداً ، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، ويغني من يشاء بغير حساب ، يحق الحق ويُزهق الباطل ، يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن

(1) السجدة، 15 .

يشاء ، وإذا أراد أمراً يقول له كن فيكون .

إذاً المتكبر الحق هو المتكبر بعزته عن الاستكانة والمتكبر بقوته عن الوهانة ، وباستطاعته عن المهانة . والمتكبر بالإضافة هو المستخلف بكبريائه في الأرض ، ولو لم يكن متكبراً ما كان الخليفة ، فبتكبره يتعالىٰ عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وبكبريائه لا ينقاد لأحد إلا لله تعالىٰ ، لا يظلم ولا يستعبد الناس ، ولا يأكل حراماً ، إنه المتكبر عن الشرك .

الكبرياء نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق ، والذات التي فيها كبرياء المجتمع ، وكبرياء الضمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية ، وكبرياء الإيمان الذي به يتكبر المخلوق مع الخالق . فالصفاء كبرياء بين المخلوق والخالق وبين المخلوق ونفسه .

ومن صفات المتكبر في ذاته المعطيات الآتية :

1 ـ المقدرة المُطلقة علىٰ فعل أي شيء ، فهو الذي بيده الأمر يفعل ما يشاء كما يشاء وأينما يشاء ، ومتىٰ ما يشاء ، فلا يَحدُّ من قدرته كائن ولو اجتمعت الكائنات جميعها سبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] وقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[2] . ومع أنه المقتدر والقادر علىٰ كل شيء ، إلا أنه يُمهل الكافرين دون أن يهمل أمرهم وكل أمر ، ولذا فهو المتكبر الذي لا يتوقف عند حالة حتىٰ وإن كانت عاصية لأمره وذلك لأنه يعلم أن أمره نافذ ولكنَّ الناس لا يعلمون بمقدرته التي يعلمها من آمن ، ولأنه المتكبر ، فهو يعطي الفرصة لمن يُمكن أن يكون من المؤمنين ، بعد أن يغفر له ما تقدم من ذنبه ، وهو القادر علىٰ أن يغفر الذنوب جميعاً ما تقدم منها وما تأخر سبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير .

---

(1) البقرة، 20.

(2) الكهف، 45.

2 ـ عدم التساوي مع الغير . إنه الواحد الأحد ومالك المُلك الذي تتعدد صفاته كما يتعدد ملكه ، وهو الخالق الذي لا يتساوىٰ في شيء مع خلقه ، وفي هٰذا الأمر تنص القاعدة بالمطلق علىٰ : (أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وأقدر) ولذا لا مجال للمقارنة ، وفي ذلك يقول تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] وقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] . إذا كان الصانع للشيء هو أفضل منه ، فما بالك بخالق الأشياء كلها ، فالصانع صنع الأشياء من الأشياء ، أما خالقها فهو الذي خلق الشيء من لا شيء سبحانه .

فنحن بنو آدم الذين يُراد لنا أن نرث الأرض ونستخلف فيها ، صنعنا مستلزماتنا مما خلق ٱلله تعالىٰ ، فمنها صنعنا الحاسوب وشبكات المعلومات والاتصالات المتطورة ، وصنعنا الصاروخ والطائرة والتلفاز وكاميرات التصوير والتجسس علىٰ بعضنا بعضاً ، وصنعنا المقاعد والأقلام والورق ، وصنعنا الجرة التي فيها يُحفظ الماء ، وصنعنا الكثير مما نعد ونفتخر ، إلا أننا نحن الصنَّاع أفضل مما صنعنا ، فالذي صنعناه لا يساوينا في شيء ، وذلك لأننا نحن المخلوقون خلقاً . فما صنعناه من قوة لا يساوي قوتنا المستمدة من القوي الأعظم سبحانه وتعالىٰ مصداقاً لقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ . وبما أن ما صنعناه لا يساوينا ، إذاً بطبيعة الحال نحن لا نساوي من خلقنا .

3 ـ ليس له بداية ولا نهاية . ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3] . لم يكن من قبله شيء ، ولم يكن من ورائه أحد ، فهو الأول والآخر وهو علىٰ كل شيء قدير . إنه ٱلله الذي تؤمن به القلوب ، والذي تُدركه

---

(1) النحل، 60.
(2) الشورىٰ، 11.
(3) الحديد، 3.

العقول ، وترىٰ آياته الأبصار في البر والبحر والسماء وما بينهما وما تحتويه من النعم التي أنعم بها الخالق علىٰ خلقه . فهو الأول الذي لم يكن قبله أحد ، وهو الآخر الذي لم يكن بعده ثان ، ولأنه هـٰكذا في ذاته ، فهو المتكبر عن الصاحبة والولد ، والمتكبر عن المشاركة لأحد . فالذي لا يتكبر عن هـٰذه هو الذي له بداية ونهاية ، وهـٰذه ليست من صفات المتكبر جل جلاله .

4 ـ يَرىٰ كل شيء ولا يراه شيء . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] وقوله جل جلاله : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[2] . خلق ٱلله لنا الأبصار نعمة لنرىٰ بها آياته العظام في خلقه ، ونرىٰ بها الجمال الذي أبدعه في الأرض والسماوات العلا ، ونحس به في علاقات المحبة والتعاون والتآنس في الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة ومواثيق الروابط والعهود الوافية . فالله تعالىٰ يرانا ولا نراه وفقاً لما تنص عليه القاعدة : (الخالق يرىٰ من خلق ، والمخلوق لا يرىٰ خالقه مع أنه يحس به ويدركه يقيناً) . وإن حاول أحد ليرىٰ فليحاول ، ليرىٰ آياته العظام التي بها يدرك أنه الحق جل جلاله ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] . ٱلله عز وجل كلَّم موسىٰ مباشرة وأعطاه الحجة آية رآها بأم عينيه ، وهي انعدام الجبل الماثل أمام أنظار موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الوجود في الزمن غير المُقدَّر قياساً ، فصعق موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، إلىٰ أن أفاق بقوله ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . أي أنه اعترف برؤية الآية الدالة علىٰ رؤية ٱلله تعالىٰ . وهـٰذا لا يعني أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام غير

---

(1) آل عمران، 5 .

(2) الأعراف، 27 .

(3) الأعراف، 143 .

مؤمن ولٰكن كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ليطمئن قلبي) . والآية التي أظهرها ٱلله عز وجل كانت طمأنة تامة علىٰ نفس موسىٰ . إنه عز وجل المتكبر عن الرؤية التي بها يتم إدراك من له بداية ونهاية ، ولذلك يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، فالرؤية تمتد للأجسام والأشكال والألوان ، ولكل ثابت ومتحرك ، ولا تمتد للذي هو وراء كل حركة ووراء كل سكون سبحانه جل جلاله يرانا ولا نراه ، وفي الآخرة رؤية ٱلله تنسجم مع قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(1) .

5 ـ يعلم ما لا يعلمه أحد . ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾(2) وقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾(3) . الساعة آية من آيات ٱلله العظام التي نعلم بها ولا نعلمها ، نعلم بها : علماً من عند ٱلله ، ولا نعلمها : نعلم أننا لن نعلم سرها متىٰ تكون ؟ وكيف تكون ؟ ، فهٰذه آية من علم ٱلله تعالىٰ . وبطبيعة الحال بما أننا لم نعلم البداية فإننا لن نعلم النهاية ، ولأن ٱلله هو الأول وهو الآخر ، فهو إذاً وحده الذي يعلم موعدها ، ولأننا نحن الذين سينتهون ، لذا فمن الطبيعي ألاَّ نعلم أمر نهايتنا علىٰ قيد الوجود ، بل الذي يعلمها من يملك الأمر وهو الجبار العظيم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(4) إنه يعلم بكل شيء ، ما يُسرّ في الصدور وما يُعلن بالقول ، ولذلك فالأعمال بالنيات التي يعلم سرها ٱلله تعالىٰ ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

---

(1) القيامة 22 ـ 23 .
(2) البقرة، 255.
(3) الأحزاب، 63.
(4) طه، 7.

ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[1] . أي أنه لو لم يعلم ما لم يعلمه أحد ما أنزل هـٰذه الآية علىٰ رسوله الكريم حتىٰ يكون يقظاً بمن حوله ، وهـٰذه الآية كما سبق أن أوضحنا أنها نزلت في نفر من بني أسد ، قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين وهم لم يكونوا بمؤمنين بعد ، فكانوا يقولون للرسول ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون الصدقة ويمنون (قل لم تؤمنوا) حيث انعدام التصديق والثقة والطمأنينة التي بها تطمئن القلوب وتنقاد الجوارح لشرع ٱلله فالإيمان : قول باللسان ، واعتقاد بالإيمان ، وعمل بالأركان ، (ولـٰكن قولوا أسلمنا) أي دخلنا في السلم بإظهار الشهادتين ، وترك محاربة الرسول ومن آمن برسالته السماوية الخاتمة ، (ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم) تعني : إلىٰ أن يأتي الوقت المناسب لإعلان إيمانكم حينها تصبحوا من المؤمنين الذين يُطمئن لهم باطمئنان قلوبهم بذكر ٱلله تعالىٰ .

ولأنه المتكبر فهو يعلم ما لم يعلمه أحد ، ولأنه المتكبر فهو لا يُطلِع علىٰ علمه أحداً إلا بمقدار ولمن ارتضىٰ ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾[2] .

6 ـ يتحكم في الأمر ولا أحد يتحكم في أمره . ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[3] وقوله عز وجل : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[4] . وفقاً للقاعدة الطبيعية التي تقول : (الخالق يتحكم فيمن خلق) فإن المخلوق يُسلِم وجهه لخالقه ، الذي بقوته يهيمن عليه ويتجبر ويتكبر بعزته له إن كان مؤمناً ، وبِذُلِهِ له إن كان كافراً . ولأن ٱلله يتحكم في

---

(1) الحجرات، 14 .
(2) البقرة، 255 .
(3) ياسين، 83 .
(4) الملك، 1 .

الأمر ولا أحد يتحكم في أمره ، لذا فهو المتكبر عن الطغيان الذي بإمكانه أن يُنَفِذه فيمن لا يطيع أمره ، ومع أنه متحكم في الأمر ، إلا أنه عفو غفور ، وبهٰذا العفو والغفران فهو يتكبر بتحكمه في الأمر ليعطي الفرص والآيات المتعددة لمن يريد أن يؤمن ويطمئن قلبه .

7 ـ يُطاع ولا يُطيع . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾(1) وقال تعالىٰ : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾(2) . إنه المتكبر الذي بيده الخير ، ولأن الخير بيده فهو الذي يُعطي ويَهب لمن يشاء ، وهو القادر علىٰ كل شيء ، وهو الفعَّال لما يريد ، بيده المُلك لا يحتاج لأحد ، والكل يحتاج إليه . ولأنه لا يحتاج لأحدٍ ، فهو ليس في حاجة لِمن يُطيعه .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(3) . ٱلله جل جلاله بيده كل أمر يهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيماً ، ويدخل من يشاء الجنة ويدخل من يشاء النار ، ويرزق من يشاء بغير حساب . إنه مالك الملك الغني القوي ، الذي جعل فينا الحاجة إليه ولم يجعل حاجة في نفسه إلينا سبحانه ما أعظم شأنه !

المخلوق لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما أعطاه ٱلله ، ولأن ٱلله تعالىٰ لم يكن في حاجة لأحد فلا ضرورة إذاً لأن يَتبِع أحداً ، وفي مقابل ذلك الكل في حاجة لله عز وجل ، لذا الكل يَتبَع من بيده مشبعات حاجاته المتعددة والمتطورة عبر الزمن ؛ ولا يتبع سواه . فمن يؤمن بالله يُطع ٱلله ورسوله ، ومن يكفر لن يكون له في الجنة نصيب .

---

(1) النساء، 59.

(2) التغابن، 16.

(3) النساء، 13.

المتكبر سبحانه خلق كل شيء وتكبر عن كل ما خلق ، ولهٰذا فهو لم يكن في حاجة ولن . أما الخلائف في الأرض فهم دائماً في حاجة لرحمة المتكبر في الحياة الدنيا والآخرة .

إنَّ تكبر المتكبر جل جلاله علىٰ عباده ، هو تكبر الوحدانية وهو التكبر عن المماثلة ، فالجبار لا يتساوىٰ مع أحد وليس له شبيه ، إنه المتكبر عمَّا يساويه بخلقه ، وهٰذا الأمر هو من طبيعة الخالق والمخلوق وفقاً للقاعدة : (الخالق لا يتكافأ مع ما خلق) قال تعالىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] .

8 ـ يُحيي ويُميت . لو لم يكن متكبراً ما كانت له المقدرة علىٰ الإحياء والإماتة ، سبحانه خلق التراب وخلق منه خير خلقه ، وخلق النور ثمَّ خلق الملائكة منه ، وخلق النار فكان الجن هو المخلوق منها ، وهٰكذا خلق كل شيء من الطينة التي هو منها ، وبهٰذا الخلق كانت الحياة تمد الكائنات بالحركة والاتصال . ولأنه تعالىٰ خلق من كل زوجين اثنين فكان التكاثر والانتشار في الأرض ، التي جعل فيها الإنسان خليفة ليُصلِح ما يفسده البعض من الكائنات الأخرىٰ ، ولٰكن الذي حدث جاء الفساد الأكبر من الذي يراد منه أن يكون مصلحاً في الأرض ، مما جعل الإيمان هو المتغير الموضوعي للإصلاح ، ولهٰذا أصبح الاستخلاف نصيب المؤمنين الذين إذا حكموا بين الناس حكموا بالعدل وإذا قالوا صدقوا وإذا عملوا لا يُفسدون ، وإذا ركعوا أو سجدوا لا يركعون ولا يسجدون إلا لله وحده . قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[2] الزَّبور كتاب داود (من بعد الذكر) أي التوراة ، الذي كتب فيها أن الأرض يرثها عباد الرحمٰن المتكبر جل جلاله ، وهم عامة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورُسُله وكتبه

(1) الإخلاص، 4 .

(2) الأنبياء، 105 .

وبما أمر بالاتباع وبما نهىٰ عن اتباعه طاعة تامة لله وحده .

الموت والحياة يتعلق أمرهما بالمتكبر الذي يُنفِّذ أمره بهما متىٰ ما شاء وفي من يشاء ، والموت والحياة لم يكن أحدهما ثواباً لأحد ، والآخر عقاباً لآخر ، بل إن أمرهما يتعلق بطبيعة الخلق (كن) فيكون حياً ، أو يكون ميتاً ، إلا أنَّ البداية هي الحياة التي يكون الناس فيها متساوين ، والنهاية هي التي يكونون فيها مختلفين ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . ولأن ٱلله يحيي الموتىٰ فهو إذاً يميت ويحيي ، مما يدل علىٰ أن الحياة مرتان مرة في الحياة الدنيا ، ومرة في الحياة الآخرة التي يترتب الاستقرار فيها علىٰ ما عملنا في الحياة الدنيا ، ولهٰذا فمن عمل صالحاً دخل الجنة ، ومن عمل سوءاً وإثماً دخل النار إن لم يرحمه الرحمٰن الرحيم . والفرق الكبير بين الحياتين ، فالحياة الأولىٰ : البقاء فيها مؤقت ، والحياة الثانية : البقاء فيها دائم مع الحي الدائم .

قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] ، ولأن أمر الحياة والموت بيده عز وجل فهو بطبيعة الحال علىٰ كل شيء قدير . أصعب المهام علىٰ المستوىٰ الإنساني الإحياء والإماتة ، وهما في قائمة المستحيلات علىٰ هٰذا المستوىٰ ، أما بالنسبة لله تعالىٰ فإنهما من أيسر خلقه ، باعتبار أن الحياة هي البداية ، وأن الممات هو النهاية ، وهما يخضعان للأمر الذي يصدره تعالىٰ (كن) كن حياً ، أو كن ميتاً . لذا فإن ٱلله لا يعمل ويبذل الجهد ويستغرق الوقت كما نحن نبذل الجهد حين نسعىٰ ونعمل ، بل هو مالك

---

(1) فصلت ، 46 .

(2) الحج ، 6 .

(3) الحديد ، 2 .

الأمر الذي إن أمر به شيئاً جاءه طوعاً أو كرهاً . قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(1) .

9 ـ يَخلق ولا يُخلق . من صفات الجبار أن يكون الخالق الأول والآخر ، الذي له الحق كما له الملك في أن يتكبر علىٰ ما خلق سبحانه لا إلـٰه إلا هو المتكبر جل جلاله .

المتكبر جل جلاله هو الأول والآخر الذي خلق كل شيء وتكبر عن خصائص خلقه ، فهم الذين يصيبون كما هم يخطئون ، وهم الذين يجوعون ويشبعون ، وهم الذين يمرضون ويشفون ، وهم الذين يُكسرون ويُجبرون بقوته ، وهم الذين يظمأون ويرتوون ؛ لذا فإنَّ المتكبر سبحانه وتعالىٰ هو الذي لا تلحقه هـٰذه الحاجات ولا تلحقه مُعقباتها ، قال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾(2) . بما أننا المخلوقون فلابد من وجود خالق جبار سابق علينا ولا يساوينا ، أي أن من وراء خلقنا متكبراً عظيماً ، ولأننا المفضّلون علىٰ الخلائق في تقويمنا ، فبطبيعة الحال أن يكون خالقنا أفضل منا فلا يساوينا ، ولهـٰذا فإن الخالق هو الذي يَخلِق ولا يُخلّق . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(3) .

10 ـ يمتلك الحكمة ويحتكم إليه . الحكمة هي السر الذي يكون وراء كل علة أو سبب أو وجود أو نهاية . وهي الحُجَّة التي يكمن فيها القول الحق أو

---

(1) فصلت، 11 .
(2) الواقعة، 56ـ60 .
(3) النحل، 17ـ20 .

الفعل الحق الذي يحتكم به أو يحتكم إليه ، قال تعالىٰ : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(1) . والحكمة هنا كما جاءت في تفسير البيضاوي هي تحقيق العلم وإتقان العمل ، والخير الكثير : هو الخير الوافر في الحياة والممات . قال عز وجل : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(2) الحكمة هي مكمن القوة المؤثرة في إدراك الحقائق ؛ وهي السبيل للبرهنة عندما يكون اللين هو الأسلوب السائد في عمليات الإقناع بين المتحاورين والمتجادلين ، والأسلوب الجدلي يتضمن العزيمة والإصرار علىٰ إظهار البيِّنة كما هي حتىٰ يتم استيعابها وإدراكها وفهمها والأخذ بها واعتمادها دليلاً وحُجَّة في إحقاق الحق وتغيير المواقف من الرفض بدون حُجَّة أو سبب إلىٰ القبول بإرادة وعن بيِّنة .

ولأن ٱلله هو الحكيم العليم فهو مصدر الحكمة ، التي يؤتيها لمن يشاء من عباده وهي الخير الكثير . ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾(3) بدون شك أنَّ الحكمة التي أوتي بها لقمان تكمن في شكره لله تعالىٰ ، ومن يشكر ٱلله يزده من فضله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(4) . ولذا فمن يمتلك الحكمة يحتكم إليه ، ويعد مصدراً للثقة بعد معرفة تامة بما يقول من حِكَم .

وعليه فإن في التكبر حكمة ، أي أن التكبر عن النواقص والرذائل والأطماع التي تؤدي بأصحابها إلىٰ المذلة هي صفة حميدة ذات فضائل من متكبر حكيم .

---

(1) البقرة، 269 .
(2) النحل، 125 .
(3) لقمان، 12 .
(4) إبراهيم 7 .

ولأن المتكبر تعالىٰ هو الحكيم العليم ، فهو مصدر الحكمة والعلم بها ، ولأن الكتاب هو من الحكيم العليم فهو مجمع الحكمة ، لذا فمن آمن به تَمكَّنَ من أخذها أو الأخذ منها ، ومن لم يؤمن حرم نفسه من فضائلها .

11 ـ يَعطي الآيات ويُنزِلها ولا تُعطىٰ له آية : سبحانه وتعالىٰ إن نعد آياته لا نحصيها ، ولـٰكن إيماناً تاماً كل ما خُلق وكل ما سَيُخلق هو آيات يأتي بها ولا نستطيع أن نُقدِّم له آية واحدة ولو اجتمعنا ، الحياة آية متكاملة والموت آية متكاملة ، وهـٰكذا الزلزلة آية ، والبصر والسمع والذوق والشم واللمس والإدراك والتفكر والتذكر والاستنباط والاستقراء والتعلم والحكمة وإلىٰ النهاية كل شيء خلقه آية . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[1] والآية فوق كل ذلك أننا لن نستطيع أن نخلق آية ، ومن يخالفنا نقول له : هل تستطيع أن تتدخل في خلقه أو تخرق نظامه المُحكم بالزمان والحركة ؟ . بِطيب خاطر ستكون الإجابة بلا ، مع إضافة أننا في دائرة الممكن سنصنع ما هو متوقع

(1) النحل، 10 ـ 20 .

وما هو غير متوقع وهـٰذه لن تكون آية . إنه وحده يعلم أمر الغيب ونحن نؤمن به ، ولذا فهو يعلم مسبقاً ما سنتوصل إليه ونحن لن نعلمه حتىٰ يوم وصوله إلينا .

قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(1) . ومع أننا أمام الإغراء الآياتي نجتذب ، إلا أن المتكبر تعالىٰ لا يجتذب إليها فهو لم يكن في حاجة مثلما نحن في حاجة لأن نشبع جوعاً أو نروي ظمأً أو نشفي مرضاً سبحانه إنه المتكبر الذي يستوجب العبادة والطاعة !

12 ـ يُسبَّح باسمه ولا يُسبح باسم أحد : التسبيح مراجعة إيمانية مع النفس وتوحيد لله ربِّ العالمين لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير . والمُسبح هو ذاكر إلـٰهه بالوحدانية المطلقة ، ولأن المتكبر جل جلاله هو الإله بذاته العلية وهو الواحد القهار ، لذا فلا إلـٰه له ليذكره بل هو وحده ربُّ العرش العظيم ، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(2) . وقال تعالىٰ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(3) . إذاً التسبيح اعتراف المخلوق بخالقه مع فائق التقدير والعرفان بالفضل . ولأن الاعتراف عقلي إدراكي وكل شيء

(1) النحل، 65ـ69 .

(2) الزمر، 75 .

(3) الإسراء، 44 .

يُسبح بحمده فإن الجماد والنبات والإنسان وبقية المخلوقات تتساوىٰ في تسبيحها لله ربِّ العالمين ، ولـٰكن الكل لا يفقه تسبيح الكل ، مما يجعل كل مفردة من المخلوقات تعتقد أنها وحدها المسبِّحة باسم ربها الذي خلقها . والآية الكبرىٰ التي يَحفُّها الاستغراب والاستفهام أن الإنسان العاقل يظن أنه الوحيد الذي يُدرك ٱلله تعالىٰ ، ولـٰكن بما أن الكل يُسبح بحمد ٱلله الواحد القهار ألا يكون الكل دون تخصيص يدركون ٱلله تعالىٰ ، وإلا هل يظن أن يُسبِّح أحد لأحدٍ وهو لا يدركه حقيقة لا شك فيها ؟ . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾(1) وقال عز وجل : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾(2) .

13 ـ مُجيب الدعاء : المتكبر عن النواقص إذا دعوته لأن تكون متكبراً عنها أجابك الدعاء بالرفعة ، أمَّا إذا دعوته لظلمٍ فلا تتوقع منه الإجابة ، ذلك لأن الظلم ليس من صفاته ولا من أفعاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(3) بالتأكيد من يستجيب لله بالطاعة يستجيب لدعائه إذا دعاه (اللهمَّ يا ٱلله يا متكبر اجعلنا من الصالحين ، وارضَ عنَّا وعن والدينا ، وزوجاتنا والبنين ، والأخوة أجمعين ، وصحابتنا وصحابة رسول ٱلله ﷺ وأمهاتنا زوجات النبي رضي ٱلله عنهنَّ ، اللهُمَّ إنَّا بِكَ آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وأولينا أمرنا وأمرهم وما نملك إليك فارحمـنا وأحفظنا بحفظك يا ٱلله في كل حين) . فمن يُغلب بظلمٍ أو يمرض بداء فعليه بالعمل والدعاء . قال تعالىٰ : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾(4) .

---

(1) ص 18 .

(2) الرعد، 13 .

(3) البقرة، 186 .

(4) القمر ، 10 .

14 ـ يعز ويذل : قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1) المتكبر جل جلاله يعز من يشاء بمناصرته له في إحقاق الحق ، ويذل من يشاء بإزهاق الباطل ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾(2) .

15 ـ يُشبع الحاجة ولا ينتظر جزاء : لو لم يكن هو المتكبر لكان من المنتظرين لنيل الجزاء أو الطمع فيه ، ولأنه المتكبر جل جلاله فهو الذي لم يطمع بالمطلق ، ولا يحتاج حتىٰ ينتظر المكافأة أو الجزاء . إنَّ الذي ينتظر هو المحتاج ، وبما أنه ينتظر ، فهناك من هو أكبر منه شأناً ، أو أكثر منه مالاً وولداً ، ولأنه المتكبر عن الحاجة للمال والولد والصاحبة وعن كل ما خلق فهو الذي بيده المُلك أي بيده الخير الذي تحتاجه مخلوقاته ، ولهٰذا فالكل ينتظر وهو الذي يجود ويجازي علىٰ الأعمال عاليها وسافلها بالثواب أو بالعقاب أو بالمغفرة ، ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(3) وقال تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾(4) وبما أن كل ما خلق يُسبح بحمد ٱلله ، والله هو المتكبر عن الحاجة والعازة ، وهو الأول والآخِر إذاً لا وجود لمن يتم انتظاره ، بل الذي يُنتَظر هو الذي يتعالىٰ ويتكبر عن المطلب ، إنَّه ٱلله عز وجل ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾(5) وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾(6) .

---

(1) آل عمران، 26 .
(2) الأنبياء، 18 .
(3) النساء، 123 .
(4) التغابن ، 1 .
(5) الأنعام، 102 .
(6) الإسراء، 111 .

16 ـ يُعرَف بذاته ولا يُعرَّف بغيره : المتكبر هو الذي ليس له مثيل ولا شبيه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] . لم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة ولا شريك : بما أنه المتكبر تعالىٰ ، فهو لم يكن في حاجة لأحد حتىٰ يتخذه ولداً أو صاحبة أو شريكاً ، إنه مالك الملك والكل في حاجة إليه ولم يكن في حاجة لأحد سبحانه ـ جل جلاله ـ قال تعالىٰ : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] .

أنه الخالق لكل مخلوق ، بمن فيهم الصاحبة والولد والشريك ، الكل خلقه ، ولأن علىٰ المستوىٰ البشري الولد يُنجب ولا يُخلق والزوج يُجبر ولا يُخلق وكذلك الشريك يُجبر ولا يُخلق ، ولأن ٱلله تعالىٰ : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[3] إذاً فهو بالمطلق لم يكن في حاجة لأحد . ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[4] .

المتكبر الحق هو الذي خلق كل شيء وتكبر عن كل شيء ، إنه المتعالي عن الجوع والعري والمرض والمشاركة ، وهو الظاهر بآياته والباطن بعزته وقوته ، وهو السابق علىٰ كل سابق وهو بكل شيء عليم ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5] .

17 ـ إنه عفوٌ رحيمٌ وشديد العقاب : ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ

(1) الإخلاص، 1ـ4.
(2) الأنعام، 101.
(3) الإخلاص 3 ـ 4 .
(4) الفرقان 2.
(5) الحديد 3 .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[1] ورحمته تعالىٰ وسعت كل شيء : جاءت مُطلقة ، ولهـٰذا فإن رحمة ٱلله واسعة لا يُستثنىٰ شيء منها ، إنَّه الباب المفتوح في وجه من يرغب الدخول معه حتىٰ الفوز بالجنة ، ومن لا يرغب الدخول معه فسيكون مع الداخلين من أبواب العذاب الشديد بالقوة ، ولذا فإن العذاب يصيب به من يشاء ، أما الرحمة فتعم الجميع دون استثناء إلا من يستثني نفسه منها . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[2] إنه المتكبر الذي لو لم يكن متكبراً لأخذ الناس بظلمهم ، وخسف بهم الأرض أو أغرقها إلىٰ أبد الآبدين ، ولأنه المتكبر المطلق عفا عن الكثير وغفر للكثير وعاقب الكثير مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3] .

18 ـ قوله الحق وفعله الحق : قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[4] وقال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[5] وعدُ ٱلله تعالىٰ بالاستخلاف في الأرض كان للبعض وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : (منكم) وهي للتبعيض ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا

---

(1) الأعراف 156 .
(2) النحل 61 .
(3) العنكبوت 40.
(4) الأعراف 44.
(5) النور 55.

ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هـٰذا الخطاب موجه للرسول ﷺ والذين آمنوا برسالته ، ليجعلنهم الخلفاء في الأرض كما استخلف من قبلهم المؤمنين برسالة موسىٰ وعيسىٰ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ . قال تعالىٰ : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾[1] .

19 ـ يُعبد ولا يَعبد : العبادة وفقاً للقاعدة هي (التعلق بالأفضل المطلق) ولأنه لا أفضل مُطلق غير ٱلله لذا فهو الذي يُعبد ولا يَعبد ، ولهـٰذا فهو الجبار جل جلاله . ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] .

20 ـ يحيط بكل شيء ولا شيء يحيطه : قال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾[3] . وبما أن ٱلله المتكبر محيط بكل شيء ، إذاً بطبيعة الحال لا يحيطه شيء ، حيث لا شيء خارج محيطه عز وجل ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[4] أي لا تَخفىٰ عليه خافية ، كل شيء بين يديه بيِّن من حيث مكانه وزمانه وحركته أو سكونه وحجمه وطوله وعرضه ومساحاته وعلمه وحكمته وسره وعلانيته سبحانه المتكبر المحيط بكل شيء علماً .

ولأنه يحيط بكل شيء علماً فهو المتكبر عن مستوىٰ العقول التي لن تتمكن من الإحاطة بما هو يحيط جل جلاله ، ولأن المتكبر مالك الملك يُذهب من يشاء ويستخلفهم بمن يشاء ، أو يأتي بخلق جديد ، فهو الذي يُحيط

---

(1) الحج 54 .
(2) الأنبياء 19 ـ 22 .
(3) النساء 126 .
(4) الطلاق 12 .

ولا يُحاط إنه مالك القوة والأمر : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾(1) . وقوله عز وجل : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(2) .

21 ـ يُحصي ونعمه لا تُحصىٰ : بما أنَّه الجبار المطلق فهو الخالق المطلق ، وبما أنه الخالق المطلق ، فلن يكون غيره أدرىٰ بما خلق ، وبما أنه الخالق المطلق فلن يكون غيره مدركاً ولا حاصياً لكل ما خلق ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾(3) . وكما تتعدد صفات ٱلله تعالىٰ تتعدد نعمه وتتضاعف ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(4) بالرغم من أننا نحصي البشر والبحار والمحيطات والبحيرات والأشجار والكواكب والنجوم إن استطعنا ، إلا أننا لا نستطيع أن نعد أو أن نحصي جميع الكائنات ، فالإنسان بإمكانه أن يعد ما تحت يديه ، ولٰكنه لن يستطيع أن يعد حبَّات الرمل ورذاذ الماء ولا متجزئات الغبار المتطايرة ولا الكائنات الحية علىٰ الأرض اليابسة ولا التي في البحار وأعماقها والمحيطات العظام . ومع أننا لن نستطيع إلا أنه جل جلاله يستطيع مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾(5) .

22 ـ يأمر بما يجب وينهىٰ عما لا يجب : ولأن المتكبر هو المتعالي ، فهو يتعالىٰ في ذاته عن كل نقيصة ، النقيصة التي يجب علىٰ الخلفاء الابتعاد عنها اقتداء بصفات مستخلفهم في الأرض عز وجل ، ولذا لن يكونوا خلائف إلا إذا تعالوا وتكبروا عن النزول إلىٰ حيث لا يجب النزول ، وأن يتكبروا

---

(1) الأنعام 133 .

(2) إبراهيم 19 .

(3) الجن 28 .

(4) إبراهيم 34 .

(5) مريم ، 93 ـ 94 .

ويتعالوا إلىٰ حيث ما يجب والعمل به أو الأخذ به .

قال تعالىٰ : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(1) وقال عز وجل : ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(2) .

23 ـ لا يظلم أحداً : الذي يظلم هو الذي يغضب ويفرح بغير حق ، ويمرض ويتعافىٰ ويطمع ويجوع ويشبع ، ويختلف وينازع ويخاصم ويفارق ، وهو الذي له أنداد وشركاء وله أولاد وله صاحبة ، ولأن ٱلله تعالىٰ تكبَّر عن كل شيء لعدم حاجته له ، ولهٰذا غضب ٱلله وفرحه لا يكون إلا في محله الذي يستوجب الفرح أو الغضب ، قال تعالىٰ : ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(3) والله المتكبر لا يظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(4) . وقال تعالىٰ : ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(5) . إنه القاضي بالحق ولهٰذا لا مبدل لحكم ٱلله ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾(6) .

24 ـ يُسأل ولا يَسأل : الذي يَسأل هو الذي يأخذ ويطلب ويتعلم ، أمَّا الذي يَسأل فهو الذي يعطي ولا يطلب ، فالذي يطلب هو المحتاج ، والذي

---

(1) التوبة، 112 .
(2) الكهف، 110 .
(3) المجادلة 14، 15 .
(4) يونس، 44 .
(5) الأنعام، 115 .
(6) غافر، 20 .

يُعطي هو الغني . ولأن ٱلله تعالىٰ هو الغني فهو الذي يُعطي ويجيب الدعاء ولهٰذا فهو الذي ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1] أي يُسألون عما عملوا فيما أعطي لهم ليجازوا الجزاء الأوفىٰ أو ليعذبوا العذاب الشديد .

وفي معظم الأحيان يعتقد البعض أن السؤال يسبق الإجابة ، وهٰذا الاعتقاد ليس في محله ، فالإجابة دائماً تسبق السؤال ، وإلا هل هناك من يُسأل عن شيء لم يدرسه أو يتعلمه أو يقال له أو يجده مبثوثاً في شبكات المعلومات المتطورة ، وعلىٰ هٰذا الأساس تعطىٰ المعلومات من المعلمين أولاً ثم تلاحق ثانياً بالأسئلة لمعرفة مستوياتهم ، وهٰكذا نزلت الرسالات والكتب السماوية من ٱلله تعالىٰ علىٰ الرسل فبشروا بها العباد ، فآمن من آمن وكفر من كفر والفرصة لا زالت إلىٰ أن يأتي يوم الحساب الذي فيه يُسأل العباد عن أعمالهم . ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2] .

وعليه المتكبر سبحانه وتعالىٰ هو المتكبر عن العيوب والنقائص وصغائر الأمور ، فهو الكامل بذاته فحق له أن يكون المتكبر بكماله وجلاله ، فهو ٱلله مالك الملك ، وهو الملك الذي بيده كل شيء ، فهل يقبل العقل والمنطق أن نساوي معه سبحانه من لا يخلق ولا يقدر علىٰ شيء ؟ قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] .

فالمتكبر جل جلاله عليم بالمطلق فيعلم العلم المُسبق للأمور ومجرياتها ولكل الخلائق وما ستكون عليه ، وهٰذا يعطينا شعوراً بالإجلال والتعظيم لهٰذا الخالق المتكبر المتعال ، وبإحاطته بنا دائماً فيشعرنا ذلك بالحماية

---

(1) الأنبياء، 23 .

(2) الزلزلة 7 ـ 8 .

(3) النحل 17 .

والأمان ويوجب علينا الشكر بأنه هو خالقنا ومولانا حيث عدله ورحمته ومغفرته .

المتكبر هو العزيز :

العزيز المطلق الذي له العزة المطلقة سبحانه وتعالىٰ ، بكل معانيها فهو المتكبر المتعال ، المتكبر بذاته عن ظلم عباده ، قال تعالىٰ : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ (1) ، وهـٰذا ما تبيّنه الآيات الكريمة السابقة من عدله في حسابه للعباد يوم يقوم الحساب ، فهو جل جلاله لا يظلم مثقال ذرة من خير أو شر بحق الإنسان ، إذ أن أعمال العباد ستشهد عليهم يوم الدين ، فبذلك فإنه العزيز المترفع عن ظلم العباد والتمييز بينهم ، فهل يا ترىٰ يوجد من يستطيع أن يحاسب ويتكبر في حسابه عن الظلم سوىٰ الخالق سبحانه وتعالىٰ ؟ .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن لا يرضىٰ إلا بالعزة في الحياة بين البشر ، فيتكبر بهـٰذه العزة عن ذل الجحود والمعصية ، وأن يكون دائم التذكر بأنه بيد العزيز المتكبر القوي فيردع نفسه عن ظلم الآخرين وسلب حقوقهم ويترفع عن إذلال نفسه للشرور والمظالم ، وأن يكون له من العلم النافع ما يكفيه ليصل إلىٰ حقيقة أنه كل ذنب يقترفه أو خطأ يقوم به هو بمثابة شهادة في حق ٱلله بالعزة المطلقة والتكبر عن النقائص والعيوب .

---

(1) ق 20 ـ 31 .

وألا يطلب العزة إلا من الخالق عز وجل وليس من سواه ، لأنه المالك للعزة والوهّاب لها لمن يشاء ويستحق ، قال تعالىٰ : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[1] ، فمن يستطيع أن يُذِل من أراده المولىٰ عزيزاً ؟ ومن يستطيع أن يُعِز من أراده ٱلله ذليلاً ؟

ولـٰكن علىٰ خليفة ٱلله أن يدرك أن عزة الخالق وتكبره هي حق وللحق وبالحق ، لذلك عليه بالتالي أن تكون عزته غير مختلطة بالإثم وتجاوز الحدود لها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[2] .

علىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يتكبر عن التالي :

1 ـ الجهل :

فالجهل أساس كل داء يصيب المجتمع الإنساني ، لأن الجهل من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلىٰ الانحطاط في مستوىٰ التفكير الذي يجعله في صفوف الدواب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[3] ، فالجهل في أمور الدين والدنيا يجعل من الإنسان مخلوقاً يلهث وراء الباطل والهلاك ، لا يدري أي الطرق يسلك مع أن الخالق عز وجل ميّزه بالعقل ، تلك الملكات التي تكفيه مساعدة غيره في الوصول للحق إذا أحسن استخدامه ، ولم يحجبه عن ما حوله من إبداع وخلق في هـٰذا الكون الكبير ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ

---

(1) النساء 138، 139 .

(2) البقرة 206 .

(3) الأنفال 21 ـ 23 .

عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] ، ففي الآيات الكريمة السابقة أكبر دليل علىٰ أن الإسلام دين يحترم العقل البشري ويدعو لاستخدامه بالشكل الصحيح المؤدي للفوز والنجاح في الدنيا والآخرة ، لأن ٱلله تعالىٰ جعل من هٰذا الكون كله آيات ظاهرة وماثلة أمام الإنسان ليستدل من التدبر فيه علىٰ الحق فيترفع عن الجهل بما يحيط به من يقين وحق ، بل أن ٱلله تعالىٰ دعا الإنسان للتأمل في أقرب المخلوقات إليه وهي نفسه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] ، فقد دعا المولىٰ عز وجل الإنسان لمجموعة من التأملات في الأرض وفي الأنفس وفي السماوات ، أي تأملات في الظاهر والباطن ، هٰذه التأملات من شأنها أن توصل الحبل بين العقل والحقيقة .

إذاً لابد أن يرفض الإنسان أن يكون جاهلاً بما يحيط به من حقيقة ، بأن يتكبر ويترفّع عن هٰذا الجهل برفضه والدعوة للمعرفة الصحيحة ، وأن لا نكون مثل الذين وصفهم ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] ، فالجهل يؤدي للتكبر والتكبر يؤدي

---

(1) الرعد 2 ـ 5 .

(2) الذاريات 20 ـ 23 .

(3) الأنفال 55 .

بدوره للشرك والضلال ، فمن تكبر عن الانتفاع بعلم غيره وترفّع عن البحث عن الحقيقة قضىٰ حياته في ظلمات الجهل .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون متكبراً عن كل طريق مفتاحه الجهل بالدين والدنيا ، وأن يكون متواضعاً لكل من يدفعه لتلقي العلم الحق وأن يسعىٰ خلف العلماء للوصول لأعلىٰ درجات المعرفة .

2 ـ **الشهوات** :

هـٰذه الشهوات التي خلقها ٱلله تعالىٰ فينا ولكنّ البعض لم يحسن فهمها وتهذيبها وضبطها والسيطرة عليها ، مما جعلها هي المسيطرة عليه وقائدته للهلاك بميله للباطل والفساد ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1] فالشهوات متوافرة في الحياة الدنيا ، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلق بها ، فمنهم من اشترىٰ الحياة الدنيا بما تحويه من هـٰذه الشهوات ، ومنهم من اشترىٰ الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم ، كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] ، وقوله سبحانه وتعالىٰ أيضاً : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ

---

(1) آل عمران 14 .

(2) البقرة 212 .

ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1] ، فالإنسان حين تسيّره الرغبة فإنها تعمي بصيرته عن الحق والصلاح وتقوده نحو الانحطاط ، لأن سيطرتها علىٰ المرء تعني سيطرة الشيطان الرجيم عليه الذي لا يضمر للإنسان إلا كل شر وكره وحقد .

لذلك لابد للإنسان من الترفع عن هـٰذا الانقياد الأعمىٰ للشهوات ورفض سيطرتها عليه ، وأن يتكبر عن هـٰذه المفاسد المدمرة ، فبتكبره الإيجابي هـٰذا سينال المنزلة الرفيعة عند خالقه ، وسينال احترام نفسه أولاً واحترام الناس من حوله ثانياً ، فالشهوات تجعل من الإنسان عبداً لها لا يملك لنفسه شيئاً أمامها ولا يكون لديه حول ولا قوة في وجهها ، لذلك فإن من شأن هـٰذا الضعف والهوان أن يجعلا من هـٰذا الشخص ذليلاً مهاناً لها يرضىٰ بأي شيء في سبيل الحصول عليها ، فينجرف وراء المفاسد والرذائل يسعىٰ بأية طريقة للحصول علىٰ رغبته دون الالتفات لآدميته التي تستحق منه الترفع عن ذلك ، كحب كنز وجمع المال الذي لا يترك لصاحبه أي مجال للتفكير الحر ، إذ أن هـٰذا الحب البغيض يجعل من الإنسان عبداً للمال ، يفضّله علىٰ كل شيء أحياناً حتىٰ علىٰ نفسه وعلىٰ أولاده ، قال تعالىٰ : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2] ، وما نهىٰ الخالق عن فعلٍ إلا لما يترتب عليه من ضرر عائد علىٰ الإنسان نفسه وعلىٰ من حوله من البشر ، فحب المال لا يؤدي إلا لاستعباد الشخص وإذلاله والله يريد لنا الرفعة والكرامة لأنه منذ بدء الخليقة كرّمه عن كل المخلوقات وميّزه بالعقل حتىٰ لا يهين نفسه ولا يتركها تتيه في الحياة ، فهل يكون الإنسان نفسه سبباً في ضياعها وإلحاق الإهانة بها ؟

لذلك علىٰ خليفة ٱلله أن يجعل من نفسه مسيطراً علىٰ شهواته ، وأن يترفع عن استعبادها له وتسييرها له ، فلا يرضَىٰ باللهث خلفها وترك ما فيه خيره

---

(1) النحل 105 ـ 109 .

(2) الفجر 20 .

وصلاحه ، فليس من خلفاء ٱلله تعالىٰ من كان ذليلاً أو مهاناً أو عبداً لغير ٱلله عز وجل .

3 ـ الكبائر :

الكبائر هي أفعال يقوم بها بعض الناس الذين لا يملكون الورع الديني الكافي الذي يحول بينه وبين هـٰذه الكبائر ، لأن الذنب قد يكون صغيراً أو كبيراً ولـٰكن الكبائر لا يمكن تصنيفها إلىٰ صغير وكبير ، بل هي أفعال محرّمة تؤدي بصاحبها إلىٰ عذاب الجحيم إذا لم يتكبر عنها ويسمو بأخلاقها الآدمية التي من المفروض أن ترفضها لسوء نتائجها الفردية والجماعية ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ـ ثَلَاثاً ـ قَالُوا : بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله ! قَالَ : « الإِشْرَاكُ بِالله ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئاً ، فَقَالَ : « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » . قَالَ : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ ! »(1) ، فالترفع عن الوقوع في هـٰذه الكبائر هو أمرٌ من المولىٰ عز وجل لجميع المسلمين ، لما لها من عائد وضرر عظيم علىٰ الفرد وعلىٰ المجتمع بصفة عامة ، إذا سادت هـٰذه الكبائر في مجتمعٍ ما فلابد أن تكون نهايته كمجتمع آدمي أوشك علىٰ الانعدام ، وهـٰذه الكبائر هي :

أ ـ الإشراك بالله :

رأس الكبائر وأساسها هو الشرك بالله ، ومن المعروف أن الشرك به عز وجل له العديد من الأشكال والأنواع التي تجعل من الإنسان عبداً للشيطان عدوه الأول ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾(2) ، وكذلك قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ

---

(1) صحيح البخاري ، ج 9، ص 136 .

(2) الحج 31 .

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(1) ، فتوحيد ٱلله جل جلاله هو أساس العلاقة الصحيحة بين العبد وخالقه وعدم التكبر عن توحيده وتعظيمه ، لأن من تكبر عن توحيده فهو بالتالي عاصٍ لأوامره وناكر لنعمه وجاحد بها ، وهو بذلك مترفع عن الحق ، الذي أوضحه ٱلله تعالىٰ لنا وفرّق بينه وبين الباطل في جميع الكتب والرسالات السماوية التي توحدت واجتمعت علىٰ توحيد الخالق جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(3) .

فالشرك بالله هو أكبر الكبائر ، وأساس المفاسد ، وهلاك الإنسان وضياعه ، ولذا لا يجد يوم الحساب ما يشفع له عند خالقه الذي تكبر عن

---

(1) المائدة 72 ـ 73.

(2) المائدة 76.

(3) البقرة 13 ـ 21.

توحيده وإجلاله والركوع إليه ، بالرغم من أن كل ما حوله يدل علىٰ وجوب هٰذا التوحيد ووجوب الترفع عن الشرك الذي إن دل فإنه يدل علىٰ جهل وضلال المشرك بكل ما حوله .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يتمسك بالدعوة إلىٰ وحدانية المولىٰ عز وجل مترفعاً بحمله تلك الرسالة عن كل مواضع الجهل والانحطاط في التفكير ، متمسكاً برغبته في الوصول إلىٰ رضا ٱلله تعالىٰ واستحقاق جنته ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[1] ، فأصل كل المفاسد في الأرض هو عدم توحيد ٱلله ، وسبب انتشار الشرور في الأرض التكبر عن الانصياع لأوامره جل جلاله ، فالتكبر السلبي والغبي عن الحق داءٌ يجعل من البشر ضائعين مفسدين لا يملكون لأنفسهم ذرة خير ينتفعون بها في الدنيا أو في الآخرة عندما يعلمون أنه الحق ولا حق سواه سبحانه وتعالىٰ .

لذلك إذا تمسك خليفة ٱلله في الأرض بهٰذه الدعوة فإنه سيعيش حياته مترفعاً عن المفاسد والرذائل التي لا يمكن أن تدخل نفسه الموحدة لله والداعية للخير والآمرة بالمعروف بين الناس .

ب ـ عقوق الوالدين :

الوالدان جناحا الحب والحنان اللذان يظلان الإنسان منذ ولادته إلىٰ حد مماته ، ألا يستحقان أن نترفع عن معصيتهما وعقوقهما ؟

قال تعالىٰ : ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

(1) المؤمنون 57 ـ 61 .

صَغِيرًا ﴾[1] ، ما أروع هـٰذه الآية بما تحمله من معانٍ سامية إذا التزم المرء بها لكانت له الرفعة في الدنيا والآخرة ، فقد جمع المولىٰ عز وجل في هـٰذه الآية الكريمة بين أساسين من أساسيات الخلق الكريم الرفيع المتعالي عن الضعة والإذلال وهما توحيد ٱلله وطاعة الوالدين ، ففي كل منهما رفعة للمرء وسمو بآدميته إذ أن توحيد الخالق عز وجل يجعل من الإنسان حراً لا يتذلل لأحد ولا يستطيع أيٍ كان أن يستعبده ، فيترفع بذلك التوحيد عن كل أنواع وأشكال العبودية والإذلال للعباد ، وكذلك في طاعة الوالدين والإحسان إليهما ترفعٌ عن الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي .

ففي طاعة الوالدين ومعاملتهما بالمعروف يتكبر المرء عن عقوقهما وعصيانهما ، فلا يرضىٰ لنفسه هـٰذه الأخلاق السيئة الدنيئة التي تضع من قدره كإنسان كرّمه ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذه الطاعة لها الكثير من الأشكال والألوان التي يتجسد فيها حبنا وطاعتنا وإحساننا بالود تجاههما ، بالرغم من أننا لا نستطيع أن نوّفي حقهما علينا إلا أننا يجب أن نعمل علىٰ توفير أكبر قدر من الراحة والحب والاحترام لهما والرعاية والحنان والطاعة في غير معصية ٱلله تعالىٰ .

ومن يتكبر عن طاعتهما أو الاعتراف بحقهما عليه ضيَّع رضاهما الذي هو من رضا ٱلله عز وجل ، لذلك فقد دخلت معصيتهما باب التحريم كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] ، فالإنسان العاقل لا بد أن يدرك مدىٰ

(1) الإسراء 23 ـ 24 .
(2) الأنعام 151 .

منفعة الانصياع لأوامر ٱلله والابتعاد عن نواهيه لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة ، فالله يريد بنا اليسر والخير ولن نصل إلىٰ ذلك المستوىٰ من الإدراك دون أن نترفع عن العصيان والاستماع لوسوسات الشيطان الرجيم .

لذلك فمن سعىٰ لأن يكون من ضمن خلفاء ٱلله في الأرض لا بد له من أن يكون عالماً بواجباته وحقوقه ومتحمَّلاً لمسؤولياته ، فلا يترفع ولا يتكبر عن تأدية واجباته ولا يتنازل عن حقوقه وحمْل مسؤولياته ، ففي أوامر المولىٰ لنا رحمة وهداية وخير ، قال تعالىٰ : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] ، فالمولىٰ عز وجل بقوته وعظمته وغناه عن البشر لم يتكبر عن توضيح سبل الحق والهداية للبشر الذي يجعلهم يميزون بين الخير والشر ، فهل نتكبر نحن البشر الضعفاء الفقراء إلىٰ ٱلله عن الأخذ بذلك ؟

فيا خليفة ٱلله ترفَّع عن معصية الوالدين وإلحاق الأذىٰ بهما ، هٰذه الأفعال التي ـ للأسف الشديد ـ ما نلاحظها في هٰذا الزمن كثيراً بسبب تكبر البشر عن فتح قلوبهم للاستماع لكلام ٱلله فجعلها ذلك ممتلئة بالقسوة والجحود ، بعكس خلفاء ٱلله في الأرض الذين تمتلئ قلوبهم بالحب والحنان والمودة ، فلا يمكن لعاصي الوالدين أن يكون من بينهم .

ج ـ قول الزور :

أي من يشهد بعكس الحقيقة أو بغير علمٍ بها لكي يخدم مصلحة له أو لغيره ، أو لغرضٍ ما في نفسه ، فيجعل من الجاني بريئاً ومن البريء جانياً ، ويرضىٰ لنفسه هٰذه الضعة والإهانة ، وله من التأثير السلبي علىٰ المجتمع بصفة عامة ، إذ إن شهادة الزور تغيّب الحقيقة وتخفيها ، فكم من بريء داخل جدران السجن بسبب شهادة زور من أحدهم ، وكم من مجرمٍ هو حر طليق بسبب هٰذه

---

(1) النساء 26.

الشهادة ، ويمكننا أن نتصور تأثير الضرر الناجم عن ذلك ، لذلك فقد نهانا ٱلله تعالىٰ عنه وجعله من الكبائر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[1] ، فقد حرّم المولىٰ عز وجل هـٰذا الفعل لما له من عواقب سيئة تعود علىٰ المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، لما ينشره من فساد وظلم وتجبر البشر بعضهم علىٰ بعض .

وشهادة الزور تمنع من ظهور الحقيقة فيسود الظلم بين الناس ، ويأكل القوي حق الضعيف معتمداً علىٰ من يقف معه بتزوير الحقيقة ، فيفتري الإنسان ويكذب ويزوّر ويخدع وكلها من الأخلاق الذميمة التي تؤدي بالبشرية إلىٰ الفساد والضلال .

لذلك لابد للمؤمن أن يتأكد من شهادته فلا يداخله أدنىٰ شك حين ينطق شهادته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2] ، فالعلم الأكيد بالقول وبشهادة الحق لابد أن تظهر فلا يخفيها الإنسان ولا يكتمها حين يحتاج إليها كائناً من كان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

إذاً لابد أن يترفع الإنسان عن شهادة الزور بأن لا يرضىٰ لنفسه إلا بشهادة الحق وقول الحق الذي يرتفع بأخلاق المؤمن إلىٰ أعلىٰ الدرجات ، بأن يجعله حراً مالكاً لنفسه .

وبذلك نصل إلىٰ مفهوم وحقيقة جليّة أمام أعيننا وهي أن سبب كل المفاسد والشرور في النفس البشرية هو التكبر ، فالتكبر عن الحق والاعتراف به

---

(1) الحج 30 .
(2) الإسراء 36 .
(3) البقرة 140 .

هو أصل كل ما نحن فيه من ذنوب وخطايا وعنف وخسائر ، فلا يمكن أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً كريماً متكاملاً إذا كان بين أفراده من يتكبر ويترفع عن الحق لينزلق في متاهات الباطل والفساد .

ولا بد أن يتخلص المؤمن من تكبره السلبي بالتالي :

ـ أن يكون محاسباً لذاته :

لا يجب أن يتكبر المؤمن عن محاسبة نفسه قبل أن يحاسبها المولىٰ عز وجل ، فلا يعيش في هـٰذه الحياة دون أن يكون رقيباً علىٰ أقواله وأفعاله ، عالماً بما ينفع نفسه وما يضرها ، مدركاً أن التكبر عن ذلك سيكون سبباً في انحداره إلىٰ أدنىٰ المستويات .

فأصل كل الخطايا هو التكبر عن الحق والاعتراف به ، وما من هزيمة نفسية أو مادية يُبلىٰ بها الإنسان أو المجتمع إلا وسنجد التكبر من أساسيات هـٰذه الهزيمة ، لأن من شأن الإنسان أن يحافظ علىٰ تواضعه الذي يجعل منه آدمياً يستشعر معاناة الآخرين ويعيش داخل دائرة المجتمع ككل بفقيره وغنيه ، بقويّه وضعيفه ، فلا يتكبر عن مجالسة من هم أقل منه مكانة أو شأناً ، ولا يحصر آدميته مع من يراهم متوافقين معه في المستوىٰ .

فكم من حقوقٍ ضاعت بسبب التكبر عن استيعاب الحقيقة الجلية ، وكم من شرور عمت النفوس بسببه أيضاً ؟ لذلك لابد أن يسأل الإنسان نفسه لماذا لم أمد يد العون لمن هو بحاجة لذلك ، ولماذا أتكبر عن مخاطبة نفسي وسؤالها ؟ ولماذا نتكبر عن الاعتراف بالحقيقة ؟ ولماذا نتكبر ولا نسامح ؟

لذلك فخليفة ٱلله لابد أن يكون قريباً من ذاته ، لا يهملها فتضيع وتتكبر فتهلك وتخسر في الدنيا والآخرة ، بل عليه أن يقف عند خطئها قبل وقوفه عند محاسنها ، وأن ينفي من داخله الشعور بأنه محسن وأن له من الفضائل علىٰ غيره الكثير ، بل يجعل التقصير دافعاً لأن يعمل ويندفع في الخيرات ،

ولا سبيل لذلك إلا بالحديث معها وتعرية الحقائق أمامها وجعل نفسه دائمة البحث عن الخيرات والمنافع لها ولمن حولها ، لذلك فلن تجد من بين خلفاء ٱلله في الأرض من هو تارك العنان لنفسه تفعل ما تريد ، بل هم من يملكون زمامها ويردعونها عند الحاجة لعلمهم بأنه سيأتي يومٌ عليها ستقابل فيه خالقها الكريم فيحاسبها ، بعد مراقبته لها وتسجيل أعمالها صغيرها وكبيرها ، لأن المحاسب المطلق دائماً معنا وهو الذي خلق لنا العقل لإدراك ما يمكن القيام به من أعمال تعود بالخير والمنفعة علينا ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1] ، فالآية الكريمة السابقة تصوّر لنا مدىٰ قرب المتكبر منا وعلمه بما يجول في نفوسنا ، هـٰذا العلم المطلق الذي ينشأ عن مراقبة ومتابعة دائمين ، لذلك فحسابه جل جلاله يكون عادلاً وقائماً لا يمكن الهروب منه .

فمن كان محاسباً لنفسه فقد أفلح وفاز ، وكان حافظاً لنفسه من المفاسد والرذائل والشرور ، هـٰذه هي النفس التي يرضىٰ عنها ٱلله والتي يكافئها يوم القيامة بالثواب وبجنة النعيم ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2] ، فالخالق قد رفع من شأن هـٰذه النفس الصالحة التي لا تتكبر عن الحق فاستحقت أن يقسم بها المولىٰ عز وجل من ضمن ما أقسم عليه من عظائم الأشياء .

ومن شأن مراقبة المرء لنفسه أن يقوّم من سلوكها ، إذ أنه سيحاسبها إذا تعدت علىٰ الغير أو إذا قصّرت في حق من حقوق ٱلله عليها ، أو تثاقلت عن

(1) ق ، 16 .
(2) الشمس 1ـ10 .

واجب من واجبات الخالق علينا عز وجل ، بذلك ستكون هـٰذه النفس مؤدية لما عليها ومطواعة في الخير وسباقة للمعروف والإحسان ، قال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] .

ـ أن يكون مستمعاً لغيره لا ينفرد بما يفكر فيه :

فلا يترفع عن فعل شيء مع جهله به ، لأن من شأن العلم ومعرفة الأمر أن يضيء أمام عقولنا كل العواقب والنتائج المؤدية لهـٰذا الأمر ، وكذلك فإن العلم بما نقوم به من أقوال وأفعال يجعل لنا بعد نظر واتساع أفق في إدراك الأمور ، فيصبح من حقنا أن نترفع عن القيام بهـٰذا العمل أو التفوّه بهـٰذا القول .

ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة إذ أنه بالرغم من كونه رسولاً ينطق بكلام ٱلله تعالىٰ ولا ينطق عن الهوىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2] ، وأن له من الأخلاق التي رباه عليها ٱلله جل جلاله ما ينأىٰ عن الزلل والخطايا ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3] ، فقد كان مدرسة في تعليم التواضع وعدم التكبر عن الحق والسعي خلفه ، فبالرغم من أن الخالق أغناه عن معونة من حوله بما وهبه من سداد رأي وحكمة وبعد نظر إذ أن الخالق عز وجل يوحي إليه بما يجب أن يكون ، إلا أن ذلك لم يجعله متكبراً عن من حوله في أخذ آرائهم عندما يعتزم أمراً ما ، فيأخذ من هـٰذا وذاك ،

---

(1) المؤمنون 1 ـ 11 .

(2) النجم 3 ـ 4 .

(3) القلم 4 .

ويستمع إليهم ويشاورهم ليصلوا بذلك إلىٰ أصوب الطرق للفوز والصلاح ، قال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(1) ، فمبدأ المشاورة الذي نصت عليه الآية الكريمة السابقة يتجسد فيه تواضع الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وينفي عنه التكبر الذي يكون في غير موضعه ، فقد رضي الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ برأي الصحابة وعمل به في أكثر من حادثة ، نذكر منها علىٰ سبيل المثال عندما أخذ النبي عليه الصلاة والسلام برأي سلمان الفارسي حين أشار عليه أن يحفر خندقاً لمواجهة الأعداء في غزوة الأحزاب .

فالإسلام بذلك يقرر مبدأً مهماً لو سار عليه المسلمون اليوم ما هزموا وهو عدم التكبر عن مساعدة بعضهم البعض وأخذ رأي بعضهم البعض والعمل به إذا تحقق من منفعته ونتيجته التي تعود بالفائدة علىٰ جميع الأطراف ، ولو سار علىٰ هٰذا المبدأ كل رب عمل ومسئول في مكانٍ ما فلم يتكبر عن سؤال ما يجهل ومشاركة مرؤوسيه عن بعض الأمور لكان وضع مجتمعاتنا المسلمة علىٰ أفضل حال ولتخلصنا من عنجهية المناصب وغرور المراتب العليا .

فلو تخلينا في كل مشكلة نمر بها ـ وما أكثرها في هٰذا الزمان ـ عن الإنفراد في حلها متناسيين من هم حولنا ومن لهم الحق في مشاركتنا هٰذه الحلول ، فسوف نتخطىٰ الكثير بأقل الأضرار والخسائر المعنوية والمادية ، فتكون المصارحة والمشاركة وأخذ المشورة هي عنوان تعاملنا مع بعضنا البعض داخل مجتمعاتنا المسلمة التي بُنِيَت علىٰ الثقة والمشاركة في كل شيء ، بذلك فقط سنصل إلىٰ أعلىٰ درجات الصلاح والرقي في التعامل ، ولٰكن علينا أن نُحْسن اختيار من نشاورهم في أمرنا ، فلا نلتجئ إلىٰ من هو فاسد التفكير أو

---

(1) آل عمران 159 .

قليل الخبرة أو من هو بعيد عن الهداية والحق ولا نغفل عن أهمية التخصص والمتخصصين ، فنضِل بمشورته علينا ، بل علينا أن نتخيّر الصالحين وأهل العلم والدين لنصل إلىٰ الرأي السديد النافع لنا في ديننا ودنيانا .

ـ أن يكون متيقناً أنه وما يملك ملكٌ للخالق :

لقد خلقنا الكريم علىٰ درجات متفاوتة من القدرات والصفات والإمكانيات ، فنجد من كان له حظٌّ وافرٌ من المال ، أو من القوة الجسدية أو من كان له السلطان والجاه وغيرها من النعم التي يهبها ٱلله سبحانه وتعالىٰ لبعض عباده ، فيكون في وجودها وفي فقدانها اختبار لنفس المؤمن وامتحان له علىٰ كيفية التعامل معها ، فقد تنقلب هـٰذه النعمة إلىٰ نقمة بتكبره السلبي بها وكأنها من صنع يديه ولا فضل لأحد عليه ، كما حدث مع قارون حين أغدق عليه الخالق عز وجل من الأموال والخيرات ما لا يملكه أحد فانقلبت هـٰذه النعمة بتكبره هلاكاً له ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا

فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، فقد أوضحت لنا الآيات الكريمة مدىٰ الأضرار التي من الممكن أن يُلحِقها التكبر بالشخص نفسه وبمن حوله ، فقد جلب للشخص ابتعاده وتكبره عن من حوله ، وجعل منه جاحداً لنعمة ٱلله عليه ، متكبراً عن الاعتراف بما له وما عليه من حقوق وواجبات ، أما من حوله فقد كان تكبره فيصلاً بين نوعين من البشر هما :

النوع الأول : من كانت نفوسهم متكبرة عن الرضا بما لديهم وما أعطاهم ٱلله تعالىٰ ، فانتزع هٰذا التكبر الرضا عن قناعة بما يملكون وتمني ما عند غيرهم .

النوع الثاني : من كان تكبر قارون دافعاً لهم للرضا بما أعطاهم ٱلله ، فكانوا أشد قرباً للمولىٰ ورضا بما قدّر لهم ، فتكبروا عن تمني ما لدىٰ قارون من أموالٍ وخيرات .

فكل ما لدىٰ الخلق هو من عند ٱلله تعالىٰ ، ولا بد للعبد أن يكون متيقناً من ذلك فلا يتكبر عن الاعتراف بهٰذه الحقيقة ، والشكر علىٰ نعم الخالق علينا ، قال تعالىٰ : ﴿ تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

حتىٰ النصر هو بحد ذاته رضا من الخالق علينا عندما لا نتكبر عن اتباع أوامر ٱلله عز وجل وأوامر رسوله الكريم ﷺ قال تعالىٰ : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] ، فالنصر إذا كان من نصيب المسلمين هو نعمة من عند ٱلله ، فقد قال جل جلاله : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

(1) القصص 76 ـ 83 .
(2) النحل 18 .
(3) الأنفال 17 ـ 18 .

ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [1] ، فلا يجب أن تأخذ المسلمين العزة والتكبر بقوتهم وعددهم ، فمن شأن هـٰذا التكبر أن يؤدي بهم إلىٰ هزيمة محققة .

فمن ذلك نستطيع الخروج بأن التكبر هو أساس هزيمة الأنفس والقلوب ، وهو أساس انكسار القيم والأخلاق في الإنسان بابتعاده عن الخالق ـ عز وجل ـ فهو لا يحب أي متكبر أو ظالم أو مغرور . فعلىٰ خليفة ٱلله أن يدرك أنه مهما وصل من قوة ومن سلطان فإن له من القدرة الشيء المحدود الذي سمح له ٱلله به ، فهل من الممكن أن يستطيع أي إنسان أن يملك القدرة علىٰ تغيير ما في الأفئدة والنفوس مهما وصل من مكانة أو امتلك من قوة ؟ .

فقلوب العباد بين يدي الرحمـٰن فقط يستطيع أن يفعل بها ما يشاء وحده ولا قدرة لإنسان علىٰ ذلك ، مهما وصل هـٰذا الإنسان من درجة كريمة عند ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [3] .

وعليه التكبر صفة كمال لله تعالىٰ ، ومن يستمد هـٰذه الصفة منه يكون من المستخلفين في الأرض الذين يولون أمرهم بالمطلق للمتكبر المطلق .

---

(1) آل عمران 122 ـ 126 .

(2) القصص 56 .

(3) البقرة 272 .

ولذا المتكبر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت ، وتوحد بالعظمة والجبروت ، وهو الذي بيده الإحسان ، ومنه الغفران ، وليس لملكه زوال ، ولا في عظمته انتقال .

نسألك يا ٱلله يا متكبر أن تكبر فينا كل ما يقربنا منك فيجعلنا متكبرين بك متكبرين بعبادتك وبالتذلل إليك ! اللهُمَّ أكْبِر العلم فينا عن الجهل ، وأكبر الخير في نفوسنا عن الشر ، واجعلنا متكبرين عن الظلم وعن الإفساد في الأرض وكل ما يقلل من شأننا من أقوال أو أفعال لا ترضىٰ عنها ، ولا ترضيك ، واجعلنا متكبرين عن المعصية بفعل الطاعة ومتكبرين بك عمن سواك مما يُعبد بغير حق ! اللهُمَّ يا متكبر لا تجعل الغرور كبرياء في نفوسنا ، واجعلنا متكبرين علىٰ الطاعة والهداية ، فلا نطغىٰ ، ولا نتكبر علىٰ من أمرتنا بخفض جناح الذل من الرحمة لهم ، ولا نظلم أحداً ! اللهمَّ أجعلنا ليِّني القلب رحماء يحبون الرحمة وإذا حيوا بتحية يحَيُّون بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّوهَا إِنَّك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبٌ !

✍ ✍ ✍

الخَالِقُ جلّ جلاله

الخالق مصدر لكل خلق ، فلو لم يكن الخالق ما كان المخلوق ، حيث لا شيء قبل الخلق إلا الخالق عز وجل .

الخالق : هو المنشئ لِما يشاء ، أو ألمحدث لِما لم يحدث من قبل ، وهو علىٰ كل شيء قدير . قال أبو بكر بن الأنباري : « الخلق في كلام العرب علىٰ وجهين : أحدهما الإنشاء علىٰ مثال أبدعه ، والآخر التقدير »[1] .

الخالق : هو « من يوجد الشيء علىٰ غير مثال سابق »[2] .

الخالق : هو « الذي يقدر علىٰ الخلق وهو الذي يستحق العبادة »[3] .

الخالق عز وجل : هو البادئ الذي لا سابق عليه ، وهو المعيد لِما يخلق قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] .

الرؤية لا يقصد بها الرؤية البصرية بل يُقصد بها الرؤية الإدراكية أي الإيمانية حيث جاء الاستفسار أو الاستفهام بصيغة (أو لم يروا) عن الكيفية

---

(1) لسان العرب ، ج 1 ، ص 889 .

(2) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 128 .

(3) كتب العقيدة ، ج 1 ، ص 366 .

(4) العنكبوت 19 ـ 20 .

التي بدأ الخلق عليها ، ولذا فبالكيفية التي بدأ بها الخلق تتم الإعادة بذات الكيفية . أي إذا أدركتم يقيناً القدرة علىٰ الإبداء والإيجاد فإنكم ستدركون القدرة الربانية علىٰ الإعادة . وبما أنه لا أحد ينكر النشأة الأولىٰ ، فكيف إذاً تُنكر النشأة الآخرة ، فمثلما جاءت النشأة الأولىٰ بالقوة وجوباً تأتي النشأة الآخرة بالقوة ضرورةً . وهـٰذه وفقا لقاعدة (لكل بداية نهاية) .

ومن صفات الخالق الآتي :

أولاً ـ المُبدي :

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [1] . بما أنه هو الواحد الأحد الذي لم يكن له مثيل ولا شريك في الملك ولم يلد ولم يولد فيكون هو المبدي لِما خُلق ، ولذا فإن البداية ليست به ، بل البداية منه سبحانه وتعالىٰ وهو علىٰ كل شيء قدير . فالمبدي هو الخالق الأول والآخِر ولم يسبقه في الخلق أحد مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ [2] كل المخلوقات في أساس خلقها الإنشاء ، وفي النشأة الأولىٰ تحددت هيئات كل المخلوقات ، الإنسان والملائكة والجان والحيوان والجماد والنبات وبقية الكائنات الدقيقة منها وغير الدقيقة . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [3] جاء الحق تعني جاء الكَلِم الصادق الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنه الحق الذي به زُهق الباطل ولن يعود .

ثانياً ـ المُعيد :

هو المبدي الأول الذي بقوته خلق الأشياء وبقوته يعيدها إلىٰ نشأتها

---

(1) الإخلاص 1 ـ 4 .
(2) العنكبوت ، 19 .
(3) سبأ 49 .

الأولىٰ ، ولأن المُبدي هو الأول والآخر ، فلا وجود لغيره لأن يعيد ما بدأ إلىٰ حالته الأولىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (1) . الذي فطركم أول مرة هو الذي سيعيدكم إلىٰ الحالة التي كنتم عليها قبل أن تكونوا خلقاً ، ومع ذلك فإن الكافرين مستهزؤون بما سمعوا ، وذلك بقولهم وهم يهزون رؤوسهم (متىٰ هو ؟) ولأنه يقيناً وليس كما يظنون قال : (قل عسىٰ أن يكون قريباً) أي : قل لهم يا محمد لعله يكون قريباً ، حيث علم الساعة لا يعلمه إلا هو جل جلاله ، وكلمة عسىٰ تدل علىٰ أن العود سيكون في الزمن المفاجئ ، وحتىٰ لا تضيع الفرصة فعليكم بالإيمان قبل أن تحدث المفاجأة وحينها لا ينفع الندم .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (2) . جعل ٱلله تعالىٰ الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها في قوله : (قل ٱلله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي بطبيعة الحال من يبدئ الخلق يعيده ، ولا يمكن أن يكون لآخر المقدرة علىٰ هـٰذين الأمرين إلا الذي خلقهما وجبر العلاقة بينهما . ولذا فإن كل مخلوق يعود للشيء الذي خُلق منه . الإنسان يعود للتراب وهو الشيء الذي خُلق منه ، والملائكة يعودون للنور وهو الشيء الذي خُلقوا منه ، والجان يعود إلىٰ النار وهي الشيء الذي خُلق منه . وهـٰكذا كل مخلوق يعود لطينته أي لأصله الأول قبل أن يصبح مُركَّباً من مجموع العناصر المتكون منها أو المركب منها ، وفي النهاية يعود الكون إلىٰ الشيء الذي خلق منه وهو الذرة .

في علم الفيزياء أثبت العلماء الروس أن أساس الخلق ذرة ثم حدث لها

---

(1) الإسراء، 51.

(2) يونس، 34.

الانفجار العظيم فامتدت علىٰ امتداد الكون كله ، وأثبتوا أيضاً أن الذرة لابد وأن تعود ذرة مرة أخرىٰ وهي النهاية . والقرآن الكريم سابق علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [1] وقوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [2] .

ثالثاً ـ المُبعث :

المحيي بعد الممات مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [3] يقال نزلت هـٰذه الآية في السبعين الذين اختارهم موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قالوا له : (لن نؤمن بك حتىٰ نرىٰ ٱلله جهرة) ولأن ٱلله تعالىٰ لم يكن له شكل ولا هيئة من الهيئات المخلوقة كما هم يتوقعون فهو لا يمكن أن يخضع للرؤية المبصرة ، ولأنه الأعظم فلن تكون لهم القوة المُمكِّنة من اختراق قوته ليروه سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصفون ، وبطلبهم هـٰذا كانت لهم الصاعقة الإجابة القاطعة علىٰ تساؤلهم بأنه مالك الأمر والقوة التي لا تساويها قوة ، وذلك ليتيقنوا بأنه الحق ووجوده حق . ثم نُشروا من بعد موتهم أحياء ، وهـٰذه الآية معجزة لهم لعلهم يتذكرون مطلبهم وما جاءتهم من إجابة ليؤمنوا من بعد كفرهم . قال النحاس : « أنه الاحتجاج علىٰ من لم يؤمن بالبعث من قريش ، واحتجاج علىٰ أهل الكتاب إذ خبروا بهـٰذا » [4] .

والبعث هو النشور . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ

---

(1) الأنبياء، 104.

(2) الرعد، 41.

(3) البقرة، 56.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول، ص 404.

لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [1] . إن كنتم في ريب تعني : إن كنتم في شك ، فعليكم أن تتذكروا أحوال السابقين وقصصهم التي قصصناها عليكم لتعرفوا أسرار الخلق بداية ونهاية وبعثاً . وإن كنتم في شك فعليكم بالتذكر حتىٰ تيقنوا أنكم من تراب ، وما المراحل الخلقية التي تمرون بها إلا دليل شاهد علىٰ خلقنا وقدرتنا علىٰ الخلق في كل مرحلة من مراحل النمو الخَلقي . وبأن الخالق عز وجل هو القادر علىٰ الخلق ، فهو بطبيعة الحال القادر علىٰ البعث من جديد .

الخالق هو المحيي ، أي أنه الذي يبعث الروح فيما يخلق ، ولهٰذا كل شيء يُسبِّح بحمده . ولأنه المحيي فهو يحيي المخلوق في نشأته الأولىٰ ، ثم يحييه بعد موته من جديد في نشأته الأخرىٰ . ولذا فمن يؤمن بأن ٱلله هو المحيي فعليه أن يؤمن بأنه المميت ، وبما أنه المميت فإنه يقدر علىٰ الإحياء من جديد . وعلينا أن نؤمن فلو كان الإحياء من المستحيل لكان في الأزل ليس بخالق .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [2] . الفرق كبير بين قول المؤمن الذي تمسَّك باستخلافه في الأرض وبين قول الكافر الذي تخلىٰ عما كان يُراد له أن يكون عليه ، فعيسىٰ رسول ٱلله ﷺ آمن بوجوده كما آمن بموته الذي لم يأته بعد عندما قال ما ورد في الآية السابقة ، وآمن بأنه

---

(1) الحج، 5ـ7.
(2) مريم، 33.

سيُبعث حياً من جديد مثلما خُلق أول مرة . فالذي يُؤمن بربه الخلاّق يُسلِّم بما يقوله حتىٰ يراه يقيناً ، والذي لم يؤمن سيظل في حياته في شك حتىٰ يأتيه يوم الحساب .

رابعاً ـ المحاسب :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [1] إنَّ إلينا إيابهم : إنَّ إلينا رجوعهم ، فإلىٰ الخالق يرجعون للمحاسبة علىٰ ما فعلوا في الحياة الدنيا ، فإن كانوا من الخلفاء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا وفقاً لِما أمر ونهىٰ فسيجازون الجزاء الأوفىٰ وهو دخول الجنة . وإن كانوا من الذين وصفوا ٱلله بما لم يصف نفسه به فسيلقون آثاماً وسيكونون حطباً في نار جهنم .

المحاسبة حق حتىٰ تُجزىٰ كل نفس بما كسبت ، ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [2] فاليوم يقصد به اليوم الآخر الذي يختلف عن يوم النشأة الأولىٰ ، أي أنه اليوم الذي تجاز فيه الأنفس علىٰ ما قدمت لنفسها في يومها الأول ، الذي أعطي للجميع فرصة لأن يؤمنوا ولا يشركوا ويُصلحوا ولا يُفسدوا ، فإن فعلوا خيراً يكون جزاؤهم خيراً ، وإن فعلوا شراً يكون جزاؤهم العذاب الشديد . وفي هـٰذا اليوم لا يجد الظلم مكاناً له ، حيث لا سلطان للعباد في شيء كما هو حال يومهم الأول الذي يحكم فيه بعضهم البعض وفيه يظلم العباد بعضهم بعضاً ، بل السلطان في اليوم الآخِر لله الواحد القهار ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [4] الجزاء وفقاً لِما عملت كل نفسٍ ذنباً أو إحساناً . فالجزاء دائماً ليس إثابة ، بل

(1) الغاشية 25 ـ 26 .
(2) غافر ، 17 .
(3) غافر ، 16 .
(4) إبراهيم ، 51 .

الجزاء حساب علىٰ ارتكاب أفعال سواء كانت أفعال خير لتنال الأجر الكبير وهو دخول الجنة ، أو كانت أفعال إثم وشر لتنال العقاب الشديد وهو الدخول مع أهل النار .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ (1) . في هـٰذه الآية عامل الزمن يعد ضرورة للتذكر والتفكر ، وإلا ستحدث المفاجأة بقيام الساعة ، ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ (2) . فالذين يؤمنون يعلمون أن الساعة حق ، ويعلمون أن علمها عند ربِّ العالمين ، ولأنهم مشفقون منها فهم يتسابقون علىٰ فعل الخيرات ، أما أولـٰئك الكفرة الفجرة والذين لم يؤمنوا كما يُراد لهم أن يؤمنوا فإنهم يستعجلون بها استهزاءً دون مخافة ، مما يضاعف لهم العذاب الشديد .

خامساً ـ المُبقي :

المبقي هو الدائم بالحياة الدائمة ، أي بعد الخلق الأول في الحياة الدنيا يكون الموت نهاية لفترة من الحياة والعمل سالبه وموجبه ، ومن بعد الموت تأتي النشأة الثانية وهي العودة للحياة التي فيها يحاسب الإنسان علىٰ أقواله وأفعاله سالبها وموجبها ، إلىٰ أن يجازىٰ بإحدىٰ الشيئين الجنة أو النار . وفي اليوم الآخر تكون الحياة السرمدية هي الحيوان التي لا مكان فيها للموت . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ (3) . وقال عز وجل : ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (4) .

---

(1) الأنبياء، 1.
(2) الشورىٰ، 17، 18.
(3) العنكبوت، 64.
(4) الأعلىٰ، 16، 17.

الخالق هو الأول والآخر الذي خلق الموت والحياة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (1) ، ولأنه الأول والآخر فهو الذي يحيي ويميت ، ولهٰذا فالموت مخلوق مثلما الحياة مخلوقة ، إلا أن في البداية الموت يغالب الحياة ، وفي النهاية لابد للموت من أن يموت حيث كل مخلوق لابد له من الزوال ، ولا يبقىٰ إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . وبموت الموت يُبعث الناس من جديد ، وحينها يكونون أحياء والموت لم يكن كذلك . وبعدما يُعدم الموت إذ تصبح الحياة هي الدائمة بقوة المُبقي الدائم . ولذلك من حيث الخلق يمر الوجود بالآتي :

1 ـ **خلق الحياة المؤقتة** : الحياة الدنيا مؤقتة فهي التي تمتد من الخلق حتىٰ الموت .

2 ـ **الموت المؤقت** : وهو الذي يمتد من ساعة الموت إلىٰ ساعة البعث .

3 ـ **موت الحياة المؤقت** : وهو النهاية لكل حي مع عدم إضافة الجديد .

4 ـ **موت الموت الدائم** : وهو القضاء علىٰ الموت نهاية .

5 ـ **خلق الحياة الباقية** : وهي الحياة الممتدة بلا نهاية .

وعليه فإن النهاية هي الإبقاء علىٰ الحياة وليس الإبقاء علىٰ الموت ، ولهٰذا الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (2) . ولذا ينبغي أن لا تغرنكم الحياة الدنيا ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (3) .

الخالق جل جلاله هو البادئ لكل شيء ولا شيء بادئ عليه ، وهو السابق

---

(1) هود، 7 .

(2) آل عمران، 185 .

(3) لقمان، 33 .

لكل شيء ولا شيء سابق عليه ، وهو المعيد لكل ما بدأ حتىٰ البقاء الدائم في الحياة الحيوان . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) . كيف يبدئ ٱلله الخلق تعني كيف يظهره للوجود ثم يُعيده للحالة التي كان عليها ، ثم يعيده مرة أخرىٰ ظاهراً للإدراك والملاحظة والمشاهدة . والخليفة هو المؤمن بما يعلم إدراكاً وليس فقط مؤمناً بما يرىٰ ، فلو كان الأمر كذلك لكان غير مؤمنٍ بالخالق الذي يرانا ولا نراه . ولذلك فإن الخالق هو الأول وهو الآخر الذي له ملك السماوات والأرض وهو علىٰ كل شيء قدير ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

في هاتين الآيتين الكريمتين تتمركز أفعال الخالق في الصفات الآتية :

1 ـ **ملك السماوات والأرض** : وهـٰذه تعني أنه مالك كل شيء .

2 ـ **يحيي ويميت** : وهـٰذه تعني أنه فعَّال لما يريد .

3 ـ **قادر علىٰ كل شيء** : وهـٰذه تعني أنه خلاَّق المستحيل .

4 ـ **هو الأول والآخر** : لا يتعدد ، فليس له سابق ولا لاحق .

5 ـ **هو الظاهر والباطن** : ندركه يقيناً ونرىٰ آياته ولا نراه وهو يرانا .

6 ـ **إنه بكل شيء عليم** : إنه مصدر الأمر والنهي سبحانه .

وعليه فإن الخالق الأول هو خالق الشيء ، والشيء نكرة ومصدر ويتعدد .

نكرة : لأنه غير محدد ، ولذا فإن الخالق يخلق كل شيء ، كما يشاء

(1) العنكبوت 19 ـ 20 .

(2) الحديد 2 ـ 3 .

وكيفما يشاء ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

ومصدراً : لأنه أصل لأشياء استمدت منه . ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (2) . والتراب هو الشيء الذي خُلق منه آدم .

ويتعدد : لأنه يتجزأ من الكل إلىٰ المتجزئ منه . ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ (3) . التراب شيء ، والنطفة شيء ثان ، والعلقة شيء ثالث ، وهٰكذا تتعدد الأشياء ، فالشمس شيء ، وهي مصدر لأشياء أخرىٰ تتعدد ، والنجوم أشياء تتعدد ، والنور شيء خلق منه شيء آخر وهو الملائكة الكرام ، والنار شيء وهي مصدر لخلق الشيطان الذي نستعيذ بالله منه في كل حين .

أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء الذي خلقه ٱلله أشياء متعددة ومتنوعة . فيخلق من التراب صناعة ، ويخلق بالصناعة ما يُسهِم في إشباع حاجاته المتعددة والمتنوعة والمتطورة . وهو الذي بخلقه يُستخلف في الأرض إصلاحاً وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . فالخالق بالإضافة هو الخليفة الذي يعلم أنه لن يخلق الشيء المصدر ، ويعلم أنَّ ذلك ليس في نطاق مقدرته ، وذلك لعلمه أنها من خاصية الخالق المطلق جل جلاله . ويُسلِّم بأن الأشياء التي خُلقت من أجله ينبغي عليه أن يستمد منها ما يفيده في حياته الأولىٰ دون أن يكون علىٰ حساب حياته الآخرة .

والخالق بالإضافة له صفتان : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ (4) .

---

(1) البقرة، 20.
(2) الروم، 20.
(3) غافر، 67.
(4) البقرة، 220.

الصفة الأولىٰ إصلاحية :

قال تعالىٰ : ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (1) . مع أن الخالق خصَّ المؤمنين بورثة الأرض إلا أن المستهدف هو العموم حيث أبواب الإيمان مفتَّحة لمن يريد أن يؤمن ، ومع ذلك فكان الاستدراك الضمني لعل البعض لا يؤمن ، مما جعل أمر التخصيص متعلقاً بمن يؤمن ، ولذا قال نبي ٱلله شعيب ﷺ في كتابه عز وجل : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (2) . ما ينهىٰ عنه نبي ٱلله شعيب لا لأن يتركه المنهيون عنه من قومه لينفرد به وحده دون غيره ، بل ما يريده تبيان الحق من الباطل ليكف قومه عن الباطل ويتمسكوا بالحق قولاً وعملاً . يوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، فيعدلوا ولا يفسدوا في الأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (3) .

والصفة الثانية إفسادية :

والصفة الإفسادية ، أن يخلق الإنسان ما يؤدي إلىٰ إفساد الحرث والنسل قال تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ

(1) الأنبياء، 105.

(2) هود، 88.

(3) الأعراف، 85.

ٱلۡمِهَادُ ﴾ (1) . هـٰؤلاء ومن هم علىٰ شاكلتهم يقولون ما لا يفعلون ويُظهرون مالا يُبطنون ، وهـٰؤلاء هم الذين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتىٰ : ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ (2) . وهـٰؤلاء هم المفسدون في الأرض الذين نهىٰ الخالق عن طاعة أمرهم وما يفعلون ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (4) . يقال : كان في مدينة الحِجر تسعة من رؤساء القوم المفسدين الذين أقروا عقر ناقة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وبطغيانهم في الأرض أفسدوا القيم الأخلاقية التي بها تعمر الأرض وتصلح الأحوال ويُقوَّم السلوك ، فكانوا يمكرون بقوم صالح ، وأقسموا علىٰ الفساد دون الإصلاح ، وأقسموا أن لا يعترفوا بذنب يرتكبونه . وبعد أن أخبرهم صالح ﷺ بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا علىٰ أن يأتوا دار صالح عليه الصلاة والسلام ليلاً ويقتلوه وأهله المختصين به . قال ابن العباس : أرسل ٱلله الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، وعندما جاء التسعة المفسدون تكفَّل الملائكة بهم رمياً بالحجارة حيث هم يرون الحجارة تتساقط عليهم ولا يرون من يرميها . ويقول السّدّي : « نزلوا علىٰ جرف من الأرض فانهار بهم

(1) البقرة، 204ـ206.
(2) الحشر، 14.
(3) الشعراء، 151، 152.
(4) النمل، 48ـ53.

فأهلكهم ٱلله تحته » [1] . وهناك أقوال أخرىٰ كثيرة منها من قال : أنهم اختفوا في غار بقرب دار صالح ﷺ حيث سقطت عليهم صخرة أنهتم جميعاً ، وهناك من يقول إنَّ هلاك الكل كان بصيحة جبريل ، وهناك من يقول إنَّ التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، و الله أعلم [2] .

ولأن ٱلله عز وجل هو الخالق ، فهو الذي خلق النشأة الثانية مثلما خلق النشأة الأولىٰ ، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] . النشأة الأولىٰ : من غير سابق ، وهي نشأة الشيء المصدر ، والنشأة الثانيةنشأة لاحقة للنشأة الأولىٰ ، أي : أن النشأة الأولىٰ هي نشأة الشيء من لا شيء . أمَّا النشأة الثانية هي : نشأة الشيء من الشيء . مما جعل النشأة الأولىٰ تأسيساً وبناء ، والنشأة الثانية إعادة بناء . وكلا النشأتين مؤسستان علىٰ الأمر (كن) ، كن من لاشيء فكانت الأولىٰ ، وكن من الشيء ، فكانت الثانية . وفي الآية السابقة قال تعالىٰ (النشأة الآخِرة) ولم يقل (النشأة الأخرىٰ) مما يدل علىٰ أنها النشأة الدائمة لمن بُعث في الحياة الحيوان . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [4] .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو الخالق بالمطلق الأول والآخر ، وهو القادر علىٰ كل شيء ، فهو بذاته العلية لم يتوقف عن الخلق ، يُحيي ويميت ، ولهٰذا فإن النشأة الأولىٰ لم تتوقف ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، لذا كلما تمكنَّا من التقدم العلمي ، تعرفنا علىٰ الجديد وأضفناه لمعارفنا ، ولذلك فالمؤمن يُدرك

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر، 216ـ217.

(2) المصدر السابق، 217.

(3) العنكبوت، 20.

(4) مريم، 9.

أن الخالق لن يتوقف عن الخلق ، بل أنه في الخلق يزيد ، ويدرك أنه لن يتمكن من الإطلاع علىٰ كل ما خلق ، فعقولنا ذات الحيز المحدود لا تسع معرفة ما خلق ٱلله جل جلاله . وعليه لو يدرك الإنسان ذلك ليس له بدٌّ إلا أن يؤمن بالخالق العظيم الذي قال في كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (1) .

خالق الشيء قادر علىٰ هدِّه وإزالته وإعادة بنائه من جديد سواء علىٰ الكيفية التي كان عليها أو علىٰ كيفية أفضل ، ونحن نعتقد أنَّ النشأة الأخرىٰ التي سنكون عليها هي أفضل مما نحن عليه الآن ، ولذلك يترتب علىٰ كل شيء مترتب ، فلوا عُدنا لما كنَّا عليه ستكون الأطماع والخيانة ملازمة لنا ، ويكون الظلم والنزاع والخصام والجوع والعطش والزنىٰ بصحبتنا أينما نكون ، وإن سلَّمنا بذلك نسلِّم بأنَّ الوعد الذي وعدنا الخالق به لن يتحقق ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (2) ، في وعد الخالق لنا أنْ نكون من أهل الجنة إن كنَّا من المصلحين في الأرض ، وإن لم نكن فلن نستخلف في الأرض ولا نرث من بعدها الجنة ، (اللهمَّ أحفظنا مما يُبعدنا عنها ومكنَّا مما يُدخلنا فيها) . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (3) أي : إن الإشباع والريّ والسترة الراقية في الجنة من غير اكتساب وسعي أو كدٍ ومعاناة ، إنها دار الوفرة ودار الإباحة

---

(1) المؤمنون، 12 - 14.

(2) الأعراف، 44.

(3) طه، 118 - 119.

المطلقة بكل خير وحلال ونعيم . قال تعالىٰ : ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [1] قال : (جناتٍ) ولم يقل (جنّة) ويعني بالنعيم المقيم النعيم الدائم الذي لم يتغير ، أي أن الجنات تتعدد بتعدد الوفرة المتنوعة فيها ، وأن النعيم الذي يملأ الجنة لا ينقص وطعمه لذيذ . إنه الوعد الدائم بالجنة الدائمة .

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [2] في هٰذه الآيات يُظهر ٱلله القوة الإعجازية المبطلة لكل افتراء أو ادعاء بغير حق ، وإلا هل هناك من يقدر علىٰ بدء الخلق وإعادته غير الخالق عز وجل ؟ أنه وحده القادر علىٰ خلق الشيء ، والقادر علىٰ هداية الحق . أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء أشياء ، ولا يقدر علىٰ هداية الحق إلا بالإيمان به واتباعه .

قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [3] القاعدة تقول : (الخالق يتصرف ويتحكم فيما خلق) ولهٰذا فالخالق علىٰ كل شيء وكيل ، أي مسيطر ومتحكم ومتصرف بالقوة . ولأننا خَلقٌ من خلقه ، فهو المتحكم فينا ونحن بإيماننا نطيع . أمّا نحن الذين نخلق أشياء متعددة من الشيء الذي خلقنا منه الخالق تعالىٰ أو خلقه لنا ، فإننا أيضاً نسيطر عليها ونتحكم فيها ولٰكنها لا تطيعنا كما نحن نطيع خالقنا بإيمان . وفوق ذلك مع أننا نسيطر ونتحكم فيها إلا أنها في بعض الأحيان تفاجئنا فتنفجر في وجوهنا

(1) التوبة، 21.

(2) يونس، 34ـ36.

(3) الزمر، 62.

حتىٰ نأكلها أو تقضي علينا ، وفي هـٰذا الأمر لا تجوز المقارنة مع الخالق الأعظم الذي يتحكم ويسيطر علىٰ كل شيء دون أن تحدث المفاجأة . سبحانه لا إلـٰه إلا هو !

في الآية السابقة ، ٱلله خالق كل شيء جاءت مطلقة ، ولذا فإن الشيء المطلق لا يخلقه إلا ٱلله جل جلاله ، أمَّا الشيء النسبي فيخلقه المخلوق المتصف بصفة الخلق من الخالق المطلق ، ولذلك فإن أي شيء هو من خلق ٱلله ، وإلا هل هناك من يخلق الشيء ؟ .

الشيء لا يخلقه إلا ٱلله ، ولهـٰذا فالشيء في ذاته غير محدد ، وإذا حُدد أصبح للشيء مسمىً كالأرض والقمر والشمس والروح والجن والإنس ، وهـٰكذا تتعدد الأشياء بمسمياتها ، وأصل الأشياء واحد في فعل الأمر (كن) .

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [1] ، وهـٰذا يعني أنَّ ما خُلق في الأرض من حيوان وطير وسمك ونبات هو لنا نحن بني الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ [2] . والمعايش هي الأشياء التي يمكن استثمارها من قِبَل من جُعِلت له في ما يعود عليه بالنفع ويشبع حاجاته المتطورة والمتنوعة . ومن هـٰذه الأشياء يمكنه أن يصنع أشياء تحميه من البرد والحرور ومن الاعتداء عليه بغير حق ، ومنها يكتشف علماً وتقنية ليطوِّر نفسه بما يُمكِّنه من أن يكون خليفة للخالق الأعظم . ولهـٰذا خلق لنا الخالق ما في الأرض جميعاً من كنوز إن استثمرت فيما يفيد صلحت الأرض بالفعل الاستثماري ، وإن استغلت فيما لا يفيد فسدت الأرض بالفعل الاستغلالي .

(1) البقرة، 29.
(2) الأعراف، 10.

وعليه فللخالق صفتان :

الأولىٰ الصفة المُطلقة : وهي الصفة الإعجازية (صفة خلق الشيء من لا شيء) وهـٰذه صفة لله تعالىٰ وهي تحتوي صفتين :

1 ـ خلق الشيء المصدر كالأرض والهواء والنور والنار . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [1] وقال عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [2] ، وقال جـل جـلالـه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [3] ، وقـال تعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [4] . كل هـٰذه المخلوقات التي وردت في الآيات السابقة هي أشياء متعددة : فالسماوات شيء والأرض شيء ، وما بين السموات والأرض أشياء ، الظلمات والنور ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وهـٰكذا تتعدد الأشياء ، فالجان شيء والمارج الذي خلق منه الجان شيء ثان ، والنار التي خلق منها المارج شيء أخر . فالحمد لله ربِّ العالمين خالق الشيء ، وخالق منه الأشياء .

2 ـ خلق الشيء المستمد من المصدر . كخلق آدم من تراب ، وخلق الجان من نار ، وخلق الملائكة من نور ، وفي هـٰذا الخلق ألإعجازي تندمج الروح والمادة في وحدة واحدة متكاملة في الحركة والسكون . قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [5] .

---

(1) الأنعام، 1.

(2) الأنبياء، 33.

(3) الفرقان، 59.

(4) الرحمـٰن، 15.

(5) الإسراء، 85.

هـٰذه الصفة صفة اندماجية فآدم خُلق من تراب ثم دُمجت الروح فيه أو جُبرت ، فأصبح علىٰ ما أصبح عليه وهو (في أحسن تقويم) ، وهـٰكذا بقية الكائنات الحية مادة وروح . ولذا فإن خلق المادة مع الروح أو خلق الروح منفردة خاصية إلـٰهية .

والثانية الصفة النسبية : وهي خلق الشيء من الشيء المحسوس ، وهي الصفة التي يتصف بها الإنسان لخلقه أشياء لم تكن هي كما هي لو لم يقوم بعلمه الذي أظهره الخلاَّق تعالىٰ عليه ما خلقها (صنعها) كالسيارة والتلفاز وجهاز الحاسوب والمراكب في البحار والمحيطات والعدسة والمجهر وغيرها كثير ، وهـٰذه وغيرها من إبداعات الإنسان وقدراته الخلاَّقة هي من تراب أي من مجموع المعادن التي أشار بها ٱلله تعالىٰ علىٰ الإنسان حتىٰ يكتشفها ويخلق منها ما يُمكِّنه من ركوب البر والبحر والطيران في آفاق السماء حتىٰ تَمكَّنَ من بلوغ مسارات كواكبها ونجومها بالعلم الذي بشأنه قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] . أي بالرغم مما وصل إليه عقل الخالق بالإضافة فهو لم يصل إلا للقليل العلمي . ولأن ٱلله تعالىٰ جعل في الأرض خليفة فإنه يُريده أن يبلغ من العلم الذي يُمكِّنه من الإصلاح في الأرض ، ولهـٰذا قال عز وجل : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [2] ولأن الخليفة يؤمن بأن الخالق المطلق هو مصدر العلم التام والكامل استجاب إيماناً بقوله ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ليستجيب له الرحمـٰن بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [3] . وبهـٰذه الأسباب يرفع ٱلله البعض درجات وفوق كل ذي علم عليم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] .

---

(1) الإسراء ، 85 .

(2) طه ، 114 .

(3) الرحمـٰن 1 ـ 4 .

(4) يوسف ، 76 .

والخالق بالإضافة يمكن أن تكون له إحدىٰ الصفتين الآتيتين :

1 ـ **الصفة الإصلاحية** : هي الصفة التي بها تعمر الأرض ولا تفسد . وهـٰذه لا تتم إلا بأفعال الخليفة الذي يؤمن بأهمية الإصلاح ويعتبرها من مهامه الرئيسة . وهـٰؤلاء هم الذين يسعون في الأرض إصلاحاً .

2 ـ **الصفة الإفسادية** : هي التي بها تفسد العلاقات بين الخلق ولا تعمر الأرض ، وهـٰذه لا تتم إلا بأفعال الآبقين الذين يظنون ظن الجاهلية . وهـٰؤلاء ومن هم علىٰ مثلهم هم الذين يسعون في الأرض فساداً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [1] . اللغـــوب : التعـــب والإعيـــاء . قـــال قتـــادة والكلبي : « هـٰذه الآية نزلت في يهود المدينة ؛ زعموا أن ٱلله تعالىٰ خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فجعلوه راحة ، فأكذبهم ٱلله تعالىٰ في ذلك » [2] بقوله عز وجل : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [3] . المعني بالآية (فاصبر علىٰ ما يقولون) هو الرسول ﷺ ، الذي أراد منه ٱلله تعالىٰ أن يتعبّد ويذكر ربّه في أوقات الدعاء المفضلة وهي : قبل الشروق وقبل الغروب وفي الليل وعند أدبار السجود . وهـٰذه لا تخص النبي الكريم فقط ، بل هي الباب المفتوح لمن يريد الدخول منه إلىٰ أماكن الرقي التي بها يُستخلف الإنسان في الأرض حتىٰ يرث الجنة من بعدها .

الخالق جل جلاله في كل برهة وثانية يخلق ما لم نستطع إحصاءه ،

---

(1) ق ، 38 .

(2) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء السابع عشر ، ص 24 .

(3) ق ، 39 ـ 40 .

فنحن بني البشر كنا آدم وحواء فقط ، ثم أصبحنا المليارات ومع الحركة والزمان نتصل ونزيد ، وهـٰكذا من كل كائن حي خلق الزوجين للزيادة إلىٰ النهاية التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله . ولهـٰذا لن يُصدِّقَ أحد من عباده المستخلفين في الأرض ما ادعىٰ به يهود المدينة ، بأن ٱلله خلق كل شيء في ستة أيام ثم استراح من التعب والإعياء . المواليد من جميع المخلوقات تُخلق في الأرحام وتخرج للوجود من بشر وحيوان وكائنات قابلة للمشاهدة وأخرىٰ غير قابلة لذلك بالأعين المجردة ، مثل الفيروسات المعروفة مما خلق وغير المعروفة ، ولهـٰذا تنتشر الأمراض بيننا والكائنات الأخرىٰ والعلم يلاحقها ليقي ويشفي المصابين .

قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ﴾ (1) أي بما أنه خلق السماوات التي عرفناها ولم نعرفها : عرفناها بمعرفتنا للسماء التي قد عرفناها هي كما هي في علوها عن الأرض ، ولم نعرفها لأنها لم تكن سماء واحدة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ (2) . فنحن نعلم علم اليقين بأنها سبع سموات ولـٰكننا لا نعلم علمها . فالسماء ليست فراغاً بل هي امتلاء فيها ما خلق مما خلق وسيكون فيها وفي كل ما خلق مما سيخلق . إنه الخالق الدائم ، أي الذي خَلْقه لا ينقطع ولا يتوقف ، وهو الخالق بالأمر (كن) وليس ببذل الجهد الذي توقَّعه يهود المدينة . في توقعهم هـٰذا هم يظنون كل شيء بمقارنة مع ما يستطيعون القيام به . ولذا فإنهم يضعون الخالق عز وجل في موضع المقارنة مع ما خلق ، وفي هـٰذا الأمر معصية كلما سمع بها المؤمن استغفر ٱلله علىٰ ما يقولون وحمد ربَّه تعالىٰ علىٰ نعمة الإيمان .

(1) ياسين، 81.

(2) الإسراء، 44.

إذاً الخالق الذي خلق سبع سموات والأرض ، لم يقف عند هـٰذا الحد ، ولهـٰذا قال : (بقادرٍ علىٰ أن يخلق مثلهم) أي بقادر علىٰ أن يخلق سماوات وأراضي أخرىٰ ، وهـٰذا يعني أن خلقه غير منقطع (متصل لا منفصل) . فنحن نعلم أنه خلق سبع سموات وسبع أراضٍ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ (1) . ونحن حتىٰ علىٰ مستوىٰ معرفتنا للأرض لم نعرف إلا أرضاً واحدة وهي التي نعيش عليها ولا نعلم بعلم الأراضي الست الأخرىٰ التي وردت في الآية السابقة . وعليه لقد خلق الخالق الشيء ، وخلق فيه ومنه أشياء لا تُحصىٰ . اللهُمَّ يا ٱلله زدني علماً مثلما آمل أن تزيدني إيماناً وتجعلني من المصلحين .

القاعدة تقول : (المخلوق دائماً في حاجة والخالق دائماً هو مصدر إشباعها) المخلوق تعني أي مخلوق ، سواء ما خلق الخالق الأعظم أو ما خلق الخالق بالإضافة . فالإنسان وكل كائن مُسبِّح بحمد ٱلله هو في حاجة لخالقه ، وإلا لماذا يُسبِّح بحمده لو لم يكن في حاجة إليه ؟ يُسبِّح بحمده ليشكره علىٰ نعمه وفضله الذي أنعم به عليه حتىٰ جعله من المُسبِّحين .

من القاعدة السابقة نعرف أن الحاجة في طبع المخلوق ، وإلا هل يمكن أن يلتفت المخلوق لخالقه لو لم يكن في حاجة إليه ؟ ولهـٰذا فنحن في حاجة لرضا خالقنا علينا ، وفي حاجة لحفظه ورعايته لنا من كل شرٍّ وسوء . فهو الذي جعل لنا في الأرض معاشاً ومنها سكناً ولباساً .

ومن القاعدة السابقة عرفنا أنَّ الخالق ليس في حاجة ، وذلك لأنه خالقها ، أما نحن فهي المخلوقة فينا . ولأن الحاجة مخلوقة مثلما نحن خُلقنا

(1) الطلاق، 12 .

فهي بطبيعة الحال هي في حاجة لخالقها ، وهي تُسبِّح بحمده مثلما نحن نُسبِّح . وإلا هل هناك شيء مِنْ خلقه لا يُسبِّح بحمده ؟ . قال تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ (1) ولأن الحاجة مخلوقة فهي بطبيعة الحال في حاجة لخالقها الذي ليس في حاجة إليها .

ولأن كل مخلوق في حاجة لخالقه ، فنحن في حاجة لشجرة ونبتة نأكل منها ، وفي حاجة لحيوان نشرب منه لبناً ، وهو الآخر في حاجة للماء مثلما نحن في حاجة إليه ، وكل من الشجرة أو النبتة والحيوان في حاجة للهواء مثل ما نحن في حاجة ، وكلنا في حاجة لأرض نعيش عليها ومطر أو نبعٍ نرتوي منه ، والنبع والمطر في حاجة لقوة تُظهرهما وتسوقهما إلىٰ من هم في حاجة ، وهـٰذه القوة تحتاج لمن يصدر لها الأمر لتكون ، وفي هـٰذه الأمور لا يمكن أن تكون الاستجابة إلا من الخالق الأعظم جل جلاله ، ولذا فإن القاعدة (المخلوق دائماً في حاجة ، والخالق ليس كذلك) .

وبما أنَّ المخلوق في حاجة لخالقه ، والخالق هو مصدر إشباع الحاجة ، إذاً كيف يعتقد البعض في إلهٍ لا يُشبع حاجة وهو في حاجة لمن يُشبع حاجته ! . فمن يتخذ من التمر إلـٰهاً أو من الحجر إلـٰهاً أو من البشر إلـٰهاً فليعلم أنَّ ما يتخذه من آلهة هم في حاجة ، فالتمر إن لم يُحفظ يفسد ويتعفّن ، والحجارة تبلىٰ وتتهدم ولا تُشبع حاجةَ من يتخذها إلـٰهاً ولا تسمعه إن تحدث إليها ، ولهـٰذا فهي لا تجيب دعاءه إذا دعاها ، وهـٰكذا البشر هم في حاجة يمرضون ويتألمون ويجوعون ويخسرون ويكذبون ويزوِّرونَ ويغشون ويزنون ويعملون الفواحش ما ظهر منها وما بطن فكيف مثل هـٰؤلاء يُتخذون آلهة ويُعبدون ؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا

---

(1) الإسراء، 44.

يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [1] ولهـٰذا فإن في خلق السمـٰوات والأرض آيات لقوم يتفكرون ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [2] .

وعليه فإنَّ الخلق بِحُسبان ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [3] . لا إلـٰه إلا هو سبحانه كل شيء قدَّره تقديرا ليهيئه لِما أراد كهيئة الإنسان للإدراك والفهم والتدبر والاستنباط والتذكر والتفكر والاستقراء والاستنتاج والعمل والتفاعل والتوافق والتكيف ، ولذا قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ [4] . ولذلك فالتقدير والحسبان لم يكونا عبثاً . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ مَّوۡزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ﴾ [5] .

ولأن القاعدة تنص علىٰ أن : (الإلـٰه يَخلُق ولا يُخلق) ، فإن من يعتقد في غير الخالق ضل أي لم يهتدِ إلىٰ سبيل الاستخلاف في الأرض ، ويفقد البقاء الدائم في الحياة الدائمة .

قال الزجاج : « فالخالق في اسم ٱلله تعالىٰ هو ابتداء تقدير النشء ، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين » [6] .

---

(1) الفرقان، 3.

(2) آل عمران، 191.

(3) المؤمنون، 115.

(4) الفرقان، 2.

(5) الحِجر، 19 ـ 21.

(6) تفسير أسماء الله الحسنىٰ للزجاج، ص 36.

ولأن ٱلله أحسن الخالقين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (1) فإن القاعدة تقول : (الخالق يخلق خلاق) فالله خلق آدم وعلمه الأسماء وهي الأسرار ، وخلقه إنساناً وعلمه البيان والحكمة ، حتىٰ استمد صفة الخلق منه جل جلاله وأصبح خلَّاقاً . ولهٰذا فإنَّ أحسن الخالقين تعني : أتقن الخالقين ، وهي تأكيد علىٰ وجود الخالقين بالإضافة ، وهٰؤلاء هم الذين يخلقون ما يُسهم في إشباع حاجاتهم مما خلق لهم خالقهم تعالىٰ . ولٰكن مع عدم التأكيد علىٰ المقارنة ، فإن خالق الخالقين بطبيعة الحال هو الذي لا يقارن بهم وإن قبلنا بمقارنة ما خلق بما خلقوا فإننا نعود للتأكيد علىٰ القاعدة السابقة (الخالق لا يساوي ما خلق) .

الخالق هو ٱلله الذي يخلق الأشياء من اللاشيء ، فبذلك هو خالق الكون بدون حاجة لأداة أو مادة خام أو حاجة لزمنٍ معين ومحدد ، فهو خالق بلفظة « كن » .

فالله تبارك وتعالىٰ هو الخالق ولا خالق سواه وكل ما عداه هو مخلوق فالسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما من أقدار مقسمة من أرزاق وأعمار وأعمال وأقوال كلها مخلوقة ، لأنه هو الذي أوجد جميع الأشياء وركّبها ورتبها ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (2) ، فالخالق لم يخلق هٰذا الكون وهٰذه المخلوقات جميعاً عبثاً وارتجالاً ، إذ أنه ليس من الحكمة خلق الأشياء وإهمالها ، كما هو ظن الكفار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (3) ، بل إنه خلق الخلق جميعاً وأعدهم ليوم الحساب .

(1) المؤمنون، 14 .
(2) المؤمنون 14 .
(3) ص 27 .

وقد أنشأ الخالق وأبدع في الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [1] ، إذاً فالخالق هو المكوّن لهـٰذه المخلوقات والمقدّر لها ، لأنه يخلق الخلق بعلمه المطلق والمسبق ، ثم إنه يقدّر الأرزاق والأعمار وأقواله وأفعاله التي سيقوم بها ويحفظها في اللوح المحفوظ ولكل إنسان منا مكانٌ فيه ، ولكل إنسان قدر يقع عليه من الخالق وحده دون سواه ، لأنه لا أحد يملك القدر إلا الخالق له .

والله تعالىٰ قد خلق العدم ، لأنه لم يكن موجوداً لولا الخالق له ، والخالق سبحانه وتعالىٰ لا يمكن أن يتجزأ أو يتركب من أشياء فهو واحدٌ أحد ،قال تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [2] ، والسورة القرآنية السابقة توضح أن الخالق واحد ليس له شريك من قريب أو بعيد ، لهـٰذا فهو عظيم بوحدانيته وكماله ، وبالتالي لا يمكننا فصل صفة عن صفة فيه ، أو فعل عن آخر لأن القائم بكل الأفعال والمتصف بكل الصفات هو إلـٰه واحد لا يتجزأ ولا يتغير ، وإلا لكانت له بداية ونهاية لأن التركيب والتجزيء لابد له يوماً من التفكك أو التحلل ، أما المخلوق فهو مركب من عدة جزيئات بمجمل اتحادها تتكون المخلوقات وبالتأكيد بتحلل هـٰذه الجزيئات المتحدة وتفككها ينتهي وجود هـٰذا التركيب المخلوق ويفنىٰ هـٰذا الشيء .

والإنسان وهو مخلوق من خلق ٱلله تعالىٰ فقد كانت له بداية يبدأ منها ونهاية ينتهي إليها متىٰ شاء الخالق ، ومن مجموع هـٰذه التركيبات والتقسيمات

---

(1) السجدة 7ـ9 .

(2) الإخلاص 1ـ4 .

تكوّن خلق الإنسان بفعل الخالق وبنفخ الروح فيه .

وخلق ٱلله تعالىٰ الإنسان بتركيبة قابلة للخير والشر ، داعي للخير والفتن ، في دار ابتلاء وامتحان للخلق ، فظهرت للعباد رحمة الخالق وبطشه ، ولطفه وجبروته ، علىٰ حسب درجة الإيمان لكل إنسان ، فالغاية من الخلق أساساً هو عبادة الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] ، فالإيمان الكامل لا يكون بالمعلوم فقط بل أيضاً يشمل الإيمان بخلق ٱلله للغيب .

وقد خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان مكوناً إياه من عدة أشياء :

1 ـ خلق ٱلله للإنسان اللسان :

لإخراج ما في القلب والعقل ، فالتعبير عما في داخل الإنسان يتم عن طريق اللسان أولاً من طيب الكلام وبديع الأفكار هـٰذا من شأنه حدوث التفاعل البشري الفكري والعملي بعد التوصل إلىٰ أعلىٰ مراتب التفاهم ، فالإنسان كائن لا يستطيع الحياة إلا وسط جماعات بشرية تأخذ منه ويأخذ منها ويتفاعلون مع بعض ، وتطلب ذلك لغة ووسيلة للتفاهم فيما بينهم ، وكانت هـٰذه الوسيلة هي اللسان الذي يتكلم بلغة من حوله ، وبذلك هو نعمة من الخالق أهداها لنا وأوصانا بها ، فالخلق متفاوتون في حسن استعمال هـٰذه النعمة ، فبدل أن تكون ألسنتهم شاهدة علىٰ الحق ناطقة به ، داعية للخير ومخرجة لحسن نوايا القلوب ، نجدها أحياناً لا تشهد إلا بالباطل ولا تنطق إلا به ولا نسمع منها إلا سوء القول الناتج عن سوء الفعل ، لأن اللسان يجب أن يكون ترجمة لما في القلب ووسيلة تعبير عما فيه ، فلو كان هـٰذا القلب حاملاً لإيمانٍ صادق نطق به اللسان ، وإن كان حاملاً للكفر والمعصية نطق به اللسان ، وهناك بعض الأمراض التي خُلِقت لألسن الجاحدين والعاصين والمذنبين ، مثل مرض

---

(1) الذاريات 56 .

الافتراء والكذب كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴾ (1) ، فالافتراء علىٰ الخالق الذي خلقهم من أشد ما يمكن أن يتقول به الإنسان ، لأن من خلق لنا اللسان وجب علينا أن نشكره لا أن نوجهه للكفر به ، كذلك مرض النميمة والغيبة ونجد هـٰذا المرض منتشراً بكثرة حتىٰ في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم ، وهـٰذا من شأنه إحداث شرخ في محبة وثقة الناس ببعض ، ويخلق العداوة والبغضاء بين المسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، فالتشبيه هنا من شأنه أن يوضح لنا ما الذي يمكن أن يقودنا إليه اللسان إذا تركناه دون رقيب أو حسيب ، كذلك من الأمراض المهلكة التي تصيب اللسان شهادة الزور ، التي تعمل علىٰ إماتة الحقوق وسيادة الظلم بين البشر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ (3) ، فاللسان الذي لا يشهد الزور هو لسان يخشىٰ الخالق يوم تشهد علىٰ الإنسان الألسن التي سينطقها من خلقها ووهبها لنا ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (4) .

فاللسان إذاً خلقه الخالق رحمةً بنا فجعله بعض البشر نقمة علىٰ نفسه وعلىٰ من حوله ، فمن شأن اللسان خلق مجتمع مسلم مترابط واثق قوي إذا أخضعه الإنسان لخالقه وجعله وسيلة مرضاة له فلا ينطق إلا بما أراد الخالق له ، ويلزم الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكون بذلك

---

(1) النحل 62.

(2) الحجرات 12.

(3) الفرقان 72.

(4) النور 24.

خليفة لله في الأرض بالإصلاح الاجتماعي والمادي والديني بين الناس .

وخليفة ٱلله من كان لسانه بلسماً لقلوب الناس بالكلمة الطيبة ، ومنبراً لدعوة الحق دون خوف أو رهبة من أحدٍ من الخلق ، ناشراً للحب والصدق والرحمة .

2 ـ خلق ٱلله العينين للإنسان :

وهما جزء لا يقل أهمية عن اللسان ، فهما من نعم ورحمة ٱلله بنا فبهما نستطيع إبصار ما في هـٰذا الكون من نعم ٱلله وقدرته وأن نحمده عليها ، فعظمة الجبال تراها أعيننا ، وانتشار النجوم في السماء البعيدة منثورة أمام أعيننا ، وتباين المخلوقات في الألوان والأحجام والأنواع تدركها أبصارنا قبل أي شيءٍ آخر ، والأهم من ذلك أنهما لابد أن يكونا سبباً في حبنا وقربنا للخالق ، وإيماننا بعظمة خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [1] ، فقد أهدانا الخالق هـٰذه النعم لا للزينة والجمال بل لتكون مصابيح تنير لنا طريق الهدىٰ والخير من طريق الضلال والشر ، فالعين تستطيع أن تعاون العقل في تمييز الحسن من القبيح من الأعمال ، فبتأملها وتركيزها تعطي إشارة للعقل بالتحليل للوصول إلىٰ النتائج الإيجابية إذا كانت العين من الأساس عيناً جادة باحثة عن عظمة الخالق ، لذلك نجد أن الخالق قد لفت انتباه الخلق إلىٰ استعمال أبصارهم في أنفسنا أولاً ، وفي هـٰذا الكون ثانياً للوصول إلىٰ منتهىٰ الإيمان والطاعة والاعتراف بوحدانية الخالق الذي انفرد بالخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] ، في هـٰذه الآية الكريمة دعوة من الخالق لنا للتأمل بما أعطانا فيما أعطانا ، إذ أنه وهب لنا العينين تحللان ما حولنا وتنقلان ما في هـٰذا الكون من عظمة تدل علىٰ

(1) البلد 8 ـ 10 .
(2) الذاريات 20ـ 21 .

الخالق العظيم إلىٰ النفس لتطمئن وتطيع وتخشع .

فعينا خليفة ٱلله يجب أن يوجههما للتمعن والتأمل في عظمة الخالق ، فتُنبهان القلب والعقل لهٰذه العظمة التي بدون الإحساس بها يموت الإنسان في الحياة ، حتىٰ وإن كان هٰذا الخليفة فاقداً لنعمة البصر ، فالعين تستطيع أن تبصر من خلال الروح والنفس ، فكم من مبصر هو أعمىٰ تائه في هٰذه الدنيا ضائع في دروب الضلال والكفر ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [1] ، لأن من صفات الكفار والجاحدين فقدانهم لنعمة البصر رغم قدرتهم علىٰ الإبصار بعيونهم ، قال تعالىٰ : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [2] ، إذ أنه لا فائدة تُرْجىٰ من عين لا تخشىٰ الخالق .

وصفة البصر من صفات الخالق تعالىٰ مع الاختلاف فيه ، فالبصر في حق ٱلله هو البصر المطلق الذي لا حدود له ، فهو يبصر ما لا نستطيع إبصاره نحن ببصرنا المحدود ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [3] ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [4] ، لأنه يبصر حتىٰ ما في القلوب والعقول دون الحاجة إلىٰ إخراجه ، فالخالق جل جلاله هو العالم بنا والقادر علينا .

---

(1) البقرة 17ـ18 .

(2) يونس 43ـ44 .

(3) الحاقة 38ـ39 .

(4) الواقعة 83ـ85 .

3 ـ خلق ٱلله السمع للإنسان :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، فالسمع نعمة من نعم ٱلله علينا يهدينا إلىٰ صواب الأمر ، فمن الذي يستطيع أن يسمع كلمات الخالق ولا يؤمن بها ولا يخشع له إلا من كان قلبه وعقله أصمين قبل أذنيه ؟ قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (2) ، أولـٰئك الذين لا يستغلون سمعهم في الوصول للحق والاعتراف به ، فيغيبهم الضلال عن الخالق .

وصفة السمع في حق الخالق تختلف أيضاً عنها في الإنسان ، فسمعه سبحانه وتعالىٰ لا يحده زمان ولا مكان ، كيف لا وهو من وهب لنا هـٰذا السمع الذي نتمتع به ، فسمعه عز وجل ليس مخلوقاً يبدأ ببداية وينتهي بنهاية قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (3) ، فقدرة السمع عند الخالق ليست مقتصرة علىٰ أقوالنا وكلامنا بل تتعدىٰ ذلك إلىٰ ما في الصدور من نوايا الخير أو الشر .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن ينأىٰ بسمعه عن مساوئ القول من توافه الكلام ورذائله وما من شأنه أن يهوي بصاحبه إلىٰ مستنقع الفساد ، فبذلك يحافظ الخليفة علىٰ السمع كنعمة من نعم ٱلله تعالىٰ عز وجل ، لا يسمع إلا طيب الكلام .

---

(1) المؤمنون78 .
(2) الأنفال 20 ـ 23 .
(3) غافر 19 ـ 20 .

وقد أنعم ٱلله علىٰ المتقين بنعمة السمع الطيب سواء كانوا في الأرض أو حتىٰ في جنان الخلد ، قال تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ (1) ، فنوعٌ من الراحة والفرح أن لا يسمع الإنسان إلا ما هو طيب وجميل .

وقد نجد الكثير من الخلق يفتقدون لنعمة السمع رغم تمتعهم بها ، إذ أنه من الجحود والكفر الذي يسكن قلوبهم ما يغطي سمعهم عن قول الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (2) .

4 ـ خلق ٱلله القلب للإنسان :

وهو الذي يجب أن يكون مكمن الطاعة ومستودع المحبة والخضوع والاستسلام للخالق ، ومنذ بداية خلق ٱلله للبشر ساوىٰ بينهم في امتلاكهم له كعضو وجهاز ينبض بالحياة ، لـٰكنهم تباينوا بعد ذلك في جعله منبعاً للخير أو الشر ، أو ملئه بالكفر أو الإيمان ، كلٌ حسب ما سعىٰ إليه في حياته .

فالقلب كما نسقيه يُنْبِت ، فإذا سقيناه الطاعة وحب الخالق أنبت الإيمان والتقوىٰ ، وإذا شرب من المفاسد واللهو أنبت الجحود والكفر ، وفي الحقيقة فإن القلوب هي مركز السمع والبصر والإحساس عامة ، وليس أدل علىٰ ذلك من الذين نراهم حتىٰ يومنا هـٰذا لا يزالون في ضلال وكفر رغم تمتعهم بنعمتي السمع والبصر ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي

(1) مريم 61 ـ 63 .
(2) الأعراف 179 .

ٱلصُّدُورِ ﴾ [1] ، فقد خلق ٱلله تعالىٰ القلوب للإدراك والاستشعار بعظمة الخالق وقدرته ، وللخشية من غضبه ، وللإحساس بحب الخالق وقربه منا ، بذلك تتحقق الراحة والطمأنينة التي يتميز بها قلب المؤمن المحسن التقي الذي استحق أن يكون خليفة الخالق في الأرض ، في المقابل يكون القلق والفزع الدائمان من نصيب القلوب العاصية الكافرة ، إذاً فالطمأنينة صفة ملازمة لقلب خليفة ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] ، لأن الإيمان إذا سكن القلب جلب معه الأمان والطمأنينة من الخالق له ، فحب الخالق حين يتمكن من القلب ويتقدم علىٰ جميع ما فيه من أنواع الحب الأخرىٰ يخلق الأمن والأمان في القلوب المؤمنة .

بعكس القلوب المريضة بالكفر والنفاق والرياء ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [3] ، تلك القلوب التي استضافت الفسوق والنفاق لم تعد نعمة علىٰ صاحبها بل تحولت إلىٰ نقمة تحيط به ، لأن النفاق مرضٌ إذا تمكن من قلب الإنسان حوله إلىٰ مهلكة له ومضيعة ، فالخالق ينفر من هـٰذا المرض الخطير بالإنسان بالأمة المسلمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [4] .

---

(1) الحج 46 .
(2) الرعد 28 .
(3) البقرة 6ـ10 .
(4) التوبة 125 .

5 ـ خلق ٱلله العقل للإنسان :

وهو مركز التحليل والتفكير والتبصر في هٰذه الدنيا ، إذ أنه لا يمكن للإنسان أن يتوصل للحقيقة بدون وجود العقل واستعماله الاستعمال الصحيح ، والعقل البشري هو بحد ذاته يُعَد إبداعاً في الخلق بكيفية عمله وتركيبته العجيبة ، فبطريقه نتوصل إلىٰ فهم وتحليل ما حولنا من غموض أو دلائل ، لذلك نلاحظ أن أكثر مخاطبة الخالق لمن عصىٰ وكفر موجهة للعقل الذي رقد في ظلمات الجهل والضلال : كمثل قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (2) ، إنه التعجب الذي يدرك جوهره العاقل ، فكيف لا يتدبر من كان له عقلٌ صحيح في كل ما يحيط بهم أو حتىٰ في أنفسهم وكيفية معيشتهم وبدايتهم ونهايتهم التي تتكرر كل لحظة أمام أعينهم في الحياة .

لذلك فالعقل لا فائدة منه إذا كان يقود صاحبه للضلال والهلاك ، كمثل عالِمٍ اكتشف واخترع وتوصل إلىٰ علوم جديدة لم يسبقه أحد إليها وما زال عقله تائهاً عن الخالق الذي أوجد كل ما حوله من علوم وحقائق كونية وطبيعية ، فمثله كمثل من لا عقل له ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (3) .

أما خليفة الخالق فإنه لا بد أن يسخّر نعمة العقل لاكتشاف حقيقة الكون

---

(1) البقرة 170ـ 171 .

(2) يس 68.

(3) العنكبوت 63.

ولبيان عظمة الخالق في تصويره فيدرك الإيمان قلبه باكراً ويضيء دربه في الدنيا بنور العلم الحقيقي .

6 ـ خلق ٱلله الإحساس والمشاعر في الإنسان :

لـٰكن الإنسان هو الذي يحركها كيفما يشاء باختياره لنوعية الأحاسيس مهما كانت الظروف المحيطة به ، فالرحمة مخلوقة مع الإنسان والمحبة والصدق والنقاء وكل الفضائل الأخرىٰ ، كما أنه توجد في المقابل الصفات القبيحة التي يكون الإنسان مخيراً في استقبال ما يشاء منها ، لأن القلب مخلوق خصب تنمو فيه بذرة الخير أو الشر بسرعة متناهية .

وخليفة ٱلله يجب أن يوجّه مشاعره كلها لهدف واحد وهو رضا الخالق ، وإذا تمكن حب الخالق من قلب الخليفة خلق فيه أنواعاً من الحب منها :

أ ـ حب النفس :

علىٰ أنها نعمة من الخالق ، وإكرامها بالترفع عن المفسدة والضياع ، فيحافظ عليها كأمانة سيستردها الخالق وقتما يشاء ، وطوبىٰ لمن لقي الخالق بنفس مؤمنة خاضعة خاشعة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) .

وهنا يكون حب النفس ليس من باب التفضيل والأنانية بل كما سبق القول من باب إكرامها وإعطائها حقها من السمو كما أراد الخالق لها ، فالساجد لصنم من حجارة مثلاً فهو يسحق حق نفسه في عبادة وتوحيد ٱلله تعالىٰ ، والمنكر لوجود الخالق لهـٰذا الكون فإنه يسير بذاته إلىٰ وحل الدونية والكفر .

وخليفة الخالق في الأرض هو من يحافظ علىٰ نفسه من الشرور والمفاسد ، ويُبقيها نقية وصافية لحين لقاء الخالق ذلك بالبحث عن معالي

---

(1) البقرة 281.

القول والفعل وبالتحلي بمكارم الأخلاق ، لأن من شأن حسن الخلق أن يرقىٰ بالنفس البشرية إلىٰ أعلىٰ درجات الشرف والتقدير ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة ، قال تعالىٰ في رسوله الكريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) ، هـٰذا الخُلق الذي هو من خَلق الخالق أصلاً قد رفع قدر الرسول عليه الصلاة والسلام حتىٰ بين أعدائه وخصومه ، وقد ترك فينا هـٰذا الخلق لنسير عليه فنكون بذلك خير الأمم وأشرفها ، « عَنْ مَالِك أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَرْزِ أَنْ قَالَ أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » (2) .

ب ـ حب الحياة :

لأن بقيامها تقوم صلة الخليفة بالخالق ، فخلق الحياة من أجل التوحيد والعبادة تستحق أن نحبها لحب المعبود فيها ، هـٰذا الحب الذي يتحكم في نتيجة امتحان الخالق للإنسان في هـٰذه الحياة ، فلما كانت الدنيا دار ابتلاء فإذا أحبها الخليفة حباً للتقرب من الخالق تخطىٰ الامتحان بنجاح وتفوق ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (3) ، لهـٰذا يجب أن يكون الشعور بحب الحياة معتدلاً بين بقية المشاعر الأخرىٰ كي لا يطغىٰ عليها ، ولا يكون هـٰذا الحب هو المحرك الأساسي لحياته .

وحب الدنيا ينقسم علىٰ قسمين ، القسم الأول كما سبق وذكرنا يكون حب الإنسان للحياة علىٰ أنها نعمة من خلق الرحمـٰن فنشعر بمسؤوليتنا عنها وعن الحفاظ عليها ، فحبنا للحياة يكون من حبنا لخالق هـٰذه الحياة وخالقنا .

---

(1) القلم 4.
(2) موطأ مالك ج5، ص374.
(3) يونس 62ـ63.

والقسم الثاني هو من تغلب عليه حب الحياة علىٰ ما عداه من حب ، فتجره هـٰذه الدنيا بمغرياتها ويقضي العمر لاهثاً خلف ملاهي الحياة الدنيا ، فيكون هـٰذا الحب نقمة علىٰ صاحبه ينقلب عليه يوم الحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) ، والحب الذي يعود بالخسارة علىٰ صاحبه هو حب فاشل من الأساس لأن من شأن الحب إذا وجهه الإنسان في الاتجاه الصحيح أن يخلق السعادة الأبدية للإنسان .

ج ـ حب الرسول ﷺ :

لقد فضل الخالق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام علىٰ الخلق أجمعين ، وشرّفه بحبه له ، وقَبِل شفاعته لأمته يوم يقوم الحساب ، بل إنه ربط الشهادتين بالإيمان بوحدانيته تعالىٰ والإيمان برسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في قولنا عند النطق بالشهادتين(أشهد أن لا إلـه إلا ٱلله وأشهد أن محمداً رسول ٱلله) وهـٰذا هو الإيمان الحقيقي ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة 212 .

(2) الأنعام 70 .

(3) النور 62 .

فحب الخالق يخلق في قلب الخليفة حب رسوله الكريم عليه السلام ، فيسعىٰ في الدنيا به مثلاً وقدوة مشرفة يحتذي بها ، ومن أحب رسول ٱلله ـ عليه الصلاة والسلام ـ اتبعه وسار علىٰ خطاه قدر المستطاع .

د ـ حب الوالدين :

من وسع قلبه لحب الخالق وسع حب والديه ، لأنهما مرتبطان ببعضهما البعض ، إذ أنه يستحيل أن تجد من خلفاء ٱلله من هو عاقٌّ بوالديه أو كاره لهما ، فمن أطاع الخالق أطاع والديه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] .

هـ ـ حب العام لجميع الخلق :

يأتي ضمن هـٰذا الحب الأهل والأصدقاء والأقارب والجيران والإحسان إليهم ومعاملتهم بالمعروف واللين ، لأن من شأن حبنا لله خلق هـٰذا النوع من الحب الشامل ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [2] .

و ـ حب الخير :

الخير اسمٌ جامع لكل معاني البر والمعروف والطاعة والإحسان ،

---

(1) الإسراء 23ـ24 .
(2) النساء 36 .

فلا يمكن أن يخلق حب المولىٰ في النفوس إلا حب الخير والسعي فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) .

ز ـ حب الآخرة :

يكون المحب دائماً بشوق للقاء من يحب ، فيكون موعد اللقاء موعداً محبباً لقلبه ، وهـٰذا شعور خليفة ٱلله ؛ إذ إنه يسير في الدنيا بحب الخالق ويخرج منها بحب الخالق ولهفة لقائه يوم الحساب ، لإيمانهم بصدق الخالق في وعده ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) ، ومن أحب الخالق فقد أحب يوم اللقاء به وزهد في الدنيا بما فيها ، لأنه لا يمكن أن يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب إنسان إلا وتغلب أحدهما علىٰ الآخر .

7 ـ خلق ٱلله للإنسان اليدين والقدمين وسائر الأعضاء الداخلية والخارجية :

وكلٌّ لها وظيفة تكمل بها الأخرىٰ فيصل الإنسان إلىٰ مخلوق متكامل الأعضاء والجوارح . فالإنسان مخلوق من عدة أجهزة وأعضاء مختلفة الوظائف تعاون كلٌّ منها الأخرىٰ في تنظيم عملية الحياة للإنسان ، ولتشكيل وحدة متكاملة هي الإنسان الصحيح .

---

(1) آل عمران 104 .

(2) الأعراف 42ـ44 .

فخليفة الخالق لابد أن يكون دائم التأمل في خلقه والشكر والحمد علىٰ ما عنده من نعم سواء أكانت تامة أو ناقصة ، إذ أن نصيب البشر متفاوت منها فنجد بين البشر من هو فاقداً لنعمة البصر أو السمع أو الكلام أو فاقد لأحد الأعضاء أو غيرها ، لـٰكن هـٰذا لا يقف عائقاً في وجه من أراد الحياة كخليفة لأن من أهم صفاته أن يتصف بإحياء البصيرة التي تقوده لتحقيق هدف خلقه في هـٰذه الدنيا .

8 ـ خلق الخالق للقوىٰ الكامنة في الشيء :

التي بواسطتها تنمو بها الأشياء وتتكاثر ، ففي النواة قوىً خفية كامنة تمكنها من النمو إذا توافرت لها الشروط الملائمة لذلك . وكذلك النطفة داخل الإنسان فهي مكمن لقوىً خاصة تمكنها من الإخصاب عند لقائها بالبويضة التي تحمل نفس القوىٰ وباتحادهما وانقسام البويضة والانتقام من مرحلة إلىٰ أخرىٰ ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (1) ، فعملية خلق الإنسان تتم علىٰ مراحل مرتبة متناهية في الدقة تتجلىٰ فيها عظمة الخالق ، إذ أنه بالرغم من تقدم العلوم والطب إلا أنه لم يتم الوصول إلىٰ كنه هـٰذه القوىٰ التي تستمر بها الحياة .

وبما أن كل تلك النعم من خلق الخالق تعالىٰ فهي بالضرورة تأتمر بأمره إذا شاء ومتىٰ شاء ، ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (2) ، فكيف لا تطيع من خلقها وأوجدها ؟

---

(1) المؤمنون 12 ـ 14 .

(2) النور 24ـ 25 .

ومن الظلم تشبيه الخالق العظيم بالمخلوق الضعيف ، لأن ٱلله متفرد ومتوحد في صفاته وأفعاله سبحانه وتعالىٰ ، فهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يفنىٰ .

والخالق بكل ذلك هو متضمن لعدة صفات وأفعال منها :

أولاً : الخالق هو الرحيم بخلقه :

الرحمة في حق الخالق هي اتصافه بالرحمة المطلقة التي تأتي في صور متعددة منها : هو الرحيم بهدايتنا للحق ، والابتعاد عن خطوات الشيطان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) ، فالهدىٰ هو هدىٰ الخالق لخلقه ، بهدف شكر الخلق له وقربهم منه تعالىٰ ، مع أننا نجد الكثير منهم جاحدين ومنكرين ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) ، وهو الرحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين المستغفرين من ذنوبهم ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) ، فرحمته تأتي نجاة وأماناً للمذنب الراجع للخالق ، فاتحة أبواب

---

(1) المائدة 83 ـ 85 .

(2) القصص 73 .

(3) المؤمنون 14 .

(4) الزمر 53 .

الأمل والرجاء مما يحفز النفس المخلوقة علىٰ التوبة والعمل الصالح ، وتوصد أبواب اليأس والخوف ، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه .

والرحيم هو الخالق لكل الخلق لذلك هو فوقهم جميعاً ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [1] ، بمعنىٰ أنه القائم علىٰ أمور الخلق .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يملأ قلبه رحمة وحباً للخلق بصفة عامة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين ، فيكون حبه للمؤمنين متجسداً في حب الخير لهم كما يحبه لنفسه ، ويكون حبه للكافرين بدعوتهم للصلاح والنجاة من الهلاك الذي هم فيه .

ثانياً : الخالق هو الملك :

لأنه خالق فهو ملكٌ علىٰ ما قد خلق ، فيكون له الأمر والنهي فيما خلق يتصرف كيف يشاء بأمره وفعله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [2] ، ففي هاتين الآيتين تأكيد لملك ٱلله ، ففيهما توحيد للخالق بنفي أي معبود سواه مع توضيح عجز قدرة ما يعبد المشركون من آلهة عن الخلق ولأنهم غير خالقين فهم غير مالكين لأي شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [3] ، فهو الخالق الملك الذي استحق الكمال .

---

(1) طه 5ـ 6 .

(2) سبأ 22ـ 23 .

(3) الفرقان 2 .

قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (1) ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (2) .

وخليفة ٱلله هو من يحيي في قلبه حب الخالق الملك ، ومن يراقبه في السر والعلن ، ومن توكل عليه لأنه الأعلىٰ والأقوىٰ ، فأمور العباد بيده .

ثالثاً : الخالق هو السميع البصير :

فكيف يكون خالقاً من لا يسمع ولا يرىٰ ؟ فالخالق عز وجل له القدرة علىٰ سماع السر والنجوىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ (3) .

رابعاً : الخالق هو الأول والآخر :

بما أنه الخالق فلابد أن يكون قبل الخلق جميعاً فليس قبله شيء ، والباقي بعدهم جميعاً فليس بعده شيء ، فالخالق لا بداية ولا نهاية له .

هو الأول بخلقه للخلق وإيجادهم من اللاشيء ، وهٰذا هو أصل الإيمان ، فكل ما حولنا ينطق بهٰذه الحقيقة التي تقر بها القلوب المؤمنة الصادقة ، فهو الأول والآخر له المبدأ وله المرجع ، كما جاء في قوله

---

(1) الحشر 23 .

(2) المؤمنون 116، 117 .

(3) المجادلة 7.

تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ (1) .

ويقين الخليفة بأن له أولاً وآخراً هو ركن معرفة قدرة الخالق علىٰ المخلوق ، فكل شيء له أول وآخر هو مخلوق .

خامساً : الخالق هو المهيمن :

أي : أن الخالق هو المسيطر علىٰ ما خلق ، فلا يخفىٰ عليه أي شيء مهما ضؤُل في ملكه ، وهو محيط بخلقه وبما يقدمونه في الحياة الدنيا ، وبما أنه الخالق العظيم إذاً استوجبت عملية الخلق الرقابة عليهم لحسابهم علىٰ ما قدموه في الحياة الدنيا من صالح الأعمال أو سيئها ، وبهـٰذا فالخالق قائم علىٰ أمور الخلق كلها ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) .

ومن شأن اسم الخالق المتضمن للهيمنة أن يزيد من تقوىٰ خليفة ٱلله في كل قول أو فعل ، وأن يؤمن بأنه المسيطر علىٰ الخلق قويهم وضعيفهم فيغذي هـٰذا الإيمان شعوره بالثقة والقوة فلا يتردد في قول الحق والعمل به .

سادساً : الخالق هو العظيم :

في عملية الخلق لهـٰذا الكون إظهار لعظمة الخالق عز وجل ، فمن مظاهر هـٰذه العظمة ما يلي :

---

(1) الأنبياء 104 .

(2) الحشر 22ـ24 .

عظمة خلق السماوات والأرض وما فيهما من دقة الخلق وقوته ، فمن المعروف مثلاً أن أي ارتفاع لابد أن يكون مسنوداً بأعمدة تحميه من السقوط ، في حين أن ٱلله خلق السماء بدون أعمدة تثبتها ، وبالرغم من ذلك هي ثابتة بإذن الخالق لها ، وتلك النجوم والكواكب المتناثرة فيها بالرغم من كبر حجمها إلا أننا نراها ضئيلة بسبب المسافة البعيدة بيننا ، وكذلك موعد شروق وغروب الشمس اللذان لا يختلفان أبداً ، وتظهر أيضاً عظمة الخالق في خلق الأرض التي نحيا عليها ، بما تحويه من جبالٍ شاهقة ومن بحار ممدودة وأنهار جارية وبما تملكه هـٰذه الأرض في جوفها من البذور والثمار المتنوعة ، قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، فالخالق يثير العقل البشري بهـٰذه الدلائل الماثلة أمامه ليصل إلي الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (2) .

وكذلك تظهر عظمة الخالق في خلق الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ

---

(1) الرعد 1 ـ 4 .

(2) النبأ 6 ـ 16 .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [1] ، لأن الإنسان كمخلوق مجهز بكل هـٰذه الأجهزة الداخلية ، التي تعمل وفق نظام عظيم في دقته فإنه دليل أكيد وقريب لكل العقول التي تبحث عن الخالق ، بما في ذلك تلك العضلات الإرادية واللاإرادية التي تكوّن منظومة الجهاز الواحد ، وكذلك تناسق وظائف الأجهزة الداخلية كل ذلك يوضح عظمة الخالق في خلق الإنسان نفسه ، وهـٰذا العقل البشري الذي يعمل بمنظومة خاصة به تجعل من الإنسان مبدعاً ومخترعاً وعالِماً ، فكيف بخالق هـٰذا العقل ؟!

وتظهر عظمة الخالق في بث الروح في سائر الكائنات الحية ، هـٰذه الروح التي تبقىٰ سراً تكمن في عظمة الخالق فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلىٰ حقيقتها أو التدخل فيها بأي شكل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [2] .

فالخالق عظيم في خلقه لا يستطيع أي كان أن يصل إلىٰ هـٰذه العظمة الإلـٰهية أو إلىٰ سر من أسرارها ، فيجب علىٰ خليفة الخالق أن يكون مطيعاً ومؤمناً بعظمته وقدرته ، لا يصله شكٌّ في هـٰذه العظمة التي من شأنها أن تصغّر كل من يدّعي العظمة في هـٰذه الدنيا .

سابعاً : الخالق هو القادر :

الخالق سبحانه وتعالىٰ إن شاء فعل ، ومشيئته فوق كل شيء وأمره لا راد له ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3] ، فالخلق قدرة لا يتماثل فيها مع ٱلله أحد ، فله تعالىٰ القدرة المطلقة علىٰ التفرد بالأشياء دون الحاجة إلىٰ مساعدة الغير .

---

(1) الذاريات 21.

(2) الإسراء 85.

(3) النحل 40.

وتتمثل مظاهر قدرته في خلقه فيما يلي :

أ ـ بقدرته عز وجل خلق الهداية لمن استحقها من البشر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

ب ـ علمه المطلق الذي لا حد له ولا يستطيع أن يحيط به أحد ، فهـٰذه القدرة الإلهية لا تضاهيها قدرة أخرىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) .

ج ـ قدرته علىٰ خلقه لهـٰذا الكون الشاسع ، ولكل ما يحتويه من مخلوقات مختلفة ، من أرضٍ أو سماء ، من إنسان أو حيوان أو نبات ، وغيرها مما يحويه هـٰذا الكون .

فعلىٰ خليفة ٱلله علىٰ الأرض أن يملك القدرة علىٰ التحكم في شهواته أولاً فيكون بذلك مالكاً لها لا أن تكون هي مالكةً له ، وأن يكون قادراً علىٰ قول الحق والعمل به والسعي بالمعروف بين الناس ، وأن يكون قادراً علىٰ الصبر والثبات عند الحاجة إليها في الدنيا .

ثامناً : الخالق هو الودود :

الخالق ودود فهو المحب وهو المحبوب ، فقد شمل حبه ووده أنبياءه ورسله وملائكته وعباده المخلصين وهو بالتالي المحبوب لهم جميعاً ، يظهر ود الخالق في كل ما حولنا ، سواء في خلقه للهواء الذي ما أن نخرج للدنيا من

---

(1) إبراهيم 4 .

(2) البقرة 255 .

أرحام أمهاتنا إلا ويكون الهواء المحمل بالأكسجين ينتظر رئتينا لتسير عملية التنفس بشكل طبيعي ، وهٰذه الرياح التي تتحرك حولنا فتنثر حبوب اللقاح لتثمر الأشجار لنا ، وكذلك الأمطار المحيية للأرض والإنسان والطير والحيوان ، وجعل كل شيء مسخّراً لنا لتسهيل عملية الحياة للإنسان علىٰ هٰذه الأرض .

إذاً فالخالق يظهر وده للإنسان بكل ما خلق من حوله من أنعام يستفيد منها وطيور وزرع وغيرها مما خلق الخالق لتيسير سبل الحياة له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فإذا كان الخالق بعظمته وقدرته وجلاله ودوداً للإنسان بكل ما سبق ذكره في الآية الكريمة فكيف يكون هٰذا المخلوق جاحداً منكراً لهٰذا الود الجليّ ؟

---

(1) النحل 5 ـ 18 .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (1) .

وخليفة ٱلله هو من تواصل مع الخالق مظهراً كل أنواع ومشاعر الود الصادق له سواء كان بالشكر والحمد أو بالدعوة للتوحيد أو بإطاعة أوامره والخضوع له ، والخليفة يبادل الخالق الود فيظهر أثر ذلك في سلوكه مع نفسه ومن حوله فلا يمكن أن يكون كارهاً لذاته فهي نعمة من الخالق ، ويكون ودوداً مع من حوله لا يؤذي أحداً ولا يتعدىٰ علىٰ غيره ، بل إننا نجد أن محبة الخالق الودود في قلب الخليفة سابقة لأي محبة أخرىٰ ، وتلك المحبة هي من خلق الرحمـٰن المحب لعبده الباحث عن رضاه ، الخليفة له في الأرض .

الخالق هو المصور :

التصوير هو إظهار عملية الخلق بأشكال متباينة ، والتصوير لا يكون مجسداً في الوجوه وتقاطيع الجسد فقط بل يكون التصوير في الخلق فيما يلي :

أ ـ هو المصور بتقسيمه العقول البشرية :

فبالرغم من ملايين البشر الذين مروا في هـٰذه الحياة والذين ما يزالون يسيرون فيها ، وكل هـٰذه الملايين فإن كل إنسان منها يملك عقلاً وتفكيراً يخصه وحده ولا يمكن أن يتطابق مائة بالمائة مع تفكير إنسان آخر حتىٰ وإن كان توأمه ، وفي هـٰذا الخلق تصوير لتباين العقول والتفكير .

ب ـ تصوير الخلق بصور متباينة :

فقد شكّل الخالق البشر بأشكال مختلفة ليس ذلك من باب التفضيل والتميز بل من باب خلق التعارف والتآلف بينهم : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) مريم 96 .

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) ، فقد صوّر البشر وهم في الأرحام وفي مراحل متتالية ليخرج بالصورة التي شكلها الخالق عليها ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (3) .

بذلك يكون علىٰ خليفة الخالق في الأرض أن يحمد ٱلله علىٰ حسن الخَلْق ، وأن يشكره ويرضىٰ بالصورة التي هو عليها فتهدأ نفسه وتتفرغ لحب الخالق وطاعته .

ولو تأملنا في حقيقة الخلق لوجدنا أن الخالق خلق الإنسان وجعله مستأمناً في ملكه بعد أن قبل الأمانة التي عرضها الخالق من قبله علىٰ السماوات والأرض فرفضتها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (4) ، فاستوجبت هٰذه الأمانة التي تباين البشر في حملها أن يكون الخالق رقيباً بعد أن كانت هٰذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان له فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (5) ، ويأتي بذلك الخالق الحسيب علىٰ كل ما قدم هٰذا المخلوق في الحياة الدنيا ، إذ أنه ليس من المعقول أن يدخل في عدل ٱلله مساواة الظالم والمظلوم والموحد والمشرك والمطيع والعاصي ، فاستلزم ذلك الحساب العادل يوم يقوم الناس للحساب علىٰ ما قدموا من أعمال ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا

---

(1) الحجرات 13 .
(2) آل عمران 6 .
(3) الانفطار 6ـ8 .
(4) الأحزاب 72 .
(5) المؤمنون 115 .

لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (1) .

فحكمة وجود الخلق وتباينها وابتلائها لتمييز الموحدين للخالق عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (2) .

وخلق الله تعالىٰ لا ينحصر في الأشياء المادية الملموسة التي تتجسد ، بل هو خالقٌ للأشياء المعنوية التي تؤثر في سير حياتنا مثل :

أ ـ خلقه للأمومة :

الأمومة شعور مخلوق مع الأم بمجرد حملها لجنينها يخلق الخالق هٰذا الشعور داخلها ، ينمو مع نمو الجنين ولا يقف حتىٰ عند بلوغ الابن لسن متقدمة ، لأنه شعور مخلوق يعيش في النفس طالما هي تحيا وتتنفس ، فهو شعور ينمو رغم التعب والألم والانتظار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (3) .

ب ـ خلقه للأبوة :

الأبوة شعور مختلط بين الحنان والمسؤولية والشدة ، يخلقه الله تعالىٰ في داخل الرجل عند خروج الجنين للحياة ، فتصبح حياته من أجل هٰؤلاء الأبناء

---

(1) الزلزلة 1 ـ 8 .

(2) الأعراف 35، 36 .

(3) الأحقاف 15 .

لتوفير ما يلزمهم من جميع النواحي المادية والمعنوية .

ج ـ خلقه للإنسانية :

الخالق جعل أصل العلاقة بين الأفراد والجماعات والدول قائمة علىٰ أساس العدل والأمان والسلام ، سواء كانت هـٰذه العلاقة تجمع ما بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرىٰ ، فخلق الخالق الإنسانية لتضم قلوب البشر لبعض فيشعرون ببعضهم البعض بذلك تتحقق الغاية السامية والنبيلة من خلقنا إذ أنه بتوحيد ٱلله وإقامة الحق يصلح الكون وتعمر الأرض باستقرار هـٰذه المبادئ السامية . وهـٰذه الرابطة الإنسانية قابلة للنمو والبقاء وهي أقوىٰ من رابطة الدم أو الوطن أو اللغة .

إن غطىٰ هـٰذا الشعور كل نواحي وجوانب الإنسان في معاملاته ومشاعره لحقق بصدق رسالته في الأرض من دعوة للخير والإصلاح ، فلا يمكن توقع الخير من إنسان منزوع الإنسانية ، وتتمثل الإنسانية في عدة صفات منها علىٰ سبيل الذكر لا الحصر :

1 ـ الرحمة والحب :

وهما أساس الفضائل في الأحاسيس ، لأن نبع النقاء والصفاء في الروح هـٰذان الشعوران ففيهما تكمن الإنسانية . ولقد اتصف الخالق بهما قبل المخلوق مع الفارق ، فالخالق رحمته وحبه لا يحدهما زمان ولا مكان مطلقان يوزعهما كيف يشاء بعلمه المطلق ومشيئته ، وهو السابق بهما علىٰ الخلق ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ (1) ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (2) ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا

(1) الإسراء 100 .

(2) الأنبياء 107 .

يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (1) ، فالخالق هو المالك للرحمة العامة يتصرف فيها كيفما يشاء ، فهو يرحم من يشاء من عباده بعلمه وقدرته ، والمخلوق حاجته لرحمة الخالق لا تنقطع لأنه خطاء كثير الزلات ، فعند تعثر الإنسان من متاعب الدنيا ومشاغلها يبحث عن واحة يستظل بها ويستريح عندها لن يجد هـٰذا المخلوق إلا رحمة الخالق تعالىٰ .

والحب مخلوق جميل ولطيف وهو أساس العلاقات الصحيحة والقوية سواء كانت بين العبد وربه أو كانت بين العباد أنفسهم ، وأروع وأعظم حب هو حب الخالق لأوليائه وعباده الصالحين ، فهو حب نقي لا يدخله زيف أو مصلحة ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، فقد سبق حب الخالق حب المخلوق كما جاء في الآية السابقة ، فهو الأول والأقوىٰ في حبه ورحمته بمن خلق .

فمن كان خليفة الخالق لابد أن يكون محباً لله ولنفسه ولمن حوله ، هـٰذا الحب الذي ينضح به قلب يعمر بحب الخالق عز وجل .

2 ـ الاعتراف بحق الإنسان وحماية كرامته :

الخالق عز وجل هو الذي كرّم الإنسان أولاً بأنه إنسان وهـٰذا كافٍ لنتأكد من أنه له حقوق وواجبات بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَـٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلۡنَـٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ﴾ (3) ، ومن دلائل تكريم الإنسان

(1) فاطر 2 .
(2) المائدة 54 .
(3) الإسراء 70 .

أن ٱلله قد خلقه بيده ، وجعل الملائكة تسجد له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ (1) ، وسخّر الخالق كل ما علىٰ الأرض لخدمة هـٰذا المخلوق ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾ (2) ، وهـٰذا التكريم للإنسان من أجل خلافة هـٰذه الأرض وإعمارها ، ولأن هـٰذا المخلوق المكرّم عند ٱلله كان من الضروري الحفاظ علىٰ حقه في الحياة الكريمة وحقه في الحرية التي تضمن الحفاظ علىٰ كرامته كآدمي وحقه في إبداء الرأي وغيرها من الحقوق التي شرعها الخالق له بل خلقها معه .

د ـ خلقه للقوة :

هـٰذه القوة التي يستمد المؤمن منها القدرة علىٰ الدفاع عن الحق ، وتطبيق أوامر الخالق ، والمحافظة علىٰ ما استخلفنا فيه الخالق يتطلب القوة المعنوية والجسدية ، وهـٰذا كان نهج رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ومن معه فوصلوا بهـٰذه القوة المعنوية والجسدية إلىٰ أقاصي الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (3) .

هـ ـ خلقه للممكن والمستحيل :

فالخالق عز وجل قد خلق الممكن والمستحيل معاً ، فكل مستحيل بقدرة الخالق يتحول إلىٰ ممكن إذا شاء دون أدنىٰ تدخل منا ، ولنا في القرآن الكريم أصدق الأمثلة علىٰ خلق المستحيل من الممكن ، كما في قصة السيدة

---

(1) الأعراف 10، 11 .

(2) لقمان، 20 .

(3) الفتح 29 .

مريم بنت عمران إذ أنها أنجبت دون أن يمسسها بشر كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ (1) ، أو حتىٰ أن يتكلم من كان وليداً صغيراً كما نطق المسيح بن مريم حين كان في المهد ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (2) ، فبالرغم من استحالة ما قد سلف ذكره إلا أن الخالق أوجده كعبرة ودليل علىٰ قدرته وعظمته .

وخلقه للمعجزات :

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة ، إذ أنه يكون مخالفاً للعادة ، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلها التاريخ ، ولٰكن إذا تأملنا في حقيقة هٰذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخْلَق من الأساس من اللاشيء بل أنها استُمِدت من أشياء قبلها قد خلقها ٱلله تعالىٰ من قبل ، فمثلاً الأهرامات العجيبة التي تُعَد في مقدمة المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرىٰ في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو وجودها ، فما كان عليه إلا أن أبدع في طريقة البناء ، علىٰ خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ

(1) مريم 20 ـ 21 .
(2) مريم 29 ـ 33 .

﴿ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [1] ، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالمكوث في بطنه وقتاً وهو علىٰ قيد الحياة دون أن يموت ! وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [2] . فمن الإعجاز أن تأتمر الريح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك ، فلو حاول الإنسان أن يجرب كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجزوا أشد العجز عن تحقيق ذلك لأنهم غير قادرين علىٰ خلق المعجزات .

فالمعجزات الحقيقية هي من صنع الخالق ، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق ٱلله ، فالخالق سبحانه وتعالىٰ يكون في حق ٱلله وحده ، أما الخلّاق فإنه اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ ، وقد يصح أن يطلق علىٰ الخليفة إذ أنه لا يكون خالقاً بل خلاقاً ، مما خلق الخلاق العظيم ، فالإنسان يحتاج إلىٰ مواد خام ليستطيع أن يخلق شيئاً ، فمثلاً هو لم يخلق الحديد لـٰكنه استطاع أن يصنع من هـٰذا الحديد الكثير من الأشياء ، وغيرها من الصناعات التي تُبْتَكر علىٰ يد الإنسان الذي وهب الخالق له العقل للتفكير والابتكار والتحديث .

ز ـ خلق الخالق للعلم :

العلم مخلوق من عند الرحمـٰن عز وجل ، ينمو ويكبر مع الإنسان وقد يصغر ويتلاشىٰ أيضاً إذا لم يُعْتَن به ويُرَاعىٰ ، والعلم صفة من صفات الخالق إلا أن العلم المخصوص بالله هو العلم المطلق غير المحدود ، العلم الذي لا يصل إليه كائن من يكون من الجن أو الإنس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ

(1) الصافات 139 ـ 147 .

(2) الأنبياء 81 .

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) .

ولقد أمرنا الخالق بالتزود بالعلم الذي من شأنه رفع قيمة البشرية إلىٰ أعلىٰ مستويات الرقي والإيمان ، لأن العلم إذا كانت الاستفادة منه في الاتجاه الصحيح تَرفَّع الإنسان به عن كل أنواع الضلال والرذائل ، فالعلم يصل بالإنسان إلىٰ توضيح الحقائق من حوله وكشف الأمور وتجليها كي لا يكون علىٰ جهل بما يحيط به ، الأمر الذي نفّر منه الخالق إذ أنه دعا البشر للعلم والمعرفة للوصول إلىٰ حقيقة عظمته وإبداع خلقه ، ولذلك فقد كرّم الخالق المخلوق برفع درجاته عنده إذا كان من أصحاب العقول النيّرة بالعلم الذي من شأنه أن يقف بصاحبه علىٰ أبواب معرفة الخالق وبالتالي الخشوع له وخشيته ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (3) ، وكذلك جعل العلم علامة تمييز بين الناس ، إذ أنه لا تقارب ولا تشابه بين من يدرك ومن لا يدرك الحقائق والثوابت ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ

---

(1) البقرة 30 ـ 33 .

(2) البقرة 255 .

(3) فاطر 27 ، 28 .

وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (1) .

فخلق ٱلله للعلم هو رحمة بالإنسان ، لأن العلم من شأنه أن يجعل الإنسان يعرف الخالق فيقدره حق قدره ويجلّه ويعظمه ، ويستشعر بضعفه وقلة حيلته أمام ٱلله عز وجل ، فتكون بذلك الصلة بين الخالق والمخلوق صلة تقدير ومحبة ، بعكس الجهل الذي يهوي بصاحبه إلىٰ أرذل المستويات بالجحود والضلال اللذين يميتان أي صلة بينه وبين الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (2) .

ولتأكيد الخالق علىٰ أهمية العلم في الحياة بشتىٰ مجالاتها فإننا نجد أن آخر الرسالات السماوية التي نزلت علىٰ نبينا محمد ﷺ قد بدأت بالدعوة والأمر إلىٰ القراءة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (3) .

إن الخالق هو العليم الذي لا حدود لعلمه فكيف يرتضي لخليفته الجهل والضلال بعد أن استأمنه علىٰ خلافة الأرض ، إذ أنه ليس من خلفاء الخالق من جاهل أو ضال .

وليكن خليفة الخالق في أرضه حريصاً علىٰ الحفاظ علىٰ العلوم الموجودة في الحياة والاستفادة منها بالشكل الإيجابي الصحيح ، وأن يدرك أنه بهٰذا العلم سيتعرف علىٰ الخالق فلا يجادل فيما يخص هٰذا الخالق العظيم الفائق القدرات ، وسترتفع مرتبته في الدنيا والآخرة ، مع أنه مهما تعرّف عليه فلن

---

(1) الزمر 9 .

(2) الحج 73 ـ 74 .

(3) العلق 1 ـ 5 .

يستطيع أن يوفيه حقه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

وصحيح أن جميع الخلق هم للخالق الواحد الأحد ، لـٰكنهم مختلفون فيما بينهم ، فقد تدرجوا في الأفضلية عند ٱلله ، فأفضل البشر هم الأنبياء والرسل ، وأفضل الرسل والأنبياء هو سيدنا محمد عليه صلوات ٱلله وسلامه ، وأفضل الأمم هي أمة محمد ﷺ في الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (3) ، وفضّل ٱلله من أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلفاءه في الأرض المصلحين ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (4) ، فقد جعل الخالق شرف خلافة الأرض لهـٰؤلاء العاملين بطاعة ٱلله والخاشعين والمصلحين ، فكان لهم ذلك التفضيل علىٰ باقي أمتهم الذين لم يتوحدوا في درجة طاعة وحبهم واستسلامهم للخالق ، فخُلق هـٰذا التفاضل بين العباد ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ

---

(1) الزمر 67 .

(2) آل عمران 110 .

(3) الحشر 18 ـ 20 .

(4) النور 55 .

ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1] ، فالتفاضل إذاً يكون مخلوقاً أساساً وموجوداً لوجود هٰذا التباين في الأعمال حتىٰ بين المسلمين مثل اختلافهم في حبهم للإنفاق قد خلق درجات الرضا عنهم ، وكذلك حبهم للتضحية في سبيل ٱلله .

ولكي تصل إلىٰ درجة التفضيل هٰذه لابد أن يكون الخالق حاضراً معك في ركن من أركان حياتك وفي كل زاوية من زوايا النفس ، فتتجه إليه بالتقدير والإجلال أولاً وأخيراً ، ولا نكون كالذين نراهم يستشعرون الرهبة والتقدير والخوف أمام أفراد آدميين يعلونهم مكانة ومرتبة في الحياة ، فنجدهم مرتجفين متأدبين في حضرة أحد الشخصيات المهمة ، في حين أن هٰذا التقدير والأدب لا يحضره وهو أمام خالقه العظيم حين يتعدىٰ حدود ٱلله أو حين يقصّر في واجب من واجباته تجاه الخالق الجليل ، مع أنه الأحق بالخشوع والطاعة والتقدير ، وكيف لا يستحق وهو من خلق الخلق جميعاً فيسبح له ويخشع كل من في السماوات والأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [2] ، فمن هو الذي لا يقدر الخالق حق قدره بعد ذلك إلا الجاهل بعظمته ؟

وخليفة الخالق هو من تيقن أن ٱلله لم يخلق الخلق لقلة أو لعزة ، فهو الغني الحميد ونحن الفقراء الضعفاء .

فعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يؤمن بالخالق إيماناً يجعل قلبه مشرّعاً للخير عاملاً بشريعته ، ويؤمن بالقدر ومشيئة ٱلله تعالىٰ ويرضىٰ بحكم الخالق عز وجل .

---

(1) النساء 95.

(2) الحج 18.

اللهمَّ يا الخالق لَقَدْ كَرَّمْتنَا وَحَمَلْتنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْتنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْتنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْت تَفْضِيلاً فاجعلنا يا الخالق في أحسن تقويم ، واجعلنا من أبناء أمة يهدون بالحق وبه يعدلون !

اللهمَّ إنك قَدْ خَلَقْت فَوْقَنا سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّت عَنِ الْخَلْقِ غَافِلاً فلا تجعلنا يا الخالق من الغافلين ! اللهُمَّ إنك خلقت السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالحق فاجعلنا علىٰ الحق مصلحين لا ظانين بالإثم ولا مفسدين !

اللهمَّ إنك قد خلقتنا وَتَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنْفُسُنا ، وما تفكر فيه عقولنا ، فاجعل أنفسنا بذكرك آمنة مطمئنة ، وعقولنا بعلمك علىٰ الصراط المستقيم . ولا حول ولا قوة إلا بك رب العالمين !

اللهمَّ إنك خلقت من كل شيء زوجين ، فاجعلنا وأزواجنا علىٰ حبك وحب رسولك محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ متلاقين متحابين ، واجعلنا من الذين يتذكرون القول ، فيتبعون أحسنه !

✍ ✍ ✍

البَارِئُ جلّ جلاله

البارئ : « يقال برأ ٱلله الخلق فهو يبرؤهم برءاً إذا فطرهم » [1] .

البارئ : « هو الذي أبرأ الخلق ، وفصل كل جنس عن الآخر ، وصور كل مخلوق بما يناسب الغاية من خلقه » [2] .

البارئ : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ يحتوي في مضمونه البراءة من الشريك والصاحبة والولد ، وهو الخالق الذي لا يُخلق . وهو الذي تعود له أفعال الخلق الكاملة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [3] .

والبريء من قُضي ببراءته من التهم . والبارئ من لا تلحقه التهم ، وليس بناقص . ولذا فإن البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق وليس بناقص ، والبارئ بالإضافة هو أيضاً لا تلحقه التهم وإن رُمي بها ، ولٰكن ليس بكامل ، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق .

ولأن البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس ، فإن من يرمي أحداً بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتاناً مبيناً مصداقاً لقوله تعالىٰ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 37 .
(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 18 ، ص 15 .
(3) الانفطار ، 6 ـ 8 .

بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ (1) .

وفي اللغة البراء مرادف لبرئ ، والتبرؤ إنكار لباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾ (2) أي : إنه لا يعترف بما يعبدون من دون ٱلله ، ويُقر بأن ما يعبدونه باطل ويكفر به .

والمبرأ هو المستخلف في الأرض وذلك لأنه خُلق صالحاً ومناسباً لأن يكون خليفة فيها ، ولهـٰذا الأمر برأ ٱلله تعالىٰ الإنسان أي استحدثه وأوجده من الشيء المخلوق من لا شيء ، وذلك لأداء المهمة والغاية التي خُلق من أجلها أو خلق إليها ، وهي الإصلاح في الأرض .

البارئ هو الخالق العادل المُقدِّر لكل شيء تقديراً ، ولأنه البارئ فهو الذي لا يظلم أحداً ويكيد كيد الكائدين ، ومكر الماكرين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ (4) .

البارئ هو الذي يُبرئ المظلوم مما ظُلم به ، كما برأ موسىٰ عليه الصلاة والسلام من الذين آذوه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ (5) .

والبراءة نزاهة من غشٍ ، وطهارةٍ من دنسٍ ، وتخلص من ذنب ، من أجل التمسك بالحق واتباعه . ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا

---

(1) النساء، 111، 112.

(2) الزخرف، 26.

(3) الطارق، 15ـ17.

(4) الأنفال، 30.

(5) الأحزاب، 69.

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

والباري بالإضافة هو المُبرَّأ من المعصية ، والمتصف بالطاعة ، وهو الذي يعرف الحق فيتبعه ويعرف الظلم فيجتنبه ، وهو الذي يؤمن بالكمال الإلهي ويؤمن بانعدام التماثل والتطابق معه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (2) . أما أولـئك الذين يتبرؤون من أعمال الخير ويلبسونها بالباطل فهم الذين يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأفعالهم حتىٰ يتصفوا بالبراء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يكونون من المستخلفين الوارثين في الأرض ولا يكونون من أصحاب الجنَّة .

والتبرؤ الحق هو التخلي عن ارتكاب مسببات الذنوب والآثام ، في مقابل التمسك بمُصلِحات الأمور ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَۙ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ (3) . والتبرؤ الباطل تخلي عن قول الحق وفعله وفي هـٰذا الأمر قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (4) . ولذا فإن البريء الحق من لا يرتكب ذنباً ولا خطيئة ، والبريء الباطل هو من لا يفعل خيراً إلا افتراء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (6) .

---

(1) الأنعام، 19.

(2) الشورىٰ، 11.

(3) التوبة 3.

(4) يونس، 41.

(5) هود، 35.

(6) النساء 111 ـ 112 .

البارئ اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (1) . هو ٱلله الخالق ، الذي خلق الشيء ثم خلق منه الأشياء ، ولأنه الخالق الأعظم ، فهو البارئ الأعظم المكون لِما خلق ، أي أنه المُقدِّر والعارف بالحالة التي يكون عليها الخلق بجميع أنواعه وخصائصه ، من يوم خلقه حتىٰ يوم بقائه من بعد بعثه . ولذا فلو لم يكن الخالق ما كان البارئ ، ولو لم يكن البارئ ما كان المصور ، فهو عز وجل يخلق الشيء من لا شيء ، ويبرأه بالخاصية التي تميزه عن بقية الخلق ، ثم يصوِّر كل شيء كما يشاء . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (3) . إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين معه هم براء مما يعمل المشركون ، وهم المستخلفون في الأرض ليحكموا بما يُرضي البارئ عز وجل .

وبرآء جمع : بريء ، وهم الذين آمنوا بالبارئ المصوِّر عز وجل ووحَّدوه وكفروا بما يعبد المشركون من آلهة وأصنام .

والبارئ هو الخالق جل جلاله ، وبارِئكم هو خالقكم بعناية وإحكام وعن بينة بحالكم قبل خلقكم ، وهو الخلق الذي من بعده تصورون في الأرحام حتىٰ يتم الاكتمال الخلقي للكائنات عاقلها وغير عاقلها ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟

---

(1) الحشر ، 24 .

(2) آل عمران ، 6 .

(3) الممتحنة ، 4 .

أَنفُسَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ [1] . فتوبوا إلىٰ بارئكم تعني : توبوا إلىٰ خالقكم الذي خلقكم في أحسن تقويم . وخير لكم عند بارئكم تعني : خير لكم عند خالقكم تعالىٰ . ولهٰذا فالبارئ عز وجل هو الخالق جل جلاله .

البارئ هو خالق المخلوقات ومميز كل واحدة منها بما تمتاز به من خاصية أو ميزة ، ولأنها مخلوقات البارئ عز وجل فهي في ظاهرها لا تتماثل ولا تتساوىٰ ، وفي خلقها تتساوىٰ أمام العناية الربانية حيث ينعدم الاختلاف مصداقاً لقوله تعالىٰ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْۚ ﴾ [2] لا فرق بين الأمم المخلوقة من البارئ عز وجل ، فهي جميعاً خُلقت تحت الرعاية الإلهية وبأمر الخلق (كن) وجميعها خُلقت وأرزاقها علىٰ ٱلله سابقة عليها دون فرق أو تمييز غير عادل ، كلها في حاجة ، وجميعها تشبع وتروىٰ ، وجميعها لا تموت قبل يومها ، وجميعها تستجيب لله تعالىٰ بالسجود وتسبح بحمده . والمقصود من ذلك الدلالة علىٰ كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره سبحانه ما أعظم شأنه !

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ ﴾ [3] . عرفنا في هٰذه الآية الكريمة القضايا الآتية :

القضية الأولىٰ : أن كل ما في السماوات والأرض يسجد لله تعالىٰ ، وهٰذا يدل علىٰ أن السجود لم يكن مقتصراً علىٰ السمٰوات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، بل أنه يعم كل من هو في كل منها ؛ وهٰذا يدل علىٰ أن الحياة هي في كل السماوات والأرض التي لم تكن الشمس والقمر والنجوم

---

(1) البقرة، 54.

(2) الأنعام، 38.

(3) الحج، 18.

جزاء منها حيث لو كانت لما ذُكرت بمسمياتها إضافة للسمـٰوات والأرض .

القضية الثانية : في قوله تعالىٰ : (وكثير من الناس) تؤكد علىٰ التبعيض الموجب ، وعلىٰ أنَّ المخلوقات جميعها تسجد لبارئها تعالىٰ إلا بني الإنسان وكذلك الجن منهم الصالح والطالح لا يسجدون جميعاً ، فسبحان ٱلله لقد فضَّل ٱلله بني الإنسان وخلقهم في أحسن تقويم وهم الذين يتبرأ بعضهم من السجود لله تعالىٰ . والموجب من هـٰذه القضية أنَّ الساجدين هم الخلفاء في الأرض والوارثون فيها والجنة من بعدها .

القضية الثالثة : التبعيض السالب بقوله جل جلاله : (وكثير حق عليهم العذاب) وهـٰؤلاء هم العصاة الذين أبوا السجود لبارئهم تعالىٰ ، وهـٰؤلاء هم الذين لا يستخلفون في الأرض حيث إضمارهم علىٰ الإفساد فيها بغير حق . ولذا فإنهم هم الذين تلاحقهم اللعنات وهم أصحاب النار خالدين فيها أبداً .

المبرؤون هم المنزهون ، والبارئ عز وجل هو المنزه بالمطلق فلا يلتصق به شيء سوىٰ صفاته الحسان ، لا إلـٰه إلا هو سبحانه ، فلو لم يكن خالقاً ما كان بارئاً ، ولو لم يكن بارئاً ما كان مصوراً ، ولأنه ٱلله تعالىٰ فهو الخالق البارئ المصور وله الأسماء الحسنىٰ .

ولأن المبرئين هم المنزهون قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] . الخبيثات والخبيثون هم المبرؤون من التطهر وذلك لِما لحق بهم من انعدام الطهارة وعلق بهم من رجس وأدران . أمَّا الطيبون والطيبات فهم المبرؤون من الخبائث والنجاسة والوساخة ، وذلك لِما علق بهم من طيب وما لحقهم من طهارة في النفس والبدن .

(1) النور، 26.

ويقال هٰذه الآية نزلت لتبرئ عائشة وصفوان رضي ٱلله عنهما ، مما قيل فيهما بغير حق ، فالمبرؤون بآيات ٱلله تعالىٰ الأنبياء والصالحون من العباد فيوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما رمي بالفاحشة برأه ٱلله تعالىٰ ، وموسىٰ عليه الصلاة والسلام برأه ٱلله تعالىٰ من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم عليها السلام لما رميت بالفاحشة برأها ٱلله تعالىٰ علىٰ لسان ابنها عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وأن عائشة رضي ٱلله عنها لما رميت بالفاحشة برأها ٱلله تعالىٰ بالقرآن [1] . وهٰكذا دائماً يبرئ ٱلله تعالىٰ عباده الصالحين رجالاً ونساء مما يرميهم به المبطلون . قال تعالىٰ علىٰ لسان يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [2] . ويوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتىٰ لا يظن فيما يقول مع أنه الواثق من نفسه بأنها لم تأب ارتكاب ما رميت به إلا أن شهادة الشاهد من أهلها كانت قول حق كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ [3] .

ولأن الباري بالإضافة يؤمن بالبارئ المطلق فهو يُبرأ بالآتي :

1 ـ الإيمان بالله ورسله وكتبه وأمره تسليماً وطاعة : قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء الثاني عشر ، ص 211 ـ 212 .
(2) يوسف ، 53 .
(3) يوسف ، 25 ـ 28 .

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [2] .

2 ـ تكفير السيئات والخطايا : فالنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [3] ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] .

3 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قال عز وجل ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [5] وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [6] .

4 ـ إحقاق الحق وإزهاق الباطل قولاً وعملاً : قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾ [7] وقال جل جلاله : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [8] .

5 ـ الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم

(1) البقرة، 285.
(2) النور، 52.
(3) هود، 114.
(4) يوسف، 53.
(5) آل عمران، 104.
(6) الحج، 41.
(7) الأنبياء، 18.
(8) الإسراء، 81.

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (2) .

6 ـ البقاء علىٰ خاصيته الإنسانية التي برأه عليها البارئ عز وجل : قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ (4) .

7 ـ تذكُّر قول الله والتوقف عنده : قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (5) وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (6) .

8 ـ التفكر في خلق الله والتطلع إليه : قال تعالىٰ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا

---

(1) الأعراف، 85.

(2) الأنبياء، 105.

(3) التين، 4.

(4) البلد، 4ـ20.

(5) مريم، 67.

(6) الأعراف، 201.

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (1) .

9 ـ الحفاظ علىٰ أحسن تقويم دون غرور : قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (3) .

10 ـ التصديق والتقوىٰ : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (5) .

البراءة صفة تستمد من صفة البارئ عز وجل ، الذي برأ نفسه بالوحدانية والقدرة المطلقة ، وبرأ المؤمن المستخلف في الأرض من النار وبرأه من الشرك به ، ولذا فإن براءة المؤمن من النار تورثه الأرض وتبعثه مقاماً محموداً . ولأن

(1) آل عمران، 191 ـ 194 .
(2) الانفطار، 6 ـ 19 .
(3) لقمان، 33 .
(4) الزمر، 33 ـ 35 .
(5) الإسراء، 80 .

البراءة تستمد من الخالق فهي تسري في مراحل المخلوق الآتية :

ـ **المرحلة الأولىٰ براءة الخلق** : تبرئة المخلوق بخلقه ، الذي سيظل عليه كائناً بخاصيته التي تميزه عن غيره من المخلوقات . فالإنسان خُلق مبرأً بخاصية الإدراك الواعي بالتفكُّر والتذكُّر والاستقراء والاستنباط والتخيل والتذوق المعرفي للكلمة والمعنىٰ والصورة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [1] .

فببراءة الخلق كانت الجينات البشرية خاصة بالنوع البشري ومختلفة عن جينات الأجناس الأخرىٰ من الكائنات والحيوانات التي بُرِّئت بخواصها المميزة لها عن خواص غيرها مما جعلها تتعدد وتتنوع وتختلف بطبائعها ووظائفها ، وحياتها وعلاقاتها .

ـ **المرحلة الثانية براءة الصورة** : لقد برأ البارئ الإنسان من العيوب والنواقص التي تلتصق بالحيوانات والمخلوقات الأخرىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [2] في أحسن تقويم تعني : في أحسن صورة ، أي في أحسن ما ينبغي أن يكون المخلوق عليه شكلاً ومضموناً ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [3] هٰذه الآية الكريمة تؤكد خاصية التمييز التي يتميز بها الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرىٰ ولذا قال تعالىٰ : ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [4] وهٰذه البصيرة هي التي يمتاز بها من خُلق في أحسن تقويم إذا ما قورنَ بغيره من المخلوقات الأخرىٰ التي تمشي علىٰ أربع أو تزحف وتمشي مكبة علىٰ وجهها وجميعها مسخرة للإنسان الذي

(1) الكهف، 54.
(2) التين، 4.
(3) الملك، 22.
(4) القيامة، 14.

يُراد له أن يكون خليفة في الأرض لِما يمتاز به من معرفة وإدراك وقامة وبصيرة لم تعط لغيره من المخلوقات التي خلقت من أجل الإنسان وخلق الإنسان من أجل عبادة ٱلله ومن أجل رعايتها ليمدها بالعناية من أجل بيئة سليمة وجميلة تمده بمحسنات الذوق الرفيع . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1] .

ـ **المرحلة الثالثة براءة القول** : الإنسان العاقل هو الذي يميز بين ما يجب ويُقْدم علىٰ اتباعه وبين مالا يجب ويبتعد عن الإقدام عليه ، والخليفة هو المبرأ بتوحيده لله تعالىٰ من قول الشرك وقول الباطل والزور ، وإذا حكم بين الناس حكم بالعدل ، وإذا شهد قال الحق ولا شيء غير الحق ، وهو الذي يخاف ٱلله في كل ما يقول ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [2] .

ـ **المرحلة الرابعة براءة الفعل** : ولأن الخليفة هو الذي يخاف ٱلله عز وجل ، فهو الذي لا يُقدِم علىٰ أداء ما حرَّمه ٱلله عليه ، وفي هٰذا الامتناع تبرئة له من أن يرتكب ما لا يُرضي ٱلله جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3] . إنَّ مرحلة الفعل هي مرحلة العمل التي يُبرأ بها الإنسان من الكسل ومن الاعتماد علىٰ غير ٱلله ، ولهٰذا فبالعمل الصالح يجازىٰ الإنسان خيراً ، وبالعمل الطالح يجازىٰ عذاباً شديداً إن لم يغفر ٱلله الذنب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [4] . ولأن العمل هو الذي يُبرأ به الإنسان فجعله البارئ خليفة له في الأرض ليعمل الأعمال الصالحة

---

(1) القيامة، 22، 23.
(2) القيامة، 36.
(3) البقرة، 62.
(4) يونس، 41.

ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق . ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(1)] . بالعمل الصالح ينال العاملون المكانة الرفيعة ، ويمتازون عمن لا يعملون الصالح الذي يُرضىٰ . ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [(2)] .

ـ **المرحلة الخامسة البراءة من الحياة الدنيا مما جعل الموت رحمة** : الدار الدنيا دار فانية ، والإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لا يراد له أن يفنىٰ بفنائها ، بل يُراد له البقاء من بعدها في الدار الآخرة (دار البقاء السرمدية) ، ولذلك فمن يرضىٰ بالحياة الدنيا لن يكون له في الآخرة من نصيب ، ومن يعمل صالحاً في الدار الدنيا ينال النصيب الأوفر في الدار الآخرة ويفوز بالجنة . ولأن الدار الدنيا دار منقوصة ، فإن المؤمن هو الذي لا يقبل بربط مصيره بها ، كما يعمل الكفرة وأصحاب الظنون . ولهٰذه الأسباب يُبرئ ٱلله المؤمنين من اقتصار حياتهم عليها ، فيميتهم ليبقوا من بعدها أحياء عنده يرزقون . ولذا فإن الموت هو المنقذ الوحيد من الدار الدنيا الذي من بعده تُفتح للمؤمنين أبواب الجنة .

ولأن المستخلفين في الأرض يؤمنون بأن الدار الدنيا فانية ، والدار الآخرة باقية ، ويعلمون علم اليقين لا يبقىٰ في الدار الآخرة إلا المؤمن فعملوا عليها بما يمكنهم من العيش فيها عيشة راضية ، وبعيشهم فيها يجدون أنفسهم مبرئين من النار ، وباقين في الجنة .

ـ **المرحلة السادسة البراءة من الموت** : من المتعارف عليه عند العامة أن الموت باقٍ ليلاحق الأحياء ، حتىٰ أنهم يظنون بأن الموت باقٍ لا يموت ، وفي هٰذا الأمر وكأنهم لا يعرفون بأن الموت مخلوق ، ولأنه مخلوق فلابد له من أن

---

(1) التوبة، 105 .

(2) الأنعام 135 .

يموت كغيره من مخلوقات الدار الدنيا ، والإنسان الضعيف الإيمان يخاف من الموت ، أما قوي الإيمان فلا يخافه ، فهو يؤمن ببقائه من بعده ، ويعرف أن موته في الحياة الدنيا وهو مؤمن هو إيذان لانبعاثه حياً من جديد ، ويعرف أن الموت الذي غلبه في الحياة الدنيا لن يكون له وجود في الحياة السرمدية ، ولذا فالموت هو الذي سينتهي والخليفة هو الذي سيظل حياً .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (1) .

وقال جل جلاله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (3) .

ـ **المرحلة السابعة الإدامة والبقاء الذي لا يزول** : وهي المرحلة التي ينال فيها المخلوق بأعماله الصالحة التي فعلها في الدار الدنيا البراءة من العذاب ، والبراءة من المرض والألم ، والبراءة من النار ، والبراءة من الحاجة والفاقة . إنها الحياة الدائمة مع رحمة من الحي الدائم .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ (4) .

وقال عز وجل : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (5) .

البراءة اجتناب الشيء والبعد عنه ، وهي السلامة من الشر والحسد ،

---

(1) الروم، 40.
(2) البقرة، 56.
(3) الحج، 6.
(4) الرعد 35.
(5) الجاثية، 26.

والظلم والعازة ، والعذاب والنار ، والبارئ هو ٱلله جل جلاله ، ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ [1] .

البرء خُلق علىٰ صفة وهي تبرئة الشيء من الشيء ، ليختصَّ بما فيه دون غيره ، والتبرئة الاقتصار علىٰ الصفات التي تميز الأجناس والأنواع والخلائق .

التبرؤ فعل ابتعادي لتجنب ما يخيف سواء بعلم أو بجهالة ، فالمؤمن يتبرأ من الشرك بالله تعالىٰ ، ويتبرأ من الظلم والاستعباد ، ويتبرأ من العار والنار ، ليلتصق بالإيمان والعدل والسترة والجنة .

أمَّا المشرك ، فهو الذي يبتعد عن التوحيد لله ربّ العالمين ، ويبتعد عن العدل وقول الحق وفعل الحق ، مما يجعله من المقربين والملتصقين بالعار والنار والعذاب الشديد .

والتبرؤ من الشيء أحياناً لا يعني إنكاره أو الشرك به ، ولـٰكنه يعني الابتعاد عنه حتىٰ لا يُقصّر بشأنه ، فعندما يعرف المخلوق أنه غير قادرٍ علىٰ الوفاء التام بما سيلتزم به ، فإن التبرئة منه قد تعد نجاة من الأفعال المترتبة علىٰ أفعال التقصير في شأنه . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾ [2] .

إنَّ تبرئة السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لا يعد عدم إيمان بها ، بل قد يكون بسبب عدم مقدرتهنَّ عليها ، وحتىٰ لا يحاسبن علىٰ التقصير فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان الذي جهل بعواقب حملها . وفي هـٰذا الجهل امتحان لمن ميزه البارئ بأحسن تقويم هل سيهتدي بالأمانة أم

---

(1) البقرة، 54.

(2) الأحزاب، 72، 73.

أنه سيضل ، فكانت النتيجة اهتداء البعض وضلال البعض الآخر . ولهٰذا ترتب أفعال المساءلة علىٰ ما يقدمون به من أفعال ، ليعذب ٱلله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب ٱلله علىٰ المؤمنين والمؤمنات بأن يستخلفهم في الأرض ، ويدخلهم من بعدها الجنة ، إنه الرحمٰن الرحيم . ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (1) . والخلفاء هم الذين حملوا الأمانة وورثوا الكتاب من الذين سبقوهم بالإيمان ، قال تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (2) .

البارئ هو ٱلله جل جلاله الذي برأ أهل البيت من الرجس مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (3) .

والبراءة مع أنها خاصية إلا أنها تحتاج إلىٰ تدعيم . في أساس الخلق ، خُلق الإنسان في أحسن تقويم ، ولٰكن هل كل إنسان بقي علىٰ ما يراد له أن يكون عليه وهو أحسن التقويم ؟ بالتأكيد البعض لم يبق علىٰ ما يراد له أن يكون عليه ، والبعض كان ، حيث أنَّ أكثرهم فاسقون ، ولا يعقلون ، ولا يفقهون ، ولا يعلمون ، ولا يؤمنون ، ولا يشكرون ، وكذلك هم للحق كارهون .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (4) .

---

(1) البقرة، 30.

(2) الأعراف، 169، 170 .

(3) الأحزاب، 33.

(4) الأعراف، 17.

وقال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (2) .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (3) .

الآيات الكثيرة تنص علىٰ أن الأكثرية جاهلة بأمرها وبأمر ما حولها ، وغافلة ، وفاسقة ، وضالة ، وهٰذه الكثرة لا تصلح لأن تكون الخليفة في الأرض ، فهي التي تُفسد فيها ، وتسفك الدماء بغير حق . وفي مقابل ذلك الأقلية هي التي تُستخلف وترث الأرض ومن بعدها الجنة .

والخليفة هو الذي يتصف بصفة البارئ في أقواله وأعماله ليرسِّخ خلقه في أحسن صورة وأحسن تقويم ، ومن يستمد صفته من البارئ جل جلاله يستطيع أن يبرئ المريض من المرض والفقير من الفاقة والعازة ، كما أبرأ عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأكمه والأبرص بإذن ٱلله تعالىٰ مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ (4) .

البراءة نجاة بعدم الاستطاعة مع الإرادة والرغبة ، فالمؤمن باستطاعته ورغبته يُصبح خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض ، والمشرك باستطاعته ورغبته لم يُصبح خليفة لله تعالىٰ في الأرض التي عاش عليها وارتزق منها . ولذا فإن البارئ هو المبرئ لِما خلق من صفات غير صفاته ، مما جعل الحيوان حيواناً ، والإنسان إنساناً ، والطير طيراً ، والكائنات بأعدادها وأنواعها مبرأة علىٰ الخاصية والصفة التي خُلقت عليها دون غيرها مما خلق . قال تعالىٰ : ﴿ أَتَىٰ

(1) الزمر، 49.
(2) الشعراء، 67.
(3) الحجرات، 4.
(4) المائدة 110.

أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

البرء هو القطع والفصل والإصلاح . والبارئ كما يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل هو : « الذي يعطي كل شيء ما يناسبه من الخلق والتكوين والتسوية » (2) .

البارئ بالإضافة هو المقتدي بما أمر الباري الأعظم جل جلاله وذلك باتباع ما أمر به طاعة ، فهو الذي يأمر بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، أي : إنه هو الذي يعمل المعروف في أهله ، ويتبرأ من عمل المنكر تجنباً وابتعاداً . وهو الذي يؤمن بالله ولا يشرك به أحداً ، أي : أنه المتبرئ من الشرك به ، والموحد له سبحانه وتعالىٰ . وهو الذي يؤمن بخاصيته الواعية التي ميزه بها البارئ جل جلاله عن بقية المخلوقات ، وهو الذي يحمل الأمانة دون كلل ولا ملل ، ويتبرأ من كل ما من شأنه أن يبعده عن حملها .

البارئ الحق عز وجل هو الذي برأ المؤمن من ارتكاب الذنوب والمعاصي ، واستخلفه في الأرض وأورثه فيها ، وأن له الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ

(1) النحل، 1 ـ 8.
(2) محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص 55.

﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [1] فالذي يُبرئ المؤمن من النار ويدخله الجنة هو العمل الصالح ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [2] .

البارئ هو الذي برأ محمداً ﷺ من أن يُنْسبَ القرآن إليه : ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [3] . نزلت هـٰذه الآية رداً علىٰ قول الذين يظنون في المدركات العقلية لمحمد ﷺ ، ولذا قال : ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ أي : أنه لم يكن من محمد ﷺ ، وبهـٰذا الأمر بلَّغ محمد ﷺ الرسالة . وليعلم الجميع أن ما يُنذر به محمد ويحرِّض عليه هو من عند ٱلله تعالىٰ ، فإن ارتضىٰ البعض آمن به ، وإن لم يرتض البعض كفر البعض به ، وفي كلا الحالتين ما علىٰ محمد ﷺ إلا البلاغ المبين . وسواء آمن من آمن ، أو كفر من كفر ، فهو قول ٱلله تعالىٰ ولم يكن من قول محمد في شيء سواء البلاغ به ، ولهـٰذا لم يستطع محمد ﷺ جحده أو إخفاءه أو إنكاره ، فما عليه إلا أن يُبلِّغ ما أُمر أن يُبلِّغ به ، فليس له فيه محل مساومة ولا وجهة نظر ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [4] .

إنه قول ٱلله عز وجل ، الخالق البارئ المصور ، ولو كان من قول محمد ﷺ لعدَّل وغير ، وتنازل عن بعضه بأخذ أراء المعارضين حتىٰ يتم استيعابهم لسياساته ، وإذا كان هـٰذا الأمر ، وهـٰكذا حاله ؛ فلن يكون محمد رسولاً ولا نبياً ، بل كان مفكراً سياسياً ، ولأنه لم يكن كذلك فهو رسول ٱلله ﷺ الذي اصطفاه للعالمين مبشراً ومنذراً وداعياً للطريق المستقيم ، قال عز وجل : ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [5] وقال

(1) النساء ، 124 .
(2) النحل ، 32 .
(3) النجم ، 4 .
(4) يونس ، 109 .
(5) الزخرف ، 43 .

جل جلاله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1] .

البارئ هو ٱلله القادر علىٰ كل شيء ، وهو العزيز الحكيم ، الذي خلق المادة والروح بأمره وصورها كيفما شاء . سبحانه وتعالىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير ! برأ الروح من الذنب ، وبرأ المادة من ارتكاب المعاصي ، ودمج الروح في المادة بأمره فخلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخلق الحيوانات والطيور والأسماك ، وبث فيها روح التكاثر بإذنه .

البارئ هو الذي أنزل الرسالات السماوية علىٰ من أصطفىٰ من الأنبياء والرسل ليهدي للتي هي أحسن . ويفتح أبواب التبرئة لمن يريد أن يرث الأرض ويستخلف فيها . ولذا كان للرسالات والرسل دلالة ومعنىً من حيث الآتي :

ـ **دلالة الرسالات** : جعلت العلاقة مباشرة بين الخالق والمخلوق ، وألغت التوسط بين ٱلله جل جلاله ، وبين عباده . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ﴾ [3] . وقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [4] . وعلىٰ هـٰذه القواعد المتضمنة في نصوص الآيات الكريمة يتم التصويب والتصحيح إلىٰ ما يُمكِّن من عبادة الواحد الأحد .

ـ **دلالة الرُسُل** : التبشير والتحريض والإنذار بنصوص الرسالات والكتب ، مع إظهار القدوة الحسنة التي في أقوال وأفعال الرسل الذين اصطفاهم ٱلله للأمم والشعوب حتىٰ جاءت الرسالة المحمدية الخاتمة للناس

---

(1) ص 67 ـ 70 .
(2) القصص ، 88 .
(3) الإسراء ، 110 .
(4) غافر ، 60 .

كافة . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (2) . وقوله عز وجل : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (3) . وقوله تعالىٰ : ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ (4) .

البارئ كما يقول فضيلة الدكتور يوسف المرعشلي : « مأخوذة من البُرْءِ وهو خلوص الشيء من غيره » (5) ونحن نعتقد أن البُرْءَ هو المأخوذ من البارئ ، أي : خلوص الشيء من الشيء ذاته ، حيث لو لم يكن البارئ ما كان للبُرْءِ وجود . فالباري هو الأول والآخر والخالق والمصور سبحانه لا إلـٰه إلا هو بيده الخير والأمر والنهي وهو علىٰ كل شيء قدير : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (6) . وعليه مثلما يستمد الحق من الحق تعالىٰ ، والقوة من القوي جل جلاله ، والعزة من العزيز تعالىٰ فكذلك يُستمد البُرْءُ من الباري عز وجل .

قال تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (7) . ومن معاني ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾

(1) غافر، 41، 42 .
(2) النحل، 125 .
(3) المؤمنون، 32 .
(4) المائدة، 15 .
(5) يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنىٰ . بيروت ـ دار المعرفة، 2003، ص 32 .
(6) البقرة، 117 .
(7) الحديد، 22 .

أي : من قبل أن نَخُصها بمن يتعلق الأمر به وقبل أن يأتي يوم تصويره ، أو يأتي الزمن المناسب لظهورها ولذلك المصيبة تُبعد عن أحد وتلتصق بآخر كلما حان وقتها وتوفرت معطياتها .

ولأن البارئ هو ٱلله تعالىٰ خلق كل شيء بالأمر (كن) فكان كل شيء مخلوقاً ، ومبرأً بمن يتعلق الأمر به . ولأنه علىٰ كل شيء قدير فيغفر الذنب ويبرئ المصاب ويعفو عن كل من أولىٰ أمره إليه بقلب سليم . ولذا فعليه يتوكل المتوكلون .

البارئ هو المنجي من الظنون والشكوك والألم والمرض والحسد والمكر والكيد ومن كل شرٍّ وسوءٍ ، ولذا فهو الذي يُبعد العلاقة أو الالتصاق بالشيء غير المُفضل وغير الموجب الذي لا يرضاه الخالق الحق . قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (1) . فالمعنىٰ بقوله : ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تعني : لا علاقة لي بالآلهة التي تعبدونها من دون ٱلله تعالىٰ ؛ وينبغي أن لا تكون لكم علاقة بها ، فهي بالمطلق لا علاقة لها بالله تعالىٰ ، وهـٰذه الآية الكريمة نزلت عندما قال المشركون للنبي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من يشهد لك بأنك رسول ٱلله » (2) فكانت الإجابة بلا إلـٰه إلا ٱلله من خلال قوله : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(1) الأنعام، 19.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس، مصدر سابق، ص 399.

﴿حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [1] .

أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تجاوز تفكيره وإدراكه تفكير وإدراك الذين قَصُرَ تفكيرهم وإدراكهم عن الماديات الخاضعة للمشاهدة العينية ، فتطلَّع إلىٰ ما هو أبعد وأعظم حتىٰ أدرك ربه هو كما هو جل جلاله ، لقد شك في النجوم كما شك في القمر والشمس حتىٰ أدرك ربه بخاصيته في الوحدانية والبقاء والديمومة التي افتقدتها النجوم والقمر والشمس كما سبق له أن ظن حتىٰ تبين له الأمر بأن ٱلله حي باقٍ واحد أحد لا شريك له في الملك ولم يكن له والد ولا والدة وليس له ولد سبحانه هو كما هو جل جلاله .

البارئ هو المخلِّص من الهموم ، والمُنقِذ من العذاب ، والمنظِّف من الدنس والخطايا والرذائل ، والمُبعد عنها إلىٰ ما هو صواب وحق . قال تعالىٰ : ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [2] .

التبرؤ عدم تحمُّل المسؤولية تجاه ما لا يجب أن يتم تحمله . ولذا تبرأت الشياطين من الإنس الذين اتبعوهم في ارتكاب الخطايا . وهـٰكذا تبرأ من المسؤولية من لا يستطيع حمْلها أو من لا يتحمّل ما يترتب عليها من أوزار . وعليه من يظهر بتحمُّل ما يترتب علىٰ ما يرىٰ قد لا يتحمّل أوزاره عندما يرىٰ بأم عينيه العقاب أو العذاب المترتب عليه في واقع الأمر ، ولذلك يتبّرأ منه دون تردد ، والدار الدنيا والآخرة مليئة بالقصص والأمثال التي يتذكرها أولو الألباب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [3] ، وقوله

---

(1) الأنعام، 78، 79 .
(2) البقرة، 166 ـ 167 .
(3) يوسف، 111 .

عز وجل : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] . وأولو الألباب هم أصحاب الضمائر المخلصة لله تعالىٰ الذين يعملون الصالحات . إنهم المستخلفون في الأرض مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [2] . تخاطب هٰذه الآية الكريمة بقسمها الضمني الرسول محمداً ﷺ والذين آمنوا معه بأن يستخلفهم بأعمالهم الخيِّرة في الأرض ، ولذا فهم المبرّؤون من النقيصة والعذاب ، وهم المبشرون بالجنة . أمَّا الذين من قبلهم فهم الأنبياء والرسل والذين آمنوا معهم بالواحد الأحد سبحانه جل جلاله .

فالبارئ هو ٱلله تعالىٰ ، ومعناه خلق الخلق لا عن مثال يحتذىٰ ولا عن صورة تقلد ، ولا عن شكل يحاكىٰ ويدخل فيه معنىٰ الإبداع ، إلا أن البرء هو انفكاك شيء من شيء بخلقه وتصويره ، ولٰكن ليست بحساباتنا ولا بقياساتنا ، لا بالحركة التي نعرفها ولا بالزمن الذي نألفه ، إيجاد الشيء وخلقه ثم استخلاص شيء آخر منه هو البرء ، وإعطاء هٰذا الشيء شكله وأبعاده فهٰذا هو التصوير ، وكون هٰذا الشيء لا عن مثل يحتذىٰ ولا يشبه شيئاً سبقه من الخلق فهٰذا هو الإبداع ، ولهٰذا فإن صفات ٱلله تعالىٰ لازمة لا تنفك عن ذاته العلية ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(1) البقرة، 269.

(2) النور، 55.

ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] فهـٰذه الآيات الثلاثة التي ذكر فيها بعض صفات الذات الإلهية نرىٰ أنها جميعاً ابتدأت بلفظ الجلالة ثم تلاها الصفات اللازمة ، وكل مجموعة من هـٰذه الأسماء هي علىٰ علاقة الاختصاص فيما بينها مثل ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ حيث جاء علىٰ ترتيب الخلق وبرئه وتصويره ، ولكي يتضح معنىٰ ما نقول نقف عند قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] فكيف كانت السموات والأرض رتقاً في التصاقهما ببعضهما ثم برأ البارئ عز وجل كل خلق منهما علىٰ حدة ، وما الذي برأه من السموات ؟ وما الذي برأه من الأرض؟ وكيف برأه ؟ ولماذا برأه ؟ . سبحانه لا إلـٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير .

فالإنسان لا يستطيع أن يستقل بمعرفة إجابات هـٰذه الأسئلة ، فهـٰذه القضايا مما يدخل ضمن دائرة الغيبيات التي نستطيع أن نقف عليها من خلال النصوص المتواترة من الكتاب والسنة من معرفة أسماء ٱلله الحسنىٰ وصفات هـٰذه الأسماء واختصاص كل صفة بنوع من الخلق الشامل أو بجزء منه لتكامل الصفات الإلهية وجلالها وجمالها ، فالتفكر في هـٰذه المسائل مما يزيد في حيرة الإنسان ، ولا يمكن أن يقف علىٰ الإجابة الشافية الكافية لهـٰذه المسائل إلا إذا هداه ٱلله إلىٰ اليقين الصحيح الذي يأتي بالقول الفصل في هـٰذه القضايا ومثيلاتها ، لأن هـٰذه القضايا تعد من الأمور الغيبية ، والنصوص المتواترة هي التي تنفرد بالحق وقول الصدق ، لأنها وحي من ٱلله أوحاه إلىٰ أنبيائه ورسله .

ولذا كان لزاماً علىٰ الإنسان أن يتأمل في آيات ٱلله تعالىٰ من خلقه حتىٰ يأتي بالقول الفصل في هـٰذه الأمور ، فمن المعلوم أن كل شيء في هـٰذا الكون

---

(1) الحشر 22ـ24 .

(2) الأنبياء 30 .

منقاد لقاعدة معينة هي البرء والتصوير وهـٰذه سنة ثابتة ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض مسخرات بأمره ، والعلم بأمورها لا يعلمه بالمطلق إلا هو البارئ جل جلاله ، فهـٰذا الكون وما فيه من السموات والأرض وما بينهما من مجرات وكواكب وأقمار وشموس وما ينزل إلىٰ الأرض وما يخرج منها ، وما يهبط من السماء وما يعرج فيها ، ما هي إلا دلالات علىٰ قوة البارئ وقدرته ، فما شاء ٱلله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وقدرة ٱلله تعالىٰ التي أوجدت الوجود وأبرأته بهـٰذه الصور والأشكال والأجناس ، وهـٰذه الأجسام المسخرة في الوجود تصرفت بها العناية الإلهية بغاية متناهية من التصوير في إبداع المؤتلفات والمتوافقات ، والمختلفات والمتناقضات ، والمضادات والمترادفات ، فمن تأمل أفعال البارئ سبحانه في برء مخلوقاته ؛ رآها قائمة علىٰ قانون العدل والإصلاح من أجل إعمار الأرض واستمرار الحياة .

والبارئ صفة خاصة بالذات الإلهية ، إذ أنها من صفات الوقف علىٰ ٱلله تعالىٰ ، مثل الخالق والمصور والمتكبر ، وهو وصفه المختص به ، فليس لأحد من المخلوقين أن ينازعه في تلك الصفات ولا يشترك معه بها مثل بعض الصفات مما هو مشترك بين الخالق والمخلوق كالرحمة والعلم ، فالله سبحانه هو البارئ ، وذلك لكمال عظمته وعزه وقهره وملكه وبرئه الخلق بعضه من بعض بمادة مختلفة وأعراض متباينة وصور متغايرة ، سواء أكانت من ذوات الأجسام المادية المحسوسة ، كالزرع والضرع والمال والولد ، أو غير ذلك من الأشياء المعنوية التي لا تدرك ، لا بالحس ولا بالصورة ، وإنما هي انعكاسات علىٰ الصور الحسية ، كالخوف والحزن والفرح والسرور ومنافع شتىٰ ومصائب هينة أو عظيمة وكل ما نذكره أو نعجز عن ذكره إن هو إلا في كتاب من قبل أن يبرأه حيث قال تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [1] فما نزل

---

(1) الحديد 22 .

من مصيبة في الأرض من قحط أو نقص في الثمرات أو غير ذلك ، ولا في الأنفس من مرض أو فقر أو موت أو غير ذلك إلا مكتوب في اللوح مثبت في علم ٱلله من قبل أن يوجده في الأرض أو في الأنفس ، وإن ذلك الإثبات للمصيبة أو لغيرها مما برأه ٱلله تعالىٰ كان محفوظاً في علمه ، وذلك لإحاطة علمه بكل شيء ، فهو الذي خلق السمٰوات والأرض وما فيهما من المصالح وما بينهما من المخلوقات فقد أحاط بها علماً قبل برئها وإبداعها وإخراجها إلىٰ الوجود ، وفي الآية دليل علىٰ أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود وكذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ ليستدل الملائكة بذلك المكتوب علىٰ كونه تعالىٰ عالماً بجمع الأشياء قبل برئها وليعرفوا حلمه فإنه تعالىٰ مع علمه أنهم يقومون علىٰ المعاصي خلقهم وبرأهم ورزقهم وأملهم ، وليحذروا من أمثال تلك المعاصي ، وليشكروا ٱلله علىٰ توفيقه إياهم للطاعات ، وعصمته إياهم من المعاصي .

وفيها دليل أيضاً علىٰ أنه تعالىٰ يعلم الأشياء قبل وقوعها لأن إثباتها في الكتاب محال ، فمن عرف ٱلله بالربوبية وافتقر إليه في إقامة العبودية وشهد بسره ما كشف ٱلله له من آثار القدرة بقوله ما أصاب فسمع هـٰذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه ، فإن قلت كان ٱلله قادراً علىٰ أن يوصل العباد إليه بلا تعب ولا مصيبة فكيف أوقعهم في المحن والبلايا ، فإننا نقول : إن ٱلله تعالىٰ أراد أن يعرفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية وغرائب الطرق إليه حتىٰ يصلوا إليه من طريق الجلال والجمال . ففي الآية تطمين للنفوس علىٰ الرضا بالقضاء ، والصبر علىٰ البلاء حتىٰ إن الإنسان نفسه إذا تدبرت شأنه تبين لك أنه مذعن لسنن ٱلله إذعاناً تاماً ، فلا يتنفس ، ولا يحس حاجته إلىٰ الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقاً للتقدير الإلهي المنظم لحياته ، وتنقاد لهـٰذا التقدير جميع أعضائه ، فالوظائف التي تؤديها هـٰذه الأعضاء لا تقوم بها إلا بحسب ما قرره ٱلله لها علىٰ السنة التي

برأها عليها ، ومن تأمل الآفاق وما في هـٰذا الكون من سماء وأرض ، وما اشتملت عليه السماء من نجوم وكواكب وشمس وقمر ، وما اشتملت عليه الأرض من جبال وأشجار وبحار وأنهار ، وما يكتنف ذلك من ليل ونهار وتسيير هـٰذا الكون كله بهـٰذا النظام الدقيق ، يدل ذلك علىٰ أن هناك بارئاً لهـٰذا الكون ، موجداً له ومدبراً لشؤونه ، وكلما تدبر العاقل في هـٰذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع الكائنات علم أنها أبرئت من البارئ بالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب براهين ودلالات علىٰ جميع ما علمناه وما لم نعلمه من برء النسمة إلىٰ برء الأجرام ، فالله هو الخالق البارئ المصور الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، رب المشرق والمغرب . فالله سبحانه وتعالىٰ يبين الدلائل الدالة علىٰ برء الوجود في حصول هـٰذا الترتيب العجيب في الكون ، فالسماء والأرض كانتا رتقاً ، أي : كانتا شيئاً رتقاً ومتداخلاً في بعضه البعض ، فبرأ إحداهما من الأخرىٰ ، وبرأ من كل واحدة خلقها الذي يناسبها ، بمعنىٰ أنه استخلصه منها ، ذلك أن الأجرام والأجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها ، فالحكم عليها بالرتق أولاً ثم بالفتق ثانياً هو خبر جاءنا عن طريق السمع الذي لا ينكره العقل ، لأن الأجسام يصح فيها الاجتماع والافتراق ، فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق ، أو بالعكس يستدعي بارئاً يبرؤها ، ولما كان الخالق هو البارئ ، فأوحىٰ في كلٍّ منهما الأمر الذي أراده بما يتناسب وطبيعة الخلق الذي يبرؤه فيها ، قال تعالىٰ : ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (1) فالبرء : هو خلوص الشيء من غيره علىٰ اختلاف مواصفات

---

(1) فصلت 9 ـ 12 .

كلٍّ منهما ، حيث نقول : فلان برأ من الدين ؛ أي : لم يبق عليه دين ، فالدين شيء يختلف عن المدين كل الاختلاف في مواصفات كلٍّ منهما ، وكذلك الرجل برأ من المرض ، فالأمراض شتىٰ حيث يختلف كلُّ مرض بمواصفاته وأعراضه عن غيره ، وكذلك المريض الذي يختلف بمادته وجوهره عن أعراض الأمراض التي تصيبه ، وعندما يبرأ منها ، فهو ينسلُّ عنها وهي تنسلُّ منه وكل له مواصفات البرء الخاصة به ، فإذا فهمنا البرء بهٰذا المعنىٰ أصبح لنا القدرة علىٰ تصور كيفية برء السموات والأرض من بعضهما علىٰ الرغم من اختلاف المواصفات والخصائص .

فالله سبحانه وتعالىٰ أخبر بخلق السموات والأرض وما تضم من الأفلاك حيث برأها من بعضها وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها ، مع الإخبار بأنها خلقت من مادة قبل ذلك ، وفي زمان قبل هٰذا الزمان ، فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وسواء قيل أن تلك الأيام بمقدار هٰذه الأيام المقدرة بطلوع الشمس وغروبها أو قيل أنها أكبر منها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [1] فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض غير هٰذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هٰذه الأفلاك ، وربما تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض ، ومهما يكن مقدار ذلك اليوم فالبارئ واحد أحد هو نفسه بديع السموات والأرض ، ومع ذلك فالبارئ عز وجل يبرأ مخلوقاته من بعضها علىٰ الرغم من اختلاف المخلوق الأول عن التالي واختلاف التالي عن الذي يليه وهٰكذا ، وقد أخبر سبحانه أنه : ﴿ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ من الدخان . وقد جاء الإجماع علىٰ أنها خلقت من بخار الماء ، وهو الماء الذي كان العرش عليه والذي جاء ذكره في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ

---

(1) الحج 47 .

عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [(1)] . وبصرف النظر عن القوانين الفيزيائية التي تقرر أن للماء ثلاث صور أو ثلاث حالات هي الجامدة والسائلة والغازية ، فإننا نرىٰ فيها أوضح أنواع الإبراء ، فقد أخبر البارئ عز وجل أنه برأ البخار من الماء وبرأ من هـٰذا الدخان أو البخار هـٰذا الكون الذي يضم السموات والأرض ، وبرأ منهما كل خلقه كما قال تعالىٰ : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [(2)] . فقد أتم برء السموات من هـٰذا الدخان سبع سموات في يومين ، وأوجد في كل سماء ما أعدت له واقتضته حكمته ، وزين السماء الدنيا التي نراها بالنجوم المنيرة كالمصابيح في أقرب المجرات إلينا التي نعيش علىٰ أطرافها ، وهي المعروفة بدرب التبانة ، والتي يقدر قطرها بنحو مئة ألف مليون سنة ضوئية ، فهي علامات يهتدىٰ بها إلىٰ معرفة الجهات ، كجهة الجنوب ، وجهة الشمال ، وجهة الشرق ، وجهة الغرب ، ويهتدىٰ بها أيضاً إلىٰ معرفة أماكن البلاد والقرىٰ حيث يعرف الإنسان جهة المكان الذي يريد أن يقصده ، فإذا أراد السائر ليلاً في البر أو في البحر أن يتجه إلىٰ بلد معين ، استدل واهتدىٰ بالنجوم إليه ، ونحو ذلك مما أجرىٰ ٱلله سنته في برء خلقه ، وبرأ الأرض ، ثم برأ لها غلافاً جوياً يحفظها من كل سوء ، وجاذبية تثبت الأشياء علىٰ ظهرها ، فهـٰذا الخلق المتقن هو تدبير البارئ المصور الذي أحكم كل شيء خلقه ، والمحيط علمه بكل شيء ، فالسموات والأرض برأهما البارئ في مدة ومن مادة غير مادتها التي هي عليها ، ولم يذكر القرآن الكريم خلق شيء من لا شيء علىٰ الإطلاق ، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً كما قال تعالىٰ : ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [(3)] ، مع إخباره أنه خلقه من نطفة .

---

(1) هود 7 .

(2) فصلت 12 .

(3) مريم 9 .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [1] أي هل خلقوا من غير بارئ أم برئوا من لا شيء؟ وقد علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة ، وهـٰذا دليل علىٰ إيجادهم برءاً من بعد برءٍ ، وهو مثل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [2] فالمسيح عليه الصلاة والسلام رسول كسائر الرسل ، خلقه ٱلله بقدرته وبرأه بكلمته التي ألقاها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ مريم ، فهو سرٌّ من أسرار قدرة البارئ .

فالبارئ عز وجل برأ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ابتدأ خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وهيأها لما تصلح له من الأقوات ، ثم استوىٰ إلىٰ السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات ، وأوحىٰ في كل سماء أمرها ، فتلك ستة أيام خلق ٱلله فيها السماوات والأرض وأودع فيهن مصالحهن فأخرج من الأرض ماءها ومرعاها وقدر الأقوات فيها تقديراً يناسب الزمان والمكان لتكون الأقوات متنوعة ومستمرة أنواعها في كل زمان وليتبادل الناس الأقوات فيما بينهم ، وأما ما برأ في السماء ، فما جاء به الخبر من كتاب ٱلله تعالىٰ من الجنة والنار والملائكة الكرام الذين برأهم البارئ من النور ، فالملائكة هم أجسام نورانية لطيفة ، وهم حقيقة مؤكدة من حقائق هـٰذا الكون ، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ثمان وثمانين مرة ، لما لهم من دور عظيم في هـٰذا الكون حسب المشيئة الإلهية . وهم عالم مدرك لطيف غيبي غير محسوس ، خلقهم ٱلله تعالىٰ من نور ، وهم عباد مكرمون ، مبرؤون من الميول النفسية والأهواء الشخصية ، ومطهرون من الشهوات ، ومنزهون عن الخطايا والآثام ، وليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون ، وهم أيضاً

---

(1) الطور 35 .

(2) النساء 171 .

لا يتصفون بذكورة ولا بأنوثة ، ولا بأي حالة مادية مما يتصف به البشر ، ولهم قدرة علىٰ التمثل بصورة بشرية أو غيرها مما يأذن به بارئهم عز وجل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (1) وخلق الملائكة متقدم علىٰ خلق الإنسان ، بدليل أن ٱلله تعالىٰ قد أخبرهم سلفاً بأنه سيخلق الإنسان ، ويجعله خليفته في الأرض حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

أما تفاوت الملائكة كيفما برأهم ٱلله تعالىٰ فهو حاصل ، سواء في الخلق أم في الأقدار ، فالتفاوت في الخلق ما ذكره تعالىٰ في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) أي أن ٱلله خلق الملائكة وجعل لهم أجنحة ، والتفاوت في الأقدار هو ما أوكل إلىٰ كل واحد من الملائكة من عمل ، وكما خلق ٱلله الجان من نار ، وآدم من طين ، خلق الملائكة من نور ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما وصف لكم » (4) . فالله سبحانه وتعالىٰ هو البارئ قدر كل شيء برأه من خلقه حسب ما اقتضت المشيئة الإلهية ، فكما كان إبراء الملائكة من النور ، فقد قضىٰ البارئ عز وجل برء الجان من النار حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (5) فخلق جنس الجان من لهيب خالص من نار ، والمارج هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر

---

(1) مريم 17 .
(2) البقرة 30 .
(3) فاطر 1 .
(4) مسند أحمد 51 ، 195 .
(5) الرحمـٰن 15 .

والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت ، فالمارج بالنسبة إلىٰ الجان كالتراب بالنسبة إلىٰ الإنسان ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (1) أي من نار شديدة الحر ، والسموم وهي الريح الحارة وسميت سموماً ؛ لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن ، و نار السموم نارٌ لا دخان لها .

فالله سبحانه وتعالىٰ هو البارئ الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود وبارئه ، وكل موجود فبقدرته ، سواء أكان من المعقولات أو المحسوسات ، فأوجد ٱلله تعالىٰ الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، وإيجاد هٰذه الأشياء علىٰ سبيل الإبراء والإبداع ، والبرء في جميع الأحوال هو إيجاد الشيء من الشيء قبله ، كخلق الإنسان من التراب ، ويقتضي تركيباً ، ولذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (2) وإلىٰ الأشياء المركبة أشار بقوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (3) .

والإنسان المبروء كان علىٰ حالة آدم الذي هو أبو البشر ، ويجري هو من سائر الناس مجرىٰ البذر الذي منه أنشئ غيره ، والباري تعالىٰ قد تولىٰ بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه كما نبه علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ (4) وهٰذا دليل علىٰ برء آدم عليه الصلاة والسلام بالإيجاد والعناية بشهادة الجن والملائكة كونه آخر المخلوقات ، ثم علمه بأمره الأسرار مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (5) .

---

(1) الحجر 27 .
(2) الذاريات 49 .
(3) الشعراء 7 .
(4) ص 75 .
(5) البقرة 31 .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) فشأن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في خلقه من غير أب وبرؤه بالكلمة ، كشأن آدم في برئه من تراب من غير أب ولا أم ، فقد صوَّره وأراد أن يكون فكان بشراً سوياً كما كان آدم عليه الصلاة والسلام من تراب ، وفي موطن آخر من طين إشارة إلىٰ الجمع بين التراب والماء حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (2) فإخباره الملائكة ببرء آدم عليه الصلاة والسلام ، إنما يدل علىٰ تفخيم شأنه ، لأنه خلق ما خلق من الكونين ، والجنة والنار ، والعرش والكرسي والملائكة ، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده ، ولم يأمر بالسجود لأحد ولا لشيء إلا لآدم عليه الصلاة والسلام ، وسبحان البارئ حيث خلق أعز خلقه من أذل شيء وأخسه وهو التراب والطين ، وفي المرحلة التي بعدها من طين لازب إشارة إلىٰ الطين المستقر علىٰ حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ (3) واللازب هو اللاصق الذي يلصق ويعلق باليد لا رمل فيه ، وهو المتماسك الثابت الشديد الثبوت ، ويعبر باللازب عن الواجب فيقال ضربة لازب كما قال الشاعر :

فلا تحسبون الخير لا شرّ بعده ... ولا تحسبون الشرّ ضربة لازبِ

وفي مرحلة تالية برأه من حمأ مسنون إشارة إلىٰ الطين المتغير بالهواء أدنىٰ تغير حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (4) ،

(1) آل عمران 59 .
(2) ص 71 .
(3) الصافات 11 .
(4) الحجر 26 .

والصلصال طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر ، والحمأ طين تغير واسودّ من مجاورة الماء ، ومن صلصال من حمأ مسنون إشارة إلىٰ يبسه وسماع صلصلة منه ، وفي موضع آخر من صلصال كالفخار ، وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالزخرف ، وبهـٰذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة ، وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ دل بقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَـآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّـارٍ ﴾ [1] فنبه علىٰ أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار وأن الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له ، ثم نبه ٱلله علىٰ تكميل الإنسان بنفخ الروح وبرئه بصورته بقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [2] فهـٰذه درجات برء الإنسان خلقاً بعد خلق ، ثم دل علىٰ تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة ، فنبه علىٰ أنه جعلهم أناساً في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَـةً فَخَلَقْنَـا ٱلْمُضْغَـةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًـا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [3] فقد أشار البارئ إلىٰ ما جعل للإنسان من قوة العقل والفكر والنطق . فإن قيل فلم قال فكسونا العظام لحماً ، ولم يقل : فخلقنا منه لحماً كما قال في الأول ، فهـٰذا إشارة منه تعالىٰ إلىٰ لطيفة من صنعه وهو أن النطفة انتهت إلىٰ صورة العظم الذي برأه منها ، ثم أنشأ ٱلله اللحم إنشاءً آخر لا من النطفة ، وأجراها مجرىٰ الكسوة التي قد يخلعها الإنسان ويجددها .

(1) الرحمـٰن 14 ـ 15 .
(2) ص 71 ـ 72 .
(3) المؤمنون 12ـ14 .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (1) فالبارئ عز وجل يلفت نظرنا إلىٰ الأصل الذي برأنا منه وهو يذكرنا بمصدر وجودنا ، وأصل نشأتنا ، وتيسير حياتنا ، وتوليه لموتنا ونشرنا ، ومن لطائف الخلق في إبرائها أنها تميل إلىٰ الأصل الذي خلقت منه فلم يكن قبل آدم خلق من التراب ، فخلق آدم منه ليكون عبداً خضوعاً و ذلولاً مائلاً إلىٰ السجود لأنه مقام العبودية الكاملة ، فكل جنس يميل إلىٰ جنسه ، ولهٰذا تواضع آدم لله واستكبر إبليس عن التواضع فأبىٰ وعلا وتكبر فمال إلىٰ جنسه لأنه خلق من نار ، ولا شك أن ٱلله تعالىٰ قادر علىٰ خلق آدم ابتداء علىٰ هيئة خاصة من مادة خاصة وإنما خلقه من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار إما لمحض المشيئة الإلهية التي هي محض الحكمة الجامعة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الخلق لأن خلق الإنسان من هٰذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه .

وقد جعل البارئ عز وجل خلقه الذي فطره سواء من الأحياء أم من الجمادات أم من الناميات لها علاقة مترابطة فيما بينها من تبادل في الحياة من المنافع والمصالح وفطر لهم رزقهم ليدلل علىٰ أن بارئ جميع الخلق هو ٱلله جل جلاله الذي قال في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) فهو البارئ المنشئ للسموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما علىٰ نظام لم يسبق إليه ، وهو بارئ الرزق لخلقه ، فالخالق البارئ فطر هٰذا الكون وفق مشيئته بما يناسب بقية مخلوقاته التي يتوقف عيشها وحياتها علىٰ

---

(1) عبس 24 ـ 32 .

(2) الأنعام 14 .

حركة هـٰذا الكون وتقلباته ، فإنه تعالىٰ فطر الأفلاك وبرأها فقال خلق السموات والأرض بالحق ثم ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم خلق الأنعام ثم عجائب النبات فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) فجعل الاستدلال هو عملية التفكر ، فإنه استدلال علىٰ برء الأنواع المختلفة من النبات علىٰ وجود البارئ ، وكذلك حركات الشمس والقمر والليل والنهار كان مجال التفكر والنظر والتأمل فيها من الدلائل العجيبة حيث أن التغيرات التي تحصل علىٰ الأرض من تبدل الفصول لاختلاف المواسم ، وتقلب الليل والنهار ، وعدد السنين والحساب ، وما ينتج عن ذلك إنما كله مربوط بأحوال الأفلاك ، وهـٰذا من الخالق البارئ الحكيم الذي نستدل علىٰ برئه للوجود بالعقل من خلال التفكر بما برأ وهـٰذا هو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فجعل دلالة اليقين علىٰ وجود البارئ دلالة عقلية من خلال التأمل بما برأ .

ومن آيات الإبراء التي جاء بها القرآن الكريم عصا موسىٰ عليه الصلاة والسلام من جهة وما خيله سحرة فرعون للناس علىٰ أنه إبراء للحبال والعصي التي ألقوها أمام الناس ، حيث خيلت السحرة للعامة أن الحبال والعصي حيات

(1) النحل 10 ـ 14 .

ولم تكن كذلك ، فقد قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (1) وقد كان موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما ألقىٰ عصاه فكانت حية تسعىٰ خاف منها علىٰ نفسه علىٰ مجرىٰ العادة ، وإنما قدم ٱلله بين يديه معرفة هـٰذا قبل جمع السحرة ليكون علىٰ يقين من ٱلله أنها آية برأها البارئ لا تضره ، وكان خوفه الثاني تعدد ما ألقت السحرة من الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين علىٰ أنها إبراء التبس عليهم الأمر ، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة أو بين ما هو إبراء من عند ٱلله وبين ما ليس من عند ٱلله من هـٰذا السحر الذي استرهبوا به أعين الناس حيث قال تعالىٰ : ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (2) .

فأفعال السحرة هي خرق للعادة أو لطبيعة الأشياء وليست من الإبراء في شيء ، فمنها ما يرجع إلىٰ ما يدركه البصر أو بعض القوىٰ علىٰ حسب ما يظهر لتلك القوة مما ارتبطت في العادة بإدراكه ، وهو في نفسه علىٰ غير ما أدركته تلك القوة مثل قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (3) وهـٰذا يدخل تحت قدرة البشر ، وهو علىٰ قسمين منه ما يرجع إلىٰ قوة نفسية ومنه ما يرجع إلىٰ خواص أسماء إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالاً ، وما هنالك من الحقيقة شيء ، أي ليس في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة ، وإنما هو فعل الساحر وهو علىٰ علم أنه ما من شيء مما وقع في الأعين والإسماع ، والقسم الآخر الذي هو قوة نفسية يكون عنها فيما تراه العين أو أي إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء ، والفرق بينهما أن الذي يفعله بطريق

---

(1) طه 66ـ 68 .

(2) الأعراف 116 .

(3) طه 66 .

الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما من شيء في الخارج ، وإنما هو سلطان وسيطرة علىٰ الحاضرين ، فتخطف أبصار الناظرين فيرىٰ صوراً في خياله كما يرىٰ النائم في نومه وما في الخارج شيء مما يدركه ، وهـٰذا القسم الآخر الذي للقوة النفسية منهم من يعلم أنه ما من شيء في الخارج ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد أن الأمر كما رآه ، وأما قضية الخوف التي انتابت الجميع سواء من الإبراء الكاذب أو الإبراء الحقيقي ، فمرده إلىٰ مصدره أولاً قبل أن ينجلي الأمر ، لذلك اختلف تعلق الخوفين من كل جهة ، فإن موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ بينة من ربه قوي الجأش بما تقدم له ، إذا قيل له في الإلقاء الأول خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولىٰ أي سنبرأ العصا من الحية مرة أخرىٰ ، أي ترجع عصا كما كانت في عينك ، فأخفىٰ تعالىٰ العصا في روحانية الحية فتلقفت جميع حيات السحرة المتخيلة من الإبراء الكاذب في أعين الحاضرين ، فلم يبق لتلك الحبال والعصي عين ظاهرة في أعينهم وهي ظهور حجته علىٰ حججهم في صور حبال وعصي فأبصرت السحرة والناس الأمور علىٰ حقيقتها ، وهي حبال السحرة وعصيهم التي ألقوها حبالاً وعصياً كما هي ، وهـٰكذا كانت تلقفها ولم تنعدم الحبال والعصي ، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبيس في عصا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وكانت الشبهة تدخل عليهم فلما رأىٰ الناس الحبال حبالاً ، علموا أنها مكيدة طبيعية ، وقف في تحديها وإبطالها قوة كيدية روحانية ، فتلقفت عصا موسىٰ عليه الصلاة والسلام صور الحيات من الحبال والعصي ، فأبطل صورتها المصطنعة ، كما يبطل كلام الخصم إذا كان علىٰ غير حق في جعل كلامه منفياً للواقع فلا يكون حجة ، لا أن ما أتىٰ به ينعدم بل يبقىٰ محفوظاً معقولاً عند السامعين ويزول عندهم كونه حجة ، فلما علم السحرة قدر ما جاء به موسىٰ عليه الصلاة والسلام من قوة الحجة وأنه خارج عما جاؤوا به ، وتحقق يقين ما جاء به علىٰ ما جاؤوا به ، ورأوا خوفه علموا : أن ذلك من عند ٱلله ، ولو كان من عنده لم يخف ؛ لأنه يعلم ما يجري فآيته عند السحرة خوفه ، وآيته عند الناس تلقف عصاه ما ألقت

السحرة ، وعلموا أن أعظم الآيات في هـٰذا الموطن تلقف هـٰذه الصور من أعين الناظرين وإبقاء صورة حية عصا موسىٰ في أعينهم والحال عندهم واحدة ، فعلموا بصدق موسىٰ فيما يدعوهم إليه وأن هـٰذا الذي أتىٰ به خارج عن الصور والحيل المعلومة في السحر ، فهو أمر إلـٰهي ليس لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه عمل ، فصدقوا برسالته علىٰ بصيرة ، واختاروا عذاب فرعون علىٰ عذاب ٱلله ، وآثروا الآخرة علىٰ الدنيا ، وعلموا من عملهم بذلك أنه علىٰ كل شيء قدير وأن ٱلله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأن الحقائق لا تتبدل ، وأن عصا موسىٰ داخلة في صورة الحية عن أعين الجميع وعن الذي ألقاها بخوفه الذي شهدوا منه ، وبهـٰذا علموا بوجود البارئ عز وجل .

وعليه البارئ اسم من أسماء ٱلله الدالة علىٰ أنه برّأ عباده المؤمنين من رجس الشرك والضلال ، فقد خلق البارئ الخلق وأهدىٰ لهم العقل للتمييز بين الحق والباطل ، ولـٰكن اختلف الخلق في اختيار الطريق الذي سيسلكونه في حياتهم الدنيا ، فمنهم من اختار طريق الشيطان فأضل نفسه واتبع هواه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾ (1) ، ومنهم من تبرأ بنفسه من هـٰذا الضلال فاتبع سبيل ٱلله تعالىٰ وهو سبيل الحق الذي لا يتغير ، قال

(1) النساء 115 ـ 121 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (1) ، إذاً فالبارئ قد خلق الخلق وخلق لهم دلائل الهداية في الكون حتىٰ لا يكون لهم حجة علىٰ ٱلله يوم القيامة ، وأرسل لهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين ، ولكي يكونوا شهداء عليهم يوم يقوم الحساب .

واسم ٱلله البارئ يرتبط باسمه الخالق والمصوّر ، إذ أنه لا يمكن الفصل بينها لأنها جميعاً مرتبطة بعملية الخلق التي تحتاج للبرء والتصوير ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (3) ، فمن الآيتين السابقتين نجد أن :

أ ـ استأثر ٱلله تعالىٰ بعملية الخلق وحده فلم يجعل له شريكٌ في ذلك ، وهٰذا تأكيد علىٰ وحدانيته من خلال خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (4) .

---

(1) فصلت 30 ـ 33 .
(2) غافر 64، 65 .
(3) التين 4 .
(4) يونس 34، 35 .

ب ـ الانسجام بين عمليتي الخلق والتصوير ، فلا يمكن أن نصف ٱلله تعالىٰ بالخالق ولا نصفه بالمصور ، لأن التصوير بحد ذاته هو الخلق والإنشاء من لا شيء سبحانه جل جلاله .

ج ـ الخلق والتصوير من صنع البارئ الذي أبدع في خلقه .

د ـ الاتجاه إلىٰ ٱلله تعالىٰ بالإخلاص في العبادة وكيف لا وهو من أوجدنا وصوّرنا في أحسن صورة !

فعملية الخلق هي بحد ذاتها أصل تجسيد القدرة الإلهية المطلقة علىٰ كل شيء ، فلو تأملنا في خلق البارئ لهـٰذا الكون البديع الذي ينطق بوحدانية الخالق سبحانه وتعالىٰ لما كان في الخلق حتىٰ هـٰذه اللحظة جاحدٌ أو كافر أو عاصٍ ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (2) ، فالكون مليء بالأدلة والشواهد لمن أراد أن يبرئ نفسه من الشرك أو الكفر ، فما عليه إلا أن يُعْمِل عقله خالصاً للبحث عن الحقيقة فلابد أن يصل إلىٰ اليقين بوجود ٱلله تعالىٰ وبوحدانيته ، الأمر الذي اختلف فيه البشر في هـٰذه الحياة الدنيا : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (3) .

---

(1) لقمان 29، 31 .

(2) النمل 88 .

(3) التغابن 2 ـ 3 .

فباختيار الطريق الصحيح فقط يستطيع الإنسان أن يكون مستحقاً لخلافة هٰذه الأرض كما أراد الخالق له عز وجل ، إذ أنه جل جلاله خلقنا أجيالاً وأطواراً وهو عالم بمن سيكون المهتدي ومن سيكون الضال بعلمه المطلق حتىٰ من قبل خلقه ، قَالَ عَبْدُ ٱللهِ : حَدَّثَنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ ٱللهُ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، وَيُقَالُ لَهُ : اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأجلهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » [1] .

إذاً فالخالق البارئ عز وجل بقدرته المطلقة وعلمه المطلق قد أنشأ الخلق وصوّرهم من لا شيء إلىٰ الوجود بتنفيذ أمره الذي لا يُرَد وهو (كن) قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [2] ، فالآية الكريمة السابقة توضّح لنا سهولة قدرته عز وجل علىٰ تنفيذ إرادته ومشيئته ، وهو بذلك البارئ المنفذ لما قرر وأراد سبحانه وتعالىٰ ، فلا أحد سواه يستطيع أن يُخْرِج إلىٰ حيّز التنفيذ كل ما قرره وشاء تحقيقه ، لأن قدرة كل شيء محدودة لا تستطيع تعدي خطوطها التي رسمها البارئ لها ، فقدرة المخلوق ممزوجة بعلمه وبما أنهما محدودان فإن من شأن ذلك أن تجعل من إبداعه وإظهاره لهٰذا الإبداع أيضاً محدوداً ، غير أن الخالق علمه وقدرته وإبداعه لا حدود لها جميعاً .

---

(1) صحيح البخاري، ج 10، ص485.
(2) غافر 67، 68.

وعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض الاعتراف الأكيد بقلبه ولسانه بالخالق لكل هـٰذا الكون البديع ، وأن لا يكتفي بالاعتراف بذلك فقط بل أن يكون هـٰذا الاعتراف عملياً بظهوره في أفعاله وأقواله ، بأن تكون درجة إيمانه بالبارئ تتعالىٰ عن أي شكٍّ في قدرته أو علمه أو رحمته .

بذلك الإيمان بخالق الخلق تستطيع أيها الخليفة أن تكون الوارث لهـٰذه الأرض والداعي لإصلاحها ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) .

فمن الأهمية أن تعرف أيها الخليفة طريقك إلىٰ خالقك الذي يعرف ما تظهر وما تُبطن ، فهو خالق نفسك ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ (3) ، فلا يمكن لأي ملك أو سلطان في الأرض أن يستطيع معرفة ما يكمن الإنسان داخل نفسه ، وما يكتم من أشياء لأن قدرته تظل محدودة إذ أنه يتساوىٰ مع أي إنسان آخر ضعيف في أنهما مخلوقان قد خلقهما البارئ ، ولكنّ ٱلله تعالىٰ بما أنه هو الخالق لنا فهو العالم بما في نفوسنا وإن لم نظهره .

البارئ هو اللطيف :

المتدبر في خلق ٱلله تعالىٰ لكل شيء فإنه حتماً سيستشعر لطفه ورحمته في

---

(1) الأعراف 128 .

(2) المائدة 99، 100 .

(3) الأنبياء 108ـ110 .

كل شيء ، فالمتأمل فيه يصل إلىٰ الإيمان بلطفه ورحمته بخلقه ، إذ أن كل ما حولنا يدل علىٰ ذلك مثل :

أولاً : الهواء :

هـٰذا الهواء الذي نتنفسه محملاً بالأوكسجين الذي يحتاجه الجسم البشري ، فلا يمكن للمرء أن يعيش من دونه تمتلئ به الكرة الأرضية ، فهو ليس حكراً لدولة قوية أو سلطان جائر يمنحه لمن يرضىٰ عنهم ويمنعه عمن يسخط عليهم ، بل بلطفه جعله ملكاً للفقير والغني والكبير والصغير والمؤمن والكافر .

فإذاً نستطيع من إدراك قيمة الهواء في حياتنا أن نلمس لطفه جل جلاله بعباده ، فهو خالق هـٰذا الهواء لهم سبباً في بقائهم علىٰ وجه الأرض ، فأنت أيها الإنسان لا تستطيع رؤية الهواء لـٰكنك تتنفسه بلطف بقدرة البارئ عز وجل ، وهو بالرغم من ذلك يتحول من نسمات لطيفة إلىٰ رياح عاتية تقتلع هـٰذا الإنسان من الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (1) ، فيكون هـٰذا المخلوق وهو الهواء متحولاً بقدرة القادر المطلق من الهواء اللطيف الذي يسبب الحياة للعباد إلىٰ وسيلة عذاب ونهاية لحياة العباد .

إذاً فخلق اللطيف للهواء يكمن فيه الرحمة والعقاب ، وهـٰذا من دلائل قدرة البارئ علىٰ تسخير كل شيء كيفما يشاء .

ثانياً : الماء :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ

---

(1) القمر 18ـ22 .

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، فالخالق قد خلق الماء لطفاً بنا وبحاجتنا له ، فمنه شربنا ومنبت زرعنا فهو محور الحياة علىٰ الأرض ، وقد جعل البارئ الأرض مركزاً لا ينضب من المياه لطفاً ورحمةً بعباده ، فاستمرار الحياة يبتغي استمرار الماء والهواء .

وبما أن البارئ هو خالق الماء ومنزله من السماء إذاً فأمره بيده يمنحه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء بعلمه وحكمته المطلقين .

وقد يجعل ٱلله من الماء الذي يتلطف بحياة الإنسان ويمنحه الاستمرارية في العيش بإذن ٱلله تعالىٰ أن يكون عقاباً رادعاً لمن طغىٰ وتجبر ، قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) .

ثالثاً : بتحذيره للبشر :

إن البارئ سبحانه وتعالىٰ لطيفٌ حتىٰ في تحذيره للبشر من عقابه وحسابه ، فكما جاء علىٰ لسان لقمان في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (3) ، إذ أن في وسع الخالق أن يجعل من تحذيره وقعاً مرعباً في

---

(1) الأعراف 57 .

(2) هود 40 ـ 44 .

(3) لقمان 16 .

النفوس ، لـكنه سبحانه وتعالىٰ انتقىٰ واختار اللطف أحياناً في توجيه التحذير لبني البشر لعلهم يرتدعون .

البارئ هو العليم :

لا يمكن للخلق أن يتحصل علىٰ قدرٍ من العلم لم يقدّره الخالق له ، فالعلم المحدود من نصيب الإنسان ، أما العلم المطلق فهو ملكٌ للبارئ ، فعلمه اللامحدود يتضح لنا من قدرته علىٰ خلق الخلق ومعرفة ما سيكون عليه حاله مسبقاً ، قال تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (1) فالآية تدل علىٰ أن أمر المعرفة بأمور الخلق تم قبل أن يتم حتىٰ القيام به من قِبَل المخلوق نفسه ، وهـٰذا دليل علىٰ العلم المطلق الذي يمتزج بعملية الخلق ويترافق معه ، مما يجعلنا مدركين ومتيقنين من أن البارئ عز وجل يملك أمر هـٰذا الكون وهـٰذا الخلق بعلمه وقدرته وبوحدانيته .

ومن المتعارف عليه أن التخطيط لابد أن يكون مدروساً بعلم كي يكون التنفيذ صائباً وصحيحاً ، فكيف بالعليم الخبير الذي يملك من القدرة علىٰ التدبير والتنفيذ ما لا يحده حد !

إذاً فالبارئ هو العليم بما خلق ويخلق ، فلا يمكن أن تتم عملية الخلق أو تنفيذها أو حتىٰ مجرد إنشائها بدون علمٍ مطلق ، وإلا لكنّا لاحظنا بعض نقاط الضعف هنا وهناك ، أو بروز بعض الأخطاء والعيوب والنقائص في عملية الخلق بصفة عامة ، ولـٰكن سبحان ٱلله خالق الكون وكل الخلق بلا تعبٍ أو نقص ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ

(1) الحديد 22 .

ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [1] ، فإذا قلّب الإنسان بصره في هـٰذا الكون وخلقه المحكم أو حتىٰ في نفسه وعظمة خلق البارئ له فإنه بالتأكيد سيدرك أن لهـٰذا الخالق علماً لا يحده أي حد وخبرة مطلقة لا تضاهيها أية خبرة .

لذا يجب علىٰ خليفة ٱلله أن يكون متصفاً بصفات البارئ عز وجل ، فيجعل من علمه نوراً يضيء له ولغيره طريق الحق ، فلا سبيل للوصول للحقائق وإقامة الحجج إلا بالعلم المفيد الصحيح الذي منبعه من الإيمان الصادق والثقة بالخالق العظيم الذي يهب لمن طلب العلم الوسيلة لذلك .

فالمجتمع المسلم لابد أن يكون المميز بين المجتمعات الأخرىٰ بما لديه من علمٍ مستقىً من الكتاب الكريم ، ومن دعوة للأخذ به كسبيل للرقي والحضارة ، وقد ترك فينا رسول ٱلله ﷺ وصحابته الكرام أفضل موروث من العلم والمعرفة في أمور ديننا ودنيانا .

البارئ هو المبدع :

الإبداع يكمن في عملية الخلق المتفاوت واشتمال الخالق لكل ما يدور في الكون في وقتٍ واحد ، وتنوع المخلوقات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

(1) الملك 1 ـ 4 .
(2) الرحمـٰن 10 ـ 15 .

فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [1] ، ففي الآيتين السابقتين إظهار لإبداع الخالق في عملية الخلق ، فهو بذلك بريء من التكرار والجمود في التنفيذ والتصوير ، فلم يخلق البشر علىٰ صورةٍ واحدة ولم يجعلهم بلسان واحد أو لون واحد ، بل جعلهم مختلفين في العديد من الأشياء ، وهـٰذا بحد ذاته إبداعٌ عظيم من خالقٍ عظيم ، وقد كان ذلك الاختلاف والإبداع لهدف وغاية وليس لمجرد التنويع والتشكيل كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [2] ، ففي الآية الكريمة السابقة يتضح لنا معالم مهمة في خلق البشر وهي :

أولاً : النداء كان للناس ولم يكن للمؤمنين فقط ، وهـٰذا توجيه من البارئ عز وجل وتوضيح للبشر أن الخلق جميعاً لله وحده ، فهو لم يخص المسلمين بالخلق دون غيرهم بل هو الخالق لكل الناس كافرهم ومسلمهم ، فلا برهان للكافر لفكرة أنه ابن الطبيعة أو الصدفة .

ثانياً : يوضح لنا الخالق جل جلاله قانون توالي الأجيال وسبب تزايد البشر ، فبعلمه المطلق لم يجعل ٱلله تعالىٰ البشر جميعاً من جنسٍ واحد بل جعل منهم الذكر ومنهم الإناث لغرض التزاوج والإنجاب مما يجعل حياة البشر علىٰ الأرض تستمر ، وإلا لكانت انتهت الحياة بأسرع ما يكون .

ثالثاً : أن ٱلله تعالىٰ جعل في اختلاف الألسنة والألوان والأشكال آيات للبشر كي يتأملوا إبداعه وخبرته المطلقة في الخلق ، ففي قدرة المولىٰ عز وجل أن يجعل من البشر جميعاً لوناً واحداً أو شكلاً متقارباً لـٰكنه جعلهم مختلفين بهدف أو يجمعهم توحيده عز وجل ، ونحن نلاحظ أن هناك من أفريقيا وآسيا

---

(1) المؤمنون 12 ـ 17 .

(2) الحجرات 13 .

وأوروبا من يعتنق الإسلام ويوحد الخالق من غير العرب ، علىٰ الرغم من تباعدهم واختلافهم إلا أن الإسلام يقرّب بينهم وهـٰذه غاية ٱلله تعالىٰ في ذلك ، إذ أنه لم يميّز إنساناً عن آخر في الشكل أو اللون لهدف التكبر أو الغرور .

رابعاً : تقرُّ الآية الكريمة مبدأً مهماً من ذكره دائماً فقد نجا من النار ، وهـٰذا المبدأ هو الأساس الذي يتم فيه تمييز البشر لدىٰ خالقهم سبحانه وتعالىٰ ، فبعد أنه وضّح اختلاف الأشكال والألوان والأجناس فقد أكّد أنه عز وجل لم يجعل من هـٰذا الاختلاف سبباً في قرب العبد منه ، بل لا يفرّق الخالق بين عبدٍ وآخر من عباده إلا بما قدّم هـٰذا العبد نفسه في الحياة الدنيا ، فالمعادلة واضحة من خلال الآية الكريمة بأنه كلما زادت درجة الطاعة والخوف والخضوع والتقوىٰ في قلب العبد ومعاملته مع خالقه زادت درجة قربه من ٱلله تعالىٰ وارتفعت مكانته عنده عز وجل .

بالتالي فعملية الخلق ليست عملية عبثية لمجرد الخلق فقط ، بل هي عملية لهدفٍ وغاية ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ (2) ، فالبارئ لم يقم بعملية الخلق بدون غايةٍ أو هدف بل كان خلقه قائماً علىٰ علمٍ مطلق وخبرةٍ مطلقة بما سيكون عليه حال الخلق ، وما سيكون عليه حال الأرض بعد أن يجعلها ميراثاً لعباده المخلصين .

إذاً لا نستطيع فصل عملية الخلق عن الإبداع الإلهي المطلق ، الأمر الذي لابد وأن يصل بنا إلىٰ وحدانية الخالق البارئ عز وجل ، إذ لا يمكن للإنسان

---

(1) القيامة 36ـ40 .

(2) المؤمنون 115 .

المُدْرِك بعقله وبصره أن لا يصل لهٰذه الحقيقة التي هي أصل النجاح والرقي ، فماذا بعد أن ملأ ٱلله الكون بالدلائل والشواهد لك أيها الإنسان ومازلت تُشرك به وكأن من بين من تعرف مَنْ يستطيع أن يصنع مثل ذلك ؟ قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

إذاً فالبارئ هو المنشئ والمبدع من العدم ، وهو الذي يتوحد في كل شيء فلا يشاركه أحد في خلقه وأمره جل جلاله .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون مبدعاً في الحياة فلا يرضىٰ بالحياة مغموراً فيها لا يعلم أحد بما لديه من مواهب وقدرات وهبها ٱلله تعالىٰ له ، فكل إنسان لابد وأن يكون لديه قدرة معينة أو ميزة تجعل منه إذا استغلها ونمّاها إنساناً مبدعاً ، وسبحان ٱلله نلاحظ أحياناً أن ٱلله يجعل من بعض البشر الذين يفتقدون لبعض القدرات الموجودة لدىٰ عامة الناس مبدعين ومميزين ، وهٰذا دليل علىٰ أن الإنسان هو طاقة كبيرة لا يجب أن تؤثر حالة نفسية أو جسدية علىٰ قدرته علىٰ الإبداع ، ولابد أن نكون نحن المسلمين أكثر الناس طاقة وقدرة علىٰ الإبداع

---

(1) الأنعام ، 95 - 101 .

لما لدينا من مخزون وإرادة جبارة علىٰ تحدي الصعاب بروح الإيمان والتوكل علىٰ الخالق البارئ .

فيا خليفة ٱلله في الأرض تميّز بالإبداع في أي مجال تجد نفسك فيه وثق إذا توكلت علىٰ الباري أنك قادر .

ومن الصفات التي يستمدها خليفة ٱلله إذا أدرك المعنىٰ الحقيقي لهٰذا الاسم الجليل أن يصبح :

1 ـ متوكلاً :

التوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ لا يأتي إلا إذا وصل الإنسان إلىٰ درجة كبيرة من الطاعة والخضوع لله عز وجل ، ولا يوكّل المؤمن أمره إلا للذي يملك القدرة علىٰ تدبير الأمور ، وهٰذا بحد ذاته يعني أن هٰذا الإنسان قد منح ثقته الكاملة بخالقه وبارئه ، لأنه هو من خلقه وهو أعلم بما يصلح له وما ينفع له ، لذلك فإنه يصل لمرحلة حب توكيل البارئ في أمره وهو راضٍ مقتنعٌ بذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [2] ، فمن الآيتين الكريمتين السابقتين نستطيع أن نلمح مدىٰ عمق إيمان المتوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ ، إذ رافق المولىٰ عز وجل صفة المتوكل عليه مع من يملك خشيته في قلبه وألحق التوكل بمن يؤدي حق ٱلله عليه من واجبات وطاعات ، فالتوكل إذاً ليس بالأمر الهيِّن الذي يستطيعه أي مسلم ، بل هو من ضمن عظائم الأمور التي تكون من نصيب خلفاء ٱلله في الأرض الذين يديمون ذكره جل جلاله ، وكذلك ربط البارئ بين

(1) الأنفال 2 ـ 4 .

(2) النحل 42 .

الصبر وهو ذلك الأمر العظيم الذي لا يطيقه كل إنسان لأنه يتطلب من الإيمان والتقوىٰ الشيء الكثير ، وفي ربط هـٰذا الأمر العظيم بالتوكل فهـٰذا من شأنه أن يساوي بين الصفتين ، فالصبر والتوكل من أساسيات بناء العلاقة الحق بين المؤمن وبارئه ، ولا يصل لهـٰذه العلاقة النبيلة إلا خليفة ٱلله ، الذي يبحث عن رضا الخالق وحبه .

لذلك فالتوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ يجعل العبد أولاً في أمانٍ وطمأنينة ، لأن البارئ جل جلاله القادر علىٰ تدبير أمر العباد وتسخير الأمور لهم وإيجاد المخرج لهم من كل ضيق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (1) ، ثانياً التوكل علىٰ البارئ يجعل المؤمن في أمان من وسوسات الشيطان الرجيم ، فلا يكون عليه سلطان يتحكم فيه ويضله عن طريق الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (2) ، في الآية الكريمة السابقة تأكيد لخروج المؤمن المتوكل علىٰ ٱلله من دائرة سيطرة الشيطان الرجيم .

2 ـ قوياً :

ليست القوة المقصودة هنا هي القوة الجسدية التي قد يتمتع بها بعض الناس ، ولـٰكن القوة المقصودة هنا هي القوة المعنوية التي يكون منبعها الإيمان الحقيقي بالله سبحانه وتعالىٰ ، هـٰذه القوة التي تجعل من المؤمن سداً قوياً أمام الباطل والفساد ، فكل ما نلاقيه في حياتنا الدنيا من مفاسد وشرور يحتاج إلىٰ تحدٍّ وقوة من النفس البشرية الصافية كي لا تضيع في ظلمات الشهوات والملذات التي يزينها الشيطان للبشر ، هـٰذا من شأنه أن يجعل من أتباع الشيطان ضعفاء لا يملكون حتىٰ الحجة للدفاع عن أنفسهم أمام الخالق يوم

(1) الطلاق 3 .
(2) النحل 99 .

القيامة بعد أن يتبرأ منهم الشيطان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

حتىٰ أن البارئ دعا لأن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً قوياً لا يشوبه ضعفٌ أو هوان ، وأساس هـٰذا المجتمع القوي هو المسلم القوي ذاته ، ولا يكون المسلم قوياً إلا بإيمانه بالبارئ إيماناً خالصاً يجعله يتخلص من كل أنواع الاستسلام لغيره والضعف أمام الباطل والضلال ، فقوة المؤمن يستمدها من خالقه العظيم الذي يكفيه حاجته ومبتغاه فلا يطلبها من أحدٍ غيره ، ولا يسعىٰ لغير بارئه عز وجل .

بذلك يمنح البارئ القوة لمن لجأ إليه وطلب عونه ، وخليفة ٱلله لا يمكن أن نجده بين الضعفاء والعاجزين ، بل سنجده في مقدمة الأقوياء الذين يواجهون أشد المواقف وأصعب الأمور يدعمهم إيمانهم وتقويهم ثقتهم بالبارئ التي لا حد لها ، وقد كانت لنا في الرسل والأنبياء القدوة الحسنة لثباتهم وقوتهم وإيمانهم وثقتهم بالله سبحانه وتعالىٰ ، فما من إنسان لاقىٰ في حياته كما لاقوا في سبيل تبليغ رسالة ٱلله للبشر وبالرغم من ذلك لم يضعفوا أو يهنوا .

3 ـ مستسلماً لله تعالىٰ :

إذا توكل المؤمن علىٰ الخالق توكلاً كاملاً أصبح لديه من القوة ما يكفيه لمواجهة كل المفاسد والشرور ، ولا يصل المؤمن لذلك إلا بالاستسلام

---

(1) إبراهيم 21، 22.

الكامل للخالق والخضوع المستحب له عز وجل ، لأن من شأن الاستسلام للخالق أن يجعل حياة المؤمن مليئة بالطمأنينة والسلام ، فلا يقضي حياته حسرةً وندماً علىٰ ما لم يستطع الحصول عليه .

وفي الاستسلام للبارئ اعتراف حقيقي وعملي بأنه الخالق البارئ القادر علىٰ كل شيء ، لأن الإنسان لا يسلّم أمره إلا لمن هو وكيله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (1) ، والوكيل دائماً هو من يملك الخبرة والحكمة والمقدرة والسلطة ، وبذلك فإن استسلام المؤمن لله تعالىٰ يحمل معنىٰ رضاه بالقضاء والقدر ، فلا يتذمر ولا يضيق ذرعاً بمصيبةٍ حلت به ، أم بمشكلة كبيرة طال حلّها ، بل يسعىٰ بكل جهدٍ لإيجاد الحلول وهو مستسلم في الوقت نفسه ومتيقن بأن ٱلله معه وبيده مفاتيح الحلول جميعاً .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون مستسلماً للخالق عز وجل ، راضياً بما كتبه عليه البارئ وقدّره له في الحياة الدنيا ، متأكداً بأنه جل جلاله لا يريد بعبده المؤمن إلا الخير والصلاح ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (2) ، ففي حديث الرسول الكريم ﷺ دعوة لكل مؤمن صادق الإيمان بالاستسلام للبارئ سبحانه وتعالىٰ لأنه لا يريد بعبده المؤمن إلا كل خير حتىٰ وإن لم يكن هـٰذا الخير واضحاً للإنسان في حينه ، لـٰكن من المجدي أن يكون لدىٰ المؤمن هـٰذه القدرة علىٰ الخضوع وحب الاستسلام للبارئ عز وجل .

---

(1) آل عمران 172 .

(2) صحيح مسلم، ج 14، ص 180 .

ولابد لخليفة ٱلله أن يدرك أنه لا سبيل للوصول لرضا الخالق إلا بالعمل الصالح ، لأن نتيجة الإيمان الحقيقي هو العمل الصالح الذي لا يصدر إلا ممن كان قلبه خاشعاً للبارئ ، وهـٰذا ما يحتاجه كل مؤمن لكي يسيطر علىٰ الشهوات والرغبات داخل نفسه التي قد تقوىٰ أحياناً علىٰ الإنسان فتفقده درجة من درجات الإيمان ، إذ أن إيمان الإنسان بخالقه لابد أن تزيد علىٰ حبه للشهوات والرغبات التي خُلْقت داخلنا ، والذي يحسم النتيجة النهائية لانتصار إحداها علىٰ الأخرىٰ هو إعمال عقلنا في تبيّن طريق الحق والسيطرة علىٰ هـٰذه الشهوات التي من شأنها أن تسير بالإنسان نحو الجحيم وبئس المصير .

ونلاحظ أن جميع الرسل والأنبياء قد غلّبهم ٱلله تعالىٰ علىٰ شهواتهم ، إذ أن البارئ عز وجل امتدح رسول ٱلله ﷺ بالأخلاق الحميدة في قوله جل جلاله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) ، وبما أن رسولنا الكريم هو الأسوة الحسنة لنا فلابد أن نسير علىٰ نهجه لكي نفلح ، ويكتبنا الخالق مع أولـٰئك الذين أفلحوا في الدنيا والآخرة ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (2) ، فخالق الخلق لا يرضىٰ للمؤمن إلا الجنة ولا يحب عذاب البشر بل يريد لهم النجاة من النار ، لذلك فقد وجّه دعوته للعقل البشري وإعماله لصالح الإنسان إذا صح استعماله .

ألا يستحق أن نعبد هـٰذا الخالق الجليل ؟ ألا يستحق أن نوّحد هـٰذا البارئ العظيم ؟ .

يجب علينا الإيمان به وبوحدانيته وقدرته علىٰ كل شيء ، وأن نصل إلىٰ درجة من التسليم بأن حياتنا ملكٌ له يسيّرها كيفما يشاء لأنه الخالق والمالك لها ، فلا يتذمر من نقص مالٍ أو ولدٍ أو يشكو من مسألة أصابته لا يجد لها

(1) القلم 4.
(2) النازعات 40، 41.

حلاً ، بل عليه أن يتجه بيقين إلىٰ خالقه لعلمه الأكيد بأنه القادر علىٰ أمره والذي يفعل ما يريد فيغير الحال إذا أراد إلىٰ حال أخرىٰ في طرفة عين أو أقل .

ومن الملاحظ أن الخالق سبحانه وتعالىٰ قد جعل بعض الأشياء في الآخرة مبرأة منها في الحياة الدنيا ومن هـٰذه الأشياء الآتي :

1 ـ الخمر :

من البديهي والمتعارف عليه أن الخمر من المشروبات الكحولية التي تتوفر في بعض الأماكن وقد لا يستغني عنها بعض البشر في شتىٰ بقاع الأرض ، وشربها لا يقتصر علىٰ الكفرة والعصاة فقط ، بل إننا نجد أن الكثير من المسلمين يتناولونها بشكل دائم وكبير .

ونجد أن الخمر مشروب من مشروبات الجنة ، يتناولها أهل الجنة وهم مقيمون فيها ، ولـٰكن هل الخمر الدنيوية هو نفس الخمر في الجنة ؟ .

بالطبع ليست الخمر في المكانين واحدة ؛ إذ إن الخمر في الحياة الدنيا تذهب بالعقول وتخمر التفكير وتضيّع الرشد ، فلا يدري شاربها ما الذي حل به بعد شربه لعدة كؤوس منها ، فلا يتورع عن فعل أي شيء لغياب عقله من تأثير هـٰذه الكحول عليه ، إذ أنها تذهب بعقله وبرشده ، فلا يستطيع معرفة ما أقدم عليه إلا بعد فوات الأوان ، كذلك من الممكن أن يكون لتأثيرها الجسدي الضرر الكبير إذ أنها تجعل من شاربها يتقيأ ما في جوفه ، وهـٰذا دليل علىٰ تأثيرها السلبي علىٰ معدته .

أما الخمر التي توجد في الجنة كمكافأة للصالحين المتقين فهي مبرأة من الخمر التي في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ (1) ، أي أن من شأن هـٰذه الخمر أن تُبقي العقل الإنساني علىٰ ما هو

(1) الطور 23 .

عليه ، فلا تأثير سلبي عليه من جرّاء شربه لها ، بل هي مشروب يمتّعهم دون أن يغيّب عقولهم ، ولا يجعلهم يتقيئون من آثار شربه .

فالخمر في الجنة إذاً من الأمور المبرأة منها في الدنيا ، إذ لا تتكرر في الدارين ، بل تختلف عنها في الصفات والمزايا .

2 ـ **الحياة** :

الحياة التي سنحياها في الآخرة غير التي عشناها في الدنيا ، إذ أن حياتنا في الدنيا محدودة بأجل لا يستطيع أي مخلوق أن يهرب من نهاية أجله الذي قدّره ٱلله له ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) ، فالخالق للنفس البشرية الذي لا شريك له جعل الحياة محدودة بكتاب لكل إنسان ، فلا يمكن أن تدوم حياة أي إنسان علىٰ وجه الأرض مهما وصلت درجة قربه من البارئ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (3) ، فالموت إذاً خُلق مع حياة الإنسان علىٰ الأرض ، لا يمكن أن يكون لأي مخلوق علىٰ الأرض نصيب من أحدهما دون الآخر ، فلكل إنسان نصيب من العمر كتبه ٱلله له ، وكذلك له أجل لابد وأن يلاقيه في ساعة محددة لا يعلمها إلا الخالق البارئ ، قال تعالىٰ

(1) هود 3، 4 .
(2) العنكبوت 5 .
(3) آل عمران 144، 145 .

في كتابه الكريم : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) ، فبذلك تكون الحياة الدنيا محدودة بأجل أي أنها تنتهي عند حد معين قدّره ٱلله تعالىٰ علىٰ كل مخلوق .

أما الحياة في الآخرة فهي مبرأة من الانتهاء لأنها حياة باقية لا تنتهي فهي دار الخلد ، سواء كان ذلك في الجنة أو في النار ، فالبشر سيقسمون يوم الحساب لقسمين إما أن يكون لهم الخلود في الجحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (2) ، وإما أن يكون نصيبهم دار الخلد في الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (3) ، وهـٰذا الخلود في أحدىٰ الدارين إنما يحدده عمل الإنسان في الحياة الدنيا ، فميزان أعماله هو الفيصل الذي سيفصل بين مكان تخليده يوم الدين .

لذلك فإن الحياة في الدارين تختلف عن بعضها البعض ، فالحياة الأولىٰ للفناء ، والحياة الأخرىٰ للبقاء والدوام ، وقد بيّن لنا الخالق الفرق بين الدارين وأيهما هي الأبقىٰ في قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (4) ، فهـٰذا نصحٌ

---

(1) الزمر 42.

(2) البقرة 161، 162 .

(3) آل عمران 133 ـ 136 .

(4) الأعلىٰ 17 .

لأصحاب العقول الرشيدة التي تخشىٰ البارئ لها فلا تغتر بالحياة الدنيا الفانية بل ترنو إلىٰ الآخرة فتشتري الحياة الدنيا بالآخرة .

3 ـ العسل :

فالعسل معروف لدينا أنه شرابٌ مفيد نستخلصه من النحل الذي جعله ٱلله تعالىٰ شفاءً للناس ومنافع ، وهـٰذا العسل أحياناً يتعذر الحصول عليه بسهولة ، بل يتطلب الجهد والوقت الكبيرين لذلك ، والأصعب من ذلك هو الحصول عليه صافياً ونقِيّاً من بين الجبال والأشجار ، إذ يتعسر أحياناً كثيرة الحصول علىٰ العسل النقي .

وهناك نوعٌ آخر من العسل موجود في مكانٍ آخر ، وهو يختلف عن العسل الموجود علىٰ الأرض ، وهـٰذا العسل هو الموجود في جنان الخلد يُقَدَّم للصالحين الذين أثابهم ٱلله بتحقيق ما سعوا إليه في الحياة الدنيا ، فما كان من الخالق إلا أن جعل الجنة تحقيقاً لكل ما يشتهون ومن ضمن ذلك العسل الصافي ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [1] ، فالعسل في دار الخلد مبرأ من العسل الدنيوي في أنه دائم الصفاء والنقاء لا يأتي لهم محتاجاً للتنقية أو التصفية بل يأتي خالصاً من كل الشوائب ، بل يتحصلون عليه بيسر وسهولة دون عناءٍ أو مشقة .

4 ـ اللبن :

اللبن شراب معروفةٌ لدينا ومعروفٌ فائدته لجسم الإنسان ، كما أن الإنسان يستلذ بمذاقه اللذيذ الذي يميّزه عن باقي أنواع الشراب ، وهـٰذا اللبن الدنيوي دائماً يكون بحاجة إلىٰ طريقة حفظٍ جيدة كي لا يفسد ، فمن المعروف أن اللبن من المشروبات القابلة للفساد وتغيير الطعم والرائحة مع طول المدة أو

(1) محمد 15 .

إذا خالطه ماء كما يحدث في بعض حالات غش اللبن بالماء .

لذلك فاللبن في حياتنا الدنيا لا نستطيع أن نحتفظ به كما نشاء ونجده وقتما نطلبه طازجاً لذيذاً ، لأن هناك من العوامل البيئية ما يحول دون ذلك .

واللبن أيضاً من ضمن الشراب الذي يُقدم في الجنة للمؤمنين المحسنين كمكافأة لهم علىٰ طاعتهم وإخلاصهم في العبادة ، ولـٰكن اللبن الذي يوجد في الدار الآخرة مبرأ من اللبن الدنيوي ، إذ أنه سالم دائماً من تغيير اللون والطعم ، فلا يلحقه الفساد والتلوث بل يبقىٰ صافياً متجدداً دائماً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ (1) .

فبذلك يكون اللبن من ضمن الأمور التي نجد لها مثيلاً في الحياة الدنيا ولـٰكن مع اختلاف الصفات والمزايا ، فالخالق قد خص أهل الجنة بما لذ وطاب من طعام وشراب بعد أن جعل منه خالصاً من كل مفسدة ، فأصبح صالحاً لا يشتهيه المؤمن إلا ويجده حاضراً أمامه ، بكل يسر وسهولة .

5 ـ الغلمان :

لا نجد سلطاناً أو والياً يخلو بلاطه من الغلمان والخدم ، يقومون بتنفيذ أوامر الأسياد ويطيعونهم وينفذون رغباتهم ، بالطبع علىٰ قدر المستطاع ، والغلمان في الحياة الدنيا هم بشرٌ مثلنا يأكلون ويشربون وينامون ويفرحون ويغضبون ، أي أنهم قابلون للتغيير والتبديل في شكلهم الخارجي والداخلي ، إذ أنهم يخضعون لقوانين الطبيعة التي وضعها البارئ سبحانه وتعالىٰ ، إذ أنه من المستحيل وفقاً لهـٰذه القوانين أن يثبت شباب الإنسان ويدوم ، وأن يظل في عالم الطفولة طوال العمر ، فمراحل العمر البشرية مرتبة كما أرادها الخالق عز وجل ، فيبدأ الإنسان طفلاً ثم يمر بمرحلة الشباب فيصل أخيراً إلىٰ الكهولة ،

---

(1) محمد 15 .

وهـٰذه المراحل المتدرجة في العمر لا يفر منها غني أو فقير مسلم أو كافر فالناس سواء فيها لا يمكن لأحد أن يغير فيها شيئاً ، وبذلك فإن للغلمان أيضاً عمراً محدوداً لفترة الريعان والفتوة والقوة ، لا يمتد إلا لبضع سنوات وتبدأ بعدها الشيخوخة بالسعي إليهم فلا يقدرون علىٰ الخدمة كما كانوا يفعلون .

أما غلمان أهل الجنة الذين يقومون علىٰ خدمة أهل الجنة فإنهم يختلفون عنهم في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾[1] ، ففي وصف الآية الكريمة للغلمان في جنان الخلد نخرج بالتالي :

أ ـ أن الغلمان لا يأتون حسب الحاجة فقط بل إنهم دائمو الطواف بينهم لعل لأحدهم طلباً فلا يكلف نفسه عناء النداء بل يجدهم أمام ناظريه في أي وقتٍ شاء ، فهم مكلفون من الخالق البارئ لخدمة هـٰؤلاء المخلصين الذين استحقوا كل هـٰذا النعيم بما قدموه من أعمال في الحياة الدنيا .

ب ـ العمر الذي يكون عليه الغلمان هو أوج الصبا والقوة ؛ إذ إنهم مبرؤون من العجز أو التقدم في السن ، لأن دوام الشباب والفتوة لا يكون إلا لهم وهي ميزة ميزهم الخالق بها كي يكونوا في أعلىٰ درجات القوة والجمال .

ج ـ هـٰؤلاء الغلمان ليس من بينهم من هو ذميم الخلقة أو قبيح المعشر ، بل يتصفون جميعهم بالجمال الذي وهبه ٱلله تعالىٰ لهم ، بوصفه لهم كاللؤلؤ الذي ما يزال مخبوءاً في أصدافه ، يبقىٰ خيره فيه ونستطيع الاستفادة منه في كل شيء ، مع احتفاظه بخواصه .

نوع الخطاب بين أهل الجنة :

يتنوع أسلوب الكلام والتخاطب بين البشر علىٰ وجه الأرض ، فهناك من

---

(1) الطور 24.

هو جاهل بكيفية التخاطب ، وهناك العالم بالمنطق الحسن للكلام ، وهناك من يتعمد أذية غيره وجرح مشاعره بكلمات جارحة ، كما نجد بعض البشر لا يتوصلون لطريقة التفاهم مع بعضهم البعض بسبب اختلاف اللغات ، فذلك التنوع في أسلوب الخطاب لا يمكن أن نجده بين أهل الجنة الذين لا يسمعون فيها إلا طيب الكلام وأحلىٰ العبارات ، وكيف لا وهم الذين انتقاهم الخالق من بين خلقه ليكرمهم بالجنة الخالدة إكراماً لهم علىٰ حبهم له وإخلاصه في طاعته ؟

كما جاء في قوله الكريم : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [2] .

إذاً فقد جعل الخالق سبحانه وتعالىٰ الجنة وما فيها مبرأة من الدنيويات وإن كان فيها بعض الأشياء المتشابهة مع اختلاف الميزات والخواص ، فكل ما علىٰ الدنيا قابلٌ للفساد والانتهاء والتغيير ، أما ما في الجنة فهو دائم لا يتغير ولا يتبدل فيكون علىٰ أحسن صورة .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يرنو بنظره نحو الخير الأبدي الكبير الذي ادخره البارئ لعباده المتقين ، الذين استحقوا أن يرثوا الأرض كما أراد ٱلله ، فلا ينخدعوا بما في الحياة الدنيا من زينة زائلة ذات عمرٍ قصير ، بل يسعون نحو الأفضل والأبقىٰ والأشهىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [3] .

---

(1) مريم 62، 63 .

(2) الواقعة 25، 26 .

(3) القصص 60، 61 .

اللهمَّ يا البارئ الخلق برئنا فلا براءة بعد براءتك ولا فضل إلا فضلك فبرئنا اللهُمَّ بفضلك عن الشرك بك وبرئنا من عبادة غيرك بهدايتك لتوحيدك والانصياع لك عن طيب خاطر !

اللهمَّ برئنا من الظلم بإلهامنا العدل ، ومن الخطايا والسيئات بإرشادنا إلىٰ الطاعات . كما نسألك اللهُمَّ أن تبرئنا من الإفساد في الأرض بالأفعال والأقوال لنستحق بذلك رضوانك ، ونكون خلفاءك في الأرض !

اللهمَّ برئنا من سخطك وعقابك بعفوك ورضاك ، وبرئ عقولنا من نسيانك والتلهي عنك بما سواك ، وبرئ قلوبنا وألسنتنا عن الانشغال بغيرك ! اللهُمَّ برئنا من الكذب والإساءة لرسلك ، وبرئ المسيئين إليهم من نعيمك ورحمتك واجعل النار مستقرهم الأخير ! اللهُمَّ برئنا من المرض والهم والغم والفقر والحاجة والبلاء ، وبرئنا من الهموم والدنس بلطفك ورحمتك أنت الرحمـٰن سبحانك جل جلالك ! اللهُمَّ صلِّ وسلم علىٰ سيدنا محمد كما صليت وسلمت علىٰ سيدنا إبراهيم !

✍ ✍ ✍

المصوّر جل جلاله

المصوِّر : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ مالك الملك بيده مقاليد الأمر ، إنه ٱلله سبحانه وتعالىٰ القادر علىٰ الخلق والبَرْء . قال عزَّ وجل : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

في لسان العرب المحيط المصوِّر هو « الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطىٰ كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها علىٰ اختلافها وهيئتها » (2) .

المصوِّر المطلق هو الذي يصوِّر ما يشاء كيف يشاء متىٰ ما يشاء ، إنه المصوِّر بالأمر لا ببذل الجهد (كن فيكون) . أمَّا المصور بالإضافة فهو المصوّر ببذل الجهد وتصبب العرق وبالكد والاجتهاد .

قال ابن الأثير : « الصورة ترد في كلام العرب علىٰ ظاهرها وعلىٰ معنىٰ حقيقة الشيء وهيئته وعلىٰ معنىٰ صفته » (3) .

وقال الخطابي : « المصور هو الذي أنشأ خلقه علىٰ صور مختلفة ليتعارفوا بها » (4) .

---

(1) الحشر ، 24 .

(2) لسان العرب المحيط ، مصدر سابق ، ج رقم 2 ، ص 491 .

(3) المصدر السابق ، ص 492 .

(4) عمر سليمان عبد الله ، أسماء الله الحسنىٰ الهداية إلىٰ الله والمعرفة به ، عمّان ، دار =

وقال الشيخ حافظ الحكمي : « المصور الممثل للمخلوقات بالعلامات التي تميز بعضها عن بعض أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده علىٰ الصفة التي يُريدها »[1] .

وقال أبو حامد الغزالي : « ٱلله تعالىٰ خالق من حيث إنه مقدِّر ، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد ، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب ، ومثاله الإنسان وهو أحد مخلوقاته »[2] .

المصور المطلق هو الذي يمتلك المقدرة علىٰ الخلق والبرء ، فيصور ما يشاء كيف يشاء ، ليظهر مقدرته علىٰ التصوير مما يخلق ويبرئ . ولذا فهو فاعل الشيء ومخرجه للعيان علىٰ الهيئة والحركة مع الإمداد بالمقدرة التي تميزه عما يصورون .

وفي الحديث المنسوب إلىٰ رسول ٱلله ﷺ قال : « أتاني ربي وأنا في أحسن صورة »[3] . وفي هـٰذا القول الصورة لا تقتصر علىٰ المظهر بل تمتد لتحتوي النُضج والاستعداد المُمكِّن من حمْل الأمانة والتبشير بها والدعاية والهداية إليها مع البلاغ والتحريض والإنذار .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] . تدل هـٰذه الآية علىٰ أسبقية الأرض والسماء

= النفائس ، 2004، ص 87.
(1) المرجع السابق، ص 87.
(2) يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنىٰ، ص 44.
(3) سنن الترمذي، ج 12، ص 47.
(4) غافر، 64.

علىٰ خلق الإنسان وتصويره بالشكل والهيئة التي أظهره المصور جل جلاله عليها .

والحُسن هو الجمال والروعة في الهيئة والمظهر اللذين صُوِّر الإنسان عليهما كلما قورن بغيره من المخلوقات الأخرىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (1) .

في أحسن تقويم تعني أنه المتوَّج علىٰ ما خلق الخالق وبرأ وصوَّر ، أي أنه علىٰ رأسها جميعاً ، ولهٰذا سجدت له الملائكة ومن آمن بأمر ٱلله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ (2) . لا أدري ما العيب الذي ظهر لإبليس في الطين ، ألم يكن إبليس عاجزاً عن أنباء الأسماء التي عُرضت مسمياتها علىٰ الملائكة وعجزت عن معرفتها والإنباء بها ، في هٰذه الآية الكريمة ٱلله لم يعرض الأسماء علىٰ آدم ، بل عرض عليه المسميات بجميع أنواعها وألوانها وأحجامها وصورها التي برأها ٱلله عليها . وتمكَّن آدم بعلم من ٱلله تعالىٰ من إنبائهم بها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (3) .

---

(1) التين ، 4 .

(2) الأعراف ، 11 ـ 15 .

(3) البقرة ، 31 ـ 33 .

ولذا لو لم يُخلق الإنسان في أحسن تقويم ما استطاع الإنباء بما عجزت بقية المخلوقات الأخرىٰ عن معرفته وبما فهم الملائكة . ولو لم يكن الإنسان كذلك ما كان الرُّسُل منه والأنبياء صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، والذين من بينهم سليمان عليه الصلاة والسلام الذي يتحكم في أمر الجن بكامله أي بجميع أجناسه وصفاته ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (1) أي لمَّا قُضي بالموت علىٰ سليمان ﷺ المتحكم في أمر الجن ، فالجن لم يعلم بأمر موت سليمان ﷺ إلىٰ أن جاءت دابة الأرض (الأرضة) ونخرت عكازه حتىٰ خرَّ علىٰ الأرض حينها تبين للجن أن سليمان قد مات ، وفي هـٰذا الأمر آية علىٰ أن الإنسان هو الأفضل في المعرفة والإدراك والاستنباط والاستقراء . ولو كانت الشياطين العاصية تعلم لعلمت بأمر الموت قبل وصوله وتنفيذه ، ولو كانت تُدرك كما يُدرك الإنسان لعرفت أنَّ سليمان قد مات وهو متكئ علىٰ منسأته .

سليمان المخلوق من الطين صلوات ٱلله وسلامه عليه يتحكم بقوة وُهِبتْ له من ٱلله تعالىٰ في أمر الجن المخلوق من النار . ومحمد ﷺ قد جاء بالرسالة الخاتمة للإنس والجن ، ولذلك كان المؤمنون والكفرة من الثقلين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (2) وقد كان أيضاً الشياطين من الثقلين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ (3) اللهُمَّ أعوذ بك يا الله من شياطين الإنس والجن ، وأعوذ بكلماتك التامة من شر ما خلق . اللهُمَّ إني أفوض أمري وأسرتي وما أملك إليك فتقبل مني سبحانك لا إلـٰه إلا أنت وليي .

---

(1) سبأ، 14.

(2) الذاريات، 56.

(3) الأنعام، 112.

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) .

المصير تعني الحالة التي سيكون عليها من خُلق في أحسن صورة ، الصورة التي لها ما تُسِرُّ وتُعلن ما في الصدور . وقبل ذلك قال (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) أي ليس كل من خُلق في أحسن تقويم يكون مصيره حسناً ومناسباً للصورة التي يُراد لها أن تبقىٰ علىٰ أحسن تقويم ، وذلك بأسباب كفر البعض وإيمان البعض الآخر . فالصورة هي الانطباع الذي يؤخذ علىٰ الإنسان بأعماله وسلوكه ذكراً كان أم أنثىٰ . ولذلك لقد خلق ٱلله الإنسان في حُسن المضمون والصورة ، واستخلف منه من استمسك بالعروة الوثقىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (2) والعروة الوثقىٰ هي الإيمان الذي يجعله خليفة في الأرض ويُمكِّنه من بلوغ الجنة .

المصوِّر كما جاء في قول الحليمي : « المهيئ لمناظر الأشياء علىٰ ما أراده من تشابه أو تخالف » (3) .

وقال الخطابي : المصور هو « الذي أنشأ خلقه علىٰ صور مختلفة ليتعارفوا بها ، وقال : التصوير هو التخطيط والتشكيل » (4) .

والقرطبي قال : « المصوِّر مُركِّب الصور علىٰ هيئات مختلفة ، فالتصوير

(1) التغابن ، 2 ـ 4 .
(2) لقمان ، 22 ـ 24 .
(3) ابن القيم الجوزية ، الجامع لأسماء الله الحسنىٰ . مصدر سابق ، ص 264 .
(4) المصدر السابق ، ص 264 .

مرتب علىٰ الخلق والبراية وتابع لهما » [1] .

وقد يتساءل البعض : لماذا خُلق الإنسان في أحسن صورة وتقويم ؟

1 ـ **لكي لا يُشرك بمن صوره في أحسن تقويم** : وليدرك الحق ويكون عليه ، وليميز بين السليم والمعوج ، ويتقي ربَّه في حركته وسكونه ، ولا يظلم أحداً . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [2] .

2 ـ **ليتعرَّف علىٰ آياته العظام** : ويُدرك خالقه ويؤمن عن بينة ويقين أنَّ لله في خلقه شؤوناً ، فلا يغفل حتىٰ يتبين ويؤمن بأن ما صوره ٱلله من ورائه أسرار فعليه بمعرفتها حتىٰ يتعرف علىٰ قدرة خالقه وعظمته ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [3] .

3 ـ **لحمْل الأمانة** : مع أنَّ قدرات المخلوق محدودة جداً ولا تقارن مع قدرة الخالق تعالىٰ ، إلا أنَّ بمقارنتها مع قدرات المخلوقات الأخرىٰ يتميز العقل الإنساني بالمقدرة النسبية التي تُمكِّنه من حمْل الأمانة إذا دخل الإيمان في قلبه . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [4]

---

(1) المصدر السابق، ص 265 .

(2) آل عمران، 64 .

(3) السجدة، 27 .

(4) الأحزاب، 72 .

وقال جل جلاله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (1) .

4 ـ **ليكوِّن القدوة الحسنة ويقتدي بسلوكها** : فالقدوة الحسنة هي المثال الأخلاقي في القول والفعل والسلوك التي تنال الإجماع في صدقها وحمْلها للأمانة وإخلاصها فيما تعمل أو تفعل ، فهي التي تخشىٰ ٱلله وتعدل إذا حكمت بين الناس ، وإذا شهدت أظهرت الحق مع الحقيقة ، وهي التي تتذكر لتأخذ العبر ، وتتفكر لتدرك عن بينة . قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ (3) .

5 ـ **ليحافظ علىٰ صورته باتزان** : فلا يقدم علىٰ شيء من شأنه أن يشوه الصورة التي صوره ٱلله عليها ، ويريده أن يظل عليها مما يجعل في كلِمهِ حُسناً ، وفي أعماله حُسناً ، وفي تفكيره وتقديره حُسناً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ (4) وقوله جل جلاله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴾ (5) .

---

(1) المؤمنون، 8 .
(2) الأحزاب، 21 .
(3) الممتحنة، 4
(4) الطلاق، 4 ـ 5 .
(5) الانفطار، 6 ـ 14 .

6 ـ **ليتعلَّم ويُعلِّم** : ليتعلم من علم ٱلله ويُعلِّمه به من يجهله حتىٰ تعم البينة والمعرفة الواسعة التي بها يتمكن الإنسان من أن يكون خليفة لله في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (2) .

7 ـ **ليُمارس ما يجب ويمتنع عما لا يجب** : قال جل جلاله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (3) كل ما خلق المصور علىٰ الأرض من حيوانات وطيور وأسماك ونباتات وبحار ومحيطات وجماد هو من أجل أن تُفتح الفرص أمام الإنسان لأن يعمل وفقاً لقدراته واستعداداته ما يستطيع أن يقوم به من أعمال صالحة ونافعة ومفيدة . وجاءت في هٰذه الآية كلمة (الزينة) للإغراء الجمالي الذي يستفز الأنفس ويثيرها لأن تعمل ولا تفسد الزينة والجمال الذي خلقه ٱلله جل جلاله في طبيعة ما خلق . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (4) .

8 ـ **ليُستخلف في الأرض** : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (5) أي لو لم يكن هو عز وجل ما كنَّا نحن بني

(1) الرحمـٰن، 1 ـ 4.
(2) طه، 114 .
(3) الكهف، 7 .
(4) الأنعام، 135 .
(5) فاطر، 39 .

الإنسان ، وما كان لنا الاختصاص بالاستخلاف في الأرض ، ومع ذلك فقد كفر البعض منَّا فكان كفرهم عليهم حرماناً من الاستخلاف الذي به ينعم الإنسان في الدارين . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

9 ـ **ليتنعَّم بالجنة** : أي أن الحياة الدنيا لم تكن هي الغاية بل الغاية تكمن من ورائها ، فمن عمل عملاً صالحاً في الدار الدنيا فقد فاز بالمترتب عليها وهو دخول الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) . وقال عز وجل : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (4) .

يقول ابن منظور في لسان العرب : « المصور هو ٱلله الذي صور جميع المخلوقات ورتبها فأعطىٰ كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها علىٰ اختلافها وكثرتها » (5) .

---

(1) البقرة، 30.
(2) الصف، 12، 13 .
(3) النحل، 30 ـ 32 .
(4) البقرة، 82 .
(5) لسان العرب المحيط، ج 4، ص 473.

وقال ابن الأثير : « الصورة ترد في كلام العرب علىٰ ظاهرها ، وعلىٰ معنىٰ حقيقة الشيء وهيئته وعلىٰ معنىٰ صفته حيث يقال : صورة الفعل هيئته وصورة الأمر صفته »[1] . ولذا فإن الصورة هيئة الشيء ، والمصور هو مهيِّئ الشيء ومُظهره من الكمون إلىٰ المشاهدة ومن الغموض إلىٰ الوضوح الذي به يتميز عن غيره من المخلوقات وذلك باتخاذه للصفة التي تجعل من البشر بشراً ، ومن الطير طيراً ، ومن الجماد جماداً ، ومن الحيوان حيواناً ومن النبات نباتاً ، ومن كل الكائنات كائناً .

المصور المطلق هو الذي يصور كل شيء كما يشاء هو ، والمصور بالإضافة هو الذي يصور ما يشاء مما صوره ٱلله تعالىٰ . ولذا فإن المصور المطلق إبداعي ، والمصور بالإضافة اتباعي ، فإن آمن أدرك بأنه لا يصور إلا ما صوره المصور الحق جل جلاله ، وإن لم يؤمن ظنَّ بأنه يصور ما لم يصوره المصور الحق تعالىٰ ، وفي هٰذا الأمر يسيطر الخيال علىٰ إخفاء الحقيقة . أمَّا خيال المؤمن فهو الذي يراد له أن يمتد من الصورة التي صورها المصور والروح فيها ، إلىٰ معرفة الأسرار التي تكمن من ورائها ، حتىٰ يُدرك الحق فيما صوره ٱلله تعالىٰ ليعمل علىٰ إظهاره فيما يصور .

التصوير بالنسبة للمصور خَلْقي ، أي من لا شيء يُصوِّر الشيء ، ومن الشيء يصور جل جلاله الأشياء . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] . وقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3] .

(1) المصدر السابق، ص 451.
(2) آل عمران، 6.
(3) الفرقان، 1ـ3.

والتصوير بالنسبة للمخلوق صناعي أي أنه يصور من الأشياء التي صورها المصور الحق أشياء ذات أشكال متعلقة بالطبيعة التي صورها ٱلله تعالىٰ ، ومنها يُستنبط ما يرشد العقل إلىٰ الهداية للحق . ولذا فالخَلقي قاعدي عليه تؤسس المعارف المشاهدة والمعارف المجردة ، والتصويري ترتبي ، أي أنه اللاحق للسابق . ولهٰذا كانت من صفاته تعالىٰ (الخالق البارئ المصور) فهو الذي يخلق أولاً ، ثم ثانياً يُبرئ ما خلق ، ثم ثالثاً يصور ما برأ . وهٰكذا بالنسبة للمصور بالإضافة فهو الذي يستخلص المادة المناسبة من المادة المطلقة ، ثم يخلطها بما يناسب الشيء المستهدف بالخلق ، ثم يشكله في الصورة المناسبة له .

المصور جل جلاله هو « الذي أنشأ خلقه علىٰ صورٍ مختلفة ليتعارفوا بها وليميز بعضها عن بعضٍ ، فالخلق كله لا يشبه بعضه بعضاً »[1] .

المصور هو المميز بين ما خلق وبرأ بالهيئة والصفة ، ليجعل لكل ما خلق خصائص مبرئين عليها دون لبس أو غموض لكل ما خلق وسيخلق سبحانه لا إلـٰه إلا هو . فالمصور هو المميز لِما خلق من حيث المظهر والشكل والهيئة ، فبالصورة يكتمل الخلق ويُبرأ ويتميز بالخاصية التي أراده ٱلله أن يكون عليها . قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[2] . في أي صورة ما شاء ركبك ، تدل علىٰ عدم التطابق لِما صوره عز وجل ، ولهٰذا جعل للمخلوقات هيئاتها وصفاتها وجعل للمفردة الواحدة منها خاصية تتميز بها عن غيرها ، فالبشر هم البشر يختلفون في هيئتهم وصفتهم عن هيئات الطير والحيوان ، وكل مفردة من البشر لا يمكن أن تتطابق

---

(1) أحمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . الدار البيضاء ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 59 .

(2) الانفطار، 7 ـ 8 .

مع مفردة أخرىٰ حتىٰ ولو كانتا توأماً ، ولذلك يمكن أن تتوحد المشاعر والأحاسيس والأشواق والآمال والأماني ولـٰكن لا يمكن أن تتطابق ، وفي هـٰذه الحالة بالتمام كما هو حال البصمة التي خلقها ٱلله وبرأها وصورها لبني الإنسان ولم يخلق لها تطابقاً سبحانه لا إلـٰه إلا هو الخالق البارئ المصور !

ومع أن الأشياء تتعدد والصور كذلك ، إلا أن المصور الحق عز وجل واحد لا يتعدد ، أما المصور بالإضافة فهو الكم العددي من البشر الذي صوره المصور الحق جل جلاله !

وبما أنَّ ٱلله صورنا فأحسن صورنا ، فكيف يظن البعض بأن الإنسان حيوان ؟ !

وكيف يعتقدون في ذلك والله يقول : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [1] .

وكيف يغتر البعض والله تعالىٰ يقول : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [2] .

يقول داروين ، والتابعون له فيما يقول : إن أصل الإنسان حيوان ثم تطوَّر من حيث الصورة الحيوانية التي خُلق عليها إلىٰ الشكل الآدمي الذي نحن عليه ، ويُرجِّعُ ذلك إلىٰ تحليل بعض الجماجم التي عثر عليها عبر التاريخ قِدَماً .

ونحن نقول : صدق ٱلله العظيم لما قاله جل جلاله : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ

(1) التين ، 4 .
(2) الانفطار ، 6ـ8 .

﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [1] .

نقول ذلك ونحن نعلم بقول البعض بأنَّ آدم عليه الصلاة والسلام لم يكن واحداً حيث يدَّعون بوجود أكثر من آدم ، وفي هـٰذا الشأن من سيصدق من ؟ ! إننا نعني بآدم من خُلق من الأرض وأديمها ، أي إننا نعني آدم الأصل الذي لم تكن له والدة ولا والد ، الذي خلقه ٱلله خلقاً من تراب وقال له كن فكان بشراً سوياً في أحسن تقويم ، أي في أحسن صنعة وأجمل مظهر وهيئة وصفة ، حيث صوره فأحسن صوره .

نستغفرك يا ٱلله ، ونعوذ بك من قول الذين قالوا : إنك خلقت القردة ، ثم طورتها إلىٰ أن أصبحت نحن بني الإنسان ، الذين فضلتهم في الخلق ، واصطفيت منهم الأنبياء والرسل ، صلواتك وسلامك عليهم جميعاً .

أستغفرك يا ألله أن يكون أصل الرسل والأنبياء كما ظن داروين والتابعون لقوله بأن البشر من أصل حيواني ، وبالتحديد كما يظن الضالون من أصل قردي . كيف يتم التصديق لِما لا يُصدَّق وأصلنا يعود إلىٰ أبينا آدم صلوات ٱلله وسلامه عليه ، وكيف يتم التصديق ومنَّا نوح وإبراهيم وإدريس ويونس وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهارون ويوسف وهود وصالح وشعيب وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات ٱلله وسلامه عليهم وعلىٰ جميع الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم جل جلاله .

إنَّ الذين صدَّقوا بأن الجمجمة التي عُثر عليها ولها من العمر آلاف السنين تعود بالإنسان إلىٰ أصل قردي ، فهـٰذه ليست بحجة ، وما يثبت أنها حقيقة هي جمجمة آدم (جمجمة إنسان) ؟ ولما لا تكون حقيقة إنها جمجمة قرد كما خلقه ٱلله تعالىٰ علىٰ الهيئة التي برأه عليها وصوره هو كما هو ليميزه عن

---

(1) آل عمران، 59 ـ 61 .

غيره من بقية المخلوقات الحيوانية الأخرىٰ والبشرية التي لا تتطابق مع صورة القردة كرمنا وكرم المستمعين ٱلله تعالىٰ .

كيف يُصدق بالأصل القردي لبني آدم والله تعالىٰ يقول : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (1) . ورد التفضيل في هـٰذه الآية الكريمة أساساً في الخلق وذلك بقوله تعالىٰ : (ممن خلقنا تفضيلا) أي من كل ما خلق ٱلله عز وجل كان التكريم لبني آدم المفضلين في الخلق علىٰ غيرهم ممن خلق تعالىٰ .

وفي تفسير القرطبي (كرمنا) تعني جعلنا لبني آدم شرفاً وفضلاً . ويدخل في هـٰذا التفضيل خلقهم علىٰ الهيئة ذات القامة والحسن في الصورة . وفي الرزق الطيب ذوق ورفعة لا تجعل الأمر متعلقاً بالحيوان ، وفي هـٰذا الأمر أيضاً يتضح التفضيل لبني الإنسان عن غيرهم من الحيوانات التي تعد القردة واحدة منها أو فئة من فئاتها الدنيا .

ويفسر القرطبي قوله تعالىٰ : ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ « أي البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة » (2) .

بناء علىٰ ما تقدم أتساءل : لو كان أصل بني آدم قرداً كما يدَّعون ، فما بال هـٰذه القردة التي لا زالت قردة باقية هي كما هي ولم تتطوَّر ؟

فلو تطوَّرت القردة كنوع وتغير حالها من النوع الذي هي عليه إلىٰ النوع البشري لَمَا بقيت القردة علىٰ أرض الوجود كما هو حالها في الغابات وفي الأسواق تباع وتشترىٰ ، وإلا هل يُصدَّق بأن يتطور النوع ويبقي جزء منه لم يتطور ؟ . وإذا قبلنا بذلك علينا أن نقبل بعدم ثبات جنسنا ونوعنا فالزمن كفيل

(1) الإسراء، 70.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء العاشر، ص 295.

بأن يغيرنا من الحالة التي بلغناها إلىٰ حالة أخرىٰ لا أدري ما هي . وإذا سلمنا بذلك القول إن القردة تطورت حتىٰ أصبحت نحن بني الإنسان ، فهل يقبل أحدنا أن يقال له بأن أصوله العرقية وأجداده الأبرار هم من النوع القردي ؟

وكذلك إذا قبلنا بأن القردة قد تطورت ، فلماذا لم تتطور الحيوانات الأخرىٰ لأنواع أخرىٰ ؟ فلماذا لم تتطور الطيور والأسماك والديدان والضفادع لأن تكون غير التي هي باقية عليه ، أم أنها هي الأخرىٰ كانت شيئاً آخر ثم تطورت فأصبحت كما هي عليه ؟ وإذا لم يكن حالها في التطور كحال القردة ، فلماذا اقتصر التطوُّر والتبدل علىٰ القردة فقط؟

أعرف : أنه لا إجابة ، وهـٰذه أفضل إجابة .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [1] . يظن البعض بأن ٱلله تعالىٰ قد غير جنس اليهود من النوع البشري إلىٰ النوع الحيواني القردي ، وفي هـٰذا الخصوص لا يتم الاتفاق مع ما ورد من تفسير لبعض المحللين ، فالإنسان إنسان والقرد قرد من حيث الهيئة والصفة والنوع ، ولـٰكن من حيث التفكير والمدركات العقلية والمعرفية قد لا يرتقي تفكير البعض إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه ، فالله تعالىٰ قد استجاب لما طلبه الظانون والمشركون لأجل أن يؤمنوا به وبرسله وبما أنزل من آيات ماثلة أمام أبصارهم حقيقة ، فقد طلبوا إحياء الميت فأحياه ، وطلبوا المائدة فكانت ، وطلبوا النجاة من المحن فنجوا ومع ذلك كذبوا وأشركوا ولم يصدقوا ، أليس مثل هـٰؤلاء حقاً أن يوصفوا بالقردة الخاسئين ، وذلك بابتعادهم عن الصفة الآدمية التي ينبغي أن يكونوا عليها . ولنا في الحياة كثير من الأمثال ، فعندما تنصح طفلاً أو شاباً مرات عديدة ولم يستجب لما نُصح من أجله فقد تصفه تجاوزاً بصفة غير صفة الإنسان ، ولـٰكن هـٰذا لا يعني أنه لم يكن بشراً ، بل لأن

(1) الأعراف، 166 .

مستوىٰ تفكيره لم يكن في مستوىٰ الرقي الفكري لبني آدم عليه الصلاة والسلام ، هـٰكذا كان حال معظم اليهود من بعد النصائح العديدة والإرشادات التي قدمت لهم وعرضت عليهم فهم لم يهتدوا ، أي وكأن عقولهم قردية ، ولهـٰذا فإن أكثرهم لا يؤمنون وأكثرهم لا يفقهون ، وأكثرهم للحق كارهون ، مما جعل منهم الكاذبين والمنافقين والفاسقين والمشركين الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وجعل اللعنات تلاحقهم بأوصاف القردة والخنازير وعبدة العجل .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (1) . مثل هـٰؤلاء حقاً لا يمكن أن يوصفوا إلا بالقردة والخنازير الملعونة ، أي كيف ينكرون صفات ٱلله الحسنىٰ ، ولا يؤمنون بها ، ولا يؤمنون بالآيات العظام التي أنزلها ٱلله تعالىٰ شاهداً بين أيديهم وأمام أبصارهم ؟ ! إنهم يعرفون الحق ولا يؤمنون به ، أليس بذلك يستحقون بأن يوصفوا بالقردة والخنازير الملعونة؟ . فالله تعالىٰ يريدهم خليفة له في الأرض وهم يكفرون ، ٱلله يريدهم المفضلين علىٰ الأرض وهم عن ذلك يشذون ، ٱلله يريدهم للحق وهم للحق كارهون ، فهل من وَصْف يمكن أن يوصفوا به غير القردة والخنازير ؟

إنه الحق :

وعليه فإن الهيئة والصورة التي خُلق عليها بنو آدم هي الهيئة الباقية التي لم تتبدل ، أمَّا الصفة التي يُراد له أن يظل عليها ويُستخلف بها في الأرض فتتبدل وفقاً لقاعدة الممكن المتوقع وغير المتوقع . ولذا اهتدىٰ من اهتدىٰ وضل من ضل .

ومع أنَّ القاعدة خَلقُ الإنسان وتصويره في أحسن تقويم ، إلا أنَّ الاستثناء

(1) المائدة ، 60 .

وفقاً للمشيئة الإلهية أن يُخلق آدمي ويصور في غير أحسن تقويم . ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (1) . إذاً التصوير من حيث الهيئة والشكل لا تطابق فيه ، فحال البشر لم يكن كحال الأشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ومستطيلات وغيرها من الأشكال ، فلكل مخلوق خصوصية يمتاز بها عن خصوصيات الآخرين الذين هم الآخرون يمتازون عنه بخصوصياتهم المتميزين بها .

ولأنه المصور جل جلاله خلق من كل زوجين اثنين ، قال تعالىٰ : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) .

المصوِّر عز وجل هو الذي نفخ من روحه في صورة بني آدم وتقويمه ، وجعل فيها روح التناسخ والتكاثر إلىٰ النهاية ، ولذا فهو المصور الأول والآخِر الذي صور الشجرة والنبتة وصور فيها الحَبَّ والنوىٰ حتىٰ تستمر الحياة إلىٰ النهاية سبحانه صور الإنسان وجعل الجمال فيه من جماله وصور كل شيء بالحق ، قال تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (3) .

المصوِّر المطلق هو الذي يصور الأشياء لذاتها لتكون كما يُراد لها أن تكون عليه ، وكل ما خلقه الخالق تعالىٰ جعل له ذاكرة تربطه به ، مما يجعل كل شيء يُسبح بحمده ونحن لا نفقه تسبيحه ، الجماد والنبات والحيوان والطير والأسماك وكل شيء يُسبح بحمد ربه جل جلاله . ونحن بني الإنسان المخلوقين في أحسن صورة وتقويم أكثرنا لا يعلمون ولا يعقلون ولا يفقهون ويجهلون وللحق كارهون ، إنهم الجاحدون الناكرون المنافقون والقليل منهم هم المؤمنون المسبحون الذاكرون العابدون الصالحون . ولذا فالفرق كبير بين

---

(1) آل عمران، 6 .
(2) الذاريات 49.
(3) آل عمران، 191 .

ذاكرة المسبحين ذاتياً للذات العلية وبين المسبحين إدراكاً لها ، فالأولىٰ خلقت في صورتها آية لمن يُدرك بعد تفحُّص وقد خُلق السر فيها ، وهو أنها تُسبح ولا أحد يفقه تسبيحها ، بل من لا يؤمن لا يعقل ذلك بالمطلق ، فلا يعتقد أن الجبال والأنهار والأرض بكاملها والسماوات السبع تُسبح بحمد خالقها تعالىٰ ، والمؤمن يُدرك بأنه الحق ، وأن التسبيح عبادة وتقديس وعرفان بالوحدانية لله عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ ﴾ [1] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [2] .

وقال عز وجل : ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [3] . (سبحان ٱلله العظيم استجابة لأمر ٱلله في هٰذه الآية الكريمة وفي كل أمر) وإلىٰ أن نؤتىٰ من العلم ما يُظهرنا ٱلله عليه سنظل غير قادرين بعقولنا القاصرة أن نعرف ما لم يكن من مقدرتنا ، ولٰكن بحق إنَّ هٰذا السر الإعجازي يجعل من المسلمين مؤمنين لو أدركوا العلاقة الوثيقة بين الخالق الأعظم والمخلوق الجمادي الذي يُسبِّح بحمد ربه في كل حين ، وهو لم يكن من الذين يُراد لهم أن يكونوا خليفة في الأرض وهم في أحسن صورة وتقويم .

المصور الحق يصور الأشياء لذاتها ، والمصور الخليفة يصور الأشياء لذاته ، فهو لا يخترع ولا يصنع أو يبني ويُشيد إلا لأجل نفسه وما يعود عليها من المنافع التي تُسهم في إشباع حاجاتها المتنوعة والمتطورة ، أما المصور الحق فلا يكون في مجالات المقارنة فهو الذي لا يجوع ولا يظمىٰ ولا يعرىٰ

(1) الإسراء، 44.
(2) الأنبياء، 79.
(3) الواقعة، 96.

ولا يمرض ولا يحتاج ولا يتألم ، إنه مالك الأمر ، ومالك الملك ، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير . خلق الإنسان في أحسن صورة وتقويم خليفة له في الأرض لكي يؤمن به ويعبده ولا يشرك به أحداً ، ولذا فلينظر الخليفة إلىٰ المُسَبِّحات لله بالإيمان من جبال وطير ورعد وملائكة وكل شيء يُسبح لله تعالىٰ ، ويتفكر في خلق السماوات والأرض ليدرك بأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلىٰ عليه ، وليتذكر حال الذين سبقوه بالإيمان وجزاءهم ، وحال الذين سبقوا بالكفر وجزاءهم ليُذكِّرَ البعض ممن خُلقوا في أحسن تقويم ، بأنهم أمام الامتحان الذي لم يُوفَّق البعض فيه بما عملت أيديهم ووفِّق البعض منهم بأعمالهم خيراً .

المصور الخليفة هو الذي يُدرك الأشياء ويصور كل مشاهد منها ، ولا يستطيع أن يصور كل شيء فيها ، أي أنه يصور المادة القابلة للمشاهدة وغير قادر ولن يقدر علىٰ تصوير الروح التي هي فيها ، فهٰذا الأمر بيد المصور الحق فقط ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [1] .

إذاً المصور الخليفة هو الذي يصور الأشياء لذاته ، لتؤدي له خدمة أو وظيفة وتحقق له منفعة تحميه من البرد أو العطش أو الجوع وتشبع له حاجة من حاجاته المتنوعة والمتطورة . أمَّا المصور الحق فهو الذي يصور الأشياء لذاتها ، ولذا فإن ما يصوره الخالق تعالىٰ لا يتناسخ بتطابق ، وما يصوره الخليفة يتناسخ بالتطابق . أي أن ما يصوره الخليفة يفتقد للخاصية المفردة ، وما يصوره ٱلله جل جلاله خاصيته في كل مفردة من مفردات خلقه .

الله جل جلاله لم يصورنا لذاتنا فقط ليتركنا ، بل صورنا ، وصور لنا أرزاقنا ؛ لنعيش منها .

ومع ذلك فالبعض ممن يراد لهم أن يكونوا خلفاء لم يؤمنوا والله عز وجل

---

(1) الإسراء، 85.

يقول : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] .

التصوير يبدأ من الرحم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] من هـٰذه الآية الكريمة يُدرك الفارق الكبير بين التصوير المادي باليدين وبين التصوير الروحي بأمره تعالىٰ ، ففي الأرحام التصوير انبعاث للحياة في كائنٍ مخلوق ومبرأ علىٰ خاصية تميزه عن خاصيات الآخرين المماثلين له في الخلق وكذلك المختلفين عنه فيها .

أمَّا التصوير المادي باليدين فهو تصوير بعد معاناة ومحاولة وخطأ ، وقد يكون فيه التعرض للخطر ، ومع ذلك فهو تصوير مادي لا روح فيه ولا انبعاث حياة .

مستويات التصوير :

ـ **مستوىٰ التصوير المباشر** : قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [3] ولقد خلقناكم تعود علىٰ بني الإنسان ، لتذكرهم بأنهم من لا شيء أصبحوا بحمد ٱلله شيئاً آخر ، ثم هـٰذا الشيء قد صُوِّر علىٰ الهيئة والصورة البشرية التي خُلقت في أحسن تقويم ، مما جعل الملائكة الطائعة للأمر الإلهي تسجد طاعة واعترافاً ، وفي مقابل الطاعة والسجود الملائكي إبليس عصىٰ أن يسجد لمن كُرم وفُضل علىٰ كثير مما خلق ٱلله تعالىٰ مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ

(1) غافر، 64.
(2) آل عمران، 6.
(3) الأعراف، 11.

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (1) .

لقد خلق ٱلله تعالىٰ الأشياء وصورها فأحسن صورها ، فخلق الأرض وخلق من ترابها أبانا آدم وأمنا حواء من دون أم ومن دون أب ، ولأن البعض يظن بأن أمنا حواء لم تخلق وتصور من تراب فنحن نعتقد بأن الوحدانية لله وحده ، أما خلق البشر وكل الكائنات فهو خلق وتصوير زوجي ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) . من كل شيء جاءت مطلقة ، دون تخصيص في الخلق الزوجي ، حيث لو لم يكن الزوجان ما كان التكاثر لكل ما خلق البارئ وصور ، والزوجان هما الذكر والأنثىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ (3) . أي أنَّ أساس الخلق الزوجان الذكر والأنثىٰ ، فمثلما خلق أبونا آدم صلوات ٱلله وسلامه عليه وأمُّنا حواء رضي ٱلله عنها ، كذلك خلق وصور بقية الكائنات جميعها خلقاً وتصويراً زوجياً مباشراً . ولذلك لا فرق من حيث الخلق والتصوير المباشر من التراب ومما تنبت الأرض ، بل الاختلاف في الخصائص التي بُرئ الخلق وصور عليها . قال عز وجل : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (4) . كلمة سبحان كلمة إعجاب بعد التبين الحق ، وبعد الإدراك لما لم يكن متوقعاً أو لم يكن في الحسبان ، فسبحان كلمة إيمانية تُعبِّر عن الاستبشار بما حصل ويحصل من إعجازات خارج دائرة المتوقع ، ولذا فهي تتضمن الاعتراف والحمد والشكر لله تعالىٰ علىٰ ما خلق ، وبرأ ، وصور .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

(1) الإسراء 70 .
(2) الذاريات ، 49 .
(3) القيامة ، 39 .
(4) يا سين ، 36 .

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾ [1] .

في الآية التاسعة من سورة الزخرف بُني تساؤل عن من خلق السماوات والأرض ؛ وجاءت الآيات اللاحقة للآية التاسعة للإجابة التي منها ما احتوته الآية الثانية عشرة من سورة الزخرف بأنه الذي خلق الأزواج كلها ، وخلق الفلك والأنعام ليركبها بنو آدم صلوات ٱلله وسلامه عليه . فهٰذه الآيات الكريمة تؤكد علىٰ ما صوره الخالق من أزواج خلقاً ، وتصويراً مباشراً دون سابقٍ للنوع الذي تم تصويره .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [2] يُفسر البيضاوي قوله تعالىٰ : ﴿ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ بقوله « من جنسكم لتأنسوا بها ، وهٰكذا يكون أولادكم وأولاد أولادكم من جنسكم » [3] ولذلك فالأنفس هي التي يُبرئ بني آدم عليها ، وهي التي يتوفاه ٱلله عز وجل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَاۖ ﴾ [4] فالأنفس ليست الأبدان بل هي التي تنبعث بالحياة في الأبدان لتمدها بالحركة وفقاً للقدرة والاستعداد والأحاسيس والمشاعر التي تجعلها في حالة خوف أو اطمئنان أو هداية أو ضلال لتأمر بالمعروف أو تأمر بالسوء وفقاً لما تهوىٰ وتظن ، ولذلك عندما تغضب النفس وتثور تُعرِّض البدن إلىٰ الأضرار والآلام ، وعندما تهدىٰ تجعله ينبسط وتمده بالطاقة التي تجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

---

(1) الزخرف، 9ـ12 .
(2) النحل، 72 .
(3) تفسير البيضاوي . ص 355 .
(4) الزمر، 42 .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [1] خلقكم من نفسٍ واحدة تعني : خلقكم من جنس واحد . الجنس الذي يجعل كلاًّ منكم في حاجة للآخر حتىٰ أنكم تفرحون معاً وتغضبون أو تحزنون معاً ، فالكل يتألم ويغضب ويفرح ويعشق ويحس بالآخر ويعتبره ضرورة لأن يزاوجه ويسكن إليه أو يسكن معه حتىٰ تمتد مشاعر الأبوة والأخوة والعمومة إلىٰ أبنائه وأحفاده من بعده .

وكلمة خلقكم من نفسٍ واحدة تدل علىٰ أنه خلق النفس أولاً ثم صورنا منها كيف يشاء في أحسن تقويم إرادة لأن نكون الخلفاء في الأرض . وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [2] في هـٰذه الآية الكريمة قال أنشأكم وفي الآية الكريمة السابقة قال خلقكم ، ففي حالة الإنشاء تعني في حالة البدء التي تسبق مرحلة الخلق وهو إنشاء النفس من لا شيء ، وهـٰذه المرحلة الإنشائية سابقة علىٰ المرحلة الخلقية التي تجعل النفس في حالة توحُّد مع المادة الآدمية التي منها كان خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ (آدم وحواء) . ولذلك قال جل جلاله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [3] . والسكينة هي نتاج توحُّد الأحاسيس والمشاعر والمودة والمحبة بما يحقق الاستئناس والألفة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ [4] فأنت وزوجك تعني الذي حاله كحالك ، وزوجك تدل علىٰ من لا تستغني عنه ولا يستغني عنك ، وزوجك في هـٰذه الآية تدل علىٰ الذي كان معك أو جاء

---

(1) الأعراف، 189 .
(2) الأنعام، 98 .
(3) الروم، 21 .
(4) البقرة، 35 .

معك حيث كل منكماً في حاجة للآخر ، فأنتما علىٰ علاقة قوية ذات صحبة وهي أقوىٰ من علاقات التوأم ، حيث أن التوأم ينجبون إنجاباً ، أما الزوج المنشأ إنشاءً والمخلوق خلقاً مباشراً هو المبرأ والمصور علىٰ الخاصية والنوع ، فالخاصية هي التي تميز الذكر من الأنثىٰ ، والجنس هو الذي يوحّدهم علىٰ أحسن صورة وتقويم .

قال تعالىٰ : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (1) . عدو لك ولزوجك ، تعني : من يخدعك أو يعاديك فهو أيضاً يعادي زوجك كما يعاديك أنت حيث التماثل بينكما في الخلق والصورة ، فما يَمسُّك يا آدم يمس زوجك . وزوجك لا يعني زوجتك كما يظن البعض ، بل يعني من خُلق معك بالتماثل . ولذا فزوجك الذي لا أسبقية لك عليه ولا أسبقية له عليك فأنتما معاً في حالة واحدة . والفرق فقط في أن ٱلله عز وجل اصطفىٰ آدم علىٰ حواء وعلىٰ الملائكة والجن ليكلمه ويخاطبه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (3) .

فلو خلق ٱلله تعالىٰ حواء من ضلع آدم ﷺ لجاء ذكرها في القرآن الكريم

---

(1) طه، 117 .

(2) البقرة، 35 .

(3) البقرة 30ـ33 .

وهو الحُجَّة التي نحتكم بها ونحتكم إليها في قضايا الخلق ، ومن يعتمد في أحكامه أو آرائه علىٰ غير القرآن في هـٰذه القضية قد لا يؤيد . وكيف نؤمن بذلك ونحن نعلم أن الرسالات السماوية تتناسخ أي ينسخ بعضها البعض ، والقاعدة هي : (استشهد بالناسخ ولا تستشهد بالمنسوخ) فقد جاءت رسالة موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالحق وبقيت لمن نزلت إليهم ، إلىٰ أن جاءت رسالة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ونسختها بالحق وبقيت إلىٰ أن نزلت الرسالة الخاتمة بالحق رسالة سيدنا محمد ﷺ ونسخت ما سبقها من رسالات السماء ليبقىٰ الإسلام دين الحُجَّة ديناً واحداً لمن يؤمن بالله ولا يشرك به أحداً . ولذا فالقاعدة هي : (لا استشهاد بمنسوخ والناسخ باقٍ) .

ـ **مستوىٰ التصوير في الأرحام** : من بعد الخلق الزوجي للكائنات جاء الأمر بالتكاثر مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [1] إنها مرحلة التصوير في الأرحام التي جاءت من بعد مرحلة الخلق والتصوير الزوجي من التراب ، إنها مرحلة إخراج النسل من الصلب بعد التقاء الحيوان المذكر بالبويضة ليتم التوحد والاندماج الذي به يحدث الخلق والتبرئة والتصوير ، مما يجعل للنمو في الأرحام مراحل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [2] والمقصود بخلق الإنسان من سلالة من طين هو خلق الجنس البشري علىٰ خاصية إنسانية وليست خاصية حيوانية كما يظن البعض ، والسلالة هي مكمن الأصول التي يعود إليها خلق الإنسان الذي يُخلق من نطفة في رحم الأم ثم يمر بمرحلة العلقة التي تستمد حياتها من

---

(1) الأعراف، 172 .

(2) المؤمنون، 12ـ14 .

حياة الأم التي حملت النطفة ، وباستمرار الحمل والنمو يتغير حال العلقة إلىٰ حال المضغة ثم يكون الخلق امتداداً هيكلياً ليرسم الشكل البشري بهيكله العظمي ثم يستوي بلحم علىٰ هيئة وصورة بشرية في جنين متكامل فتبارك ٱلله أحسن الخالقين . ولذا فنحن المخلوقون في الأرحام لم نخلق من تراب ، بل أصولنا من سلالة من طين حيث أن أبونا آدم ﷺ وأمنا حواء رضي ٱلله عنها هما الزوجان المخلوقان من الطين ؛ أمَّا نحن فمن نطفة خُلقنا .

إنَّ مرحلة الخلق في الأرحام هي التي جعلت البشر في حالة تكاثر بالأمر الطبيعي ، حيث الاختلاط والتزاوج الذي يجعل الحيوان المذكر يتوحد مع البويضة ، لتستمر المودة جنباً إلىٰ جنب مع عملية التكاثر العددي . قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (1) فنسباً وصهراً تعني العلاقات التي أساسها الذكور والإناث ، حيث النسب للذكور والمصاهرة بالإناث ، وهٰكذا تستمر العلاقات ويزداد التكاثر .

وعليه لقد انتهت مرحلة الخلق من التراب وحلت محلها عملية الخلق في الأرحام ، وأصبح البشر ينجبون إنجاباً بعد حملٍ ومخاض .

والفرق كبير بين المستوىٰ الخلقي المباشر (كن فيكون) ؛ كونا يا زوجان فكانا من كل شيء زوجين خَلقاً وبرءاً وتصويراً ومقدرةً علىٰ الحركة والعمل . أما مستوىٰ التصوير في الأرحام فيشترك مع التصوير المباشر من حيث الخلق بالأمر (كن) ويختلف معه من حيث الكيفية التي بها يكون كما سبق أن أوضحنا ، في مستوىٰ الخلق المباشر فمن البدء كان الزوجان علىٰ المقدرة التي بها يستطيعان أن يشبعا حاجاتهما ؛ وفي مستوىٰ الخلق في الأرحام فالمخلوق يبرأ ويصور علىٰ الحاجة التي لا يستطيع إشباعها بنفسه إلىٰ أن ينمو عبر السنين . فبعد أن يصدر الأمر (كن) يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم تخلق له

(1) الفرقان، 54.

العظام ثم تكتسي العظام لحماً ثم يصبح خلقاً آخر فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، ثم ينجب بعد تسعة أشهر ويرضع حتىٰ الفطام في عامين ، ثم يربىٰ علىٰ القيم والفضائل الأخلاقية التي تجعل منه إنساناً في أحسن تقويم ليعمل ويتزوج حتىٰ يتم الاتصال والتواصل من جيل لجيل وليستمر الخلق والتصوير بالأمر (كن) .

ـ **مستوىٰ التصوير الروحي** : ٱلله جل جلاله صورنا فأحسن صورنا ورزقنا من الطيبات يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير . فالله تعالىٰ الذي خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ ، وجعل منهما نسباً وصهراً ، خلق عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وصوره من أمٍ كريمة من دون أبٍ ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ [1] يقال إن المكان الشرقي هو شرق بيت المقدس ، والذي من بعد ذلك اتخذوه النصارىٰ قبلة لهم [2] . ويقال إن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الروح الذي بُعث لمريم عليها السلام وهو متمثل في صورة بشرٍ سويٍّ ، لينفخ من روح ٱلله فيها غلاماً زكياً ، وبهـٰذا الأمر جاءت الروح إلىٰ مريم في صورة بشرٍ سويٍّ ونَفخت الروح فيها من روح ٱلله تعالىٰ فكان عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسولاً من ٱلله تقياً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا

(1) مريم، 16 ـ 22.
(2) تفسير البيضاوي، ج 1، ص 397.

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [1] إنَّ حمل مريم بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يكن من حيوان منوي بشري بل كان من نفخة روح في فرج مريم عليها السلام . مما يجعل مثل عيسىٰ كمثل آدم عليهماالصلاة والسلام مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2] . والمثل يعود علىٰ الحالات الاستغرابية المتماثلة والمتشابهة التي لم تقع في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع بالنسبة للعقل البشري ، ولهٰذا كان شأن عيسىٰ كشأن آدم عليهما الصلاة والسلام حيث أنَّ الخلق بدون أب معجزة شأنه كشأن معجزة الخلق من التراب .

ومع أن ٱلله واحد أحد لا شريك له يخلق ويصور كل شيء إعجازاً إلا أن أهل الكتاب بمعجزة التصوير الروحي لعيسىٰ ابن مريم قد ظنوا بأن عيسىٰ هو ابن ٱلله حيث قالوا : إن ٱلله ثالث ثلاثة والله تعالىٰ قال : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ [3] . الغلو في الشيء المبالغة في أمره حتىٰ الحياد عن الحق والميل إلىٰ باطل ، ولذا فقد غلت اليهود برميهم ونعتهم لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام بأنه ابن زانية ، وغلت النصارىٰ في رفعه حتىٰ اتخذوه إلٰهاً . ولا تقولوا علىٰ ٱلله إلا الحق تعني : تنزيه ٱلله تعالىٰ عن الصاحبة والولد ، ولهٰذا جاء الحق بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ

---

(1) التحريم، 12 .

(2) آل عمران، 59 .

(3) النساء، 171 ـ 172 .

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (1) .

ولا تقولوا ثلاثة ، تعني : ولا تشركوا مع ٱلله أحداً ، فجبريل (روح القدس) خالقه ٱلله تعالىٰ ، ومريم بنت عمران خالقها ٱلله تعالىٰ ، والمسيح عيسىٰ عليه الصلاة والسلام هو المخلوق من المخلوق أي أنه ابن مريم التي نُفخ في فرجها بروح مخلوقة وبالأمر (كن) .

ولذا فالقاعدة هي : (المصوِّر لا يتساوىٰ مع المصوَّر في شيء) . فالمصوِّر هو ٱلله تعالىٰ ، والمصوَّر كل ما خلق ٱلله عز وجل . ولذلك فإن هـٰذه القاعدة تذكرنا بقاعدة (الخالق لا يقارن مع المخلوق) .

وحظ الخليفة من هـٰذا الاسم أن يصور ما يشاء كيف يشاء مما صوره المصور الأعظم دون أن يجهل أمر ما يصور ، حتىٰ يدرك القدرة التي من وراء مقدرته تعالىٰ علىٰ التصوير والإبداع ، ولينظر إلىٰ ما صوره ٱلله تعالىٰ حتىٰ يُدرك بأن ما صوره تعالىٰ هو الحق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (2) .

الخليفة في الأرض هو الذي يُدرك بأنه لا نظر إلا بمصوِّر ولا نظر إلا إلىٰ مصوَّر ، فبالعينين المصورتين ينظر إلىٰ الإبل والسماء والجبال والأرض المصوَّرة ليعرف الكيفية التي بها خُلقت والتي خُلقت عليها ، حتىٰ يدرك الحق الذي به خُلِقتْ وصُوِّرتْ ، وليرىٰ الجمال الإعجازي في الصورة والحركة والوظيفة التي صورت من أجلها .

فالخليفة هو الذي يستمد صفة التصوير من المصور المطلق ويعمل بها كل ما من شأنه أن يُمكِّنه من الاستخلاف في الأرض ، ويُمكِّنه من معرفة الأسرار

---

(1) الإخلاص، 1 ـ 4.
(2) الغاشية، 17 ـ 21 .

التي من وراء خلقها . وهو الذي كلما اكتشف سراً عمل علىٰ تصويره حتىٰ ينقله إلىٰ المحسوس بعد أن كان مجرداً . ولأن التصوير الصالح لا يتحقق إلا بالعمل فعلىٰ المصور بالإضافة أن يعمل صالحاً لتعمَّه المنفعة مع ذوي العلاقة به من الخلفاء .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (1) فالله سبحانه الخالق البارئ المصور وهو أنه أعطىٰ كل شيء خلقه وصورته وتكوينه ، فها هو الإنسان قد فضله ٱلله تعالىٰ علىٰ العالمين ليس بعقله فحسب ، وإنما في كل شيء من تكوينه وتصويره ، فقد كان لا شيء فلا نطفة ولا علقة ، ثم أنعم ٱلله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالىٰ إلىٰ عالم الوجود من طور إلىٰ طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين ثم كان علقة ثم مضغة إلىٰ إخراجه وتسويته خلقاً آخر فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، فمن اعتبار وجوده من لا شيء ، ثم تقلبه في هٰذه الأطوار المستنكف حالها والواضح فناؤها واضمحلالها ، فسبحان ٱلله ما أعظم حلمه وكرمه ورفقه وما أبدع تصويره ! ثم بيَّن تعالىٰ ما جعله للإنسان من السمع والبصر ابتلاء له ، ولما ذكر مطلق خلقه ، وقرر أنه خلاصة الكون لأنه آخر ما خلق وصور مما هو معروف لنا ، شرع يذكر كيفية خلقه ويدل علىٰ ما لزم من خلقه للإنسان وتصويره مفصلاً أمر الإيجاد بالفعل والصورة والمادة والغاية وأكده لإنكار بعض البشر لهٰذه القدرة بقوله : (إنا خلقنا الإنسان) أي علىٰ ما لنا من العظمة فقدرنا وصورنا ، أي بعد خلق آدم عليه الصلاة والسلام من التراب قدرنا ذريته أن تكون من نطفة أي من مادة هي ماء من الرجل والمرأة ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وهي المادة التي هي السبب الحامل للقوة المولدة المصوَّرة . ولما كان خلق الإنسان علىٰ طبائع مختلفة وأمزجة متفاوتة

---

(1) الإنسان 2 ـ 3.

مما يتنازعه من المختلفات بأمر ربه الذي لا يختلف ، وكانت أفعاله تابعة لأخلاقه وأخلاقه تابعة لذاته قال تعالىٰ : (أمشاج) أي أخلاط إذا مشجتَ الشيء أي خلطته ، لأنه من مني الرجل ومني المرأة ، وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في المادة واللون والصورة ، وهي أطوار الخلق من النطفة وما بعدها ، عندما تستقر بالرحم وتمتزج فتأخذ اللون الأحمر القاتم وحينئذ تسمىٰ علقة ، فإذا اشتد ذلك الامتزاج وقوي وتمتن حتىٰ استعد لأن تقسم فيه الأعضاء سمي مضغة ، فإذا أفيضت عليه صورة الأعضاء وتقسم كساه حينئذ مفيضه عز وجل لحماً ، فأفاض عليه القوة العاقلة ، ويسمىٰ حينئذ جنيناً ، وكل مرحلة من هـٰذه المراحل تأخذ شكلاً وصورة يصورها المصور عز وجل ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إلـٰه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » [1] .

ثم إن المصور جل شأنه ينقله من صورة إلىٰ أخرىٰ فيقسم أجزاءه إلىٰ عظام وعروق وأعصاب وأوتار ولحم ، وهـٰكذا يكون للكل صورة وتمام وللجزء صورة وتمام ، فالعجب كل العجب ممن يرىٰ نقشاً حسناً علىٰ جدار فيتعجب من حسنه وحذق صانعه ثم لا يزال يستعظمه ثم ينظر إلىٰ هـٰذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ويحيره جلاله وحكمته ! فالإنسان مكوَّن من جسد ونفس وروح ، أما الجسد

(1) صحيح مسلم، 13ـ100 .

فقد قام علم الطب بدراسته وتشريح جميع أجزائه وأعضائه وقد تبين له ما في خلق الإنسان من معجزات وآيات تدعو إلىٰ الإيمان بقدرة ٱلله وحكمته وإبداعه في خلق أجهزته الدقيقة التكوين ، والنفس قد حاول علماؤها ويحاولون معرفة كنهها ولا زالوا عاجزين عن معرفتها بالتمام ، فهي الكل المعقد الذي يتأثر مع كل خصوصية وظرف ، أما الروح فأمرها بعلم ربي ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (1) ، فسبحان ٱلله الخالق البارئ المصور الذي له الأسماء الحسنىٰ حيث قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبرء والتصوير وإن كان أغلب الخلق لقصورهم لا يفهمون منه إلا مطلق التقدير ، أردفه تنبيهاً علىٰ ذلك وتصريحاً وتأكيداً قوله : (البارئ) أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة علىٰ أتم حال ، فإن كان من المحيطين بالعلم كان تمام التهيؤ للصورة علىٰ كمال المشيئة فيها ، وإن كان ممن لا يحيط علماً طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة ، ولا يكاد يقع الإحسان للخلق في مصوراتهم إلا لماماً لأنهم لا يعلمون كنهه ولا يثقون بحصوله . ولما كان من يهيئ الأمور للتصوير قد لا يتقنه قال : (المصور) فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهىٰ إليه الخلق في الظهور ، ولما علم من هٰذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة ، أردفه بقوله تعالىٰ : (له) أي خاصة

---

(1) الإسراء 85 .

(2) الحشر 22ـ24 .

لا لغيره الأسماء الحسنىٰ أي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه ، وليس وراء ظهور الصور كون إلا لطائف تطويرها في إتمام كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الروح المقوم لها سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو غير ذلك مما خلق إلىٰ غاية إكمالها الذي يعطيه المصور لها ، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا ٱلله الخالق البارئ ، فالتصوير موجود في كل أجزاء العالم والموجودات فيه وإن صغر ، حتىٰ في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة ، والكلام يطول في تصوير الإنسان أو أي عضو من أعضائه ، فطبقات العين مثلاً وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها ، ووجه الحكمة فيها ، هو من الدقة والغرابة ما يأخذ الألباب ، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل ، وهٰكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان من موجودات هٰذا الكون الرحيب من هٰذه الأشياء المركبة التي نشاهدها ونعيشها في الآفاق وفي أنفسنا مما لا يخلو شيء في الوجود من هيئة صورة وشكل تناسب طبيعة خلقه في البدن ، وميوله ورغباته وتصرفاته في النفس .

فالصورة هي تركيب الأشياء وإظهارها لحيز الوجود المشاهد ، والمصوِّر هو المركب لهٰذه الأشياء ، والمصوَّر هو المرَكب من هٰذه الأشياء . قال ٱلله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [1] فالخالق أوجد خلق الإنسان ، فخلق له أعضاء ينتفع بها ، وجعلها في صورة تناسب خلقه وشكله ، في أي صورة من الصور التي شاءها المصور ، وسوّاه في أعضائه بحيث جعلها متناسبة ومعتدلة في صورة حسنة هي من أعجب الصور وأحكمها في ترتيب هٰذا الخلق الذي أراده . فقد قرر ٱلله تعالىٰ صفة ثابتة للذات الإلٰهية قبل التصوير ألا وهي الربوبية المبينة

(1) الانفطار 6ـ8.

للكرم الإلـٰهي لأن الخلق منح وإعطاء وهبة للوجود ، وهو من جانب آخر تنبه علىٰ أن من قدر علىٰ الخلق بداية فهو علىٰ إعادته بعد فنائه أقدر وهو أهون عليه ، ثم بعد ذلك جاءت عملية التسوية تسوية الأعضاء سليمة معدة لمنافعها والوظائف التي تؤديها ، بحيث يترتب علىٰ كل عضو منها منفعته التي خلق ذلك العضو لأجلها كالبطش لليد والمشي للرجل والتكلم للسان والإبصار للبصر والسمع للأذن إلىٰ غير ذلك من مهام كل عضو من الأعضاء ، ويدخل في التصوير عملية التعديل أي تعدل بعض تلك الأعضاء بالبعض الآخر بحيث اعتدلت ولم تتفاوت مثل أن تكون إحدىٰ اليدين أو الرجلين أو الأذنين أطول من الأخرىٰ أو تكون إحدىٰ العينين أوسع من الأخرىٰ أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود أو بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر ، وقد أقر علماء التشريح من الأطباء أنه ٱلله تعالىٰ ركب جانبي جثة الإنسان هـٰذه علىٰ التساوي حتىٰ أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في الأوردة أو الشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها ، فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر ، ومن جانب آخر في عملية التعديل فإنه يقال عدله عن الطريق أي صرفه فيكون المعنىٰ أنه يصرف عنه الخلقة المكروهة بالنسبة للإنسان والمقبولة في الحيوانات ، فقد خلق الإنسان وصوره بخلقة وصورة حسنة مفارقة لسائر الخلق لأن الإنسان خلق في أحس تقويم ، ولذا فخليفة ٱلله في الأرض هو من فضَّله الخالق علىٰ الخلق ، وبما يستمده المخلوق من خالقه ، ولهـٰذا كان خلقه لبني آدم معتدلاً في أحسن صورة وتسويته في أحسن تقويم فجعل بنيته المادية هي الصورة وبنيته المعنوية سليمة في النفس والروح ، وفي معرض القول للذين قالوا إن ٱلله تعالىٰ خلق الإنسان علىٰ هيئته معناه علىٰ هيئة الإنسان بهـٰذا الشكل ، ولا يجوز التشبيه والتمثيل ، فلا يجوز أن يكون الباري تعالىٰ مصوَّراً ولا أن يكون له صورة ، لأن الصورة مختلفة ، والهيئات متضادة ، « ولا يجوز اتصافه بجميعها لتضادها ، ولا يجوز اختصاصه ببعضها ، إلا بمخصص ، لجواز جميعها علىٰ من جاز عليه بعضها ، فإذا

اختص ببعضها اقتضىٰ مخصصاً خصصه به ، وذلك يوجب أن يكون مخلوقاً ، وهو محال ، فاستحال أن يكون مصوراً ، وهو الخالق البارئ المصوِّر »[1] ، والمصوِّر هو الذي يرتب الموجودات علىٰ صفات مختلفات وهيئات متغايرات ، والمصوِّر هو الذي أنشأ خلقه علىٰ صور مختلفة ، وهو الذي ابتدأ الأشياء مخترعاً لها عن غير أصل وهو المتهيِّئ لمناظر الأشياء علىٰ ما أراده من تشابه أو تخالف وتنوع . والاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بما هو من لواحقه ، قال الخطابي : المصور الذي أنشأ خلقه علىٰ صور مختلفة ليتعارفوا بها ، ومعنىٰ التصوير : التخطيط والتشكيل ، وخلق ٱلله عز وجل الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خلق يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها ، جعله علقة ، ثم مضغة ، ثم جعله صورة ، وهو التشكيل الذي يكون به ذا صورة وهيئة فأبدعه المبدع وأحدثه مما لم يكن مثله قط ، فلما ثبت وجود الإبداع من ٱلله وعز وجل لعامة الجواهر والأعراض ، استحق أن يسمىٰ بديعاً أو مبدعاً لما برأ وصور فكان الموجد لما كان في علمه من أصناف الخلائق وتصويرها لما فيه من الصنعة ووجود الحكمة ، فهو الموجد للصور والمركب لها علىٰ هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب علىٰ الخلق والبراية وتابع لهما ، والتصوير هو التخطيط والتشكيل ، وقوله : ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ فهو الاسم المصور وهنا أسرار من علوم الطبيعة لما جعل ٱلله فيها من الاشتراك في التكوين بين الخلائق علىٰ اختلاف أنواعها من الأعراض والجواهر إذ لا خلق يخلو من العرض والجوهر ، وينتفي هـٰذا عن ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، لذلك كان علمه بكل شيء قائماً بذاته قبل أن يخلقه فذلك جاء قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2] ، فالله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء مهما كان

---

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 2 ، ص 178 .

(2) آل عمران 5 ـ 6 .

صغيراً أو كبيراً ظاهراً أو باطناً ، وفيه تعبير عن الخفاء وإشارة إلىٰ أن علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين ، فالمخلوقون هم الذين يصوَّرون ، والله هو الذي يصوّرهم فيجعلهم صوراً مختلفة في أرحام أمهاتهم ، فإنه يجعل هـٰذا ذكراً ، وهـٰذه أنثىٰ ، وهـٰذا أسود وهـٰذا أحمر ، وكل ذلك يتم علىٰ أدق ما يكون ، فمن المستحيل أن يكون هـٰذا الخلق قد جاء من قبيل الاتفاق والمصادفة . فالله هو المتفرد بالخلق والتصوير ، وهو العزيز الذي لا يُغلب علىٰ ما قضىٰ به علمه الحكيم الذي يوجِد الأشياء علىٰ مقتضىٰ الحكمة بأن يجعل هـٰذا الخلق علىٰ هيئة مخصوصة في أرحام أمهاتهم من ذكر وأنثىٰ وتام وناقص وطويل وقصير وحسن وقبيح ، هـٰذا فيما لا يزال من حيث الخلقة ، وهو الذي قدَّر أحوالهم في الأزل كيف شاء ، وهـٰذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة والتصوير وجعل الشيء علىٰ صورة ، والصورة هيئة يكون عليها الشيء بتأليف الصور المختلفة المتفاوتة في الشكل والطبع واللون وذلك كله من نطفة ، والتصوير من نطفة أو غيرها لا ينفرد بنفسه عن بقية صفات ٱلله تعالىٰ المختصة بالخلق .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لأنه مصور كل شيء ، ومصور كل شيء لا يخفىٰ عليه شيء قد صوره ، إنه المصور الذي صور الأرض والسموات العلا وما فيهنَّ من مصورين سبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير ، وهو أنه هو الذي صور في ظلمات الأرحام ما شاء من بنية وصورة ، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة ، وذلك يدل علىٰ كمال قدرته حيث قدر أن يخلق الإنسان من قطرة من النطفة هـٰذه الأعضاء المختلفة في الطبائع والشكل واللون ، ويدل علىٰ كونه عالماً من حيث إن الفعل المحكم لا يصدر إلا عن العالم ، فكان قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ دالاً علىٰ كونه قادراً علىٰ كل الممكنات في دائرة المطلق ، ولهـٰذا لا يخفىٰ عليه شيء ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولأنه تعالىٰ عالم بجميع المعلومات ، وقادر علىٰ كل الممكنات بالمطلق ، فهو قيوم

المحدثات والممكنات من السموات والأرض وما بينهما وما فيهنَّ من المخلوقات .

فقد أورد القرآن الكريم من صفات الخلق والتصوير والقدرة لكي يتأمل أولو الألباب ، ففصل بيانه بالنظم العجيب والتأليف الرصين ، فوافق الصورة في مبانيه ومعانيه المقصودة وجعلها من التنبيهات الجلية والخفية ، والدلالات الظاهرة والباطنة ما قد استوىٰ في إدراك ذلك لذوي العقول من دقة التصوير ما يهيج له بواعث الأفكار ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] إن في خلق ٱلله للسموات والأرض مع ما فيهما من إبداع وإحكام ، واختلاف الليل والنهار نوراً وظلمة وطولاً وقصراً لدلائل بيِّنات لأصحاب العقول المدركة علىٰ وحدانية ٱلله وقدرته ، والخلق هو التقدير والترتيب والتصوير الدال علىٰ الإتقان وكذلك اختلاف الليل والنهار في هـٰذا التعاقب العجيب ؛ إذ إن كثيراً من المصورين يصورون الليل أو النهار بصور تجسيدية ، ولـٰكن المصور المبدع أعطىٰ كل شيء خلقه وهداه لما خلق له ، فلما كان خلق الإنسان وتصويره علىٰ هـٰذه الصورة ذات الروح والنفس ، وكانت الأجرام الضخمة خالية من ذلك ، فكانت الحركة والدوران لهـٰذه الأجرام والأجسام هي بما يقابل الروح والنفس في الإنسان علىٰ ما نرىٰ ليناسب كل خلق صورته ، ومن أسلوب التصوير في القرآن الكريم أنه يجذب النفوس والعقول من الاشتغال بالخلق إلىٰ الاستغراق في معرفة الحق ، فيأتي بين الآيات وفي أواخر السور بآيات مشوقة تريح الأعصاب وتشوق القلوب . فقد اشتملت هـٰذه الآيات الحكمة في إبداع الخلق وتصويره بصرف النظر عن شكل الصورة وطبيعتها ، وإنما الاعتبار بقدرة المصور ودقة إتقانه ، ولما طال الكلام في تقرير الأخذ والرد والجواب عن شبهات

(1) آل عمران 190 .

المبطلين ، عاد التنزيل إلىٰ إثارة القلوب بذكر ما يدل علىٰ التوحيد والألوهية من خلال تصوير الكون الذي يحمل من دلائل التصوير والقدرة ما يدعو إلىٰ الإيمان ، ويشير إلىٰ أن وراء هـٰذا الكون قدرة وقوة تدبره بحكمة ، ويوحي بأن وراء هـٰذه الحياة الدنيا حياة أخرىٰ ، ولكل حياة صورها التي تناسبها فسبحان ٱلله المصور جل جلاله ، ولقد آمن من آمن بما أدرك من صور تقود إلىٰ معرفة الإعجاز حيث وراء كل مخلوق خالق ، لذلك جاء إيمان البعض من خلال تأملهم في قدرة الصانع وعجيب تصويره لمخلوقاته ، ومن هنا كانت صور الخلق بما صور المصور للسمـٰوات والأرض ومن فيهنَّ ، وبما فيهما من إبداع ، وإحكام نظام ، وبديع تقدير ، وعظيم تصوير وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق نحس آثاره في أجسامنا بفعل حرارة الشمس وبرد الليل لدلائل بينات لأصحاب العقول المدركة علىٰ وحدانية ٱلله تعالىٰ ، وكمال قدرته في خلقه وبرئه وتصويره ، وفي هـٰذه الآية إشارة إلىٰ حقائق مذهلة في هـٰذا الكون العجيب ، ذلك أن السماء ما هي إلا آية من آيات ٱلله تبدو لنا بتأثير الأشعة الشمسية علىٰ الغلاف الجوي المحيط بهـٰذه الصورة بالأرض ومن خلال التأمل يقف المتأمل علىٰ نتائج الاعتبار ، فيتبين ذلك المتثبت ، والناظر المتدبر ، ويدعو المصور المطلق من يتبين صنعه وتصويره ويتنبه علىٰ ما أقامه من أدلته حيث قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) فخلق السمـٰوات والأرض بالقدرة والحكمة والتدبير الكامل لصالح الناس ، وفي هـٰذا دلائل صادقة لمن يؤمنون بالحق مبيناً أنه اخترعها وصورها بما يشتمل عليه حقاً لا باطلاً وحتماً لا عبثاً لتوفر علىٰ طوائف خلقه منافعها ، ثم كرر ذكر ذلك في مواضع كثيرة في جملتها ما يقتضي الكشف عن نظمها وتصريفها لما يكشفها من الغموض ، بترتيبه عملية الخلق والإبداع والتصوير ، فمن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(1) العنكبوت 44.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] فالله وحده الذي خلق السموات والأرض ، وأقام خلقهما علىٰ الحق والحكمة ، وفي أي وقت تتجه إرادته سبحانه إلىٰ إيجاد شيء يوجد فوراً ، يوجد الأشياء بكلمة (كن) وكل قول له هو الصدق والحق ، وله وحده التصرف المطلق يوم القيامة ، حين ينفخ نفخته إيذاناً بالبعث ، وهو سبحانه الذي يستوي في علمه الغائب والحاضر ، وهو الذي يتصرف بالحكمة في جميع أفعاله ، والذي يحيط علمه ببواطن الأمور وظواهرها ، ووصف ٱلله تعالىٰ نفسه فيما بسط من كلامه بأنواع الخلق والقدرة والإبداع والتصوير ، كل منها عند التأمل جملة مكتفية بنفسها عن غيرها ، ودالة علىٰ كثير من صفاته التي استبد بها . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ والمعنىٰ في قوله : بالحق ، أن الحكمة البالغة أوجبت ذلك ، ففطرها ليدل علىٰ نفسه بها ويظهر من آثاره العجيبة فيها ما يحقق إلـٰهيته ، ويثبت قدمه وربوبيته ، ويظهر أن ما سواه مدبر مخلوق ومسخر مقهور ، وأنه الحق يتم له ما أحدثه ، وأنشأه لا بباطل ، ووجبت له العبادة من خليقته بقول فصل لا بهزل ، فحجته بينة وآياته محكمة ، لا تخفىٰ علىٰ الناظر ، ولا تلتبس علىٰ المتأمل الباحث إذ كانت الأبصار لا تدركه ، والحواس لا تلحقه ، فعرف عباده قدرته ، وألزمهم بما غمرهم من منافعه ونعمة عبادته ، فلا مانع لما منح ، ولا واهب لما منع ، أو حرم تسليماً لأمره ، ورضىٰ بحكمه . فالمصور جل شأنه عالم بالأشياء قبل كونها وبعده ، وقادر علىٰ كل ما يصح أن يكون مقدوراً ، وهو حيّ بنفسه قيوم بخلقه ، وغني لا حاجة به إلىٰ غيره في شيء من إرادته ، وحكيم لا يجيل الفكر في كل ما يأتيه ويفعله ، بل لا يفعل إلا ما هو حسن وواجب في الحكمة والصواب ، فتعالىٰ ٱلله وجل علواً كبيراً عن صفات المخلوقين .

---

(1) الأنعام 73.

فالله سبحانه وتعالىٰ هو المصور الذي يصوركم في الأرحام كيفما يشاء وهـٰذا توحيد المشيئة ووصف الهوية بالعزة ، فهو لم يلد ولم يولد ، فهو العزيز القادر إذ كان هو الذي صورنا في الأرحام من غير مباشرة « إذ لو باشر لضمه الرحم كما يضم القابل للصورة ولو لم يكن هو المصور لما صدقت هـٰذه النسبة وهو الصادق فإنه ما أضاف التصوير إلىٰ غيره فقال كيف يشاء أي كيف أراد فظهر في هـٰذه الكيفية أن مشيئته تقبل الكيفية مع نعته بالعزة ثم بالحكمة والحكيم هو المرتب للأشياء التي أنزلت منازلها فالتصوير يستدعيه إذ كان هو المصور لا الملك مع العزة التي تليق بجلاله فحير العقول السليمة التي تعرف جلاله وأما أهل التأويل فما حاروا ولا أصابوا أعني في خوضهم في التأويل وإن وافقوا العلم ؛ فقد ارتكبوا محرماً عليهم يسألون عنه يوم القيامة هم وكل من تكلم في ذاته تعالىٰ ونزهه عما نسبه إلىٰ نفسه ورجح عقله علىٰ إيمانه وحكم نظره في علم ربه ولم يكن ينبغي له ذلك »[1] .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، الخلق تهيؤ للكينونة ، والتصوير إظهار لما هو كائن ، أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور بصورته المخصوصة ثم صورناه ، والمقصود من خلقه وتصويره تعمير الأرض بأولاده فكان خلقه بمنزلة خلق أولاده ، والمعنىٰ خلقنا أباكم آدم عليه الصلاة والسلام طيناً غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ثم صورناكم علىٰ هيئة أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام . والله سبحانه وتعالىٰ أسبغ نعمه علىٰ الخلق ، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعاً من المنافع ، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم خليفة في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له ، والمقصود هو تقرير هـٰذه النعم العظيمة . إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو المصور الذي أوجد الموجودات وصورها ، وموضع الإنسان منها في أعظم مكانة ، والله تعالىٰ هو الواجب

---

(1) الفتوحات المكية ، ج 4 ، ص 64 .

الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود ، وقد جمع كلا الخلقين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، أي خلقها زينة لتركبوها ، وهو بمعنىٰ التزين ، قيل : وأما لزوم تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة وكون الحكمة في خلقها وكون ذلك هو المقصود الأصلي لنا فلا ضير فيه لأن التجمل بالملابس والمراكب لا مانع منه شرعاً وهو لا ينافي أن يكون لخلقها حكم أهم من الزينة كالجهاد عليها وسفر الطاعات والانتقال من مكان إلىٰ مكان ، فكانت صورتها تلائم طبع الإنسان بقبوله لها ، وكذلك ذكر خلق ما لا نعلم وهٰذا من الغيبيات ، وذكر ما جاء به الخبر المتواتر من العقليات التي أخبر بها الكتاب والسنة كالملائكة والجنة والنار ومشاهد يوم القيامة ، كل ذلك صوره البارئ المصور جل جلاله وفق مشيئته . فالمدركات الحسية المادية نعرف صورها وفق ما صورها الخالق ، وأكرمها الإنسان الذي أبدعه في أحسن تقويم ، وأما المعقولات العلوية ، فقد صورها المصور وفق المشيئة أيضاً ولٰكن لكل عاقل أن يرسم لها صورة ذهنية بما علم من أوصافها مما جاء به الخبر المتواتر من الكتاب والسنة مثل ما ذكرنا من مشاهد يوم القيامة والجنة ونعيمها والنار وجحيمها ، حيث رسم لنا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف صورة ذهنية تتفاوت من عقل إلىٰ عقل بما أوتي صاحبه من إدراك وتحليل وربط الصور الجزئية بعضها ببعض ليصل إلىٰ صورة مركبة للمشهد الواحد ، وأما النوع الثالث من الخلق الذي لابد وأن له صورة ، بصرف النظر عن نوعها جزئية كانت أم مركبة فهو مما استأثر به المصور عز وجل كونها من

---

(1) النحل 5 ـ 8 .

الغيبيات التي قال فيها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ثم أوجد ٱلله تعالىٰ الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، وإيجاد هٰذه الأشياء علىٰ سبيل الإبداع ولها صور خارجة عن الحس والذهن . والأمر الذي يهمنا فيما نحن بصدده هو إبداع المبدع وتصويره لمخلوقاته وبرئها ، وهو إيجاد الشيء لا عن شيءٍ موجود من قبل . والخلق في أكثر الأحوال يقال في إيجاد الشيءِ من الشيءِ قبله كخلق الإنسان من التراب ، ويقتضي تركيباً ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] فالله تعالىٰ خلق الشيء ، وصور من كل شيء صنفين ونوعين متميزين بالخصوصية كالذكر والأنثىٰ ، والسماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والإنس والجن ، والنور والظلمة ، والأبيض والأسود ، والدنيا والآخرة ، والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والموت والحياة ، والرطب واليابس ، والجامد والنامي ، والناطق والصامت ، والحلم والقهر ، والجود والبخل ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والصحة والسقم ، والغنىٰ والفقر ، والضحك والبكاء ، وهٰكذا يمكن العد إلىٰ النهاية (نهاية العاد أو نهاية المعدود) ، ولهٰذا فالقاعدة هي : (الخلق زوجي لا فردي) . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [2] وهنا نتبيَّن خلق وتصوير سائر نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، وقد ذكر لفظة (كل) للإحاطة بجميع أزواج النبات و(كم) لكثرة المحاط به من الأزواج ، والكريم ، من كل شيء خلق ، وأن كل شيءٍ من المبدعات المصورات فتامٌّ لا نقص فيه ، ولو كان فيه نقص لدل ذلك علىٰ نقصان مبدعه وصانعه ، فأما المخلوق الذي هو مركب من المادة والصورة فقد

(1) الذاريات 49 .

(2) الشعراء 7 .

يحتمل أن يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضاً من جهة ما تركب منه لا من جهة مركِّبه وفاعله .

ولأن المصوِّر واحد ، فكان من خلقه المثنىٰ الزوجي ، ولذا لا مصور بالمطلق واحداً أحداً إلا هو ، واحداً لا يتعدد ، وأحداً لا يتكرر بالمثيل والشبيه ولا مركب ولا متجزئ ، إنه مصوّر الشيء ، ومصور الأشياء مما صوّر ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [1] فهو خطاب إلىٰ الخلق العاقل وتذكيرهم بإبداع ٱلله لهم وتصويرهم علىٰ أحسن صورة خلقها ٱلله ، لذلك كان الخطاب للعاقل : يا أيها الناس إن كنتم في شك من بعثنا لكم بعد الموت ففي خلقكم الدليل علىٰ قدرتنا علىٰ البعث ، فقد خلقنا أصلكم من تراب ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ، ثم جعلنا في صلبه نطفة لتنتشر منه ذريته هو وزوجه ، وحولنا تلك النطفة بعد مدة إلىٰ قطعة دم متماسكة ، ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الإنسان ، أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا علىٰ الإبداع والتدرج في التكوين ، والتغيير من حال إلىٰ حال ، ونسقط من الأرحام ما نشاء ، ونقر فيها ما نشاء ، حتىٰ تكمل مدة الحمل ، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة بصورة مكتملة ومنكم بعد ذلك من يتوفىٰ ، ومنكم من يمد له عمره حتىٰ يصير إلىٰ الهرم ، ومن بدأ خلقكم بهـٰذه الصورة فلا إعجاز في إعادتكم وخلقكم مرة أخرىٰ بصوركم هـٰذه أو بخلافها .

---

(1) الحج 5 .

إن من حكمة المصور جل شأنه ، أن ماهية كل شيء تحصل بصورته التي يتميز بها عن غيره ، كصورة الفرس والنخلة والجبل ونحوها . ولمَّا كان الإنسان مكوناً بدنياً يتجزأ إلىٰ أعضاء تتجزأ ، ومكوناً نفسياً يتنوع ويتعدد ، ومكوناً روحياً ثابتاً ، لذا يعد الإنسان مكوّناً مركباً وفي تركيبه أحسن صورة ركبها ٱلله كيف ما يشاء سبحانه جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [1] ، ولأنه كذلك هو المصور في أحسن صورة من المصور المطلق قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [2] ، أي أنه المقوّم بالبدن والروح والنفس ، ولهٰذا كان المؤهل لأن يكون الخليفة في الأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] ، كما نبه ٱلله تعالىٰ عليه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [4] . ولأنه خلق مركباً وفي أحسن تقويم ، كانت له صورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة وظهور الجوارح وإلىٰ ما هنالك من

(1) الانفطار 6ـ8 .
(2) التين ، 4 .
(3) البقرة ، 30ـ35 .
(4) ص 71ـ72 .

الصفات المحسوسة التي تميز صورة الإنسان عن غيره من المخلوقات المصورة مادياً ، وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والروية والنطق ، والمزاج الرائع عندما يكون من المستخلفين ، فلذلك قالوا : الإنسان هو العاقل الناطق ، ولم يعنوا بالناطق اللفظ المعبر به فقط ، بل عنوا به أيضاً المعاني المختصة بالإنسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق ، فقد يُعبَّر عن جملة الشيء بأخص ما فيه أو بأشرفه أو بأوله ، كقولنا سورة البقرة وزعيم القوم وشيخ القبيلة ونحو ذلك ، فالإنسان يقال علىٰ ضربين عام وخاص ، فالعام أن يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم والمعرفة بصرف النظر عن قيمة العلم والمعرفة وإنما هو الإنسان المتمثل هيئة وشكلاً وصورة كما قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (1) والخاص أن يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه ، وهـٰذا معنىٰ يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً كما هو حال الخليفة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) فكلٌّ من الإنسان في آية (المنافقون) وآية (الحشر) له صورة ومادة متطابقة مع الآخر من حيث التصوير المادي ، ولـٰكن يختلف هـٰذا التطابق ويتباعد ويفترق عند مقاربة الصور النفسية والروحية ، وبحسب تحصيله من الصورة المعنوية التي تتمثل في النفس والروح يستحق الصورة الإنسانية وهي تعاطي الفعل المختص لصورة الإنسان فيقال فلان أكثر إنسانية ، وكما يقال الإنسان علىٰ وجهين عام ويراد به من في قوة نوعه استفادة الحق والخير والشر وهي انعكاسات الصورة الروحية بما يحمل من العقل ،

---

(1) المنافقون 4 .

(2) الحشر 9 .

كقولك الإنسان هو الكاتب دون الفرس والأسد علىٰ الرغم من أن كلاًّ منهم يحمل صورة لها أبعادها غير أن الذي زين صورة الإنسان وأفرده عن بقية المصوَرات هو العقل ، أي هو الذي في قوته استفادة الكتابة ، وهـٰذه الصورة العاقلة الكاتبة التي صورها المصور إنما هي علىٰ وجهين : عام ويراد به جميع الخلق الذين خلقهم ٱلله تعالىٰ وصورهم ، فهم جميعاً متعرضون لارتسام أوامر ٱلله ارتسم أو لم يرتسم وقد أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (1) فهـٰذا في عموم الخلق الذين برأهم ٱلله وصورهم وهو استحضار قهر وجبروت كونهم عبيداً مملوكين للمصور ، وخاص وهو المرتسم لأوامر ٱلله تعالىٰ كما هو حال الخليفة مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (2) فهـٰؤلاء عباد حافظوا علىٰ العهد الذي أعطوه للمصور الذي ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة ، وكذلك يقال في بقية الصور المعنوية غير الصورة المادية التي تعطي الإنسان هـٰذه الأبعاد المعروفة الشكل ، ففي الصور المعنوية حي وسميع وبصير ومتكلم وعاقل ، كل ذلك علىٰ وجهين : الأول يقال له : عامٌّ وهو لمن له الحياة الحيوانية التي بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الأصوات ولمن يدرك الألوان ، ولمن يفهم ويقوم بما يريده ، ولمن له القوة التي يتبعها التكليف ، والثاني يقال له : خاص وهو لمن له الحياة التي هي العلم المقصود في صورته كأحسن تقويم حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (3) له السمع الذي به يسمع حقائق المعقولات ، والبصيرة التي بها يدرك الاعتبارات ، واللسان الذي به يورد التحقيقات ، وهي التي نفاها عن الجهلة الكفرة في قوله تعالىٰ : ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ

(1) مريم 93 .
(2) الحجر 42 .
(3) ق 37 .

﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [1] وهنا يجدر بنا الإشارة إلىٰ ثلاث صور برأها ٱلله علىٰ ما فيها من الاختلاف والتباين ، وكل صورة لها خصائصها وفق ما كلفت به من خالقها وبارئها ، وهي الملائكة والإنسان والحيوان ، ففي كون الإنسان مستصلحاً للدارين فهو من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين بصورته المادية والمعنوية ، فالله تعالىٰ أوجد ثلاثة أنواع من الأحياء ، نوعاً لدار الدنيا وهي الحيوانات ، ونوعاً للدار الآخرة وهم الملأ الأعلىٰ ، ونوعاً للدارين وهو الإنسان ، فالإنسان واسطة بين جوهرين ، وضيع وهو الحيوانات ، ورفيع وهو الملائكة ، فجمع فيه قوىٰ العالمين وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمنازعة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات ، وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء ، ونحو ذلك من الأخلاق الشريفة ، ووجه الحكمة في ذلك : أنه تعالىٰ لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيأه مع ذلك لمجاورته في جنته اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين ، فإنه لو خلق كالبهيمة معرىً عن العقل لما صلح لعبادة ٱلله تعالىٰ وخلافته ، كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجاورته ودخول جنته . ولو خلق كالملائكة معرىً عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالىٰ في جوابهم عندما اعترضوا علىٰ أن يكون الإنسان خليفة : ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [2] فاقتضىٰ علم ٱلله والحكمة الإلهية أن تجمع له القوتان ، وفي اعتبار هـٰذه الجملة تنبيه علىٰ أن الإنسان دنيوي وأخروي ، وأنه لم يخلق عبثاً كما نبه ٱلله عليه بقوله : ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [3] .

---

(1) البقرة 171 .
(2) البقرة 30 .
(3) المؤمنون 115 .

اللهمَّ باسمك المصور جعلت لنا الأَرْضَ قَرَاراً ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَصَوَّرَتنا فَأَحْسَنْت صُوَرَنا ، وَرَزَقَتنا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فاجعل لنا الطيبات في كل حين ، واجعلنا علىٰ أحسن التقويم يا من بيده الأمر والمصير يا الله !

اللهمَّ إنك خلقتنا ، وسويتنا ، وعدلتنا في أي صورة ما شئت ركبتنا ، نحمدك ، ونشكرك فلا تجعل أولادنا من بعدنا من المكذبين ، وكن بنا وبهم رؤوفاً رحيماً ، واجعلنا من الأبرار في النعيم ، ولا تجعلنا من الفجار في الجحيم !

اللهمَّ إنك المصور فصورت لنا الجنة حقاً لمن اهتدىٰ وأحسن عملاً ، وأنت المصور فصورت لنا النار حقاً لمن ضل وأفسد ، فاجعلنا من الذين يستمعون القول ، ويتبعون أحسنه ، واجعلنا من المصلحين ، لا من الضالين والمفسدين فيها ، وسافكي الدماء !

✍ ✍ ✍

الغَفَّار جل جلاله

الغفَّار : هو الرحمـٰن الرحيم ، هو ٱلله الذي بيده أمر كل شيء ، ولأن من صفاته تعالىٰ الرحمة وهو رحيم لذا فالمغفرة صفة متضمنة في شمولية صفة الرحمة . فلو لم يكن رحمـٰناً ورحيماً ما كان غفوراً وغفَّاراً .

وفي لسان العرب الغفر والمغفرة : التغطية علىٰ الذنوب والعفو عنها والغفَّار جل جلاله ومعناه الستار لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم [1] .

قال ابن القيم في النونية :

وهـــو الغفـــور فلـــو أتـــىٰ بِقُـــرابِهَـــا   مـــن غيـــر شـــركٍ بـــل مـــن العصيـــانِ
لأتـــاه بـــالغفـــران مـــلءَ قـــرابِهـــا   سبحـــانـــه هـــو واســـع الغفـــرانِ [2]

وقال ابن القيم أيضاً : « إن مغفرة ٱلله وتجاوزه عن الذنوب والسيئات فضل منه ورحمة عظيمة للعباد وهو غني عن العالمين ، لا ينتفع بالمغفرة لهم لأنه سبحانه لا يضره كفرهم أصلاً ، ولا يغفر لهم خوفاً منهم ، ولا جهلاً ، ولا عجزاً » [3] .

---

(1) لسان العرب المحيط . ج 2 ، مصدر سابق ، ص 1000 .

(2) النونية ، ص 145 .

(3) منهج الإمام ابن القيم الجوزية ، في شرح أسماء الله الحسنىٰ ، ص 311 .

الغفَّار : « الغفار أبلغ من الغافر ، والغفور أبلغ من الغفَّار ، والغفار والغفور ، التَّام المغفرة الكثير الغفران ، والغفران ستر الذنوب وإزالتها » [1] .

المغفرة لا تتم إلا في مقابل توبة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [2] .

الغفَّار : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، يُزيل اليأس عن النفوس ويُبقي الأمل فيها ، ولذا فإن التعلق بالغفَّار هو تعلق بالرحمـٰن الرحيم . قال تعالىٰ : ﴿ ۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [4] .

يقول الشيخ الشعراوي : « غفر » في اللغة : « غطَّىٰ ، وستر » [5] .

يقول أحمد عبد الجواد : « الغفَّار هو من يغفر الذنوب مرة بعد مرة ، وهو كثير الغفران لعباده الذين تابوا إليه واستغفروه فغفر لهم وسترهم لئلا يُفتضحوا يوم الحساب » [6] .

ومع أن معظم التعريفات تؤيد بأن الغفار هو الستار ، إلا أننا لم نتفق معها بالتمام حيث الفارق في الدلالة والمعنىٰ للاسم الغفَّار والستار من حيث الآتي :

ـ **الغفار** : صفة من صفات ٱلله الحسنىٰ : فهو الذي يحدد الذنب

(1) عمر سليمان الأشقر ، أسماء الله الحسنىٰ . عمّان ، دار النفائس ، 2004، ص 90.

(2) غافر 3 .

(3) الزمر ، 53 .

(4) النساء ، 110 .

(5) الشعراوي ، أسماء الله الحسنىٰ . ص 205 .

(6) أحمد عبد الجواد ، ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . القاهرة ـ دار الريان للتراث ، ص 54.

ويكشفه ، ويحدد له العقاب ، ويحدد له الثواب ، ويتحكَّم في أمر كل منها ، ومع ذلك يعفو عمن يشاء متىٰ يشاء وكيفما يشاء . فالغفار جل جلاله يُحرِّم الذنب ولا يقبله ولا يقبل بإخفائه إلا بمعاقبة مرتكبه أو بالغفران له .

ـ **الستار** : لم يكن من أسماء ٱلله الحسنىٰ المتفق عليها ولم يرد في نص من الكتاب ، وهـٰذه الصفة تعني : إخفاء الذنب وإنكاره حتىٰ لا يحدث الضرر أو يقع العقاب لمن كان سبباً في ارتكابه . ولذا فإن سترة الذنب لا تلغي وجوده بل تُخفيه وتُبقي عليه حتىٰ لا ينكشف أمره ، وهـٰذه السترة والإخفاء يمكن أن يتم عن أعين الناس ، ولـٰكنه لا يمكن أن يُخفىٰ عن عين ٱلله التي لا تنام مما يجعل له العقاب آجلاً أم عاجلاً ، وذلك فإن إخفاء الذنب يميل إلىٰ إنكاره أكثر من ميله إلىٰ تصحيحه أو إصلاحه .

ولذا فالغفار يمحو الذنب ويزيله حقيقة إلىٰ الأبد ، أما الستار الذي لم يكن من أسماء ٱلله الحسنىٰ فيخفي الحقيقة ويحجب أمرها كي لا تنكشف حتىٰ لا يكون العقاب وفقاً للنصوص القانونية أو العرفية أو الشرعية . إنها سترة بين البشر ، فحالها كحال الملابس التي بها تُستر العورات ، فالملابس بسترتها للعورات لا تلغي وجودها بل تسترها فقط دون أن يكون لها أثر فاعل علىٰ طمسها أو تغيير أحوالها فتظل هي كما هي . أما الغفَّار فبمغفرته لا يترك الذنب هو كما هو ، بل يغير حال مرتكبه من الحالة السالبة إلىٰ الحالة الموجبة ، أي من حالة الجزاء بالعقاب إلىٰ حالة الجزاء بالثواب .

وعليه فالستار هو من يُبقي ، ويحافظ علىٰ الحالة ؛ حتىٰ لا يزداد التوتر بشأنها ، والغفَّار هو الذي يُنهيها بإصلاح أمرها ، أو يعاقب مرتكبها بما ينبغي أن يعاقب به .

من يتستَّر علىٰ ارتكاب الذنب ، يلحقه ذنبٌ بشأنه ، ومن يغفر ذنباً يجازىٰ عليه بالثواب . وفي مقابل ذلك من يكشف ذنباً أو جريمة ويعمل علىٰ تقويمها أو تقويم مرتكبها يجازىٰ من ٱلله تعالىٰ ثواباً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (1) . الحجاب المستور هو الذي يحول بين الطرفين فيجعل أحدهما مكشوفاً للعيان والآخر محجوباً عنها ، ولذا فالحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولـٰكنه يستره ، مما يجعل الحجاب المستور هو الذي يحول بين الطرفين فيجعل أحدهما مكشوفاً للعيان والآخر محجوباً عنها ، ولهـٰذا فإن الحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولـٰكنه يستره إلىٰ حين زوال الخطر .

عن أسماء بنت أبي بكر رضي ٱلله عنهما قالت : لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، والنبي ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي ٱلله عنه فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول ٱلله لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال رسول ٱلله ﷺ : (إنها لن تراني) وقرأ قرآناً فاعتصم به ، وقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فوقفت علىٰ أبي بكر رضي ٱلله عنه ولم تر الرسول ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر أُخبرت أن صاحبكم هجاني فقال : لا وربِّ هـٰذا البيت ما هجاك ، فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها » (2) .

والحجاب المستور له صفتان هما :

الصفة الأولىٰ : أنه المستور في ذاته حيث لا تراه الأبصار .

والصفة الثانية : أنه يحجب الرؤية عمن خلفه أي مع أنه يستر من يكون من خلفه فهو غير قابل لأن يشاهد .

ولذا فإن الستار هو من يحجب الحقيقة ولا يكشف أمرها في زمن تستُّرِهِ

---

(1) الإسراء، 45.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. مصدر سابق، الجزء العاشر، ص 269.

عليها ، وفي الوقت نفسه فإن فعل السترة غير قابل للمشاهدة ، مما يجعل هـٰذه الصفات ليس بصفات الغفَّار الذي يكشف الأمر ويجازي عليه بِقلب أمر العقاب ثواباً .

وعليه فالحجاب في دائرة الممكن المتوقع يمكن أن يكون علىٰ حالتين :

الحالة الأولىٰ : أن يكون ساتراً ومستوراً . أي مع أنه يحول بين الهدف وبين من يريد بلوغه إلا أنه غير قابل للمشاهدة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [1] .

الحالة الثانية : أن يكون ساتراً مكشوفاً ، وهو كالملابس التي يرتديها الإنسان لتستر بدنه وعوراته التي هي جزء من جسده مما يجعل الملابس تُرىٰ بالعينين وتحول بين الرؤية والمستهدف ، وكذلك كجدران المنازل التي تستر أفراد الأسرة وحركاتهم عمن لا يكون محرماً .

بناء علىٰ ما تقدم فإن الغفار أعظم شأناً من الستار ، فالله لا يخاف من أحد ليستره أو يتستر عليه كما هو الحال بين البشر ، ولا يجامل أحداً ولا يطمع في أحد ولا تربطه علاقة خاصة بأحد سوىٰ الذين يرتبطون به إيماناً تاماً ووحدانية تامة ، ولذا فهو يغفر الذنوب والعيوب ، ولا يقصر أمره علىٰ سترتها .

السترة بين الناس هي عدم إظهار العيوب والنقائص ، فهم الذين يُقدِمون عليها وهم الذين يسعون لإخفائها حتىٰ لا تترتب الفتنة عليها .

والمغفرة لا تتم إلا بعد كشف الفعل أو السلوك المحرَّم أو المجرَّم إنسانياً واجتماعياً ثم إعلان التنازل إرضاءً إرادياً عما يترتب عليه من عقاب أو قبول ثمن يعوِّض ما تركه الجرم أو الذنب من أثر سالب علىٰ نفسية أو سمعة أو كرامة الفرد أو الجماعة أو المجتمع .

---

(1) الإسراء، 45.

الغفّار بالإضافة هو الذي يتجاوز عن الذنب بعد كشفه وإظهاره وتحديده وتحديد المترتب عليه ، وتقديم الطاعة والاعتراف به وبالحق الذي من أجله ولذا جُعِل العقاب قيمة مرضية لمن ظُلِمَ وجزاءً مناسباً لمن ظَلَمَ .

الغفار هو من يمتلك الأمر ، (أمر العقاب وأمر المغفرة والثواب) فهو الذي لا ينوب عنه أحد ليحل محله أو يشاركه في أمره . ولذا لا يغفر الذنب إلا الذي بيده الأمر بعد تبيُّن ومُحاقَّه وتنفيذ العدالة .

المغفرة صفة مترتبة علىٰ الفعل الإعفائي كما يترتب الفعل الإعفائي علىٰ التوبة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1] أي أن ٱلله جل جلاله يقبل توبة من يعود إليه بعد ارتكاب الذنوب ، فأبواب رحمته الواسعة مفتوحة ولا تُقفل أبداً في وجه من يرتضي توبة عن معصية أو ذنب ارتكب ، فالتوبة عودة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، يترتب عليها إعفاء منه (من ٱلله عز وجل) لمن اعترف بذنبه وحاد عنه بالالتجاء إليه تعالىٰ .

عن علي رضي ٱلله عنه قال : « التوبة اسم يقع علىٰ ستة معانٍ : علىٰ الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته » [2] .

والذي يؤدي ببني آدم إلىٰ بلوغ المغفرة هو التوبة والعفو والإصلاح مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [3] أي من يُحب رغبة أن يغفر ٱلله له ذنبه فعليه بالتوبة والعفو ويُصلِح ولا يُفسد . قال

(1) الشورىٰ، 25.
(2) تفسير البيضاوي . مصدر سابق، ص 642.
(3) النور، 22 .

تعالىٰ : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [1] . المغفرة صفة حسنة تترتب علىٰ العفو المترتب علىٰ التوبة والمترتب عليه الصفح والإصلاح ، وعليه فمن أراد مغفرة فعليه بالآتي :

ـ **الاستغفار :**

طلب المغفرة من ٱلله علىٰ ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو لِما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالىٰ ، أو لِما ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلىٰ ٱلله بدلاً من الاستمرار أو البقاء علىٰ ما يُحيِّده عن إيمانه به تعالىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ﴾ [2] في هٰذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقاً علىٰ التوبة وهٰكذا دائماً التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط بها . وقال جل جلاله : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ [3] . ترشد هٰذه الآية الكريمة إلىٰ أن صالحاً ﷺ قد أرسل إلىٰ ثمود ، ليحرضهم علىٰ عبادة ٱلله الواحد الأحد ، أما قوله (أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها) تأكيد علىٰ أن أصل خلق الإنسان من تراب ، والأرض هي الأصل وهي مصدر الرزق والعيش ، ولهٰذا فالاستخلاف فيها لأجل إعمارها بالبناء والعيش من خيراتها الوافرة التي تتطلب من الخليفة أن لا يغض بصره عن مكامن الخيرات فيها ويعمل ليتطوَّر ويشبع حاجاته طوال عمره حتىٰ النهاية . والاستغفار هو ذكر ٱلله دائماً بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكُّر عن غفلة أو انقياد للشهوة علىٰ حساب التمسك بالحق . والتوبة هي : عودة إلىٰ ٱلله

---

(1) النور، 22 .

(2) هود، 3 .

(3) هود، 61 .

بالتصديق دون شك فيما يقول . ولهـٰذا جاء الاستغفار مقدماً للتوبة ، أي أن الاستغفار إيذان بإعلان التوبة .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (1) كما سبق أن بينا في الآيات السابقة جاء الاستغفار أولاً ، ثم التوبة ثانية والاستغفار والتوبة يُقدَّمان طاعة لرحيم ودود ؛ لتكون الإجابة المغفرة .

ـ **التوبة :**

التوبة تصحيح أخطاء والتمسك بالصواب المُرضِي لله تعالىٰ ، فالتوبة حق وواجب علىٰ المؤمنين جميعاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) . ولأن الكمال لله وحده ، فالإنسان مع أنه خلق في أحسن تقويم إلا أنه لم يكن كاملاً ، ولذا فهو مُعرَّض لأن يقع في الأخطاء ، ولأنه يتذكر ويتفكر فهو قادر علىٰ أن يصحح أخطاءه كلما تداركها بالإيمان .

قال جل جلاله : ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) أي من عمل خطيئة وهو لا يعلم بعاقبة الأمور المترتبة عليها نتيجة جهله بمعرفة الحقيقة ثم عاد عن ارتكاب الخطيئة إلىٰ التمسك بما هو صواب وحق فإن ٱلله غفور رحيم . فالله عظيم ليس لديه حاجة لأن يخاصم العباد ، ولذا فالمغفرة خاصية لله تعالىٰ ، ولأنها خاصية إذاً بطبيعة الحال سيكون غفوراً لمن يكفر الذنوب والخطايا ويتوب إليه عز وجل .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (4) . الغفَّار

---

(1) هود، 90.
(2) النور، 31.
(3) الأنعام، 54.
(4) طه، 82.

هو القادر علىٰ التجاوز عن الأخطاء ، وغفران الذنوب والخطايا ، وهو الذي يمتلك أمر المغفرة لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً يرضاه . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ تعود علىٰ ذات ٱلله الذي بيده الأمر فيغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء بيده الخير وهو الرحمـٰن الرحيم . وهـٰذه الآية تدل علىٰ أن أمر مغفرة الذنوب والخطايا بيد ٱلله وحده ولا أحد غيره قادر علىٰ أن يغفر ذنباً أو خطيئة ، ولذا فمن أراد أن يُغفر له فعليه بالتوجه إليه جل جلاله وأن يتوب أولاً ثم يؤمن ثم يعمل عملاً صالحاً حتىٰ يهتدي وينال المغفرة من ٱلله تعالىٰ . وعليه لا مغفرة إلا بتوبة وإيمانٍ وعملٍ صالحٍ وهدايةٍ ، وبدون هـٰذه مجتمعة فلا مغفرة ، فالمغفرة ليست أمراً هيناً بل هي مطلب يسعىٰ المؤمن لنيله من الغفار الحق ؛ ومن يظن أنه بإمكانه الحصول عليها متىٰ ما يشاء فنقول له هـٰذه قد لا توهب لك ، فعليك من بعد التوبة بالإيمان والعمل الصالح والهداية وإلا لن تنال من أمر المغفرة شيئاً .

وقال عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [(1)] الذين عملوا السيئات هم الذين تابوا من بعد أن ارتكبوها ، ولذا فإن التوبة هي عودة منحرف عن انحرافه أي العودة إلىٰ التمسك بما أمر به ٱلله تعالىٰ والابتعاد عمَّا نهىٰ عنه . يتضح من هـٰذه الآية الكريمة أن أمر المغفرة مترتب علىٰ ما يسبقها من أعمال إيمانية .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [(2)] . لهـٰذه الآية عمومية مطلقة بأن ٱلله يتوب علىٰ من يشاء متىٰ ما يشاء بعد أن يتوب العبد عن أفعال السوء التي ارتكبها بجهالة ، والذين يتوبون من قريب هم الذين لم يبلغ الأمر

(1) الأعراف، 153 .

(2) النساء، 17 .

بهم للشرك به ، أي ما دون الشرك حيث باب التوبة مفتوح ، وهـٰذا الأمر يتعلق بإعطاء الفرص للمؤمن المُدرِك لأمر ربه قبل فوات الأوان عليه بالموت أو ارتكاب المعصية الكبرىٰ والشرك .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ تتضمن ضماناً تاماً ومؤكداً بأن ٱلله سيغفر للذين يعملون السوء عن جهالة وليس عن وعي ويقين وبيِّنة مع الإصرار ، بل لأنهم جهلاء بما سيترتب عليها من عقاب وغضب من ٱلله مما يجعلهم يقدمون عليها ويرتكبونها ، ومن بعد أن يعوا ويعرفوا حقيقة الأمر يتوبون ويكفِّرون عن سيئاتهم ويؤمنون ويهتدون إلىٰ الحق ويبتعدون عن الباطل بعدها حقاً يجدون ٱلله غفاراً ودوداً رحيماً .

ـ اتباع السبيل :

هو السير علىٰ الطريق الحق بالتمسك بما أمر ٱلله به والحياد أو الابتعاد عما نهىٰ عنه ، واتباع سنة رسوله الكريم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (1) . وذلك لأن الرسول ﷺ هو الأعلم بالقرآن وإعجازاته الواردة في كل آية من آياته الكريمة ، ولا أحد يعلم بأمر القرآن وأبعاده الإعجازية إلا من بعده ، ولهـٰذا اتباع الرسول اتباع للحقيقة .

وسبيل ٱلله في لسان العرب : « طريق الهدىٰ الذي دعا إليه » (2) قال تعالىٰ : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (3) . تعود هـٰذه الآية بِدُعائها علىٰ الذين يحملون العرش من الملائكة وهم يدعون ٱلله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيل الهدىٰ بالقول والفعل عبادة . ولذا فسبيلك تعني : طريق الحق الذي أنت ارتضيته للعالمين .

(1) الحشر ، 7 .
(2) لسان العرب المحيط . ج 2 ، ص 91 .
(3) غافر ، 7 .

والمستخلفون في الأرض هم الذين ينتهجون سبيله تعالىٰ في تنظيم حياتهم الاجتماعية والإنسانية بما يُقدِّر الفرد والجماعة والمجتمع بكامله ، من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدىٰ ومسؤوليات يتم حمْلها . ولذا فمن يتبع سبيل ٱلله يعمل صالحاً ويؤمن به ولا يُشرك ويقول الحق ويفعله في كل مكان وحين .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (1) . تأكيداً بأن ٱلله يعلم بكل أمر فهو يعلم بأمر من استجاب له بالطاعة ، ويعلم بأمر من عصىٰ ولم يستجب للإيمان ، ويعلم بأمر من آمن ثم ضل ، ويعلم بأمر من آمن ثم ضل ثم اهتدىٰ . والحديث في هـٰذه الآية موجه إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ، علىٰ أن لا يهتم بأمر من ضل ولم يهتدِ وعصىٰ وفضَّل الحياة الدنيا علىٰ الحياة الآخرة .

فالله يعلم حقيقة بيِّنة بمن ضل عن سبيله ، ولذا فهو الأعلم الذي لم نؤت من علمه إلا قليلاً ، فنطلبه أن يزيدنا علماً ويقيناً لنكون من المصلحين الصالحين . وفي الوقت ذاته فإن ٱلله أعلم بمن اهتدىٰ ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين في الأرض الذين اهتدوا ولن يضلوا سبيله !

قال عز وجل : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) هـٰذه الآية تعني : قل يا محمد هـٰذه سنتي ومنهاجي الذي ارتضيت ، فبه آمنت عن بينة ويقين وآمن به من اتبعني من المؤمنين ، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، لا شريك له ، فالحمد ، والشكر له أنني لم أكن من المشركين .

وعليه فإن حظ الخليفة أن يدعو إلىٰ الحق الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ ، وأن

---

(1) النجم، 30.

(2) يوسف، 108.

يحرض الذين تربطه بهم علاقات أبوة أو أخوة أو قربىٰ أو جيرة أو علاقات تعليم وتعلم أو عمل أن يدعوا بالمعروف إلىٰ سبيل ٱلله بإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

ـ الإيمان :

تصديق عن بيِّنة بأن ٱلله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، ولا محل للظنون ولا الشكوك فيما قاله جل جلاله .

وفي لسان العرب الإيمان : الثقة التي تُمكِّن من تحقيق الطمأنينة [1] . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [2] أي كلما جاءتهم آية أو تُليت عليهم ازدادوا تصديقاً لكل ما تُلي عليهم من الآيات مسبقاً وذلك لعدم وجود تناقض في آيات الكتاب الحكيم المحفوظ الذي لم يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

سأل رجل الحسن فقال : « يا أبا سعيد ؛ أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ؛ فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألني عن قول ٱلله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ـ إلىٰ قوله ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ فوالله ما أدري : أنا منهم ، أم لا ! » [3] .

قال جل جلاله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] . الإيمان ثبات علىٰ المعتقد المُوحِّد لله تعالىٰ ، ولذا فهو الرسوخ في المعتقد والثبات عليه دون تبدل ، فالإيمان بالله تعالىٰ وعدم الشرك به إيماناً

---

(1) لسان العرب المحيط . ج 1 ، ص 107 .
(2) الأنفال ، 2 .
(3) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء السابع ، ص 367 .
(4) البقرة ، 143 .

ثابتاً راسخاً مثلما هو واحد أحد ، ولهٰذا فإن قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ تعود علىٰ الذين آمنوا بالله وهم يصلون إلىٰ بيت المقدس . قبل أن تُغير القِبلة إلىٰ البيت الحرام ؛ إن تغير القبلة لا يعني تغير الرب الواحد الأحد ، فالرب الذي يصلون إليه ثابت لم يتغير ، والقبلة تغيرت إلىٰ الكعبة وهي بيت ٱلله الحرام . قال الترمذي عن ابن عباس قال : « لما وُجّه النبي ﷺ إلىٰ الكعبة قالوا : يا رسول ٱلله ، كيف بإخواننا الذين ما توا وهم يصلون إلىٰ بيت المقدس ؟ فأنزل ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ »[1] . ولأن القِبلة هي مجمع الالتقاء علىٰ التوحيد لله تعالىٰ ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام جاءت للناس كافة ، فكان تغيير الاتجاه ضرورةً بعد أن كُسِّرت الأصنام من قبل ؛ والتي كانت علامة من علامات الفرقة بين العباد .

ـ العفو :

العفو قيمة أخلاقية تُظهر الفضل بين الناس لتجعل بينهم مودة ورحمة . قال تعالىٰ : ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[2] . فالعفو يعني : عدم مؤاخذة من ارتكب ذنباً حيث أن أمر ٱلله آتٍ لا محالة ، والصفح يعني : إزالة ما تُرك في النفس من سيئات وأثر فمع أنَّ ٱلله غفور رحيم إلا أنه شديد العقاب ، ولذا أتىٰ أمر ٱلله بقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير[3] .

قال تعالىٰ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[4] هناك استغراب ضمني في بداية هٰذه الآية فكأنها تقول بأي

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثاني، ص 157 .
(2) البقرة، 109 .
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 73 .
(4) آل عمران، 159 .

رحمة أنت يا محمد قد لنت لهم ! . ولهم : تعود علىٰ الذين ولَّوا يوم أُحد [1] ، الذين يعود عليهم لين محمد ﷺ ، حيث مع أنهم ولوا إلا أن الرسول الكريم ﷺ لم يغلظ عليهم ، أي لم يشتد ويقسو عليهم ، ولذا كان معهم ليناً ، ولو كان غليظ القلب بالقسوة والشدة لتركوه وابتعدوا عنه ولم يعودوا له ثانية ، في هـٰذه الآية الكريمة ظهر تسامح محمد ﷺ ، وطيب نفسه ، وبعد نظره ، وحنكته وخبرته في أمور النفس بإعفائه عنهم واستغفاره لهم .

وقوله : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ جاءت بصيغ أوامر ثلاثة :

أولاً : أمر العفو عنهم فيما يختص بالرسول الكريم ﷺ .

ثانياً : أمر الاستغفار لهم فيما لله عليهم من تَبِعَة .

ثالثاً : أمر مشاورتهم في الأمر . كلمة الأمر جاءت مطلقة ، ولذا فهي تعني : أي أمر يتعلق بهم ، ينبغي أن لا يفرض عليهم شيء فيه ، فالسلم أمر ، والحرب أمر ، والسياسة الداخلية أمر ، والسياسة الخارجية أمر ، وكل ما يتعلق بمصائرهم وحياتهم فهو أمر يخصهم فلا يجب فرض شيء عليهم وهم له كارهون .

قال أعرابيٌّ : « ما غُبنت قط حتىٰ يُغبن قومي ؛ قيل : وكيف ذلك؟ قال لا أفعل شيئاً حتىٰ أشاورهم » [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [3] . فبعد أن اتخذ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الرابع، ص 248.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع، ص 250.
(3) البقرة، 51، 52.

اليهود العجل إلـٰهاً من بعد مضي موسىٰ عليه الصلاة والسلام لميقات ربه وتابوا عفا ٱلله عنهم .

والعفو في دائرة الممكن قد يكون بعد العقوبة وقد يكون قبلها ، أما الغفران فتبرئة بدون عقوبة .

وبما أن ٱلله عفو رحيم ورسوله الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه عفو يحب العفو ، إذاً من حظ الخليفة أن يكون عفواً مع الذين تربطه علاقة بهم ومع الذين يسعون للهداية . فالعفو قيمة أخلاقية كلما سادت بين الناس كلما ساد التسامح بينهم في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، ولذا فمن عفا وأصلح فأجره علىٰ ٱلله . وليعلم المؤمن أن الناس خطاؤون وأنهم لم يُخلقوا ملائكة مبرَّئين ، وليعلم أن العفو مقوٍّ للعلاقات بين الناس وموحد للمؤمنين علىٰ الكلمة السواء ، فمن أراد خيراً فعليه بالعفو .

ـ العمل الصالح :

هو الذي لا يترك في الأرض فسادا ، ويُطفئ نار الفتنة كلما اشتعلت ، ويقوي العلاقات ويغرس المحبة بين المستخلفين في الأرض ، وينمي كل ما من شأنه أن يشبع حاجةً بالحق حتىٰ يتمكن المخلوق من لقاء ربه . قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [1] . لقاء ٱلله لا يتم إلا بالعمل الصالح ، ولذا فمن أراد هـٰذا اللقاء فعليه به ، وأن يعبد الله ولا يشرك بعبادته أحداً .

قال عز وجل : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [2] . في هـٰذه الآية علاقات ثلاث تُدخل الجنة ولا تنقص شيئاً :

---

(1) الكهف، 110 .

(2) مريم، 60 .

الأولىٰ : العلاقة مع الثواب . فالثواب رحمة من ٱلله تعالىٰ علىٰ عباده المستخلفين في الأرض ، ولهٰذا يقولون : التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

الثانية : العلاقة مع الإيمان . الإيمان بالله تعالىٰ واحداً أحداً لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة . هٰذا الإيمان يدخل الجنة ؛ حتىٰ ولو كان بعد جهل ، أو ارتكاب ذنب .

الثالثة : العلاقة مع العمل الصالح . قال تعالىٰ : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [1] .

وقال جل جلاله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [2] في هٰذه الآية استثناء للذين تابوا بعد ارتكابهم الذنب بقذف المحصنات الذي ورد ذكره في الآية الرابعة من سورة النور . والذين أصلحوا : هم الذين عرفوا أخطاءهم وأصلحوا أحوالهم بالابتعاد عنها وعدم تكرارها ثانية ، أي أنهم كفَّروا عن سيئاتهم فتاب ٱلله عليهم بتوبتهم إليه .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [3] قال سعيد بن جبير : « الزَّبور هو الكتاب (التوراة والإنجيل والقرآن) » [4] وقوله تعالىٰ : ﴿ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الأرض هي الأرض التي منها خلق آدم وزوجه ، وهي التي جعل ٱلله فيها الخليفة ، الذي أورثه الأرض من بعد آدم عليه الصلاة والسلام . والعباد الصالحون هم الذين يعملون أفعال الخير ليصلوا فيما استخلفهم ٱلله فيه وهم الذين لا يُفسدون في الأرض . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن

(1) فصلت ، 46 .

(2) النور ، 5 .

(3) الأنبياء ، 105 .

(4) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء الحادي عشر ، ص 349 .

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[1] ثم جاءت الإجابة في الآية : ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ ، ولذا فإن مشيئة ٱلله هي التي أورثت الأرض لعباد ٱلله الصالحين ، أي الذين لا يُفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق .

وحظ الخليفة في الأرض العمل الصالح ، وهو الشرط الرئيس للاستخلاف فيها ، فعليه بالعمل الصالح من عمار وقول معروف ونهي عن منكر واجتنابه ، فليتعلم ويكد ويجد ويعمل من أجل الإصلاح في الأرض التي منها خُلق ومنها يُرزق ، وإليها يعود ومنها يُبعث للحياة الدائمة بقوة الحي الدائم .

ـ **الاهتداء :**

توجُّه للحق والطريق المستقيم والسير عليه بعد ضلال وضياع . وفي لسان العرب : « الهُدىٰ ضد الضلال وهو الرشاد »[2] قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3] . الآية موجَّهة للرسول ﷺ المراد منه البلاغ والدعوة وليس المراد منه أمر الضلال والهداية والمجازاة عليهما فهٰذا الأمر خاصية لله تعالىٰ ؛ ولذا فمن اهتدىٰ فلنفسه ومن ضل فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾[4] . الذين آمنوا هم : الذين صدَّقوا بالحق ، ويعملون علىٰ إحقاقه حتىٰ يبقىٰ ، ويعملون علىٰ إزهاق الباطل حتىٰ يزول . والذين عملوا الصالحات هم : أهل الخير والفاعلون له ، الذين استخلفهم ٱلله في الأرض

(1) الأعراف، 128 .
(2) لسان العرب المحيط، ج 3، ص 786 .
(3) النحل، 125 .
(4) يونس، 9 .

وجعلهم الوارثين ؛ وهم الذين هداهم ٱلله أي أرشدهم إلىٰ ما ينبغي أن يكونوا عليه وهو الإيمان به جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (1) . يُفهم من هٰذه الآية أن المغفرة تتطلب التوبة من الذنب أو التوبة من الشرك والمعصية ، والإيمان بالله الواحد القهار ، وبالعمل الصالح في الحياة ، وبالاهتداء إلىٰ الحق والصراط المستقيم .

قال تعالىٰ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (2) تبين هٰذه الآية الكريمة أن هداية ٱلله تختص ببعض دون بعض ، فمن أراد الهداية اتبع طريقها ، ومن اختار طريق الضلالة ضل ، وما ربك بظلام للعبيد .

ـ الصفح :

الصفح في لسان العرب : مجانبة الشيء (3) . ولذا فإن الصفح هو تجاوز عن الأخطاء والتسامح مع مرتكبيها ، والصفح فعل إرادي لا يقدم عليه إلا قادر ، وله مقصد من وراء صفحه كالسترة في الدار الدنيا والرحمة في الدار الآخرة . وفي حديث لعائشة رضي ٱلله عنها تصف الرسول ﷺ بأنه صفوح عن الجاهلين (4) . أي أنه يعفو ويتجاوز عنهم ويتسامح معهم بسلوكه القدوة الحسنة .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا

---

(1) طه ، 82 .
(2) الأعراف ، 178 .
(3) لسان العرب المحيط . ج 2 ، ص 446 .
(4) المصدر السابق ، ص 447 .

لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

إنه قول الحق ، فقد كانت الفتنة من بداية الخلق بين ابني آدم هابيل وقابيل حتىٰ قتل أحدهما الآخر وهما علىٰ خلاف من يتزوج أخت من . ولذا فالعداء والفتنة قد يوقد نارهما بعض من الأزواج وبعض من الأبناء ، وكذلك الصفح والإصلاح قد تُبنىٰ صروحهما بجهود بعض الأزواج وبعض الأبناء ، ولهـٰذا جاءت (من) للتبعيض حيث أن الضلالة والهدىٰ بين الناس يمتدان من الشرك إلىٰ الإيمان . واحذروهم تعني : خذوا حذركم منهم حتىٰ تأمنوا جانبهم وغوائلهم وإلا أوقعوكم في الفتنة في الدين والمال وما يترتب علىٰ ذلك من ضرر .

ولأن الصفح فيه تسامح فإن العفو عن الذنوب فيه خير لمن عفا عن زوجه أو أبنائه أو غيرهم ، وما تخصيص الأزواج والولدان إلا لأنهم أولىٰ بالمعروف .

سبحان ٱلله العظيم ولأنه رحمـٰن رحيم فهو يحب العفو والصفح والغفران مع كل العِداء الذي قد يلاقيه الإنسان المؤمن في حياته . فهل يا ترىٰ سنكون من المُصفحين لأزواجنا وأولادنا لننال الأجر العظيم ؟ أو نكون كمن يخربون بيوتهم بأيديهم ؟ اللهُمَّ تُب علينا وزدنا إيماناً راسخاً وعملاً صالحاً ، وهداية طيبة ومغفرة واسعة إنك لا تخلف الميعاد .

هناك روايات كثيرة تتكلم عن أسباب نزول هـٰذه الآية الكريمة التي منها : « ما رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال : رأيت النبي ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين رضي ٱلله عنهما وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ؛ فنزل الرسول ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : (صدق ٱلله عز وجل إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلىٰ هـٰذين

---

(1) التغابن ، 14 .

الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما) ثم أخذ في خطبته »[1] . اللهُمَّ اجعل لنا من سيرته القدوة الحسنة .

قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[2] . يقال : إن هـٰذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ وقد حلف أن لا ينفق علىٰ مِسطح بن أثاثة وهو ابن بنت خالته الفقير بعد أن وقع أمر الإفك وقال فيه مِسطح ما قال ؛ بعدها حلف أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ألا ينفق عليه ، فجاء مسطح ، واعتذر ، وقال : إنما كنت أغشىٰ مجالس حَسَّان ، فأسمع ولا أقول ، فقال له أبو بكر : لقد ضحكت ، وشاركت فيما قيل ، ومَرَّ علىٰ يمينه ، فنزلت الآية : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[3] . ولما نزلت قال أبو بكر رضي ٱلله عنه : بلىٰ أنا أحب أن يغفر ٱلله لي ، ورجع لمِسطح ما كان ينفقه عليه[4] .

قال تعالىٰ : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5] ، في هـٰذه الآية أمران هما :

أولاً : أمر العفو .

وثانياً : أمر الصفح .

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر، ص 143.
(2) النور، 22.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثاني عشر، ص 207.
(4) تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت ـ دار لبنان للطباعة والنشر، 1984، ص 460.
(5) المائدة، 13.

وذلك لما في الأمرين من أفعال الإحسان التي يفضلها ٱلله تعالىٰ ويرتضيها لعباده الصالحين .

والمترتب علىٰ العفو والصفح هو المغفرة ، ولذا فمن أراد المغفرة فعليه بهما ؛ ولأن من طبيعة البشر : أنهم يتعرضون لمواقف وظروف واختبارات قد تكون صعبة وقد تكون قاسية علىٰ أنفسهم فهم يغضبون ويتألمون ويحزنون ويفرحون ويأملون ويتطلعون وهـٰذه المعطيات تجعلهم يتبدلون من حال إلىٰ حال ، ولذا فليدركوا أن هـٰذه الأمور قد تتكرر وأن جميع بني آدم معرضون لها ، مما يجعل الصفح قيمة مقدَّرة بين الناس المستغفرين لله عن ذنوبهم وسيئاتهم وفلتات ألسنتهم فلا ينسوا الفضل بينهم وليعلموا أن ٱلله غفور رحيم .

وعن أبي هريرة رضي ٱلله عنه قال : « سمعت النبي ﷺ يقول : إنَّ عبداً أذنب ذنباً ، فقال : ربِّ أذنبت ، فاغفر لي ، فقال ربَّه : أعَلِمَ عبدي أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخُذُ به ؟ ! غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء ٱلله ، ثم أذنب ذنباً ، فقال : ربِّ أذنبت آخر ، فاغفره ! فقال أعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ ! غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء ٱلله ، ثم أذنب ذنباً ، وقال : أذنبت آخر ، فاغفر لي ! فقال : أعَلِمَ عبدي : أنَّ له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ ! غفرت لعبدي ثلاثاً ، فليعمل ما شاء » (1) .

قال ابن القيم : « للعبد أسماء ثلاثة تشتق من المعصية : أحدهما الظالم . كقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (2) . وثانيها : الظلوم . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى

(1) شرح السنة للبغوي، ج 2، ص 414.

(2) فاطر 32.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (1) . وثالثها : الظلاَّم . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) . وكأنه قال : عبدي لك ثلاثة أسماء في الظلم والمعصية ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة ، فإن كنت ظالماً ؛ فأنا غافر ، وإن كنت ظلوماً ، فأنا غفور ، وإن كنت ظلاَّماً ، فأنا غفار ، ثم إن صفاتك متناهية كما يليق بك ، وصفاتي غير متناهية كما يليق بي ، وغير المتناهي يغلب المتناهي ، فلا تكن من القانطين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ » (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (4) . معظم الظن ما ليس بحق ، أو ما ليس بصواب حيث قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ ﴾ (5) . ولذا فداود غير متيقِّن بدليل أنه لم يُفتن في شيء بالرغم من ظن بعض المفسرين في قصة امرأة الجندي أو خطيبته الذي أمر داود بإرساله لجبهة القتال حتىٰ مات وتزوجها من بعده وأنجب منها سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهـٰذا الأمر يتنافىٰ مع أخلاق داود .

فلو كان الظن يقيناً كما يظن البعض لكانت الفتنة حقيقة . وهـٰذه تدل علىٰ أن ما ظنه داود من اللذيْن تسوَّرا عليه المحراب ليس بصواب ، ولهـٰذا خرَّ

---

(1) الأحزاب 72 .

(2) الزمر 53 .

(3) ابن القيم ، المصدر السابق ص 213 .

(4) ص ، 24 ـ 26 .

(5) الحجرات ، 12 .

راكعاً وأناب أي رجع مستغفراً تائباً من ظنه إلىٰ ٱلله تعالىٰ فغفر له ذلك الظن ، ولأنه تيقَّن ٱلله باستدراكه ما وقع فيه من خطأ فكان مقرَّباً بمقامه وعودته الحسنة ، بعد مخافته الفتنة .

قال الشاعر :

فخـــرَّ علـــىٰ وجهـــه راكعـــاً وتـــاب إلـــىٰ ٱلله مـــن كـــل ذنـــب

السجود فعل طاعة يحدث في الحالات الآتية :

الأولىٰ : أثناء الصلاة .

الثانية : إشهار الطاعة المطلقة لله وحده .

الثالثة : للاستدراك من الوقوع في أخطاء السهو كما هو الحال عند الصلاة .

الرابعة : عند الوقوف علىٰ آيات الإعجاز والعرفان أثناء قراءة القرآن الكريم .

الخامسة : عندما يكون الحمد والشكر لله علىٰ ما آتاك من فضل .

السادسة : لاستجابة الدعاء .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي إننا أتيناك ملكاً فاعدل به بين الناس ، حتىٰ تخلف من سبقك من الأنبياء والصالحين ، الذين استخلفهم ٱلله من قبلك . ولا تتبع الهوىٰ فيحيد بك عما جعلناك به خليفة في الأرض .

قال ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال : « إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوىً ؛ فلا تشته في نفسك الحق له ليفلُج علىٰ صاحبه ، فإن فعلت ؛ محوت اسمك من نبوّتي ، ثم لا تكون خليفتي ، ولا أهل

كرامتي . وألا تميل إلىٰ أحد الخصمين لقرابةٍ ، أو رجاء نفعٍ ، أو سببٍ يقتضي الميل من صحبةٍ ، أو صداقةٍ ، أو غيرها » [1] .

وفي هـٰذه الآية الكريمة تنبيه علىٰ أن الحكم العادل يُمكِّن الحاكم من أن يكون خليفة في الأرض ، والحكم غير العادل يحيد من الاستخلاف من يراد له أن يكون خليفة . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ تنبيه لمن يريد أن يحكم أن لا ينسىٰ أو يغفل عن الحق وهو قول ٱلله عز وجل . ولذا فالحكم بالحق هو الذي يبعد من يحكم بين الناس عن الهوىٰ . وفي هـٰذا الأمر قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، « ذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : حدثني أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن رسول ٱلله ﷺ قال : ما من عبدٍ أذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر ٱلله إلا غفر له ذنبه ثم تلا هـٰذه الآية » [4] . بما أن الغفار صفة لله تعالىٰ واسم من أسمائه الحسنىٰ فبدون شك أنه غفَّار الذنوب لمن استغفر وتاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ثم اهتدىٰ .

عن عائشة رضي ٱلله عنها : « عن النبي ﷺ إنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الخامس عشر، ص 189 .
(2) ص، 27ـ29 .
(3) آل عمران، 135 .
(4) مسند الطيالسي، ج 1، ص 3 .

تاب إلىٰ ٱلله تاب ٱلله عليه » [1] . يقصد بالاعتراف أن يعترف بأخطائه بينه وبين نفسه أمام ٱلله ليستغفره ويتوب إليه .

ولأن المغفرة لا تتم إلا بمثوبة ، لذا فهي لا تتم إلا باشتراطات العودة عن الذنوب ، ومخافة من المظالم والعقاب ، وحباً في إحقاق الحق بالعمل عليه والدعاية له ، ولهٰذا من استغفر عن ذنب ارتكبه بنية انعدام العودة إليه ولِما يماثله من ذنوب وخطايا ويتوب إلىٰ ٱلله مخلصاً له يجد ٱلله غفوراً رحيماً . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [2] القائل لهم بالاستغفار نوح عليه الصلاة والسلام ، المؤمن بالله والداعي لعبادته واحداً أحداً .

الغفَّار : هو الذي بيده الأمر يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، فإن غفر تجاوز عن الذنوب والخطايا ، وإن لم يغفر كان عذابه شديداً . فالغفران تبرئة من الأفعال المترتب عليها الذنب والخطيئة والعقاب . ولذا فإن الخليفة هو الذي يتوجه إلىٰ الغفار ليغفر له ذنوبه وخطاياه كلما ارتكب ذنباً أو أخطأ في أقواله وأفعاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] . أي بالرغم من إيمانهم وثباتهم علىٰ الطاعة إلا أنهم يدعون الغفار بأن يغفر لهم إن أخطؤوا .

الغفَّار المطلق هو ٱلله تعالىٰ ، والغفَّار بالإضافة هو الخليفة ، الذي يغفر لمن يخطئ معه أو يُخطئ في حقه ، أو مع الذين يتولىٰ أمرهم ورعايتهم من زوجة أو أبناء قُصَّر بعد مُراضاتهم في غير معصية ٱلله تعالىٰ .

فالذي يقتل نفساً خطأ غير متعمد كما هو في حوادث السيارات

(1) صحيح مسلم، ج 8، ص 112 .

(2) نوح، 10 .

(3) آل عمران، 147 .

وما يشابهها من غير قصد فهو في حاجة لمغفرتين :

المغفرة الأولىٰ : من ٱلله تعالىٰ وهـٰذه لا تتم إلا بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلَّمة لأهله المؤمنين ، فإن لم يستطع فعليه صيام شهرين متتابعين مع الاستغفار لِما حدث . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

المغفرة الثانية : من الذين تربطه علاقة بالمقتول خطأ بعد أخذهم الدية أو بعد التسامح من غيرها بالتراضي . والمغفرة منهم يُقصد بها أن لا تحمل أنفسهم علىٰ من ارتكب الفعل خطأ غلظة أو كراهية أو كيداً ، أو مكراً .

إنَّ تقديم الدية لمن يتعلق الأمر بهم هو دليل اعتراف بالذنب والاستغفار منه والتوبة لله تعالىٰ ، وهي أيضاً اعتذار لطلب العفو والتسامح والمغفرة من أهل المقتول خطأ .

وعليه فحظ الخليفة أن يؤمن التزاماً ذاتياً بما أمر الغفار الأعظم ليكون قدوة حسنة أمام ربِّه تعالىٰ ، وأمام نفسه حتىٰ يكون قدوة حسنة للآخرين ليهتدوا . وهو الذي يخشىٰ ربَّه في القتل حيث من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ، وليخشىٰ ربَّه في كل شيء ويتوب إليه من كل ذنب ويستغفره من كل خطيئة . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا

(1) النساء، 92.

فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ (2) .

وعليه فإن التسامح صفة بشرية تجري بين بني الإنسان ، وهو يتمركز علىٰ طرفين متشابهين في الصفات والخصائص ، ويتم التسامح بعد إدراك الأمر ومعرفة الأخطاء وتقديم الاعتذار أو تبادله بين المختصمين أو المتصارعين أو المخطئين ، أو بين المخطئ والمخطأ في حقه . وفي بعض الأحيان لا يتم التسامح إلا بتدخل وسطاء وأهل الخير ، وفي بعض الأحيان يتم بلقاء الطرفين دون وسطاء . وفي بعض الأحيان يتم بدون لقاء وسطاء ويترك الأمر لله تعالىٰ .

ولذا فالمتسامح هو كثير العفو وهو الذي يتنازل إرادة لمن أخطأ في حقه ، والمسامح : العفوُّ ، الذي لا رغبة له في إثارة القلاقل والمشاكل والصدامات مع الذين يخطئون . والتسامح قد يكون إرادياً مع امتلاك المقدرة علىٰ الصدام والمغالبة ، وقد يكون لأجل المداراة علىٰ علاقات قربىٰ أو صداقة أو صحبة ، وقد يكون التسامح لعدم المقدرة علىٰ مقارعة الطرف المناظر له في الاختصام أو النزاع . وفي كل ذلك فإن ٱلله غفور رحيم .

والفرق بين التسامح والمغفرة هو : أن التسامح يتم بين طرفين أو خصمين ، والمغفرة تتم من طرف واحد وهو الذي لم يكن خصماً .

ولأن لكل شيء بداية ونهاية فإن لكل شيء حدوداً ، ولذا فالمغفرة فرص تعطىٰ فمن يغتنمها فاز ، ومن لم يغتنمها هُزم . ولذلك فإن ٱلله يغفر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ (3) . بطبيعة الحال من يؤمن بالله لا يُمكن أن يُشرك به ، ومن يُشرك به

(1) آل عمران، 135 .

(2) الفتح، 14 .

(3) النساء، 48 .

لا يمكن أن يكون مؤمناً ، ولهٰذا لا يمكن أن يغفر ٱلله تعالىٰ لمشرك به . أي إما أن تكون مشركاً فلا تؤمن بالله تعالىٰ ، وإما أن تؤمن به وتترك الشرك عنك إلىٰ أبد الآبدين . فإن تركته بالمطلق تجد ٱلله غفوراً رحيماً ، وإن لم تتركه بالمطلق ستجده شديد العقاب . ولذا فالمؤمن في كلتا الحالتين يقول : الحمد لله ربِّ العالمين ، أي الحمد لله في الأولىٰ إن آمن ابن آدم فيغفر ، والحمد لله في الثانية إن كفر ابن آدم فيعذب . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [1] .

الاستغفار يفيد من أسلم وجهه لله ، ولا يفيد من لم يسلم وجهه لله ، ولذا لا يحق أن تستغفر لكافر مشرك ، فالاستغفار يفيد من يؤمن بالمستغفر به . وبما أن القاعدة تنص علىٰ أنَّ (الاستغفار لا يُفيد من لا يؤمن بالمستغفر به) . إذاً لا سبعين مرة تفيد ولا المليون مرة تفيد ، فالذي يفيد هو الإيمان به واحداً أحداً لا شريك له بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير .

أما الذين أسلموا وجههم لله ثم أخطؤوا ثم استغفروا لأنفسهم أو استغفر لهم الرسول لوجدوا ٱلله غفاراً رحيماً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ

---

(1) التوبة ، 80 .

(2) النساء ، 64 .

(3) يوسف ، 97 ، 98 .

ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [2] بهٰذه الآيات الكريمة يتم التأكيد علىٰ الاستغفار من المؤمن بالله تعالىٰ فيفيد المؤمن به في حالة ارتكابه ذنباً أو خطيئة ، ولا يفيد من يشرك به حتىٰ ولو استغفرت له سبعين مرة . ولذا فالمهم في الاستغفار أن يكون من مؤمن لأجل توبة وعمل صالح وهداية لله تعالىٰ لمن كفّر عن سيئاته .

وإذا تساءل البعض : لماذا المغفرة ؟ فليعلم أن مبرراتها هي :

- اتساع دائرة المؤمنين بالله تعالىٰ .
- حتىٰ لا يتمادىٰ العصاه في عصيانهم .
- لعلمه تعالىٰ بقصور خلقه عن الكمال الذي يقيهم ارتكاب الخطايا والمعاصي والذنوب .
- لعلمه بأنهم خلقه الذين يراد لهم أن يكونوا في أحسن تقويم .
- لأنه يعلم أن البعض من عباده يرتكب الخطايا تحت طائلة الضرورة ، وفي هٰذا الأمر يرىٰ البعض أنه لا إثم في ذلك ، ونحن نتفق معهم بأسباب المغفرة السابقة علىٰ ارتكاب الفعل .
- لأنه يعلم البعض من عباده يرتكبون الخطيئة تحت طائلة الإجبار ، وهٰذه أيضاً لها المغفرة السابقة .
- لأن قانون المشيئة الإلهية مؤسس علىٰ قاعدة الغفران ، والاستثناء منها

(1) غافر، 7ـ9.
(2) نوح، 28.

هو العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] .

وحظ الخليفة من الاسم الغفار : أن يتدارك أمره بالتكفير عن سيئاته ، وأن يستغفر ربه علىٰ كل كبيرة وصغيرة ظلم فيها نفسه أو ظلم بها الآخرين ، وأن يتوب إلىٰ خالقه بترك ما لم يرضه تعالىٰ من قول وعمل ، وأن يعمل صالحاً يرضاه ، وأن يهتدي إلىٰ سبيل ربِّه ولا يشرك بعبادته أحداً .

أن يعفو عن الذين أخطؤوا في حقه والذين تأسفوا له علىٰ ما بدا منهم ، وأن يتقي ٱلله في زوجه وأبنائه ومن صاحبه وصادقه علىٰ المحبة في ٱلله تعالىٰ ، وليعلم أن الإنسان خَطَّاء إلا من رحم ربِّي فليعفُ وليصفح ليجد ٱلله غفاراً رحيماً .

المغفرة صفة من صفات ٱلله الحسان فمن اتخذها سلوكاً وعملاً في حياته استمد صفة من صفاته تعالىٰ ، وفاز بالمغفرة في حياته ومماته ويوم بعثه .

ولذا فعليه بتوحيد ٱلله في كل مكان وزمان ، وأن يتبع سنة نبيه محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، يقول الحق ويفعله ، يصلي ويصوم ويزكي ويحج البيت الحرام ، ويذكر ربَّه كثيراً ، ويجاهد في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، ويتقي ٱلله ربه .

وعليه لا أقول إلا ما قاله رسول ٱلله ﷺ « إنَّ الشيطان قال وعزتك يا ربِّ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » [3] . فاستغفر ٱلله العظيم من كل ذنب أو خطيئة ، والحمد لله ربِّ العالمين !

---

(1) ق 30 .

(2) يوسف 103 .

(3) مسند أحمد ، ج 17 ، ص 337 .

الغفَّار : هو الرحمٰن الرحيم وهو الذي بيده الملك والأمر ، ولذا لو لم يكن هو الرحمٰن الرحيم ومالك الملك ما كان غفاراً ، فالحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين ، الذي جاء بالحق المبين الذي به آمنا وكنا مسلمين .

الغفَّار : هو الذي يعلم علم الماضي والحاضر والمستقبل ، ويعلم علم الغيب الذي يكون متداخلاً في كل زمان ومكان ، ولذا فالغفار هو الذي يعلم ما تقوله الألسن وما تكتمه العقول والقلوب وما تضمره النوايا ، ولذا فهو الغفار الذي يعلم بأسباب ومبررات المغفرة ، فهو لا يغفر هٰكذا ضربة عشواء ، بل يعلم الأسباب قبل حدوثها ، ولهٰذا لا يحاسب عليها بل يحاسب علىٰ ما تكنه الصدور . فسبحانه يعلم ما تكتمه وما تضمر عليه وما تأمله ، وهو يعلم ما يترتب علىٰ ذلك من أفعال وأقوال واستغفار وتوبة أو ضلال ، ولهٰذا فهو وحده الذي يغفر وهو يعلم مبررات غفرانه .

قال أبو نواس :

يـا ربِّ إن عَظُمَـت ذُنـونـي كَثـرةً   فلقَـد علِمـتُ بـأنَّ عَفـوكَ أعظَـمُ
إن كـان لا يـرجـوك إلا مُحسـنٌ   فمَـن الـذي يَـرجـو ويـدعُـو المُجـرمُ
مـالـي إليـك وسيلـةٌ إلاَّ الـرجـا   وجَميـلُ عفـوك ثـم إنِّـي مُسلِـمُ [1]

الغفار : أي المريد لإزالة العقوبة عن مستحقها فهو راجع إلىٰ صفة الإرادة ، واشتقاقه من الغفر بمعنىٰ الستر [2] ، والغفار : هو الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة [3] . ومن أسماء ٱلله تعالىٰ ما يكون نقلها إلىٰ العبد مجازاً وهو الأكثر ، ومنها ما يكون في

---

(1) ديوان أبي نواس ، ص 618 .
(2) كتاب المواقف ، ج 3 ، ص 317 .
(3) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 105 .

حق العبد حقيقة ، وفي حق ٱلله تعالىٰ مجازاً : كالصبور والشكور ، ولا ينبغي أن تلاحظ المشاركة في الاسم وتذهل عن هـٰذا التفاوت العظيم ، فالغفار هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة ، والغفر هو الستر :

وأول ستره علىٰ العبد أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه مغطاة بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقذارة وفي القبح والجمال ، فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره .

وستره الثاني أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سر قلبه حتىٰ لا يطلع أحد علىٰ سره ، ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وسواسه وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة وسوء الظن بالناس لمقتوه بل سعوا في تلف روحه وأهلكوه ، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته .

وستره الثالث مغفرته ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها علىٰ ملأ الخلق وقد وعد أن يبدل سيئاته حسنات ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته مهما مات علىٰ الإيمان .

وحظ الخليفة من هـٰذا الاسم أن يستر من غيره ما يجب أن يستر منه [1] ، فقد قال النبي ﷺ قَالَ : « مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ سَتَرَ ٱللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّىٰ يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ ، وَمَنْ سَتَرَ علىٰ مُؤْمِنٍ عَوْرَتَه سَتَرَ ٱلله عَزَّ وَجَلَّ عَوْرَتَه يَوْمَ القِيَامَةِ » [2] . والمغتاب والمتجسس والمكافئ علىٰ الإساءة بمعزل عن هـٰذا الوصف وإنما المتصف به من لا يفشي من خلق ٱلله تعالىٰ إلا أحسن ما فيه ، ولا ينفك مخلوق عن كمال

---

(1) المقصد الأسنىٰ، ج 1، ص 80.
(2) سنن ابن ماجه، ج 7، ص 440.

ونقص ، وعن قبح وحسن ، فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب من هـٰذا الوصف كما روي عن عيسىٰ صلوات ٱلله عليه وسلامه أنه مر مع الحواريين بكلب ميت قد غلب نتنه ، فقالوا : ما أنتن هـٰذه الجيفة ، فقال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (ما أحسن بياض أسنانه) ، تنبيهاً علىٰ أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء ما هو أحسن [1] .

أصل الغفر : الستر والتغطية ، وغفر ٱلله الذنوب : سترها وتجاوز عنها بما هو أفضل وأجود وأحسن . والمغفرة دائماً تلاحق أخطاء أو أفعال أو أقوال حدثت ثم تجاوزت بأفعال أكثر إيجابية . وكل شيء سترته فقد غفرته ، ومغفرة الذنوب ، سترها والإعفاء عما سلف ببديل مرضي عنه . ولهـٰذا فعلىٰ الخليفة أن يغفر ويعذر ويتجاوز عن الأخطاء كلما مدَّ الآخر يديه للإنقاذ من الخطايا . ولأن بطبيعة الحال العبد يخطئ ويصيب ، والخليفة إذا ما تعرض لأسباب الوقوع في الخطأ تيقَّن أنه لا خروج منها إلا بالاستغفار وهو الحياد عن السالب بأفعال موجبة ، أو بإصلاح الحال بعد غفلة أو خطأ . وهـٰذا سلوك الخليفة في مستخلفيه بأن يصلح ما يستطيع إصلاحه في مجتمعه والذي بإصلاحه يصلح المجتمع .

والاستغفار : طلب الغفران قولاً وفعلاً . وعند أهل الكلام : طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية ، والإعراض عنها . وفي التنزيل المجيد قال تعالىٰ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [2] . وفيه : « عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ ؛ قَالَ : غُفْرَانَكَ » [3] . وفي تَخْصِيصه بذلك قَوْلان :

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 81 .
(2) نوح 10 .
(3) سنن الترمذي ، ج 1 ، ص 13 .

أَحَدْهما : التَّوْبة مِن تقَصْيره في شُكْر النّعْمة التي أنعَمَ بها عليه من إطْعامِه وهَضْمِه وتَسْهيل مَخْرجه فلجأ إلىٰ الاسْتِغفار من التَّقْصير .

والثَّاني : أنه استغْفَر من تَرْكِه ذِكْرَ ٱلله تعالىٰ مدَّة لُبْثِه في الخَلاَء فإنه كان لا يَترُك ذِكر الله بلسانه أو قَلْبه إلاّ عِند قَضاء الحاجة فكأنه رأىٰ ذلك تقصيراً فتداركه بالاسْتِغفار (1) .

الغفَّار : فهو غفور بمعنىٰ أنه تام المغفرة . والغفَّار كثير المغفرة في حدود كثرة الأخطاء مع عدم الكلل أو الملل من المغفرة وهي من تفضيلات الرحمـٰن الرحيم لعباده المستخلفين في الأرض ، إنه يغفر ويغفر ثم يغفر ويغفر وهـٰكذا حتىٰ تقوم الساعة ، وذلك لأن المغفرة من صفاته الحسان جل جلاله ، ولهـٰذا فهو الغفَّار المطلق ، الذي بواسع مغفرته جعل في الأرض خليفة ليقتدي بهـٰذه الصفة الحسنة حتىٰ يبلغ ما يراد له أنْ يكون عليه وهو ما طُبعَ عليه خلقاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ . ولذا فالغفار يشير إلىٰ كثرة علىٰ سبيل التكرار أي يغفر الذنوب مرة بعد أخرىٰ حتىٰ إنه يغفر جميع الذنوب والحمد لله رب العالمين .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴾ (2) . قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ : أي : معطي الفرصة التي تُمكِّن العباد من الاستغفار ليغفر لهم عز وجل ، مع تنبيه وإيقاظ عن الغفلة ، وتخويف من العاقبة لأجل الإدراك بأنه الحق والتمسك به . وَمَا مِنْ إلـٰه يستحق العبادة إلاَّ ٱلله الواحد القهار الذي لا شريك له في الملك والأمر ، ولأنه غفار فهو القادر علىٰ فعل كل شيء ، فمن أراد الهداية فليهتدِ ويتوب إليه رباً واحداً لا شريك له . وقوله تعالىٰ : الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ : الذي يعز الحق وينصره

(1) النهاية في غريب الأثر، ج 3، ص 703.
(2) سورة ص 65 ـ 66.

ويعز الخليفة ويناصره ، في كل قول حق وفعل حق ، ويغفر له فيما يخطئ دون الشرك به واحداً أحداً لا شريك له سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصفون .

وأما رَبّ السموات والأرض وما بينهما : الربُّ هو مالك أمر الشيء ، ولذا فرب السماوات والأرض وما بينهما هو ٱلله غفار الذنوب والخطايا سبحانه جل جلاله ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ (1) . حيث أمر التسيير يكون بأيدي أكثر من واحد ، وعندما يكون الحال هٰكذا يكون الاختلاف بينهم علىٰ إدارة الأمر من السكون إلىٰ الحركة ، ولن يكون التحكم في الأمر مما يجعل الكواكب والنجوم والسماوات السبع والأراضي السبع تتصادم باختلال التوقيت الحركي الذي لم يكن الأمر فيه بيد واحد أحد ، وتكون المصائب والدمار وتكون النهاية وهٰذه قمة الفساد ، خاصة إذا حلل أحد ما يحرمه الآخر أو ينهىٰ عنه ، ولذا الحمد لله الواحد الأحد الغفار سبحانه وتعالىٰ عما يصفون .

والغفار هو من يقتضي أن يغفر ما يشاء لمن يشاء كيف شاء ، وبأسباب يجعلها الغفار مخارج للعبد المذنب من الخطيئة .

من مظاهر غفرانه :

القول في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (2) .

يقول تعالىٰ ذكره واصفاً نفسه بصفته : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ ﴾ يقول : يغشي هٰذا علىٰ هٰذا ، وهٰذا علىٰ هٰذا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي

---

(1) الأنبياء 22.

(2) الزمر 5.

ٱلَّيۡلِ ﴾ الولوج إدخال ، وتداخل لا ينفصلان إلا بأذان الحق ٱلله أكبر فجراً وصباحاً ، والله أكبر مغرباً وعشاء ، إنها الحركة المتصلة غير المنفصلة ولا المتوقفة بأي حال من الأحوال ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ﴾ التكوير علىٰ : ملاحقة بعضهما لبعض حتىٰ لا نعلم يقيناً أيهما الأسبق ، وبالتالي فإن حركة متصلة من حيث التداخل وكأنهما لا ينفصلان ، وبعد صوت الحق الذي يؤذن فيه بقدوم اللاحق علىٰ السابق تتم عملية التكوير بالملاحقة المتوازنة والمعتدلة دون أن يُحس بها وكأن الأرض ثابتة وهي ليس كذلك . وقوله : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ : جعلهما طائعتين وفي هـٰذا الأمر حالهما كحال السماء والأرض اللتين أتيتا طائعين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [1] وفي هـٰذه الطاعة تسليم دون تردد ، وخضوع وخشوع لله تعالىٰ .

يقول تعالىٰ : وسخر الشمس والقمر لعباده ، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب ، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم ﴿ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾ وكُلّ يعني الشمس والقمر يَجْرِي لأجل مُسَمَّىٰ ، إلىٰ قيام الساعة ، وذلك إلىٰ أن تكوّر الشمس ، وتنكدر النجوم . أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ : استغراب يقدمه ٱلله تعالىٰ للعباد الذين يُدركون خلق ٱلله لكل شيء ولا يدركون أنه بقادر علىٰ أن يغفر الذنوب جميعاً ، كيف تكون عقول مثل هـٰؤلاء وهم لم يتذكروا ويتفكروا في أمر الخلق وحركة الكواكب والنجوم ، وتكوير الليل علىٰ النهار وتكوير النهار علىٰ الليل في حركة متداخلة لا يفصلها إلا هو جل جلاله .

إن الناظر إلىٰ دور الخليفة في رسالته سواء أكان ظاهراً ، أو باطناً يجده مبنياً علىٰ الحرص في أن ينجح فيما كلف به من الدعوة إلىٰ العزيز الغفار فيكون

---

(1) فصلت ، 11 .

شعاره قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ [1] . أي الدعوة إلىٰ عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدوّ له شيء ، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه ، لعفوه عنه ، فلا يضرّه شيء مع عفوه عنه ، فهٰذا الذي هٰذه الصفة صفته اعبدوه ، فتكون دعوته إلىٰ اتباع طريق النجاة بعبادة ٱلله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه فيهم وتحذيرهم من النار بعدم اتباعه ودعوتهم له بالشرك كما جاء في كتابه العزيز ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [2] أي : جهل بلا دليل ﴿وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ الذي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ، وإلىٰ النظر إلىٰ هٰذا الكون وما فيه من نعم لا تحصىٰ ولا يكون العمل بخلاف طاعته سبحانه فقد قال تعالىٰ : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [3] . فقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ ﴾ يقصد الكثرة والوفرة الزائدة عن الحاجات المتنوعة والمتعددة والمتطورة ويخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب : « إن حق ٱلله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم ٱلله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولٰكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين » [4] . ولذا فمن يهجر الذنوب ، وينكب علىٰ التقوىٰ ؛ يجد له الغفار مخرجاً من كل ضائقة ، ويره من آياته فضلاً كبيراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا

---

(1) غافر 42 .

(2) غافر 41 - 42 .

(3) إبراهيم 34 .

(4) تفسير ابن كثير ، ج 4 ، ص 511 .

فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، فإنه يجد ٱلله ولا أحد غيره ليغفر ذنوبه ، حيث لا أحد قادر علىٰ ذلك إلا هو جل جلاله ، ولذا مع أن لكل معصية عقاباً إلا أن الذي يفرض العقاب للمعاصي يُقر المغفرة مكفرة عن الذنوب دون الشرك به ، ودون إصرار علىٰ معصية ، فقوله تعالىٰ : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ولم يثبتوا ويعزموا علىٰ ما فعلوا . « وقال مجاهد : أي ولم يمضوا . والإصرار هو العزم بالقلب علىٰ الأمر وترك الإقلاع عنه . وقال قتادة : « الإصرار الثبوت علىٰ المعاصي » [2] وقيل : الإصرار هو أن ينوي أن يتوب فإذا نوىٰ التوبة النصوح خرج عن الإصرار . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : (لا توبة مع إصرار) . وفي ذلك قال العلماء : « الباعث علىٰ التوبة وحل الإصرار إدامة الفكر في كتاب ٱلله العزيز الغفار ، وما ذكره ٱلله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين ، ودام علىٰ ذلك حتىٰ قوي خوفه ورجاؤه فدعا ٱلله رغباً ورهباً ، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء ، يخاف من العقاب ويرجو الثواب » [3] . هـٰكذا حال الخليفة فهو الطائع لله تعالىٰ وبطاعته له جل جلاله ينال رضاه ومغفرته ، وفي مقابل هـٰذا الحال يكون حال العصاة كما يقولون كمن حاله بين المطرقة والسندان وأكثر شدة ، ولن تفرج الشدة عنهم إلا بالرجوع إليه بالطاعة والاستغفار والتوبة من الذنوب ، حينها يجدونه غفاراً شكوراً . فالإنسان لا يتفكر في وعد ٱلله ووعيده إلا بتنبيهه ، فإذا نظر العبد بتوفيق ٱلله تعالىٰ إلىٰ نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها ، وانبعث منه الندم علىٰ ما فرط ، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة ٱلله

---

(1) آل عمران 135 .

(2) تفسير القرطبي ، ج 4 ، ص 211 .

(3) تفسير القرطبي ، ج 4 ، ص 211 .

تعالىٰ صدق عليه أنه تائب ، فإن لم يكن كذلك كان مصراً علىٰ المعصية وملازماً لأسباب الهلكة .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي هم علىٰ دراية بما فعلوا وعملوا من سيئات أو حسنات ولهٰذا فهم لم يكونوا مغيبين عن ذلك ، لهم عيون يبصرون بها ، وآذان يسمعون بها ، وألسنٌ ينطقون بها ، وعقول يفكرون بها ، فكيف إذاً لا يعلمون ؟ العلم بما حدث يعرفه من قام به ، ويعلمه من شهد عليه . وفي هٰذا الأمر هم يعلمون بما أمر ٱلله حيث كل في كتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (1) ولذلك فإن تابوا ؛ تاب ٱلله عليهم وإن كفروا ؛ فعليهم كفرهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

ومن حديث أبي هريرة رضي ٱلله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : « أذنب عبد ذنباً ، فقال : اللهُمَّ اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين ، وفي آخره : اعمل ما شئت فقد غفرت لك » (2) وفيه دليل علىٰ صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب ، لأن التوبة الأولىٰ طاعة وقد انقضت وصحت ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلىٰ توبة أخرىٰ مستأنفة ، والعود إلىٰ الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه ، لأنه أضاف إلىٰ الذنب نقض التوبة ، فالعود إلىٰ التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الغفار الكريم ، وأنه لا غافر للذنوب سواه . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ

---

(1) فصلت، 42، 43.

(2) أخرجه مسلم في صحيحة، ج13، ص321. تفسير القرطبي، ج 4، ص 212.

ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (1) . المقصود بالمتقين هم الخلفاء الذين كانوا علىٰ ما أرادهم ٱلله عليه من أقوال وأفعال وإيمان تام به واحداً أحداً لا شريك له في الملك ، والأمر . وآخر الكلام خبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه ، ومحفوظ إن شاء ٱلله تعالىٰ فيما يستقبل من شأنه . ودلت الآية والحديث علىٰ عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ، قال ﷺ : « إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلىٰ ٱلله تاب ٱلله عليه » (2) . والذنوب التي يتاب منها إما كفر أو غيره ، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه علىٰ ما سلف من كفره ، ولذا فإن حقوق الآدميين فلابد من إيصالها إلىٰ مستحقيها ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو ٱلله مأمول ، وفضله مبذول ، فكم ضمن من التبعات وبدل من السيئات بالحسنات . (ألا هو العزيز الغفار) (ألا) تنبيه أي تنبهوا فإني أنا (العزيز) الغالب (الغفار) الساتر لذنوب خلقه برحمته (3) . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (4) .

فما دام العبدُ يُلحُّ في الدُّعاء ، ويَطمعُ في الإجابة من غير قطع الرّجاء ، فهو قريبٌ من الإجابة ، القاعدة تقول : (مَنْ أَدمن قرعَ الباب ؛ يُوشك أنْ يُفتح له) .

ومن أهمِّ ما يسألُ الخليفة ربَّه مغفرةُ ذنوبه ، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة

---

(1) الحجر 45ـ 51.
(2) صحيح البخاري، ج9، ص148.
(3) تفسير القرطبي، ج 15، ص 235.
(4) الأعراف 56.

من النار ، ودخول الجنة ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ : « حولَها نُدنْدِن » (1) يعنـي : حـول سـؤال الجنـة والنجـاة مـن النـار (2) . وقـال أبـو مسلـم الخَولاني : « ما عَرَضت لي دعوةٌ فذكرتُ النار إلا صرفتُها إلىٰ الاستعاذة منها » (3) .

ومن رحمة ٱلله تعالىٰ بالخليفة أنَّ الخليفة يدعوه بحاجةٍ من الدنيا ، فيصرفها عنه ، ويعوِّضه خيراً منها ، إما أنْ يَصرِفَ عنه بذلك سوءاً ، أو أنْ يدَّخِرَها له في الآخرة ، أو يَغفِر له بها ذنباً ، ولأنه غفَّار فهو رحيم بمن آمن به واهتدىٰ إلىٰ الحق سبيلاً . وسبيل الحق يحتوي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وإصلاح ما يفسده المفسدون في الأرض ، وتقوىٰ ٱلله ، ومخافته في كل أمر .

وعن أبي سعيدٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : « ما مِنْ مُسلمٍ يَدعو بدعوةٍ ليس له فيها إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه ٱلله بها إحدىٰ ثلاثٍ : إما أنْ يُعجِّلَ له دعوته ، وإما أنْ يدَّخرها له في الآخرة ، وإما أنْ يكشِفَ عنه من السُّوءِ مثلها » ، قالوا : إذاً نُكثر ؟ قال : « ٱلله أكثرُ » (4) . وبكلِّ حالٍ ، فالإلحاحُ بالدعاء بالمغفرة مع رجاء ٱلله تعالىٰ موجبٌ للمغفرة . وهـٰذا من طبيعة الخلفاء المستغفرين الذين يعرفون ٱلله حق المعرفة فيمارسون حقوقهم بإرادة دون خوف من أحد إلا منه جل جلاله ، ويؤدون واجباتهم بكل حرية طاعة لعبادة ٱلله وحده لا شريك له ، ويحملون مسؤولياتهم ومسؤوليات من لهم علاقة بهم دون خوف إلا منه عز وجل ، ولذا فهم المستخلفون علىٰ الطاعة والشهادة بالحق ولا طاعة لهم في غير ذلك .

---

(1) أخرجه ابن ماجه 910 . و3847 . ، وابن حبان 868 . .
(2) النهاية ، ج2 ، ص137 .
(3) جامع العلوم والحكم ، ج 42 ، ص5 .
(4) مسند الإمام أحمد ، ج3 ، ص18 . وصحيح الحاكم ، ج1 ، ص493 .

أسباب المغفرة :

السبب الأول :

من أعظم أسباب المغفرة أنَّ العبد إذا أذنب ذنباً لم يرج مغفرته من غير ربِّه ، ويعلم أنه لا يغفر الذنوبَ ويأخذ بها غيرُه ، فعن النَّبيِّ ﷺ ، قال : « إذا دعا أَحدُكم فليُعظِم الرَّغبَةَ ، فإنَّ ٱلله لا يَتعاظَمهُ شيءٌ » [1] . فذنوب العباد وإنْ عظُمَت فإنَّ عفو ٱلله ومغفرته أعظم منها وأعظم ، فهي صغيرةٌ في جنب عفوِ ٱلله ومغفرته . وعن جابر أنَّ رجلاً جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يقولُ : واذنوباه ، واذنوباه ، مرَّتين أو ثلاثاً ، فقال له النَّبيُّ ﷺ :« قل : اللهُمَّ مغفرتُك أوسَعُ من ذنوبي ، ورحمتُك أرجىٰ عندي من عملي » ، فقالها ، ثم قال له : عُدْ ، فعاد ، ثم قال له : عُدْ ، فعاد ، فقال له : « قُمْ ، فقد غفر ٱلله لك » [2] . وفي هـٰذا يقول بعضهم :

يا كَبير الذَّنب عفوُ اللَّه مِن ذنبك أكبر أعظَمُ الأشياء في جَنب عفوِ ٱلله يَصْغُر [3]

السبب الثاني :

طلب السترة : يعتبر الاستغفار مفتاح خير للدخول مع أبواب السترة ، وهو إعلان رجعة من ارتكاب خطايا أو أقوال خطايا ، وبهـٰذا يعد الاستغفار عودة إلىٰ الصواب ، أي عودة عن انحراف وتخلٍّ عنه ، بعد مقارنة مع الموجب المفضل مع توفر النية المُكفِّرة عن الخطأ أو الذنب ، ولأن النية هي المفتاح المُمكِّن من القبول والرحمة فإن الاستغفار عن الكافرين لا يفيد إن لم يهتدوا للتي هي أحسن وأقوم ويوحدوه واحداً أحداً لا شريك له . قال تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ

---

(1) صحيح مسلم، ج8، ص64، 2679.

(2) المستدرك، ج1، ص543ـ544، جامع العلوم والحكم، ج 42، ص7.

(3) ديوان أبي نواس، ص620. جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 8.

بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (1) . ولهٰذا قلنا الاستغفار هو مفاتح المغفرة المحققة للسترة ، أي السترة من الذنوب والخطايا . عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغَ خَطَايَاكُم السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ » . والاستغفارُ : طلبُ المغفرة ، والمغفرة : هي وقاية شرِّ الذنوب مع سترها (2) . وقد كثر في القرآن ذكرُ الاستغفار ، فتارةً يؤمر به ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وقوله : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ (4) . وتارةً يمدحُ أهلَه ، كقوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (5) ، وقوله : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (6) ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (7) . هٰذه الآيات الكريمة هي التي يعكف الخليفة علىٰ التمسك بأفعالها وأعمالها ، ويدعوه بها غفاراً لكل ذنب ، وهي مفاتيح الإجابة للعبد الصالح المطيع لله تعالىٰ . ولأن ٱلله يغفر لمن استغفره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (8) . وكثيراً ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبة ، فيكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلب المغفرة باللسان ، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح (9) . وقد يفرد تعالىٰ ذكره الاستغفار ، ويُرتب عليه المغفرة ، فقد

(1) التوبة 80 .
(2) سنن ابن ماجه ، ج 12 ، ص 299 .
(3) البقرة 199 .
(4) هود 3 .
(5) آل عمران 17 .
(6) الذاريات 18 .
(7) آل عمران 135 .
(8) النساء 110 .
(9) جامع العلوم والحكم ، ج 42 ، ص8 .

قيل : إنَّه أريد به الاستغفارُ المقترن بالتوبة ، وقيل : إنَّ نصوص الاستغفار المفردة كلّها مطلقة تُقيَّدُ بما ذكر في الآية (135) التي سبق ورودها من سورة آل عمران . التي وعد ٱلله فيها المغفرة لمن استغفره من ذنوبه ولم يُصر علىٰ فعله ، فتُحْمَلُ النُّصوص المطلقة في الاستغفار كلّها علىٰ هـٰذا المقيد ، ومجرَّدُ قولِ القائل : اللهُمَّ اغفر لي ، طلبٌ منه للمغفرة ودعاءٌ بها ، فيكون حكمه حكمَ سائرِ الدعاء ، فإنْ شاء ٱلله أجابه وغفر لصاحبه ، لاسيما إذا خرج عن قلبٍ منكسرٍ بالذنب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات [1] . ويُروىٰ عن لُقمان عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لابنه : « يا بنيَّ عَوِّدْ لسانك : اللهُمَّ اغفر لي ، فإنَّ لله ساعاتٍ لا يرُدُّ فيها سائلاً » [2] .

وقال الحسن : « أكثِروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلىٰ موائدكم ، وفي طُرقكم ، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم أينما كُنتم ، فإنَّكم ما تدرون متىٰ تنْزل المغفرة » [3] . وعن مُغيث بن سُميٍّ ، قال :« بينما رجلٌ خبيثٌ ، فتذكر يوماً ، فقال : اللهُمَّ غُفرانَك ، اللهُمَّ غُفرانك ، اللهُمَّ غُفرانك ، ثم مات ، فغُفِر له » [4] . ولهـٰذا فهو الغفار الودود الرحمـٰن الرحيم .

وأمّا استغفارُ اللسان مع إصرار القلب علىٰ الذنب ، فهو دُعاء مجرَّد إنْ شاء ٱلله أجابه ، وإنْ شاء ردَّه . وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة . فالاستغفارُ التامُّ الموجبُ للمغفرة : هو ما قارن عدمَ الإصرار ، كما مدح ٱلله أهله ، ووعدهم المغفرة ، قال بعض العارفين : « من لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيح توبته ، فهو كاذب في استغفاره » [5] . وكان بعضُهم

(1) جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 9.
(2) نوادر الأصول لحكيم الترمذي، 2ج، ص294.
(3) جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 9.
(4) الحلية لأبي نعيم، ج6، ص68.
(5) جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 11.

يقول : « استغفارُنا هـٰذا يحتاج إلىٰ استغفارٍ كثير » ، فأفضل الاستغفار ما اقترن به تركُ الإصرار ، وإنْ قال بلسانه : أستغفر ٱلله وهو غيرُ مقلع بقلبه ، فهو داعٍ لله بالمغفرة ، كما يقول : اللهُمَّ اغفر لي ، وهو حسن وقد يُرجىٰ له الإجابة ، وأما من قال : توبةُ الكذابين ، فمرادُه أنَّه ليس بتوبة ، كما يعتقده بعضُ الناس ، وهـٰذا حقٌّ ، فإنَّ التَّوبةَ لا تكون مَعَ الإصرار[1] . وإن قال : أستغفر ٱلله ، وأتوبُ إليه ؛ فله حالتان :

إحداهما : أن يكونَ مصرّاً بقلبه علىٰ المعصية ، فهـٰذا كاذب في قوله : « وأتوب إليه » لأنه غيرُ تائبٍ ، فلا يجوزُ له أن يخبر عن نفسه بأنَّه تائبٌ وهو غير تائب .

والثانية : أنْ يكون مقلعاً عن المعصية بقلبه ، فاختلف الناس في جوازِ قوله : وأتوب إليه ، فكرهه طائفةٌ من السَّلف[2] ، وقال جمهورُ العلماء بجواز أنْ يقول التائب : أتوبُ إلىٰ ٱلله ، وأنْ يُعاهِدَ العبدُ ربَّه علىٰ أنْ لا يعود إلىٰ المعصية ، فإنَّ العزم علىٰ ذلك واجبٌ عليه ، فهو مخبر بما عزم عليه في الحال ، لهـٰذا قال : « ما أصرَّ من استغفر ، ولو عاد في اليوم سبعين مرة »[3] .

الاستغفار نعمة أنعم بها ٱلله علىٰ عباده وهو نتاج اعتراف إذا ما قيل بنية صافية كانت له الاستجابة من الغفار المطلق جل جلاله . ومن المفضل في الاستغفار التيقن بأنه هو عز وجل صاحبُ القول الفصل ، وأنْ يبدأ الخليفة بالثَّناء علىٰ ربِّه الغفار الودود ، ثم يثني بالاعتراف بذنبه جهاراً نهاراً حيث لا تخفىٰ عنه خافية في الليل ولا في النهار سواء كانت منطوقة أو منويًّا بها

(1) جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 12 .
(2) المصدر السابق، ص12 .
(3) سنن أبي داود، ج4، ص 310 .

ومكتومة في الصدور ، ثم يسأل ٱلله المغفرة فهو سميع بصير ومجيب الدعاء مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [1] .

السبب الثالث :

التوحيدُ ، وهو السببُ الأعظم ، فمن فقده ، فَقَدَ المغفرة ، ومن جاء به ، فقد أتىٰ بأعظم أسباب المغفرة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [2] ، فمن جاء مع التوحيد بقُراب الأرض وهو ملؤها أو ما يُقارب ملؤها خطايا ، لقيه وفقاً لمشيئته تعالىٰ بقُرابها مغفرة ، فإنْ شاء غَفَرَ ، وإنْ شاء أخذ العبد بذنوبه ، ثم كان عاقبته أنْ لا يُخلَّد في النار ، بل يخرج منها ، ثم يدخل الجنَّة . قال بعضُهم : الموحِّد لا يُلقىٰ في النار كما يُلقىٰ الكفار ، ولا يَلقىٰ فيها ما يَلقىٰ الكفار ، ولا يبقىٰ فيها كما يبقىٰ الكفار ، فإنْ كمُلَ توحيدُ العبد وإخلاصُه لله فيه ، وقام بشروطه كلِّها بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عندَ الموت ، أوجبَ ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها ، ومنعه من دخول النَّار بالكلية . فمن تحقَّق بكلمة التوحيد قَلبُه ، أخرجت منه كلَّ ما سوىٰ ٱلله محبةً وتعظيماً وإجلالاً ومهابةً ، وخشيةً ، ورجاءً وتوكُّلاً ، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلُّها ولو كانت مِثلَ زبد البحر ، وربما قلبتها حسناتٍ ، فإنَّ هـٰذا التوحيدَ هو الإكسيرُ الأعظمُ ، فلو وضع ذرَّة منها علىٰ جبالِ الذنوب والخطايا ، لقلبها حسناتٍ ولهـٰذا فهو وحده غفار الذنوب [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن

---

(1) البقرة، 186 .

(2) النساء 48 .

(3) مسند الإمام أحمد، ج 6، ص 425 .

قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [1] . بطبيعة الحال لو لم يكن المسيء أو مرتكب السيئات والخطايا جاهلاً بأمره وأمر ربه جل جلاله ، وأمر الدين الذي ارتضاه ٱلله للعباد ، ما كانت له التوبة ، ولهٰذا حال الجاهل بالأمر أخف من حال العالم به ويعمل السوء .

ثم يتوبون من قريب : أي أن زمن الرجوع عن الخطايا والسيئات ليس ببعيد ، فالمستغفر لم ينس ما ارتكبه من ذنب ويعلم به ويدركه جيداً ويدرك الأمر الذي يخلصه منه وهو الاستغفار فيقدم علىٰ فعله فيفعله وينال التوبة . قال تعالىٰ ﴿ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ ﴾ فعمر الدنيا قليل قريب الانقضاء فما ظنك بعمر فرد ومن تبعيضه أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمىٰ ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زماناً قريباً ففي أي جزء تاب من أجزاء هٰذا الزمان فهو تائب .
فأولـٰئك يتوب ٱلله عليهم : بقبول توبتهم ، وكان ٱلله عليماً ، بخلقه فيعلم إخلاصهم في التوبة وحكيماً في صنعه والحكيم لا يعاقب التائب . فعلىٰ الخليفة المؤمن أن يتدارك الزلة بالتوبة والاستغفار ويسارع في الرجوع الىٰ الملك الغفار ، ويدعو المستخلفين لذلك بتوجههم إلىٰ طريق الاستغفار والتوبة النصوحة ليكونوا من المقبولين في الدارين . رُوِىَ أن جبريل عليه السلام أتىٰ سيدنا محمداً عند موته فقال : « يا محمد الرب يقرئك السلام ، ويقول من تاب قبل موته بجمعة قبلت توبته » ، قال ﷺ :« الجمعة كثيرة » ، فذهب ، ثم رجع ، وقال : قال الله تعالىٰ : « من تاب قبل موته بساعة قبلت توبته » ، فقال : « الساعة كثيرة » فذهب ثم رجع ، وقال : « إن ٱلله يقرئك السلام ، ويقول : إن كان هٰذا كثيراً فلو بلغ روحه الحلق ولم يمكنه الاعتذار بلسانه واستحيا مني ، وندم بقلبه ؛ غفرت له ، ولا أبالي » ، قال ﷺ : « إن ٱلله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » [2] . قبل أن يبلغ روحه الحلقوم وعند ذلك يعاين

---

(1) النساء 17 .

(2) بغية الحارث ، ج1 ، ص80 ، سنن ابن ماجه ، ج12 ، ص304 .

ما يصير إليه من رحمة أو هوان ولا ينفع حينئذ توبة ولا إيمان ، فالتوبة مبسوطة للعبد يعاين قابض الأرواح وذلك عند غرغرته بالروح وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين فشخص من الصدر الىٰ الحلقوم فعندها المعاينة وعندها حضور الموت فيجب علىٰ الخليفة أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

والتوبة فرض علىٰ المؤمنين ولها سبعة شروط :

الشرط الأول : الاعتراف بالذنب .

الشرط الثاني : الندم بالقلب .

الشرط الثالث : ترك المعصية .

الشرط الرابع : العزم علىٰ أن لا يعود الىٰ مثلها .

الشرط الخامس : إعلان الطاعة ، والتمسك بالتوبة .

الشرط السادس : تجنب الخطايا .

الشرط السابع : الإقدام علىٰ القول الحق ، والفعل الحق .

خاصية الاسم الغفار :

قال رسول ٱلله ﷺ : « من لزم الاستغفار جعل ٱلله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب »[1] . هٰذا الحديث موجه للخليفة ، فمن يطيع رسول ٱلله فقد أطاع ٱلله تعالىٰ ، ولأن رسول ٱلله ﷺ هو مستخلف من عند ٱلله اصطفاء ، ورسول ٱلله يوصي المستخلفين من بعده بالاستغفار ، الذي يقصد به ربط العبد بخالقه ، والرجوع إليه في كل أمر وكل

---

(1) سنن أبي داود، ج4، ص314.

حين واحد أحد لا شريك له ، لذا فإن الاستغفار اعتراف ظاهر بالقول وباطن بالقلب ، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [1] . بموجب هٰذه الآية الكريمة فإن طاعة الرسل صلوات ٱلله عليهم جميعاً واجبة ، للأسباب الآتية :

السبب الأول : طاعة ٱلله .

السبب الثاني : طاعة أمر ٱلله .

السبب الثالث : طاعة رسول ٱلله .

ولأن رسول ٱلله خليفة مصطفىٰ من عند الغفار المطلق فهو يملك الاستغفار لمن يتوب ويسلم علىٰ يديه . أي من يستغفر أمام رسول ٱلله يُقبل استغفاره من عند ٱلله تعالىٰ وكأن الاستغفار أمامه ساعة استجابة والحمد لله رب العالمين .

بموجب هٰذه الآية فإن طاعة الخليفة واجبة في غير معصية ٱلله ؛ لأن من أطاع الرسول فقد أطاع ٱلله ومن عصاه فقد عصىٰ ٱلله . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] . أي فبايعهن علىٰ ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين

(1) النساء ، 64 .

(2) الممتحنة 12 .

وشعائر الإسلام أي : بايعهن إذا بايعنك بضمان الثواب علىٰ الوفاء بهـٰذه الأشياء فإن المبايعة من جهة الرسول هو الوعد والثواب ، ومن جهة الآخر التزام طاعته . وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن علىٰ المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهنَّ إليها ، واستكمالاً لموجبات الخلافة فقد أمر ٱلله خليفته بقوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ﴾ وذلك لأن المستغفر يعلم عاقبة ما لم يعلمه المستغفر من أجله . ولهـٰذا من يدرك العاقبة السلبية لا يقدم علىٰ الأفعال المؤدية إليها ، وهنا يكون الجهل بالشيء ، أو الظن به يضعف المستوىٰ اليقيني للعباد ، مما يجعل الخليفة المتيقن (المؤمن) يستغفر لأخيه الذي لم يعلم بعد العاقبة هي كما هي .

والاستغفار طلب المغفرة للذنوب ، والستر للعيوب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن تاب إليه يجد الغفور برحمته غفاراً لكل ذنب . ولذا فإن رسول ٱلله ﷺ بيده أمر الاستغفار لمن يبايعه بحق على اتباع الحق ، ولأن هـٰذه الآية جاءت علىٰ مبايعة النسوة لرسول ٱلله علىٰ أن لا يشركن ، ولا يسرقن ، ولا يزنين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لذا فهو المستغفر لهنَّ إذا وفين بما بايعن عليه .

وعليه فقد جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته ، فعلىٰ الخليفة أن يطهره عن لوث التعلق بما سوىٰ ٱلله ، فإن ٱلله تعالىٰ لطف به بوجود القلب في جوفه ، ووصف نفسه بأنه لطيف خبير مطلع علىٰ ما في الباطن ، فإذا كان هو المنظر الإلهي ؛ وجب تخليته عن الأفكار ، والأغيار ، وتحليته بأنواع المعارف ، والعلوم ، والأسرار ، وتجليته بتجلي ٱلله الملك العزيز الغفار بوجوه أسمائه وصفاته ، بل بعين ذاته .

وحظُّ الخليفة منه أن يستر من مستخلفيه ما يجب أن يستر منه ولا يفشي منه إلا أحسن ما كان فيه ويتجاوز عما يندر عنه يكافئ المسيء إليه المخطئ في حقه بالصفح عنه والإنعام عليه . نسأل ٱلله سبحانه أن يجعلنا متخلقين بأخلاق خلفائه الكريمة ومتصفين بصفاتهم العظيمة إنه هو الغفور الرحيم . ونسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها ، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار . والخليفة من شأنه أن يغرس في النفوس الخلق القويم ، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتىٰ تكون ممن رضي ٱلله عنهم ورضوا عنه .

ويرجع السبب الرئيس لحلول العقوبة لاشتمال السيئات وإحاطتها بالإنسان فيكون قد أحاط نفسه بالخطايا والآثام فقد قال تعالىٰ في حق مرتكبها : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [1] . قال صاحب الكشاف : (بلىٰ) إثبات لما بعد حرف النفي لقولهم وهو قوله تعالىٰ : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ [2] ، أي بلىٰ تمسكم أبداً بدليل قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . أما السيئة فإنها تتناول جميع المعاصي . قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ ﴾ [3] ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [4] . إنه الأمر الطبيعي أن من يعمل سوءاً يجازىٰ به ، ومن يفعل خيراً يجازىٰ به ، وذلك لأن ٱلله لم يكن ظلاماً للعبيد ، ولـٰكن بما عملت أيدي العباد يكون العقاب إن لم تكن المغفرة . وفي أمر السترة والإحاطة أمران :

أحدهما : أن المحيط يستر المحاط به والكبيرة لكونها محيطة لثواب

(1) البقرة 81 .
(2) البقرة 80 .
(3) الشورىٰ 40 .
(4) النساء 123 .

الطاعات كالساترة لتلك الطاعات ، فكانت المشابهة حاصلة من هٰذه الجهة .

والثاني : أن الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت علىٰ تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان ، بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه ، فكأنه تعالىٰ قال : بلىٰ من كسب كبيرة وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولـٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، فإن قيل : هٰذه الآية وردت في حق اليهود ، قلنا : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، هٰذا هو الوجه الذي استدلت المعتزلة به في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر [1] .

وبعد هٰذا التفصيل في مسألة صاحب الكبيرة فإن هناك سؤالاً يُطرح فيما يتعلق بصاحب الكبيرة : هل للخليفة أن ينتقم منه ؟ للإجابة علىٰ هٰذا السؤال نرجع إلىٰ تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [2] . قال الإمام الرازي : في قوله تعالىٰ : (واستغفره) في هٰذه العبارة وجوه :

أحدها : لعله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يتمنىٰ أن ينتقم ممن آذاه ، ويسأل ٱلله أن ينصره ، فلما سمع : (إِذَا جَاء نَصْرُ ٱلله) استبشر ، لـٰكن لو قرن بهٰذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين ٱلله وأمره بأن يستغفر للداخلين لـٰكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي ﷺ بهٰذا الطريق أنه تعالىٰ ندبه إلىٰ العفو وترك الانتقام ، وهٰذا هو سلوك الخليفة الحق ؛ لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول : إن قبول التوبة من اختصاص الغفار المطلق ومن اختصاص من أذن له بذلك وهو الرسول الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه ، ولهٰذا فالمغفرة مكرمة من ٱلله

(1) تفسير الرازي، ج 2، ص 176.
(2) النصر 3.

تعالىٰ علىٰ عباده الصالحين المستخلفين في الأرض ، فله الحمد والشكر علىٰ كل مغفرة ومكرمة ، وأستغفر ٱلله من كل ذنب أو خطيئة والحمد لله رب العالمين الذي له الملك وهو علىٰ كل شيء قدير .

الله سبحانه وتعالىٰ عادل في ملكه ويتوب علىٰ عباده فيقبل التوبة من التائب أينما كان ويكون ، وهـٰكذا قبل رسول ٱلله صلوات ٱلله وسلامه عليه توبة المكي والمدني دون أن يفرق بينهما ، فحين قالوا له : أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [1] . أي وكأنه يقول : قد أمرني ٱلله تعالىٰ أن أستغفر لكم ، فلكم عليَّ أن أستغفر ٱلله لكم حتىٰ يتوب عليكم ويرحمكم بواسع فضله .

وثانيها : أن قوله : (استغفره) إما أن يكون المراد واستغفر ٱلله لنفسك أو لأمتك ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع علىٰ أنه هل صدرت عنه معصية أم لا؟ فمن قال : صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهاً :

أحدها : أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة .

وثانيها : لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار .

وثالثها : لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً ، وأما من قال : ما صدرت المعصية عنه فذكر في هـٰذا الاستغفار وجوهاً :

أحدها : أن استغفار النبي جار مجرىٰ التسبيح وذلك لأنه وصف ٱلله بأنه غفار .

وثانيها : تعبده ٱلله بذلك ليقتدي به الخليفة من بعده إذ لا يأمن كل مكلف

---

(1) يوسف 92.

عن تقصير يقع منه في عبادته ، وفيه تنبيه علىٰ أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف من دونه .

وثالثها : أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل .

ورابعها : أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتىٰ بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر ٱلله لأجل ذلك .

وخامسها : الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلىٰ ٱلله إذا وصل إلىٰ مقام في العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرىٰ ذلك المقام قاصراً فيستغفر ٱلله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلىٰ ٱلله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هـٰذا الاستغفار غير متناهية .

وهناك احتمال : وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر ؛ لأنه تعالىٰ أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ﴾ (1) . فهاهنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهـٰكذا إذا قلنا : المراد هـٰهنا أن يستغفر لنفسه ولأمته (2) .

ومادمنا في هـٰذه الآية فإنه ثمة إشكالية تطرح نفسها ، وهو أن التوبة مقدمة علىٰ جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم علىٰ التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب في أن صار مذكوراً علىٰ العكس من هـٰذا الترتيب ؟ وجوابه من نواحٍ :

(1) محمد 19 .

(2) تفسير الرازي، ج 17، ص 278 .

أولها : لعله ابتدأ بالأشرف ، فالأشرف نازلاً إلىٰ الأخس فالأخس ، تنبيهاً علىٰ أن النزول من الخالق إلىٰ الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلىٰ الخالق .

وثانيها : فيه تنبيه علىٰ أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال ٱلله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه .

وثالثها : للتسبيح والحمد إشارة إلىٰ التعظيم لأمر ٱلله ، والاستغفار إشارة إلىٰ الشفقة علىٰ خلق (الله) ، والأول كالصلاة ، والثاني كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة علىٰ الزكاة ، فكذا هاهنا .

وقد يخطر ببال الإنسان هل الآية تدل علىٰ أن عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ؟ وجوابها يكون نعم ، وذلك من وجوه :

أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة إلىٰ كل الأمة حتىٰ يبقىٰ نقل القرآن متواتراً ، وحتىٰ نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار علىٰ وجه الإظهار ليحصل هـٰذا الغرض .

وثانيها : أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتىٰ يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة .

وثالثها : أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر ، فأمر ٱلله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال : واستغفره حين نعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

وفي الآية سؤالات :

أحدها : وهو أنه قال : (إِنَّهُ كَانَ تَوابًا) علىٰ الماضي وحاجتنا إلىٰ قبوله في المستقبل .

وثانيها : قال : غفاراً كما قاله : في سورة نوح .

وثالثها : أنه قال : (نَصْرُ ٱلله) وقال : (في دِينِ ٱلله) فلم يقل : بحمد ٱلله بل قال : (بِحَمْدِ رَبّكَ) .

والجواب عن الأول من وجوه :

أحدها : أن هـٰذا أبلغ كأنه يقول : ألست أثنيت عليكم بأنكم : خير أمة أخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفلق البحر ونتق الجبل ، ونزول المن والسلوىٰ عصوا ربهم . وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم ، فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم ؛ أفلا أقبلها منكم ؟ !

وثانيها : منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم علىٰ قبول النعمان فكيف في كرم الرحمـٰن ؟

وثالثها : كنت تواباً قبل أن آمركم بالاستغفار ، أفلا أقبل ؛ وقد أمرتكم بالاستغفار ؟ !

ورابعها : كأنه إشارة إلىٰ تخفيف جناياتهم ؛ أي : لستم بأول من جنىٰ وتاب بل هو حرفتي ، والجناية مصيبة للجاني [1] .

والجواب : عن السؤال الثاني من وجوه :

أحدها : لعله خص هـٰذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات

---

(1) تفسير الرازي، ج 17، ص 279 .

العبد غفار ، ويقال : تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالىٰ : كنت لي سمياً من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنىٰ مختلفاً فتب حتىٰ تصير سمياً لي آخر الأمر ، فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب في حق ٱلله ، هو أنه تعالىٰ يقبل التوبة كثيراً فنبه علىٰ أنه يجب علىٰ العبد أن يكون إتيانه كثيراً .

وثانيها : إنما قيل : تواباً لأن القائل قد يقول : أستغفر ٱلله وليس بتائب ، إن قيل : فقد يقول : أتوب ، وليس بتائب ، قلنا : فإذاً يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه ، فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه علىٰ أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمال .

والجواب : عن السؤال الثالث أنه تعالىٰ راعىٰ العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين :

أحدهما : الرب .

والثاني : التواب .

ولما كانت التربية تحصل أولاً ، والتوابية آخراً ، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً ، واسم التواب آخرا (1) .

وعليه قد يتساءل البعض :

هل يستطيع المؤمن أن يعيش دون أمل أو رجاء في المغفرة ؟ .

من المؤكد أن المؤمن بحاجة للغفران المتكرر والدائم ، وهـٰذا هو الأمل الذي يمنع اليأس والقنوط من الولوج إلىٰ قلب المؤمنين ، فالإنسان بصفة عامة كثير الزلات والأخطاء لا يخرج من خطأ إلا ويقع في آخر طبعاً مع تفاوت هـٰذه الزلات والأخطاء ، فما من إنسان ممنوع عنها أو لا يقع في إحداها ، قال

---

(1) تفسير الرازي، ج 17، ص 280 .

تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (1) ، ولٰكن التفاوت فيها يأتي بين المسلمين من التالي :

أولاً : حجم هٰذا الخطأ :

هناك الكثير من أنواع وأشكال الأخطاء والذنوب التي من الممكن أن يرتكبها الإنسان عندما يكون ضعيفاً في نفسه أو عندما يكون علىٰ خطوات الشيطان ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) فخطوات الشيطان لا تقود إلا للهلاك والضلال والخسران الكبير ، فإذا سيطر علىٰ النفس البشرية جعل منها تابعاً أعمىٰ وأصم وأبكم لا يفقه شيئاً ، بأن الشيطان يسلبه نعمة العلم والتفكير والإدراك الصحيح ، كما أن الإنسان يفقد كل مقومات الآدمية حين يُلغي علمه وتفكيره ووعيه فلا يتوانىٰ عن القيام بأي فاحشة أو ذنب أو رذيلة من شأنها أن تجعله خاسراً بعصيانه لله تعالىٰ دنياه وآخرته .

ولٰكن تأثير هٰذا الشيطان الرجيم يتفاوت بين الناس ، فهناك من يتبعونه دون أدنىٰ وعي أو تفكير أو اعتراض ، كالكافرين الذين يشاهدون بأم أعينهم آيات ٱلله في الكون وفي أنفسهم ولٰكنهم لا يلقون بالاً لها ، ولا يتلفتون بعقولهم إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

(1) النساء 28 .

(2) البقرة 168 ، 169 .

مُّهِينٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [2] ، فالخالق عز وجل وهب لنا من الإمكانيات ما يجعلنا مدركين للحق وللباطل وترك لنا التخيير ، ولـٰكن هناك من يميل إلىٰ اتباع الضلال والباطل فيكفر ويجحد بهـٰذه النعم ، وهناك نوع ثانٍ من البشر من يملكون من الإيمان القدر الذي يردعهم عند ميلهم ميلاً مؤقتاً وراء الشيطان الرجيم ، وهـٰذا النوع من المسلمين المذنبين الذين يقعون في الذنب ثم لا يلبثون أن يستفيقوا منه ، خائفين وراغبين في رضا الغفّار عنهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [3] ، قال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [4] ، أولـٰئك الفئة هم بحاجة دائمة للغفار المطلق الذي وهب وأنعم عليهم بغفران لما ارتكبوه من ذنوب رحمةً بهم ورأفة كي لا يقنطوا من هـٰذه المغفرة التي وسعت كل شيء ، كما جاء في قوله جل جلاله : ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [5] .

إذاً هـٰذه الفئة من المسلمين التي تضم عدداً كبيراً منهم تسعىٰ دائماً للبحث عن الغفار بعد ارتكابها الذنب والخطأ ، فتجده غفاراً رحيماً بها مشترطاً عليها التوبة الصادقة ، وهناك الفئة الثالثة من العباد وهم من لا يملك الشيطان أية سلطة عليهم ، فقد وصلوا إلىٰ درجة عند خالقهم بما قدموه لا يستطيع معها الشيطان أن يجعلهم تابعين خاسرين ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ

(1) الجاثية 3ـ9 .
(2) الذاريات 21 .
(3) النور 5 .
(4) الأعراف 153 .
(5) الزمر 53 .

لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (1) .

إذاً فالخطأ له أحجام منها ما يصل الكفر والجحود وهو ما لا يغفره ٱلله تعالىٰ لعباده ، لأن الغفّار اشترط في منح مغفرته لمن يستحقها عدم الإشراك به ، فلو أشرك الإنسان به مُنعت عنه مغفرته يوم الدين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (3) ، أما الفئتان الباقيتان فهما اللتان ترجوان غفران ٱلله دائماً ، وتطلبانه وتسعيانِ خلفه .

فما من مسلم ولو كان كثير الذنوب إلا في زاوية من زوايا قلبه يرقد جزء من محبة اللجوء إلىٰ ٱلله ، والحاجة لمغفرته والعفو عنه ، لذلك علىٰ المسلمين أن يبحثوا عن هٰذا الجزء الراقد فيهم كي يستطيعوا أن يفيقوا من هٰذه المفاسد والشرور التي بدأت تغزو مجتمعاتنا المسلمة من جرّاء غفلة المسلمين عن دقائق أمور ديننا ودنيانا .

ثانياً : تأثير هٰذا الخطأ في نفسه وفيمن حوله :

هناك أنواع من الأخطاء يكون مردودها السيِّئ علىٰ الشخص نفسه أكثر من

---

(1) الحجر 36ـ42.
(2) النساء 48.
(3) النساء 116، 121.

الآخرين ، وهناك من الأخطاء التي يرتكبها المرء يكون مردودها السيِّئ متكافئاً عليه وعلىٰ من حوله ، وبالتأكيد كلما زاد ضرر الخطأ وعم وكبر كلما كان الذنب أكبر كانت العقوبة أشد ، فمثلاً في موضوع الزنا فقد وضع الخالق عز وجل العقابين في حالات الزنا : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] ، وكذلك في أنواع القتل نلاحظ أن لكل نوع عقوبة مفروضة تناسب نوع القتل إذا كان متعمداً أو خطأً أو شبه العمد ، لأن كل نوع من تلك الأنواع لها تأثيرها المختلف في النفوس ممن حوله .

لذلك فالذنب الصغير الذي يعود بالضرر علىٰ صاحبه يختلف عن الذنوب الكبيرة التي تستوجب عقوبة شديدة إذا لم يتم التراجع والتوبة الصادقة عنها .

ثالثاً : العوامل المحيطة به :

الإنسان لا يعيش بمفرده في المجتمع ، فالمولىٰ عز وجل جعل الإنسان مخلوقاً اجتماعياً لا يستطيع أن يعيش وحيداً مغترباً عن باقي البشر ، وهـٰذا المجتمع يتدرج بدايةً من الأهل إلىٰ الأقارب ثم إلىٰ الأصحاب والجيران وأخيراً إلىٰ من يعملون معه ، وبما أن الإنسان مخلوق ضعيف فإنه سريع التأثر بمن حوله ، وهـٰذا التأثير إما أن يكون سلبيّاً أو إيجابيّاً حسب المؤّثرين فيه ، فأحياناً نجد أن أقرب الناس للمرء وهما الوالدان يكون لهما تأثير سلبي عليه من خلال الجهل في التعامل معه ، أو من خلال نقص الوازع الديني لديهما أو لدىٰ أحدهما ، أو لأي سبب آخر ، مما يؤدي بهـٰذا الشخص إلىٰ الهروب لزاوية مظلمة في الحياة وهي معاقبة الوالدين علىٰ سوء التعامل فيغرق في الضلال والفساد ، وأحياناً يكون لعامل سوء اختيار الأصدقاء فيؤثر تأثيراً سلبياً علىٰ

---

(1) النور 2، 3.

المرء ، إذ أنه يسير خلفهم دون أن يملك القدرة علىٰ تمييز الحسن من الخبيث في أفعالهم ، أو أنه يقلّد من حوله في الشر والضياع .

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ ، وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً » [1] ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة فقد حذّرنا من مخالطة أصدقاء السوء لما في ذلك من نتيجة سيئة تحيق بنا ، وبمن حولنا .

كذلك معاملة المجتمع ككل معه وطريقة التفاهم المتبعة في المجتمع نفسه والأسلوب الذي ينشأ بين أفراده كلها عوامل من شأنها أن تجعل من الشخص إنساناً مسلماً راقياً بفكره وتعامله أو أن تجعله منحرفاً لا يسعىٰ إلا للدمار والفساد ، ولذلك فقد جعل العادل المطلق الأوضاع التي تم فيها ارتكاب الذنب أساساً لتحديد العقوبة ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [2] ، فقد فرّق الغفّار المطلق العلم بالذنب قبل ارتكابه بالجهل به وبعواقبه ، وهٰذا الجهل يأتي أحياناً من تقصير الأهل في إفهام الأبناء ببعض الأمور ، أو أحياناً يكون من الجهل بأمور ديننا بالرغم من الفرص المتاحة حالياً التي تجعل من المسلم واعياً عالماً بما ينفعه وما يضره .

لذلك ليس العالِم بالذنب كالجاهل به ، إذ أن العلم بالذنب قبل ارتكابه له عقوبة شديدة إذا لم يتب ويصدق التوبة ، ولكنّ الجاهل به فقد يغفر ٱلله له لعدم علمه وفهمه لعواقب ذلك .

---

(1) صحيح مسلم، ج 13، ص73.

(2) النساء 17، 18.

رابعاً : الزمن الذي يستغرقه للعودة عن الذنب :

بما أن المسلمين قد اختلفوا في قبولهم لارتكاب الذنوب والغرق فيها فقد كان لزاماً أن يتفاوتوا أيضاً في زمن الصحوة التي يحتاجها كل مسلم لأن يفيق من هٰذه الذنوب ، ولهٰذه الصحوة التي تستحق غفران ٱلله تعالىٰ له عدة عوامل تؤثر في تأخيرها أو تقديمها ، مثل الطريقة التي يتبعها الأهل في علاج الخطأ أو الذنب الذي قام به الفرد ، وكذلك نظرة المجتمع له فيما بعد ، ووجود الأشخاص المتعلمين المثقفين ممن حوله لكي يأخذوا بيده ويساعدوه في تصويب ما في عقله وقلبه من أفكار هدامة ومدمرة ، وهناك أيضاً الضمير الذي أوجده الخالق فينا كي يكون القاضي العادل داخل كل نفس بشرية ، فهناك من يستمع إليه بأسرع مما قد يستمع إليه شخصٌ آخر ، وهٰذا الضمير من شأنه أن يصحّح خطانا إذا استمعنا إليه .

خامساً : مدىٰ صدق التوبة :

قد يتوب الإنسان بعد ارتكابه ذنباً معيناً ، ثم نجد أنه قد عاد إليه بشكلٍ أكبر ، وذلك بعد أن يكون قد عزم علىٰ عدم العودة إليه ، ولـٰكنه يضعف أحياناً أخرىٰ فيرجع له ، لذلك فتكرر الذنب والخطأ تطلب المغفرة المتكررة والمستمرة ، ولو أن الغفّار عز وجل اشترط لنزول مغفرته أن يكون ذنباً واحداً لما كان الأمل في النجاة من الجحيم يراود الكثير من المسلمين العاصين الآن ، لأن الذنب الواحد لا يمكن أن يرتكبه عامة المسلمين ، أما الذنوب المتكررة فهي موجودة بين المسلمين يشكل كبير جداً ، لذلك فالله غفار كثير المغفرة ، ولـٰكن لكي نستحق مغفرة الغفّار سبحانه وتعالىٰ لابد لنا من أن نصدقه أولاً في توبتنا ، فلا نستسهل الرجوع عنها والعودة للخطأ مع علمنا به ، لأنك حين تتوب إلىٰ ٱلله تعالىٰ عن ذنبٍ كنت قد ارتكبته فكأنك تقطع عهداً قد عقدته مع خالقك ، فكيف تستسهل قطع العهد ؟

لذلك فقد جعل الخالق عز وجل من شروط قبول التوبة واستحقاق مغفرته صدق التوبة ، فالصدق أساس كل تعامل ناجح ، ولا يمكن أن تولد الثقة واليقين إلا بوجود الصدق في كل فعل وقول ، لذلك كان نصيب الصادقين من رحمة ٱلله ومحبته وكرمه كبيراً جداً ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) .

إذاً صدق التوبة هو الطريق للوصول إلىٰ استحقاق المذنب لمغفرة ٱلله بل وتبديل سيئاته حسنات ، لأن ٱلله هو الغفار الذي يحب أن يغفر لعباده ويرحمهم لا أن يعذبهم ويأخذهم بذنوبهم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (3) .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يحفظ نفسه من الزلات والذنوب بما أهداه الخالق من عقل يميّز به الحق من الضلال ، فنعمة التفكير والتحليل من شأنها أن تصل بالخليفة إلىٰ أعلىٰ مراتب العلم الصحيح الذي يجعله من الفائزين عند ٱلله تعالىٰ ، ويجعله ينأىٰ عن الذنوب والخطايا .

---

(1) المائدة 119، 120 .

(2) الأحزاب24.

(3) النساء 144 ـ 147 .

وبهٰذا العقل يصل الخليفة إلىٰ أن يعيش حياته بالشكل الصحيح البعيد عن الأخطاء والذنوب وذلك باتباع الآتي :

اتباع القرآن الكريم :

فالقرآن الكريم هو هداية للبشر أجمعين فهو شامل لكل أساليب الترغيب بالهداية والنجاح في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (2) ، فإتباع القرآن هو طريق الحفظ للنفس البشرية من وسوسات الشيطان الرجيم الذي يقود إلىٰ الهلاك ، إن في المحافظة علىٰ اتباع القرآن الكريم وما جاء فيه لخيراً عظيماً ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القرآن كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا ؛ أَمْسَكَهَا ، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ؛ ذَهَبَتْ » (3) ، فالتمسك بالقرآن الكريم يحيط الإنسان بالحفظ والحماية من كل رذيلة أو مفسدة ، ويجعله قريباً من الخالق عز وجل مستحقاً لحبه ، ووده ، ورحمته ، ومغفرته .

اتباع سنة رسول ٱلله ﷺ :

من اتبع سنة رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام لن يضيع أبداً ، لأن من شأن ذلك أن يجعل من المسلم ذا خلقٍ نبيل لاقتدائه بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، الذي رباه ٱلله وعلّمه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ (4) ،

---

(1) النمل 1، 2.
(2) لقمان 1ـ5.
(3) موطأ مالك، ج 2، ص 120.
(4) القلم 4.

فهٰذه الأخلاق إذا حاول السير عليها أي مسلم فإنه بالتأكيد سوف يصل إلىٰ أقصر الطرق لحب ٱلله ، هٰذا الحب الذي يحفظ المرء من الذنوب والخطايا ، لأن من سكن حب ٱلله في قلبه نجا من عذاب الحريق .

الاقتداء بصحابة رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام يقوّم من سلوك المؤمن لما يجده في سيرتهم من نقاوة وطهارة وحسن تدبير ، ولما في موقفهم من معانٍ سامية تحمل المؤمن للتحلي بأروع الصفات ، وكيف لا يكونون كذلك وقد عايشوا رسول الله ﷺ لحظة بلحظة وشربوا من نبع نصائحه ومواعظه ، فتخلّقوا بخلقه الكريم ، لذلك فمن اتبع سيرة الصحابة رضوان ٱلله عليهم وسار علىٰ نهجهم ما خسر أبداً ، فمن شأن ذلك أن يربي النفس علىٰ الصبر علىٰ الشهوات التي تؤدي إلىٰ المفاسد والمهالك ، وتقدّم حب ٱلله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام عن أي حب آخر .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يشرب من هٰذه الينابيع ليقي نفسه ارتكاب الذنوب والخطايا ، وليكون سداً في وجه الرذائل ، فكيف سيؤدي الأمانة وهو نفسه لا يملك القوة للسيطرة علىٰ نفسه ، فكيف سيصلح من كان به الخلل !

وتتجلىٰ في مغفرة ٱلله تعالىٰ رحمته المطلقة التي لا تخفىٰ علىٰ أي إنسان مسلم أو كافر ، إذ أن ٱلله تعالىٰ يوضّح لنا مدىٰ وده وحبه بالكشف عن رحمته بنا حينما نذنب أو نخطئ ، فالمحب يغفر دائماً لمحبوبه ويعطي له الفرصة لكي يعود عن ذلك ، وبالتالي لابد للمحبوب أن يكون حريصاً لعدم الوقوع ثانيةً في الأخطاء والزلات خجلاً واحتراماً لذلك المحب ، فكيف إذا كان هٰذا المحب هو خالقك جل جلاله ، الذي هو بغنىً عنك ، وليست له حاجة فيك ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [1] ، فهٰذا الحب والود

---

(1) فاطر 15 ـ 17 .

ليس لمصلحة أو لمنفعة له عز وجل ، وبالرغم من ذلك فإنه إلىٰ جانب هـٰذا الحب فإنه سبحانه وتعالىٰ قد خص البشر برحمة منه ، ونلاحظها متجلية في التالي :

تقديم النصيحة والموعظة :

إن الخالق عز وجل منذ بدء الخليقة وضّح طريق الخير من الشر ، وجعل الخيار للإنسان أي الطريقين يريد أن يسلك ، وقد جعل من الكتب السماوية طريقاً وسبيلاً واضحاً يكشف ما قد يحتار المرء فيه ، فكانت المواعظ والنصائح بعدم اتباع طريق الشيطان الذي توعد بتضليل الإنسان بسبب حقده عليه وكراهيته له ، وبالرغم من ذلك نجد أن هـٰذا الإنسان أحياناً يسعىٰ خلفه ويأتمر بأمره ، وقد بعث ٱلله تعالىٰ الرسل والمنذرين لكي يبلّغوا الناس رسالة ربهم ، ناصحين لهم ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ (1) ، وكثير من القصص التي تدل علىٰ اعتماد الرسل والأنبياء طريق النصح والإرشاد لهداية البشر ، وهـٰذا بحد ذاته يمثّل رحمة ٱلله بعباده ورأفته بهم ، وحرصه عز وجل علىٰ إبعادهم عن طريق الضلال والخسران المبين .

---

(1) الأعراف 74ـ79 .

وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (1) ، ففي هـٰذه الآية تصريح برغبة الخالق عز وجل في إرشاد الخلق للنور والحق ، فقد بيّن للناس أنه يريد الخير بهم ولـٰكن بعضهم يميل عن الحق بالرغم من معرفتهم به باتباعهم أولياء الشيطان الذين يدعون الخلق للفساد واللهث وراء الشهوات التي لا تدفعنا إلا للهلاك والخسارة في الدنيا والآخرة .

تبديل السيئات حسنات :

من رحمة الغفّار بعباده التائبين منهم ، أنه لا يكتفي بغفران الذنب بل يبدّل أحياناً سيئاتهم حسنات ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (2) ، فيقلب الغفّار سيئاتهم إلىٰ حسنات ، أية رحمةٍ أكبر من هـٰذه الرحمة ، وأي كرم أشد من هـٰذا الكرم !

وعليه فلا يأس من رحمة ٱلله للتائب الصادق التوبة ، الذي يسعىٰ لنيل رضاه بعد أن استحق عقابه ، ولكنّ الغفّار يعطي للإنسان الذي يمد يده إليه راجياً طامعاً أكثر مما يتوقع ، لأنه الرحيم الذي تتسع رحمته كل شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ (3) .

عدم تسجيل الذنب إلا بعد وقوعه :

من رحمة ٱلله بعباده أن لا يتم تسجيل عمل الإنسان السيئ إلا بعد وقوعه فعلاً ، في حين أننا نجد أن مجرد التفكير أو نية عمل فعل خيّر يقع أجره أي

---

(1) النساء 27 .

(2) الفرقان 70، 71 .

(3) الإنسان 31 .

يسجله الخالق علىٰ الإنسان وكأنه قام به ، فمثلاً من كان له نية الحج صادقة ومات وهو لم يدركها كتبت له حجاً ، من غير أن يقوم بها فعلاً لأن ٱلله يريد الرحمة بعباده المؤمنين ، أما بالنسبة للعمل السيئ أو الذنب فإنه لا يُسجَّل في كتاب الإنسان إلا بعد وقوعه فعلاً بالرغم من علم العليم المسبق بذلك ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « يَقُولُ الله إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ ؛ حَتَّىٰ يَعْمَلَهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أجلي ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ »[(1)] ، فلا يُكتَب الذنب علىٰ صاحبه إذا نوىٰ وحسب ، بل يجب أن ينفذ ما نوىٰ لكي يكتبه عليه ٱلله تعالىٰ ، ولو كان الوضع مختلفاً ، أي أن تسجل الملائكة نوايانا الشريرة والفاسدة لما بقيَ لأكثر المسلمين أملاً في رحمة ٱلله ، ولـٰكن الغفّار أخّر تسجيل ما نوىٰ المسلم من شر .

عدم مضاعفة الذنب :

إن الذنب يكتب كما هو فلا يُضَاعف لعشرات أمثاله ، كما في الحسنات ، قال تعالىٰ : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(2)] ، وهـٰذا بابٌ واسع لمعرفة مدىٰ رحمة الغفّار بعباده ، فلو تخيلنا مثلاً أن كل ذنب يقوم به المسلم يضاعفه له الخالق جل جلاله فكيف سيكون ميزان أعمالنا ؟

ولـٰكن من رحمته وحبه لمغفرة ذنوبنا وتشجيعه للتوبة واللجوء إليه فقد جعل من الذنب عملاً لا يتضاعف العقاب عليه ، وجعل بالمقابل الحسنة بعشرة

---

(1) صحيح البخاري ، ج23 ، ص20 .

(2) غافر 40 .

أمثالها ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) ، كم تتجلىٰ في هـٰذه الآية رحمته المطلقة بعباده ، وحبه في ترغيب المذنبين في التوبة والعودة للحق ، إذ أن مغفرته سبحانه وتعالىٰ تسبق عقابه ورحمته تسبق عذابه وهـٰذا كله لأنه الغفّار المطلق الذي لا يترك باباً مقفلاً في وجه من يطلبه .

عدم أخذ الإنسان بجريرة غيره :

الحمد لله رب العالمين الذي هو ربنا وخالقنا ، فهو الرحيم بنا بمغفرته المطلقة ، فالخالق عز وجل من حبه للمغفرة ومن باب عدله في مغفرته لم يأخذ أي عبدٍ من عباده بجريرة والده مثلاً أو أمه أو أي إنسان يربطه به صلة ، فمثلاً إذا جاء الطفل إلىٰ هـٰذه الدنيا عن طريق الزنا بين اثنين ، فلا يحمل هـٰذا الطفل جريرة أحد والديه ، بارتكابهما هـٰذه الكبيرة التي نهانا عنها المولىٰ عز وجل ، بل أن ٱلله تعالىٰ جعل لكل إنسان حسابه الذي لا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ (2) ، وكذلك قوله جل جلاله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (3) ، وهنا يضع رب العالمين الميزان العادل للحساب ، فلا يتعدىٰ حدود العقاب العادل لكل إنسان يوم يقوم الحساب .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون مدركاً لمدىٰ هـٰذه الرحمة ، من المسارعين

---

(1) الأنعام 160.
(2) الأنبياء 47.
(3) الزلزلة 1ـ8.

لطلب مغفرته ورضاه ، ومن الدائمين علىٰ الاقتراب منه عز وجل ، ومن الحريصين علىٰ الابتعاد عن خطوات الشيطان التي ترسل الإنسان إلىٰ دار العذاب ، فالخليفة عليه من العمل الكثير في الأرض ، فالتبشير بكل تلك الأبواب المفتوحة لقبول المغفرة أول أعمال الخليفة في الأرض ، كي لا يبقىٰ يائسٌ ، أو قانطٌ من هـٰذه المغفرة ، وكذلك عليه ترغيب من حوله من المسلمين في اللجوء للتوبة الصادقة ، وعدم السماح للركض وراء الرغبات والشهوات ، بمثل هـٰذه النفوس المليئة بالأمل والحب والرغبة في المحاولة سوف نصل إلىٰ نتيجة مذهلة في المجتمعات المسلمة من شجاعة نفسية وعقول متفتحة وتوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ .

وليكن خليفة ٱلله متصفاً بصفات ٱلله تعالىٰ التي من ضمنها المغفرة ، فلابد أن يكون في قلبه من الرحمة ما يجعله غافراً للإساءة ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [1] ، طالباً بهـٰذه المغفرة أجراً كبيراً من عند المولىٰ عز وجل كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [2] ، فهـٰذه الآية توضّح أهمية المغفرة التي تتطلب الصبر والتريث ، فلا يمكن أن تغفر وأنت دائم التعجل والسرعة ، فالإنسان العجول دائم الزلل والخطأ فتعجله يجعله منتقماً ومحباً للرد والعقاب السريع ، أما من شروط أن تغفر لمن أساء إليك فهو الصبر الذي يجعلك تغفر وتسامح كما أرادك

(1) الشورىٰ 36 ـ 41.
(2) الشورىٰ 43.

الخالق أن تكون ، وبالطبع فإن ذلك الأمر ليس بمتناول جميع البشر ، لأنه يتطلب درجة عالية من الورع وتقوىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ وحب الاتصاف بصفاته .

وصفة الغفران هي نعمة أودعها الخالق جل جلاله في قلوب من شاء من عباده الذين رضي عنهم وأحبهم فغفر لهم وجعلهم من الذين يغفرون السيئة ويحفظون الحسنة ويدعون للغفران بين المسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [1] .

ولأن الغفار هو القادر لذا فهو المستطيع أن يجازي أو يعاقب ، ولهـٰذا فالمولىٰ غفور لمن يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [3] ، فمشيئة المولىٰ عز وجل في المغفرة لمن أراد تنبع من قدرته علىٰ فعل كل شيء .

لذلك يجب علىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يكون قادراً علىٰ الغفران ، أي أن يكون غفرانه عن قوة لا عن ضعف واستكانة ، وإلا لتطاول عليه الجميع وظل عاجزاً عن فعل شيء ، فالمغفرة تتطلب قدرة وقوة متلازمتين كي تكون في موضعها الصحيح ، فلا تأتي المغفرة إلا من قادر عليها لا مرغم عليها .

ولأن الغفّار هو العليم لذا فالمغفرة تتطلب علماً مسبقاً بمن استحق مغفرته

(1) الجاثية 14، 15 .

(2) النساء 48 .

(3) آل عمران 129 .

وعفوه ، فالخالق عز وجل علمه مطلق لا حدود له وبهـٰذا العلم اللامحدود يدرك أن في مغفرته خيراً .

فمن البشر من هو مصر علىٰ الظلم وارتكاب الذنب ، ومنهم من يتركه ثم يرجع إليه ، ومنهم من يرتكبه دون علم به ، وقد وافق علم ٱلله بالنفوس البشرية استحقاق مغفرته لمن علم به خيراً .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون عالماً بمن يستحق غفرانه وسماحه والمقدار الذي يستحقه والزمن لذلك ، لأن الجهل بذلك يجعل منه إنساناً ضعيفاً في أعين الناس من حوله ، فلا يقيمون له وزناً ، لذلك فالعلم ضروري .

فليتذكر خليفة ٱلله في الأرض قوله تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (1) ، لكي يكون ذاكراً لهـٰذه المغفرة التي لولاها لما بقي علىٰ الأرض من أمل في قلب أي إنسان في النجاة من عذابه الشديد جل جلاله ، فيحفظ بذلك نفسه من النزوات والميل وراء الأهواء ، بذلك ينأىٰ عن الذنوب وتجد توبته طريقها إلىٰ القبول عند المولىٰ عز وجل .

وإن شاء ٱلله نكون ممن امتدحهم المولىٰ عز وجل في كتابه العزيز ، في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ (2) ، وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ

---

(1) غافر 3 .
(2) آل عمران 15 ـ 17 .

كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (1) ، فهٰؤلاء هم من رضي عنهم ٱلله تعالىٰ وقرّبهم منه وجعلهم من عبيده الصالحين المستخلفين والوارثين .

وقد تساوىٰ الأنبياء والرسل مع العباد الآخرين في طلب مغفرة المولىٰ عز وجل ، وهٰذا دليل علىٰ حاجة البشر وضعفهم لله الغفار الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (2) ، فهل نتكبر ونترفع عما قام به أفضل العباد ، وهو الاستغفار والتوبة لله تعالىٰ ؟

ولابد لخليفة ٱلله أن يدقق في معنىٰ الغفار الذي بمشيئته يغفر ليعطي للإنسان المؤمن حباً وأملاً في الاستغفار والتوبة ، لا أن يتهاون في ردع نفسه عن ارتكاب الذنوب بحجة أن ٱلله تعالىٰ هو الغفار الذي سيغفر له كل مرة يعود فيها عن ذنبه ، بل إن ٱلله تعالىٰ شديد العقاب لمن يتعمد فعل الذنب والإصرار عليه مع علمه به ، لذلك فالخليفة هو من كان لهٰذا الاسم التأثير الإيجابي في نفسه ، فلا يهمل عقاب ٱلله ولا ينسىٰ أن الخالق عالم بما في نفسه وعالم بما يستحقه كل إنسان من ثواب ومن عقاب .

اللهمَّ يا الغفَّار اغفر ذنوبنا واستر بالأعمال الصالحات عيوبنا ، أنت مولانا فنعم المولىٰ ونعم النصير ! اللهُمَّ إنك الغفار الكريم فأكرمنا بواسع مغفرتك ! اللهُمَّ إنك تعلم بحالنا وبما يلم بنا وبما تهواه أنفسنا فاغفر لنا في ما نظرنا إن كان لا يرضيك ولِما سمعنا إن كان لا يرضيك وما عملنا إن كان لا يرضيك

(1) الذاريات 15 ـ 19 .
(2) ص 24، 25 .

فنحن ما قصدنا وإن قصدنا بأسباب غفلة أو ضعف أنت تعلمه فأنت الغفَّار الذي نتضرع إليه أن يغفر لنا فاغفر وارحم واجعلنا من التائبين ! اللهُمَّ يا الغفار إن قصَّرنا في طاعة الوالدين في غير معصيتك ؛ فاغفر ، وإن قصرنا في رعاية الأبناء ، فاغفر ، وإن ارتكبنا الخطايا ، فاغفر ، وها نحن نعترف : أن الكمال لك وحدك ، فاغفر .

✍ ✍ ✍

القَهَّارُ جلَّ جلالهُ

فــي لســان العــرب القهــر : « الغلبــة ، والقهَّــار مــن صفــات ٱلله الحسنىٰ » (1) .

قال ابن الأثير : « القهَّار هو الغالب لجميع الخلق . وقهره ، يقهره قهراً : غلبه » (2) .

وقال الإمام الغزالي : « القهَّار هو الذي يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال » (3) .

يقول الشيخ الشعراوي : « القهر في اللغة هو السيطرة والغلبة ، وهو اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو يعني لا شيء يخرج عن سيطرته وغلبته ، وكل شيء خاضع لأمره في حركته وسكونه » (4) .

قال الإمام الصديقي : القهَّار : « هو الذي لا موجود إلا وهو مقهور تحت قدرته ، مسخر لقضائه ، عاجز في قبضته ، وقيل هو الذي أذل الجبابرة وقصم ظهورهم بالهلاك ، وحصل مراده من خلقه طوعاً أو كرهاً ،

---

(1) لسان العرب المحيط ، ج 3 ، ص 180 .

(2) المصدر السابق ، ص 180 .

(3) الإمام الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في أسماء الله الحسنىٰ . بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ص 57 .

(4) الشعراوي ، أسماء الله الحسنىٰ . ص 214 .

والقاهر : هو الغالب أمره وقضاؤه نافذ حكمه في مخلوقاته علىٰ وفق إرادته »[1] .

القهر صفة حسنة بها يُقهر الأعداء بالحق ، والقهر قوة بها يتم ترويض الطغاة والمتكبرين كما يتم ترويض الشاة لِما تنفر ؛ ولذا فالقهر صفة مغالبة لإحقاق الحق .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] . هـٰذه الآية تعني : أنه خلقكم وخلق لكم ما تعملون ؛ ولا تعني أنه لم يترك لكم شيئاً لتفكِّروا فيه وتصنعوه بأيديكم . وترك لكم حرية الصنعة ، ومع ذلك فقد صنعتم أصناماً آلهة تعبدونها من دونه تعالىٰ ، فكيف يكون حالكم وأنتم لا تعملون مما خلق ٱلله لكم ما يُمكنكم من معرفة علمه الذي لم تؤتوا منه إلا قليلاً ولتؤمنوا ؟ .

فالله خلقكم وما تعملون : جاءت لتُذكِّر من يَعمل ويصنع بيديه فَضْلَ ٱلله عليه ليحمده ويشكره لا لأن يكفر به ويشرك به أحداً .

هناك من يظن بأن ٱلله خلقكم وما تعملون ، تُبرئ المسؤولية عن بني آدم مما يقترفون من ذنوب وجرائم حتىٰ ظن البعض بأن من يقتل بريئاً عمداً أو خطأ فإنما قتله ٱلله ؛ أستغفر ٱلله تعالىٰ ، ٱلله لا يقتل . ٱلله يميت ، والموت حق . أما القتل فهو فعل بشري ترتقي الإنسانية عنه فيحرمه ٱلله .

قال الشيخ الشعراوي : « إنَّ فكرة المصير المحتوم مسبقاً إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار فكرة خاطئة ، وما دُمت علىٰ قيد الحياة فتؤمن أن مصيرك لم يتحدد بعد ، ولو كان العلم الإلهي المسبق بالأحداث بهـٰذا المعنىٰ الخاطئ الذي

---

(1) محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنىٰ. الإسكندرية، المدائن للنشر والتوزيع، 1996، ص 36.

(2) الصافات، 96.

يفهمه هـٰذا الشخص لما قال المولىٰ عز وجل في سورة البقرة [1] : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

فلو كان المصير كما يظن البعض بأنه محتوم فلماذا الاستجابة إذاً؟ . ولماذا يقول ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2] .

وعلينا أن نتذكر قوله تعالىٰ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [3] وقوله عز وجل ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [4] .

لقد خلق ٱلله الإنسان قوة بقوته حتىٰ أنه فضَّله وميَّزه علىٰ ما خلق ؛ ومع ذلك فهو ضعيف إذا قارن قوته بقوة ٱلله الواحد القهار . ولذا جعل له من العقل قوة للتفكُّر والتذكُّر ، ولم يجعله له ليخون الأمانة ويشرك به ولا يوحده واحداً أحداً . ولقد خلق له البصر والسمع والفؤاد قوىً للمشاهدة والملاحظة ولإدراك الحق ولم يخلقها له ليُفسد بها في الأرض ويسفك الدماء فيها بغير حق .

القهَّار الحق هو الذي يحيي ويميت ، والقهار بالإضافة هو المقهور بعدم الاستطاعة لتنفيذ هـٰذا الأمر ، ولـٰكنه يستطيع أن يقتل ، ومع ذلك حُرِّم عليه قتل النفس إلا بالحق . وأمَّا من غيرها فيستطيع أن يقتل الصيد ويذبح الغنم وينحر الإبل في حدود القتل الحلال .

القهَّار الحق هو الذي خلق للإنسان ما يعمل فخلق له الطبيعة ، والقهَّار

(1) الشعراوي، أسماء الله الحسنىٰ. القاهرة، دار أخبار اليوم، ص 218. .
(2) غافر، 60.
(3) الأنبياء، 86.
(4) الأنبياء، 90.

بالإضافة هو الخليفة الذي يُصلح فيها ويعمل لِما يُشبع حاجاته كما يشاء في مرضاة ٱلله تعالىٰ .

القهر : مغالبة الظلم بالحق ودمغه حتىٰ يزهق ، والقهَّار قاهر الظلم ودامغه بالحق . ولذا فإن القهر مغالبة الباطل بغير باطل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (1) .

القهَّار : الفعَّال لِما يُريد ، والغلاَّب الذي لا غالب له ، مِلؤه الكمال ، كاشف الأمر هو كما هو حُجَّة دامغة ، مع التحكم التام الذي لا يُمكِّن من التبدل والتغيير والجحود .

وبما أن القهر مغالبة الباطل بالحق ، إذاً القهَّار هو الغلاَّب بالحق .

وبما أنه الغلاَّب بالحق . إذاً فلماذا الخوف ؟ !

للإجابة عن هـٰذا السؤال نقول : للخوف وجهتا نظر :

الأولىٰ ـ الخوف من الحق : بالنسبة لأهل الباطل لا يخافون إلا من إحقاق الحق ، الذي به يُكشف أمرهم وما يخفون من ورائه ، فالزاني لا يأمل أن يشهد عليه أحد إذا انتشر أمره بين الناس ، والسارق كذلك ، والظالم أعظم . ولذا فإن الخوف من القهر لَكشفه الحقيقة بلا مجاملة ، التي علىٰ ضوئها يُبرأ من يُبرأ ويُدان من يُدان . وأصحاب الباطل هم الذين يُقهرون بإظهار الحقيقة ، ومع أنهم يعرفون أنها الحق ، إلا أنهم لا يأملون كشفها أمام أعين الناس وخاصة المناصرين لها ، ولذا فهم يُقهرون .

والثانية ـ الخوف من الباطل : أصحاب الحق دائماً يلحُّون مع سعيهم الجاد وآمالهم علىٰ كشف الحقيقة وإظهارها أمام أعين الناس حتىٰ ينجلي الظلم عنهم .

---

(1) الضحىٰ ، 9 ـ 11 .

المؤمنون الذين يُظهرون إيمانهم بالحق لا يأملون نصر المشركين عليهم ، وإن انتصروا عليهم لا قدَّر ٱلله فأنفسهم تُقهر بنصر المشركين عليهم ، ومع أنهم يؤمنون بأنهم الغالبون في النهاية إلا أنهم يتألمون مع الحسرة الشديدة علىٰ قهرهم المؤقت . وهٰكذا حال أنفس الضالين والمشركين فهي تحس بالقهر كلما انتصر عليها مهتدٍ لله تعالىٰ ومؤمنٌ به .

فالقهر دائماً مترتب علىٰ ما يناقض الأمر . فأن تُصدِرَ أمراً ، ولا يُنفذ ، وأنت لا ترغب ألا ينفذ ، قد تثور وتغضب وقد تقدِم علىٰ فعل لتعاقب به من عصاك أمراً ، وقد تكتشف أنك لن تستطيع أن تعمل له شيئاً ، بعد أن استمد القوة التي جعلتك لن تستطيع أن تفعل له شيئاً ، وإلىٰ جانب ما كنت تعتقد أن لا يجاهرك أحد بعدم الطاعة سواء كنت علىٰ حق أو علىٰ باطلٍ فبطبيعة الحال في هٰذه الحالة ستحس بالقهر من الذي كنت تعتقد : أنه لا يساويك في شيء ، وأصبح من المتطاولين عليك ، ويرفض أن يسمعك ، وينفذ أمرك .

وللقهر خاصيتان :

الخاصية الأولىٰ : القهر المُطلق ، للذي يمتلك القوة المطلقة ، مما يجعل الكل يأتي مُسلِماً له طوعاً وكرهاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [1] . نزلت هٰذه الآية ردّاً علىٰ أقوال المتخاصمين في الأمر ، وقال الكلبي : « إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارىٰ إلىٰ النبي ﷺ فقالوا : أينا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبي ﷺ : (كلا الفريقين بريء من دينه) فقالوا : ما نرضىٰ بقضائك ولا نأخذ بدينك . فنزلت هٰذه الآية الكريمة ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ » [2] .

---

(1) آل عمران، 83.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع، ص127.

وله أسلم تعني : وله اعترف الكل من غير استثناء بالمقدرة والقوة التي ليس بإمكانهم مقارعتها ، كما هو حال إبراهيم والنمرود في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [1] . النمرود كان ذا مُلك كبير حتىٰ أنه كان يَمير الذين يؤمنون به طعاماً ؛ وذكر زيد بن أسلم : « أن النمرود كان يأمر الناس بالميرة ، فكلما جاءه قوم يقول : من ربكم وإلـٰهكم ؟ فيقولون أنت ؛ فيقول ميروهم . وجاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام يمتار فقال له : من ربك وإلـٰهك ؟ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت ؛ فلما سمعها النمرود قال : أنا أحيي وأميت ، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر ؛ وقال لا تميروه . وقال الربيع وغيره في هـٰذا القصص : أنَّ النمرود لما قال أنا أحيي وأميت أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هـٰذا وأمت هـٰذا ؛ فلما رد عليه بأمر الشمس بهت » [2] .

وقوله : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تعني ولله تم الاعتراف بالمطلق بعدم المقدرة التي يمتلك لها تعالىٰ القوة الفاعلة وينفرد بأمرها . ولذا لقد قُهر النمرود بأمر إبراهيم بالرغم من أنه في حاجة لمير الطعام ، وازداد قهراً بعدما كانت النار علىٰ إبراهيم برداً وسلاماً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [3] . فكانت برداً وسلاماً عليه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(1) البقرة، 258.

(2) القرطبي، ج 3، ص 285.

(3) الأنبياء، 66ـ69.

وقوله تعالىٰ : ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ تعني الآتي :

طوعاً : إرادة وإيماناً ؛ حيث كان له الاعتراف بالقوة القاهرة لأية قوة ؛ إنها القوة التي استوجبت من بعضهم الطاعة بالإيمان . قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (1) أي بإرادة تامة واعترافٍ خالصٍ بقوتك القاهرة التي تفردت بها لقهر أية قوة ولذا فنحن من الطائعين المسبحين بحمدك .

وكرهاً : مغالبة بالحق برغم كيد الكائدين ومكر الماكرين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (3) .

وعليه : فقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ تدل علىٰ أنَّ الاستسلام قد كان من قبل الجميع دون التبعيض ؛ التبعيض جاء من أنهم لم يكونوا جميعاً مسلمين له بالعرفان طواعية ، مما جعل البعض يستسلمون له كرهاً ، وجعل البعض إليه مسلمين . وقوله (له أسلم) تعني له أقرَّ واعترف بعدم المقدرة والاستطاعة علىٰ فعل ما يستطيع أن يفعله هو تعالىٰ بذاته العلية . ولو استطاعوا أن يفعلوا لفعلوا ، ولهٰذا كانت المغالبة لمن أسلم طوعاً ولمن أسلم كرهاً .

والفرق بين من أسلم طوعاً وبين من أسلم كرهاً هو أن الذي أسلم طوعاً : اعترف بثلاثة أشياء هي :

الشيء الأول : الطاعة بعد العرفان بأنهم قاصرون عما يقدر عليه ويفعل .

---

(1) فصلت، 11 .

(2) الطارق، 15، 16 .

(3) الأنفال، 30 .

والشيء الثاني : الطاعة بعد العرفان بأن الذي قهرهم بإظهار القوة المطلقة يستوجب الإيمان به واحداً أحداً .

الشيء الثالث : التصديق بما يقوله علىٰ لسان من يصطفيهم من أنبياء ورسل صلوات ٱلله تعالىٰ وسلامه عليهم جميعاً .

والذي أسلم كرهاً : اعترف بشيء واحدٍ علىٰ أنهم لا يغلبونه في الإعجاز وهم مجبورون علىٰ أن تكون قدراتهم هـٰكذا طبيعياً ، ومع أنهم لا يغالبونه تعالىٰ في شيء إلا أنهم يظنون : أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يُمكِّنهم من امتلاك زمام القوة . حتىٰ أنهم ظنوا وكأن الحياة في أساسها مرتبة طبيعياً دون تدخل من أحد . فهم اعترفوا بأنهم لن يأتوا بالشمس من المغرب ، وأنهم لن يُحيوا الموتىٰ ، وأنهم لن يخلقوا حياة أو يبعثوا أحداً من جديد ، ومع ذلك لم يعترفوا بما قاله علىٰ لسان أنبيائه ورسله صلوات ٱلله تعالىٰ عليهم وسلم تسليماً .

وكلمة (كرهاً) : تحتوي في مضمونها التبيان المنكشف أمره ، فهو التبيان الذي لا يمكن أن يُخفىٰ مما يستوجب الاعتراف به وبالقدرة التي من ورائه . وإلا هل هناك من يخفي الشمس والقمر والنجوم وحركتها الفلكية ؟

وهل هناك من ينكر الشروق والغروب والأهلة والحساب ؟

ألا تكون هـٰذه دلائل وحججاً ثابتة مَثَلُ حُجَّتها كمثل حُجَّة وجودنا ونحن مميزون عن غيرنا مما خلق تعالىٰ ؟

ألا تكون هـٰذه الحُجج دامغة لمن آمن ولمن كفر ؟

فإذا كانت كذلك ، ألا تكون هي القاهرة لمن آمن طوعاً وكرهاً ؟

وإذا كانت الإجابة ببلىٰ ؟ ألا يكون فوق ما يُقهر قهَّارٌ ؟

القهَّار : هو العادل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ

ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَـامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [1] فالذي نخصُّه بالاستشهاد للقهر هو قوله تعالىٰ : (ليذوق وبال أمره) . وبال الأمر مرارته وقسوته فكانت الاستعارة بالذوق الذي به تُميز المرارة عن الطعم اللذيذ ، وذلك للتذكير بالمشابهة من حيث معرفة الأثر المترتب علىٰ مرارة الذوق مع مرارة الألم والتأسف علىٰ ما يحدث من أمرٍ لا خير فيه . ويقال الوبال سوء العاقبة .

ولذا فوبال أمره : هو ما يترتب علىٰ ما قام به من فعل منهي عنه من ٱلله تعالىٰ أو محرمٍ علىٰ من كان حُرم مما يستوجب قهر النفس التي قبلت بأن تتبع ما نهىٰ ٱلله عنه .

في هـٰذه الآية النهي لم يأت مطلقاً للكافة ، بل جاء للخاصة وهم المؤمنون الذين هم في حالة إحرام . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ في هـٰذه الآية الكريمة مجموعة من الأحكام الرئيسة :

الحكم الأول :

مخاطبة المؤمنين بدون استثناء بأمر المُحرم .

الحكم الثاني :

نهي المؤمن عن قتل الصيد وهو حُرم وليس أي صيد وذلك لاستثنائه لصيد البحر وقصوره علىٰ صيد البر . ولأنه ليس كل صيد بر بمحللٍ لذا فحرَّمه تعالىٰ بالمطلق علىٰ المؤمن المُحرِم ، ولذلك ليس للمؤمن إلا الطاعة للأمر المنهي عنه .

---

(1) المائدة، 95.

الحكم الثالث :

المؤمنون الذين هم حُرم ، مما يجعل النهي عنه لا يتعلق بالمؤمنين غير الحُرم .

الحكم الرابع :

قتل الصيد المتعمد وليس القتل الخطأ . قال : قتل ولم يقل ذبح أو نحر أو أي نص من النصوص التي لا التباس ولا غموض في معاني استخدامها أو القيام بها وفقاً للمتعارف عليه بين المؤمنين ، وذلك ليشمل الصيدين (صيد البر وصيد البحر) حيث أنَّ صيد البحر في أساسه لا يُذبح ولا ينحر ، ومع ذلك فهو نعمة من أنعم ٱلله التي أنعم بها علىٰ الإنسان .

وقتل الصيد تعني كل حيوان بري أو بحري هو صيد ، والفرق بين الصيدين : أن صيد البحر لا محرم فيه وصيد البر محرم علىٰ الحُرم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [1] . في الآية (95) من سورة المائدة نهىٰ عن قتل صيد البر علىٰ المؤمن المُحرم ، وفي الآية (96) من نفس السورة حرَّم قتله بالمطلق ولذا فإن قضايا التحريم أكثر شدة من القضايا المهني عنها ، ولهٰذا ليذوق من يرتكب الجرم وبال أمره .

وقد يتساءل البعض : لِماذا حُرِّم صيد البر علىٰ المؤمن المُحرم ، ولم يُحرَّم عليه صيد البحر ؟

نعتقد لوجود السببين الآتيين :

السبب الأول : أن طبيعة البيئة في مكة والمدينة المنورة والمساحات التي بينها والتي يمشيها الحجيج تعيش فيها الحيوانات البرية وخاصة أيام تنقل

(1) المائدة 96.

الحجيج علىٰ الأقدام والخيل والإبل وما يتيسر لديهم من حيوانات مساعدة علىٰ التنقل والنقل والترحال ، مما يجعل الحجيج يبيتون بين المسافات أياماً وهم في طرقهم قد يتعرضون إلىٰ حيوانات برية فليأخذوا حذرهم حيث المفترس والضار منها ؛ فنهىٰ ٱلله عن قتلها مع أخذ الحيطة ، ففي حالة ما إذا أحسَّ المؤمن المحرم بخطورة عليه أو علىٰ آخرين معه من صيد بري مفترس فليس له بدٌّ من قتله .

ثم حرَّم صيده عمداً تحريماً قاطعاً ، أي : حرَّم أن يقتل مُحرِم صيداً بريّاً عن عمدٍ إلا إذا واجهته منه خطورة .

والمُحرِم بلباس الحج إذا قتل صيداً ، ثم ثنىٰ عليه بالانقضاض ؛ وقد لا يلحقه بأنفاسه ، وفي هـٰذه الحالة قد يختلط أمره بين حلال وحرام ، ويتعرض إلىٰ ذبحه وسلخه ، وقد يتعرض إلىٰ شيء من الدم الذي قد يدنس إحرامه ، وقد يشوه طهارته .

وفي مقابل ذلك كل ما يخرج من البحر صيداً فهو حي إلىٰ أن يتم إخراجه .

السبب الثاني : ليس كل صيد بر يؤكل حلالاً طيباً ، وفي مقابل ذلك كل صيد بحر يؤكل حلالاً طيباً .

الحكم الخامس :

الجزاء بالمماثلة أي الجزاء بالقيمة التي تساويها قيمة الصيد المقتول عمداً وهو المقصود بالنعم ، أي أن الصيد نعمة من النعم التي أنعم بها ٱلله علىٰ عباده .

الحكم السادس :

الحكم الذي لا يصدر جزافاً ، بل يشترط فيه المشاركة بين ذوي العدل من

المؤمنين ، وذلك لتقدير القيمة المناسبة موضوعياً للصيد المقتول خطأ من المؤمن المُحرم .

وبناء علىٰ هـٰذه المتغيرات فمن يتمعن فيها وفي الأسرار التي من ورائها ألا يكون من ورائها القهَّار العدل الذي به تطمئن نفوس المؤمنين بعد أن يُكفِّروا عن ذنوبهم ؟

نحن نعتقد في ذلك وقد لا يرىٰ غيرنا ما نرىٰ ؟

ولذا لا عيب أن تتباين وجهات نظرنا حتىٰ يتبيَّن لنا الخطأ من الصواب لنبتعد عن الخطأ ونجتنبه ، ونستأنس للصواب ونأخذ به .

وقوله تعالىٰ : ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ في هـٰذه الآية أيضا أحكام :

الحكم الأول :

الهدي إلىٰ الكعبة : أي أن تعود قيمته إلىٰ ما يخدم بيت ٱلله الحرام . حيث يُفعل به كما يُفعل بالهدي من تصدق وأعمال الخير .

الحكم الثاني :

الكفارة عن قتل صيد البر عمداً لإطعام المساكين الذين هم في حاجة .

الحكم الثالث :

الصيام للذي لا يستطيع أن يهدي شيئاً إلىٰ الكعبة وهـٰذا الصوم هو أيضاً في حاجة لمن يُقدِّره عدداً من ذوي العدل من المؤمنين .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ تحتوي هـٰذه الآية علىٰ الأحكام الآتية :

الحكم الأول :

ذوق الوبال ، الذي فيه شدة وقسوة علىٰ من آمن طوعاً حتىٰ ينال المغفرة والرحمة بالهدي أو الكفارة أو الصوم .

الحكم الثاني :

العفو عمَّا سلف قبل نزول هـٰذه الآيات المُبيِّنة للمنهي عنه والمحرَّم منه .

الحكم الثالث :

انتقام ٱلله تعالىٰ من الذين يعودون بتكرار الفعل المُحرَّم من قِبله تعالىٰ .

وبناء علىٰ ما تقدم نلحظ التضارب بين ما يرغبه بنو آدم وبين كبحهم عنه فهم لو لم يحبوا الصيد ويهووه ما ابتلاهم ٱلله بتحريمه عليهم في فترات كونهم حُرماً ، ولذا فهم مقهورون بهـٰذه الحجة من الذي يؤمنون به ويحجون إلىٰ بيته الحرام أي مجبرون إجباراً ومكرهون علىٰ الالتزام وإلا يتعرضون للعقاب الشديد من القهَّار الأعظم جل جلاله .

الحكم الرابع :

عزة ٱلله للمؤمن المُحرم بأن يكون طائعاً له غير عاص لأمره ، فإن عصاه سيكون ذا انتقام شديد . ولذا فإن العزة لله بالإيمان به والأخذ بما يأمر والابتعاد والاجتناب عما ينهىٰ عنه ويُحرِّم .

يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « قهره مصاحب لعدله ، وعدله مصاحب لرحمته ، وانتقامه مصاحب لحلمه ، وهـٰذا هو السر في كمال أسمائه وصفاته ، فلا ينفرد اسم عن اسم ، ولا صفة عن صفة ، فهو سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهـٰذا هو السر في اقتران القهَّار بالواحد في القرآن الكريم »[1] .

نعم يتم الاتفاق في هـٰذا الأمر مع ما قاله الدكتور فأسماء ٱلله وصفاته تتعدد وهو واحد لا يتعدد ، ولذا فالله هو المحتوي لمضامين أسمائه وصفاته

(1) محمد بكر إسماعيل ، أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . القاهرة ، 2000 ، ص 66 .

الحسان ، وكل صفة أو اسم فهو يحتوي الصفات الأخرىٰ ويتضمن كل ما تدل عليه .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [(1)] . صاحبا السجن هما الفتيان اللذان دخلا مع يوسف عليه الصلاة والسلام السجن ، واللذان اعتقدا فيه حُسناً ، فطلبا منه أن يُنبئهما برؤية كل منهما ؛ حيث أحدهما رأىٰ : أنه يعصر خمراً ، ورأىٰ الآخر : أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، فاستفتاهما بما رأىٰ كما هو مبين في سورة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي صدق استفتاؤه لِما رأىٰ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ في هٰذه الآية تساؤل استغرابي وتعجبي ، مع حملهِ لمضمون السخرية من الذين يعبدون أرباباً من دون ٱلله الواحد القهار . فأرباب متفرقون تعني : غير متساوين في الرأي والقدرة والاستعداد والأمل والرغبة والحاجة فهم إن كانوا بشراً فهم يمرضون ويتألمون ويطمعون ويتسيسون ويظلمون ويجوعون ويضحكون مع وعلىٰ ، متىٰ ما يشاؤون وكيف يشاؤون ؛ وهم الذين ينامون ويختصمون ويتصادمون وهم الذين لهم غرائز تجعلهم يُقهرون بتُعرُّضهم للضعف والاستسلام ، وهم الذين ينتهون وبالموت يُقهرون ؛ فهل مثل هٰؤلاء يحق أن يُتخذوا أرباباً ؟

ولو كانوا أرباباً لفسدت حيث امتلاك كل منهم القوة التي تقيم الساعة والقوة التي تُعيدها بعد قيامها ؛ وهٰكذا تصبح الحياة بين أيدي الغاضبين مِنْ ، والغاضبين عَلىٰ . وبما أنهم لا يملكون هٰذا الأمر ولو اجتمعوا بقواهم جميعاً ؛ إذاً هم يفتقدون القدرة التي تجعل من الربِّ إلهاً يُعبد .

وما بالك إن كان الرب إلهاً صنماً من حجارة أو تمر أو حديد ، فهو الذي

---

(1) يوسف ، 39 .

لا يغضب لحقٍ ، ولا يفعل خيراً ولا يُحيي ولا يُميت ، ولا يشفي مريضاً ولا يرحم ولا يغفر ، ولا يتحكم في الأمر وهو بالزمن يبيد .

هٰذه الأصنام لو كانت تنطق لقالت : أنا المخلوقة ومن ورائي خالق قهَّار ، وأنا التي تُسبِّح بحمد خالقها صباحاً مساء ، فأنا في حاجة لرحمته مما تفعلون بي ، فلو كانت لي مقدرة لقوَّمتكم قبل أن تقيموني صنماً ، فأنا في حاجة لرضاه ، وأستغرب أنكم لا تسعون لنيله قبل أن تنتهوا وحينها لا ينفعكم الندم . فأنا أيها العُبَّاد مخلوقة من خالق قهار ، فأنا المنتهية وهو الباقي ، فعليكم بالحياد عمن لا يبقىٰ وتمسكوا بالحي الدائم الذي لا يموت .

يَقهر : تعني : يَهزِم ، ويَغْلِب ، والقهَّار : هو الغالب الفعَّال ؛ الذي لا غالب له .

وقد يتساءل البعض : كيف يَهزِم القهَّار ، ويَغلِب ؟

ـ يهزم بالحجة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (1) .

وقوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (2) .

ـ ويغلب بالبرهان : مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (3) .

---

(1) الغاشية 17 ـ 22 .

(2) التين ، 4 .

(3) البقرة ، 258 .

الرب الذي يستوجب أن يُعبد هو الرب القهَّار ، الذي يقهر بالحجة والبرهان ولا يُقهر بغلبة .

وعليه أتساءل : عندما تعرف بأن ٱلله يخلق كل شيء حيَّاً ، وأنت لا تستطيع أن تخلق شيئاً حياً ؛ ألا تكون مقهوراً ؛ أي : مغلوباً في هـٰذا الأمر ؟

ـ وإذا قيل لك : إن ٱلله يحيي ويميت ، وأنت لا تستطيع علىٰ واحدة منهما ولو اجتمعت معك الإنس والجن ؛ ألا تكون مغلوباً أيضاً في هـٰذين الأمرين ؟

ـ وإذا عرفت أن ٱلله جلَّ جلاله يأتي بالشمس من المشرق وأنت لا تمتلك المقدرة علىٰ إيقافها أو الإتيان بها من المغرب ، ألا تكون مقهوراً وأنت لا حُجَّة لك ولا برهان .

ـ وإذا قيل لك : إن ٱلله غفَّار الذنوب جميعها ، وأنت لا تقدر علىٰ غفران ذنب واحد ؛ ألا تكون مقهوراً مغلوباً .

ـ وإذا قيل لك : إن ٱلله يخلق ما يشاء كيف يشاء ، وأنت لا تستطيع إيقافه عما يخلق ؛ ألا تكون مقهوراً ؛ لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً ؟

ـ وإذا قيل لك : إنه بكل شيء عليم ، وأنت لا تعلم ؛ ألا تكون مقهوراً مع مجموع ما قُهرت به سابقاً ؟

ـ وإذا عرفت : أنه القوي ، وأنت الضعيف ؛ ألا تعترف بأنك المقهور في هـٰذا الأمر .

وللإجابة علىٰ هـٰذه التساؤلات : علىٰ الإنسان أن يبحث حتىٰ يأتي بما يخالف ذلك أو يتمكَّن بمعرفة تامة بأنه المغلوب أمام قدرته تعالىٰ ، وحينها ليس له بد إلا أن يؤمن بأنه ٱلله الواحد القهار .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [1] . الأمر (قل) موجَّه إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ، بأن يسأل المشركين عن من ربُّ السمٰوات والأرض؟ وأمره بأن يقول لهم أي : يُجيبهم بأنه ٱلله عز وجل . وذلك لأن أمر ٱلله بالنسبة للرسول والذين آمنوا معه هو أمر تسليم .

ثم قال ٱلله تعالىٰ لرسوله الكريم : قل لهم ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ في هٰذه الآية تساؤل استغرابي يتساءل عن الكيفية التي هم عليها أي كيف تعترفون بالله تعالىٰ وتعبدون من دونه من لا يستطيع علىٰ مشاركته في شيء ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟

ثم قال له قل لهم : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ؟ بطبيعة الحال يحمل هٰذا التساؤل ما يفيد الإجابة ، بعدم التساوي ، وفي ذلك استدلال علىٰ من يرىٰ الحقيقة ويعرفها وعلىٰ الذي لا يراها . مما جعله يؤكد ذلك بقوله : ﴿ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ بمعنىٰ : هل يستوي الجهل والعلم ، والشرك والإيمان ؟ أم أنهم ﴿ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ إنه استهزاء بعقولهم مع سخرية تُمكِّن من الإدراك ، فكيف يكونون عقلاء وهم لا يميزون بين الظلمات والنور ولا يميزون بين الأعمىٰ والبصير ويعرفون أن آلهتهم لا تخلق شيئاً وهي المخلوقة بأيديهم مما خلق الخالق الأعظم . ولذا فإن كانت خلاَّقة فعليهم أن يَروا ما خلقت ، أم أنَّ ما خلقته اختلط مع ما خلقه ٱلله تعالىٰ حتىٰ إنهم لا يستطيعون فرزه ، وتمييزه عن بعضه البعض ؟

جاءت الإجابة علىٰ جميع التساؤلات السابقة بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ . أي بما أن ٱلله هو خالقهم وخالق المادة التي خَلقوا

---

(1) الرعد، 16 .

منها آلهتهم أو صوَّروها ، وأن آلهتهم لا تقدر علىٰ أن تفعل شيئاً لها ولا لهم ، وأنها لم تكن مشاركة في أي أمر ولن تكون ؛ إذاً فعليهم أن يعترفوا بأنهم مقهورون بمغالبة الحق للباطل فليؤمنوا أو لا يؤمنوا فإن ٱلله هو الواحد القهَّار .

وعليه من أراد أن يكون من خلفاء لله تعالىٰ في الأرض ، فعليه بالحق فيها ، وأن لا يُغيِّب عقله الذي ميزه به عن الضمير الذي يعود به إليه تعالىٰ ، وهو العرفان بالعبودية الممتلئة بالطاعة التامة في غير معصية ولا شرك .

إنَّ قهر الخالق لعباده يزيدهم إيماناً تاماً به ، وذلك لإدراكهم علىٰ أنهم مهما عملوا وفعلوا من خير فلن يستطيعوا أن يعملوا ما خلق لهم خالقهم من خير ، وإذا اكتشفوا ، وعرفوا ، وتعلموا ؛ يجدون أنفسهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً مما علمهم ٱلله تعالىٰ من آيات وعلوم ومعارف واسعة ، وهـٰكذا يسعون ويبحثون حتىٰ يُدركوا أنهم مهما فعلوا وعملوا وخلقوا فهم مقهورون أمام خلق ٱلله وعلمه وأسراره وعزته وقوته وجبروته سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار .

قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (1) المؤمن لا يناقش أن الأرض والسمـٰوات تُبدل أو لا تبدل فهـٰذا الأمر بالنسبة له قول حق لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه . بل الذي يود أن يُظهره : هل يمكن أن يتم هـٰذا التبدُّل بدون قوة قاهرة؟ . وعندما تأتي الساعة التي سيحدث فيها هـٰذا الأمر هل يمكن أن تكون هناك إجابة غير الاستسلام لله الواحد القهار ؟ . في الاعتقاد الإيماني ليست هناك إجابة غير أن يؤذِّن ذلك المؤذِّن المؤمن الذي اطمأن قلبه بإجابة أصحاب النار الذين وجدوا ما وعدهم ٱلله حقّاً بعد ما قال لهم لقد وجدنا ما وعدنا ٱلله حقّاً .

أمَّا مع غير المؤمنين إذا كانت الإجابة بنعم بين اتفاق واختلاف ، فما هي

---

(1) إبراهيم، 48.

الإجابة التي يمكن أن تكون لنا حُجَّة ؟ .

بالتأكيد من يقول نعم لن يجد إلا ٱلله الواحد القهار . ومن يقول لا ، لن يجد إلا ٱلله الواحد القهار .

وعلىٰ الذين يعيشون علىٰ الأرض قبل تبدلها والسمـٰوات ، أن يتبينوا الأمر قبل فوات الأوان فإن ٱلله غفور رحيم . وليبدأوا بموضوعية تامة ، بطرح التساؤلات التالية علىٰ أنفسهم ولا داعي لأن يجيبوا عليها فإجاباتها محمولة فيها وهي :

- ألا يكون الألم فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون المرض فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون العطش فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون الجوع فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون الجنس فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون الهرم والكبر فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون الموت فعل قهر ومغالبة ؟
- ألا يكون البعث فعل قهر ومغالبة ؟

- وختاماً فمن الذي يملك أمر ما قدمنا من تساؤلات ؟ بالتأكيد سيكون الإجماع علىٰ نعم تلك التي جعلت المؤمن يؤذن بين أصحاب الجنة بعد ما سمع بأمر أصحاب النار بأنهم قد وجدوا ما وعدهم به ربهم حقّاً . والذين عندما سئلوا : لمن الملك اليوم أجابوا أنه لله الواحد القهار .

وبالعودة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قالت عائشة رضي ٱلله عنها : « سئل رسول ٱلله ﷺ عن قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال ﷺ : (علىٰ الصراط) أخرجه

ابن ماجه بإسناد مسلم ، وأخرجه الترمذي عن عائشة ، وهي السائلة » [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [2] . الرفعة والعلو خاصية من خاصيات ٱلله تعالىٰ ، وإلا هل يمكن أن يكون قهَّاراً لو لم تكن هـٰذه من خاصيته ؟ فالرفعة والعلو خاصية القوي القادر علىٰ القهر لمن يحاول أن يعلو عليه . وهو الذي يرفع من يشاء بالإيمان درجات . فرفيع الدرجات تعني : رفيع المكانة والعرش والصفات الحسان . فهو الذي يرفع درجات من يشاء بالتوبة والعمل الصالح .

وجاءت (الدرجات) جمع للشمولية حيث مقدرته الشاملة لرفع الدرجات بالعلم والعمل والإيمان والصدق والكسب الحلال ، فهو الغني الذي يغني ، وهو مالك الملك الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء ، وهو الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، وهو الذي بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير .

ولذا فمن أراد أن يكون من بين الذين يُستخلفون في الأرض فعليه بالإيمان الذي يمده بالرفعة والعلو عن النواقص وعن الطمع والجهل والرذيلة ويمده بالهيبة ويجعله في مقام محمود .

وقوله ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ تدل علىٰ اختصاصه به دون غيره ، وجاء العرش مُعرَّفاً ، لعدم التثنية والجمع والتعدد بالمشاركة ، فالعرش واحد مثلما ٱلله واحد ، ولذا لا مشاركة فيه . ومع أنه لا تجوز المشاركة فهو يؤتي لمن دونه ما يشاء من المُلك ، وينزعه منه متىٰ ما شاء كيف يشاء . فذو العرش : تعني المُلك والحُكم الذي لا يزول كما تزول عروش الملوك والسلاطين والأمراء والحكام بمختلف أنظمتهم ومذاهبهم وأساليبهم السياسية ، ولذا تتكوَّن

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء التاسع ، ص 383 .
(2) غافر ، 15 ، 16 .

العُروش بمشيئته وتُنزع بمشيئته ، فهي لم تكن موضع مقارنة مع العرش القهَّار رفيع الدرجات الذي بيده أمر الروح والملائكة والإنس والجن .

ولأنه مالك الملك فهو الذي يبعث الحياة في مُلكه وينظمه كما يشاء ، ولأنه كذلك بعث الأنبياء والمرسلين واستخلفهم في الأرض مبشرين ومنذرين علىٰ اتباع ما يريده القهار الأعظم لصالح مخلوقاته وتنظيم العلاقات بينها . فمن يعمل خيراً يجد ٱلله مجازياً له بالخير الأوفر ، ومن تجني يداه إثماً سيجد ٱلله شديد العقاب ويجده غفوراً رحيماً لمن استغفر وتاب وعمل صالحاً واهتدىٰ إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

و(يوم التلاقي) : هو اليوم الذي يُبعثون فيه ، فيلتقي فيه السابقون مع اللاحقين ، ويلتقي المذنب والشاهدين عليه ، والظالم والمظلوم والسارق والمسروق ، ويلتقي فيه المؤمن مع الكافر ، ويلتقي أهل السماء والأرض ليبرزَ هـٰؤلاء جميعاً أمام الخالق القهَّار للجزاء بالثواب أو العقاب أي بالجنة أو النار . اللهُمَّ اجعلنا من أهل الجنة ولا تجعلنا من أهل العار والنار يا عزيز يا قهَّار يا ٱلله .

و(بارزون) تعني : واضحون هم وأعمالهم وذنوبهم علىٰ الأشهاد حيث لا سرَّ ولا جرم بعد ذلك اليوم ، الذي سيسألون فيه : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؟ حيث لا إجابة في ذلك اليوم إلا قول الحق القاهر للجميع : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (1) . قل يا محمد لمن يشرك أنا رسول ٱلله أنذر بأمره ولا أشرك بعبادة ربي أحداً ، إنه ٱلله الواحد القهَّار . ولذا فإن محمداً صلوات ٱلله وسلامه عليه جاء منذراً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم

(1) ص ، 65 .

بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (2) بما أن ٱلله تعالىٰ هو خالق كل شيء ، فخالق كل شيء لا يحتاج لأيِّ شيء . ولذا من يُسلِّم بأنه خالق كل شيء ، يُسلِّم بأن الخالق لو لم يكن سابقاً علىٰ ما خلق ما خلقه ، وبما أنه سابق علىٰ كل ما خلق ، فهو ليس في حاجة لِما خَلَقَ ، وذلك لأن الحاجة لو كان فيها لكان في حاجة لِما يُشبِعها حتىٰ يتمكن من أن يَخلق ، ولأنه خلق كل شيء وهو لم يكن في حاجة لشيء ، لذا فإن ٱلله هو الواحد القهَّار .

قـــال تعـــالـــىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (3) القهر : الغلبة ؛ والقهَّار هو الغلاَّب ؛ والقاهر : هو الغالب بأمره وقوته وعزته وهيمنته وقدرته ومقته وكيده ومكره ، ولذا فهو فوق عباده بالمغالبة بالرحمة والعزة ، والقوة والقهر .

وفوق عباده : مكانةً ومُلكاً وعرشاً وهيمنةً وعلماً وحكمةً ، أي منزلة لا محل لها في المقارنات ، حيث التفرد بالوحدانية والقهر .

والحكيم الخبير : العالم بما يجب والمقدِّر له ، ولهـٰذا خلق كل شيء بميزان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ (4) أي كل شيء أسس وقُدِّر بمقدار معين تقتضيه حكمته .

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ

(1) الأنعام، 19.
(2) الزمر، 4.
(3) الأنعام، 18.
(4) الحِجر، 19.

ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [1] . القاهر : كما بينا هو الغالب ، وهو صاحب المكانة العلية والعرش المحمول من قبل الملائكة المُسبِّحين بحمد ٱلله تعالىٰ والداعين للعباد بالمغفرة والتوبة والهداية .

والحفظة هم الملائكة المأمورون بحفظ العباد والدعاء لهم بالهداية ومتابعتهم ومتابعة أعمالهم وحفظها ، وهم شهود الحق الذين لا يفعلون إلا ما يُؤمرون .

حظ الخليفة في الأرض من هـٰذا الاسم والصفة الحسنىٰ ، أن يستمد منها ما يُمكِّنه من مغالبة الجهل وقهره بالعلم ، ومغالبة الفقر وقهره بالغنىٰ ، ومغالبة المرض وقهره بالشفاء ، ومغالبة الظلم وقهره بالعدل ، ومغالبة الباطل وزهقه بالحق ، ومغالبة الانفراد بالأمر وقهره بالمشاركة والمشورة ، ومغالبة الأنا الطاغية وقهرها بالنحن سوياً . ومغالبة التخلف وقهره بالتطلُّع .

ومن يدَّعي القوة فليتذكر قوة ٱلله عليه ، ومن يدَّعي القدرة فليتذكر قدرة ٱلله الواحد القهار ؛ والذي يعتقد أنه بماله وغناه يقدر علىٰ قهر الناس فليتذكر غنىَ ٱلله ومُلكه الواسع مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [2] . والذي يعتقد أنه قادر علىٰ قهر الناس بعلمه فليتذكر قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3] وقوله عز وجل : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [4] . ومن يعتقد أنه قادر علىٰ قهر الناس بفصاحته فليتذكر البيان الحكيم ، ومن يعتقد أنه قادر علىٰ قهر الناس بعرشه

(1) الأنعام 61، 62.
(2) فاطر، 15.
(3) الإسراء، 85.
(4) طه، 114.

فليتذكر العرش العظيم الذي تحمله الملائكة وليتقِ ٱلله به . ومن يعتقد أنه قادر علىٰ قهر الناس بجماله فليتذكر قوله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) . ومن يعتقد أنه قادر علىٰ تخويف الناس فليخف ٱلله وليتذكر قوله تعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ (3) .

ولذا فالخليفة هو الذي يقهر الذل في نفسه ولا يقهر الآخرين بغير حق ، وهـٰكذا يقهر الخوف والظلم والجشع والشرك وأن يفوض أمره لله الواحد القهار . وليعلم أن المغفرة لا تتم إلا بمثوبة وعمل صالح ، فليتب إليه ويعمل عملاً صالحاً حتىٰ يغفر ٱلله له ذنبه وخطاياه .

فالمؤمن هو الذي بذكر القهار يطمئن قلبه بالإيمان ثقة بأنه لا يُهزم أبداً مادام يؤمن بالواحد القهار ويلتجئ إليه في كل أمر ؛ ولهـٰذا من يقول أنا الغالب يقال له : لا غالب إلا ٱلله الواحد القهار . وليتذكر قهره تعالىٰ للجبابرة وأخذه لهم أخذ عزيز مقتدر ، فقد قهر فرعون ، وهامان ، وقارون ، والنمرود ، وأُبي بن خلف ، وأبا لهب ، وكلَّ ملك ، أو طاغية من يوم الخلق الأول إلىٰ يومنا هـٰذا سيقهرهم وإلىٰ أبد الآبدين ٱلله الواحد القهار .

القهَّار مُغالب لكل قوة ولكل قدرة ، ولذلك فهو فعَّال لما يريد ، ولذا فهو مالك الملك ومالك الأمر سبحانه جل جلاله .

قهر القهار مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتمّ قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره . إذ لولا هـٰذه الأوصاف الثلاثة لا يتم له قهر

(1) يوسف 53 .
(2) يونس، 62 .
(3) قريش، 4 .

ولا سلطان [1] ، فالقهار حي ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] ، وهو عزيز ، ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [3] ، وهو مقتدر ، ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [4] .

وهٰذه الصفات الثلاث توضح بجلاء قهره سبحانه لمن يشاء من عباده ، فالحي متمكن من إدامة القهر لكل شيء ، ولا يزال قهره يتكرر أبداً ، ما دامت السموات والأرض ، فالحي قادر علىٰ القهر من قبل ومن بعد ، فالله عز وجل أهلك قوم نوح وقهرهم ، وقهر قوم هود ، وقهر فرعون وهامان والنمرود ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [5] .

والله سبحانه قهَّار لكل متكبر جبَّار ، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم ، وفيها المجرمون وما أظلمهم ، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلىٰ معين قهَّار ، وملك قادر جبار ، فالواحد القهار هو ملجأهم وهو بالمرصاد لكل متكبر جبار [6] ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 66 .
(2) غافر 65 ـ 66 .
(3) المائدة 118 .
(4) الكهف 45 .
(5) النجم 50 ـ 56 .
(6) أسماء الله الحسنىٰ 72ـ73 .

طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (1) ، وسيقهر بالحق من يكتب عليه القهر من المستحق من عباده ، فهل في هـٰذا القهر ظلم؟ إن الذات القاهرة منزهة عن ذلك ، فالقهار ليس ظالماً وقد نص علىٰ نفي الظلم عنه في خمس آيات ثلاث منها باسمه الأعظم فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (2) ، وقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (4) ، والملاحظ في الآيات الثلاث نسبة عمل السوء إلىٰ العبد مما يجعل نسبة الظلم إلىٰ القهار منتفية ، فلولا هـٰذا العمل الذي أقدم عليه العبد ما كان القهر بالعقوبة ، أما في الآيتين الأخريين فقد كان نفي الظلم عنه سبحانه بصفة الربوبية في الأولىٰ منها وذلك في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (5) ، أما الثانية فجاء النفي بصيغة الخطاب المباشر من القاهر سبحانه وتعالىٰ لعباده إذ يقول لهم : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (6) ، وفي هـٰذه الآيات دلالة بالغة لكل ذوي الألباب تفيد بأن قهر القهّار حق وعدل .

وللمعاند ولمن في قلبه مرض يزيد القهار الإفادة بكون قهره حقّاً ، فيأتي بالآيات الدالة علىٰ أنه لا يحب الظلم ولا يحب الظالمين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

(1) الفجر 6 ـ 14 .
(2) آل عمران 182 .
(3) الأنفال 51 .
(4) الحج 10 .
(5) فصلت 46 .
(6) ق 28 ـ 29 .

ﭐلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، ومن كرهه لهم جعل العقاب يحل بهم في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يعذب الظالمين ويتوعد من يرغب بالظلم بعذاب شديد في الدنيا فيقول : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [2] ، أما الآخرة فإن عقاب الظالم فيها أشد من عقابه في الدنيا بكثير ، وقد أتىٰ في مشهد يذهل منه العقول ، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] ، والصورة المتمثلة في هـٰذه الآية شديدة علىٰ المتأمل لحال الظالمين في النار ، فهم يتوسدون هـٰذه النار ويلتحفون بها وكأنما هم يحتمون منها بها ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، هـٰذا ما عملت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد .

وتوصلنا هـٰذه الحجج البينة إلىٰ حقيقة مفادها أن قهره سبحانه حق ، فعلىٰ الخليفة أن يعي هـٰذا الدرس فيكون قهره للمستحق عن حق ، أي نتيجة لجرم ارتكبه العبد وليس دون فعل موجب للقهر لأن ذلك يجعل القهر باطلاً ، والحق أي أن يكون القهر لأجل إقرار الحق ومنع الفساد وكل ما سوىٰ ذلك يوقع الخليفة في غياهب الباطل التي نهاه ربه عنها وحذره منها ، وبحق أي أن يكون القهر بما علمه القهار من وسائل القهر فلا يجور علىٰ العباد ، وإذا سأل سائل عن وسائل القهر المتاحة للخليفة نقول : إن كل ما نص عليه القهَّار في شرعه من وسائل لمعاقبة الجناة من تعزير إلىٰ جَلد إلىٰ قطع إلىٰ قتل هي من وسائل قهر الظلم المؤدي إلىٰ إقرار الحق ومنع الفساد وإعمار الأرض ، وقد يُرىٰ في هـٰذه الوسائل بعض الوهن وهو حقيقة يُفسرها النقص في قدرة القهار بالإضافة (الخليفة) ، أما القهَّار المطلق فقهره لا يشبه بشكل من الأشكال قهر خليفته في الأرض .

---

(1) الشورىٰ 40 .

(2) هود 82 ـ 83 .

(3) الأعراف 41 .

والقهَّار الحي العزيز ، فهو الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم ، فنواصيهم بيده ، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع ، وما لم يشأ لم يكن ، فلو اجتمع الخلق علىٰ إيجاد ما لم يشأه ٱلله لم يقدروا ، ولو اجتمعوا علىٰ منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه [1] ، ويرتبط فعل القهَّار بالعزة ، فأخذ القهار أخذ عزيز مقتدر ، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [2] ، فهو عزيز مقتدر ، إذ هو الواحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله وقهَّار لجميع خلقه وهم داخلون تحت قدرته والسمٰوات مطويات بيمينه ومقهورون في قبضته وتحت سلطانه قهر اقتدار [3] ، والاقتدار من صفات القهار ويتجسد في شمول القهر لمن يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [4] ، وانتفاء منع قهره من أحد من المخلوقات ، قال تعالىٰ : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [5] .

ويجمع ابن القيم هـٰذه الصفات الثلاث في أبيات شعر فيقول :

وكذلك القهار من أوصافه ... فالخلق مقهورون بالسلطان
لو لم يكن حيّاً عزيزاً قادراً ... ما كان من قهر ولا سلطان [6]

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج1 ، ص 41 .
(2) القمر 41 ـ 42 .
(3) حز الغلاصم ، ابن الحاج القفطي ، ج 1 ، ص 69 .
(4) النساء 140 .
(5) المعارج 11 ـ 17 .
(6) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن =

فالقهار قادر علىٰ قهر من يشاء من المخلوقات ، فهو القادر علىٰ قهر الأحياء بالموت ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (1) ، وهو القادر علىٰ تحديد وقت ذلك دون أن يكون لأحد القدرة علىٰ تأخير أو تقديم هـٰذا القهر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (2) .

ويمتد القهر ليشمل غير الأحياء ، فالجبال تنسف ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (3) ، أي أن القهار بقوته وقدرته ينسف كل قوة ، ولهـٰذا فهو القهار للأرض والسماء مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (4) .

والقهار هو المُذل ، فالقهر في وضع العربية الرياضة والتذليل يقال قهر فلان الناقة إذا راضها وذللها ، والله تعالىٰ قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات علىٰ وحدانيته وقهر جبابرة خلقه بعز سلطانه (5) ، وذل القهار شامل للدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يذل المعاندين بالهزيمة : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (6) ،

= إبراهيم بن عيسىٰ ، ج 2 ، ص 232 .

(1) الأنبياء 35 .

(2) الأعراف 34 .

(3) طه 105ـ107 .

(4) إبراهيم 48 .

(5) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، الزجاج ، ج 1 ، ص 38 .

(6) البقرة 250 ـ 251 .

وبالخزي : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1) ، وبالموت : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (2) ، فالقهّار هو الذي يقهر عباده بالموت ، فهل يمكن لمخلوق أن يرد الموت عنه أو عن أحد آخر ! وهو الَّذِي يَقْهَرُ وَلا يُقْهَرُ بِحَالٍ ، وَقَهَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِالْمَوْتِ (3) .

أما في الآخرة فإنه قاهر الجميع ، قال تعالىٰ : ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (4) ، قهراً خاصاً بقدرته وعزته وتفرده عن بقية خلقه ، وقد أشار سبحانه إلىٰ ذلك تذكرة لمن يعقل فقال : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ (5) ، ويستثني القهّار من خلقه صفوة من أحسن القول والعمل في الدنيا من قهر ذلك اليوم ويبشرهم بذلك بقوله سبحانه : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (6) .

---

(1) البقرة 85 .
(2) الأنعام 93 .
(3) الأسماء والصفات للبيقهي ، ج 1 ، ص 164 .
(4) الشورىٰ 45 .
(5) الفجر 25 ـ 26 .
(6) النمل 89 .

والقهَّار هو الذي قهر الخلق علىٰ ما أراد [1] ، وذلك بأن كتب لإرادته العلو علىٰ كل إرادة ، وهو بذلك أنزل القهر بمن يعارض هـٰذه الإرادة عن طريق العجز الحاصل فيه عن رد إرادة القهار وهـٰذا هو القهر الحقيقي ، أن يكون المعاند مسلوب القدرة علىٰ رد أو منع إرادة ٱلله ، وإذ عرفنا ماذا يريد القهار لاشك سنفهم نوع القهر الذي يقع علىٰ المعاند أو الكافر ، ولذا فالقهار يريد أشياء تقع بالقوة والقدرة دون معاندة ومن هـٰذه الأشياء :

1 ـ يريد البيان والهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2]، وهـٰذه الإرادة متحققة قهراً لكل من لا يريد لها أن تكون شريعة الأرض ، فكل الأمم كانت بين أمرين لا ثالث لهما من القهار ، إما الإقرار والإيمان بما يريد القهار أو أن يحل بهم القهر المطلق الذي عليه تترتب أفعال العذاب الماحق الذي لا يبقي ولا يذر ، وقد قرّب القهار العباد من سبل الهداية بأن أرسل إليهم الأنبياء والرسل في كل الأمم والشعوب والمدن والقرىٰ ، مبشرين ومنذرين وداعين للعمل الصالح والفلاح في الأرض وإعمارها ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3] ، فإذا أبوا بعد ذلك قهرهم القهار بقوته وعزته فأرسل عليهم العذاب الدنيوي ولهم في الآخرة عذاب أليم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

(1) الاعتقاد للبيهقي، ج 1، ص 56.
(2) النساء 26.
(3) النحل 36.

يَتَّقُونَ ﴾ [1] ، بينما الناجي من هٰذا القهر الخليفة المتقي ، ولاشك يظهر هنا للمتأمل أن القهر حق وليس فيه ظلم أو جور علىٰ أحد من العباد ، وهٰذا ما يجب أن يعيه الخليفة القهار بالإضافة ، وأن يتمثل دلالة القهر الحقيقية ، فينزهها من الشوائب التي تنحىٰ به إلىٰ الظلم ، فيتحول من قهر حق إلىٰ قهر باطل .

2 ـ يريد تمييز المؤمن عن الكافر ، هٰذه الإرادة من حِكم القهَّار سبحانه لا يعلمها إلا هو ، لأن سبحانه قادر علىٰ أن يجعل الناس كلهم علىٰ الهدىٰ وليس فيهم ضال ولا جاحد ولا كافر ولا منافق ، ولٰكن ذلك يعني بالتأكيد أن يكون الإنسان مسيراً محكوماً وله طريق واحد هو الإيمان والعمل بالطاعات علىٰ أساس الجبر لا الاختيار ، وليس هٰذا هو المراد من خلق الإنسان ومن استخلافه علىٰ الأرض ، فالإنسان خلق لغاية يذكرنا بها القهار في كتابه وفي كل رسالته ، فيقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2] ، فالمطلب الأول هو العبادة ولٰكن أي عبادة! إنها عبادة الاختيار أي أن تؤمن بالله القهار سبحانه إيماناً مطلقاً وتاماً وذلك بأن تتمثل قوله جل وعلا : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] ، هٰذا هو الإيمان المطلق ، ونعود إلىٰ إرادة التمييز فبعد كل الدلائل وكل الأمثال يبقىٰ الاختيار عند الإنسان إما الإيمان وإما الكفر ، فهل يمكن لأحد من المخلوقات رد هٰذا الاختيار ، لقد قهر القهار عباده به فهو لا يرد ولو لم يقهرهم به لما بقي

(1) فصلت 17 ـ 18 .

(2) الذاريات 56 .

(3) البقرة 285 .

من حجة علىٰ كافر يعذب أو مؤمن يجازىٰ .

3 ـ عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (1) ، ويلاحظ في إرادة القهَّار أن منعها مستحيل بالمطلق وذلك لأن الأداة المحققة للقهر مكنونة في ذوات هـٰؤلاء الكافرين علىٰ سبيل الافتخار ، فهم يحبون المال حبّاً جمّاً : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (2) والقهار سبحانه يزيدهم منه في الدنيا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (3) ، والأموال كما الأولاد هما من الفتن التي فتن بها القهار هـٰؤلاء الكافرين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (4) ، فهل يستطيع أحد من هـٰؤلاء أن يرفض ما جُبل علىٰ حبه ؟ وهل يستطيع بعد ذلك أن يرد إرادة القهار ؟ فإذا كان الجواب لا وهو كذلك علمنا ما هو القهر .

4 ـ إرادة التسليم بالطاعة ، يريد القهار أن يسلم العباد له بالأمر والطاعة بعد أن يرسل إليهم من ينبههم ويدعوهم ويذكرهم ، فإذا أطاعوا فقد قهر القهار تجبرهم وأبدلهم به إيماناً يجزون عليه في الآخرة فلا يقهرون بالعذاب كما يبشرهم القهار سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (5) ،

---

(1) التوبة 85 .

(2) الفجر 20 .

(3) آل عمران 178 .

(4) التغابن 15 .

(5) الأنعام 48 .

وأما إذا أبوا التسليم فالقهار يقهرهم بقدرته ، ويضرب لنا القهار مثلاً عميق الدلالة علىٰ قدرة القهر وطبيعتها فيقول : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [1] .

القهار : غالب لا يُغلب [2] ، وغلبة القهار مطلقة بالأمر كما يقول سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، وهو غالب بجنده ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [4] ، وحزبه غالب : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [5] ، (حزب ٱلله) هم المتعاضدون علىٰ الحق بالحق . وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم . ويحتمل أن يريد بحزب ٱلله : الرسول والمؤمنين . ويكون المعنىٰ : ومن يتولهم فقد تولىٰ حزب ٱلله ، واعتضد بمن لا يغالب [6] ، وهو القهار سبحانه .

وعباده غالبون ، علىٰ الخصوص كما حدث مع سيدنا موسىٰ ، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [7] ، وعلىٰ العموم كما تنص الآية علىٰ غلبة المؤمنين عموماً ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [8] ، أما أعداء القهار فلن يغلبوا وإن سعوا وأعدوا

---

(1) الإسراء 16 .

(2) المواقف ، الإيجي ، ج3 ، ص 308 .

(3) يوسف 21 .

(4) الصافات 171ـ173 .

(5) المائدة 56 .

(6) تفسير الزمخشري ، ج 2 ، ص 39 .

(7) القصص 35 .

(8) آل عمران 160 .

واستعدوا ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، ولن يغلبوا وإن طال بهم الأمد وغرهم الأمل ، ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (2) ، وإن اعتضدوا بالشيطان وجنوده ، ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (3) .

هنا يجب أن يعلم الخليفة أنه قهار غالب إذا كان له من العمل والغاية ما يرتقي بهما إلىٰ مصاف القهار بالإضافة ، وذلك بأن يعمل بالحق وللحق عندها سيكون بالتأكيد غالب لا يغلب كما القهار جل وعلا . والقهَّار من العباد « من قهر أعداءه وأعدىٰ عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه فهي أعدىٰ له من الشيطان الذي قد حذر عداوته ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان إذ الشيطان يستهويه إلىٰ الهلاك بواسطة شهواته وإحدىٰ حبائك الشيطان النساء ومن فقد شهوة النساء لم يتصور أن ينعقل بهـٰذه الأحبولة فكذلك من قهر هـٰذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل ومهما قهر شهوات النفس فقد قهر الناس كافة فلم يقدر عليه أحد إذ غاية أعدائه السعي في إهلاك بدنه وذلك إحياء

(1) الشعراء 44 ـ 47 .
(2) الأنبياء 40 ـ 44 .
(3) الأنفال 48 .

لروحه فإن من مات عن شهواته في حياته عاش في مماته »[1] ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] .

والقهار : « قهر الكل ولم يدخل في القهر ذاته وصفاته »[3] ، فهو الذي قهر الناس بالحُجَّة المعجزة ، فكلما ارتقىٰ الناس في أمر واتخذوه حُجة علىٰ قوتهم وجبروتهم وتسلطهم جاء القهار بحجة من جنس ما يعرفون فقهرهم بها ، وأول من احتج بوحي القهار سبحانه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] ، ويلاحظ أن معجزة زمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت الفكر والجدل الذي عُرفت به بابل حيث كان النمرود يحكم ، لذا فإن الحجَّة القاهرة كانت من جنس ما يعرفون وهو جدال إبراهيم عليه الصلاة والسلام جدلاً عقلياً وذلك باستخدام أسلوب الاستدراج العقلي حيث استدرج إبراهيم النمرود إلىٰ ما يستطيع الرد عليه ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ فجاء النمرود بشخصين كما تذكر الروايات فقتل واحداً ثم ترك الآخر ، ثم انقض عليه إبراهيم بما لا يستطيع رده﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ مستمداً المعطيات الواقعية وهي الشمس وشروقها والقمر وغروبه وكلها مما شاهده النمرود

---

(1) المقصد الأسنىٰ في شرح معاني أسماء الله الحسنىٰ ، الغزالي ، ج 1 ، ص 82 .

(2) آل عمران 169 ـ 170 .

(3) الإنصاف ، الباقلاني ، ج 1 ، ص 56 .

(4) البقرة 258 .

وعايشه يومياً ، وهـٰؤلاء قوم فرعون عرفوا السحر حتىٰ خدعوا أعين الناس به وأوجسوا في أنفسهم ما لا يرضي ٱلله ، ﴿ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ، لـٰكن القهَّار غالب لا يغلب فلابد أن تكون حجته غالبة قاهرة ، ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [2] ، وفي الآية دلالات عظيمة من القهار ، ففيها إشارة إلىٰ عِظم سحر هـٰؤلاء تتمثل في خوف سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام من سحرهم ، لـٰكنه من جند القهار فهو أعلىٰ وإن عَظُم فعلهم مهما كان ، وفيها إشارة إلىٰ أن فعل هـٰؤلاء سحر أما فعل موسىٰ فهو قهر لهـٰذا السحر .

وهـٰذا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام حجته من جنس ما يبرع فيه القوم الذين أرسل إليهم ، فقد كان الطب عمل القوم الذي برعوا فيه ، فما من مرض إلا ووجدوا له علاجاً حاشا بعض الأمراض التي أعيتهم ، فجاء عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بعلاج لها متحدياً ومحتجاً بذلك عليهم ، فلما لم يؤمنوا قهرهم بما لم يتخيلوا فجاء بإحياء الموتىٰ بإذن ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

ثم جاء النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام حيث كان العرب في أوج بلاغتهم وفصاحة لسانهم إلىٰ الحد الذي كانت فخرهم الذي يفتخرون وعزهم

---

(1) الأعراف 116.

(2) طه 68 ـ 70 .

(3) آل عمران 49.

الذي يأملون ، فكانت القبائل تذبح الذبائح وتقيم الولائم إذا ظهر فيها شاعر ، لأن من شأن ذلك أن يشهد لهـٰذه القبيلة بالبلاغة والفصاحة ، لذلك كانت الحجة القاهرة من جنس علمهم وهو القرآن الآية في الفصاحة والبلاغة مع تحدٍ من القهار أن يأتوا بعشر سور من مثله ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [1] ، فلما تبين عجزهم تحداهم الإتيان بسورة واحدة من مثله ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [2] ، طويلة كانت أو قصيرة مثْلِهِ في البلاغة وحسن الارتباط وجزالة المعنىٰ علىٰ وجه الافتراء ، وحاصله علىٰ ما قيل : إن كان ذاك افتراء مني فافتروا سورة مثله فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً واعتياداً في النظم والنثر ، وعلىٰ هـٰذا فالمراد بإتيان المخاطبين بذلك إنشاؤهم له والتكلم به من عند أنفسهم لا ما يعم ذلك وإيراده من كلام الغير ممن تقدم ، ويجوز أن يكون المراد ما ذكر ولعله السر في العدول عن قولوا سورة مثله مثلاً إلىٰ ما في النظم الكريم ، أي إن كان الأمر كما زعمتم فأتوا من عند أنفسكم أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب وبلغائها كامرئ القيس ، وزهير ، وأضرابهما بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة فحيث عجزتم عن ذلك مع شدة تمرنكم ولم يوجد في كلام أولـٰئك وهم الذين نصبت لهم المنابر في عكاظ الفصاحة والبلاغة وبهم دارت رحىٰ النظم والنثر دل علىٰ أنه ليس من كلام البشر بل هو من كلام خالق القوىٰ والقدر [3] .

ولابد لنا من الوقوف مع مسألة اختيار الحجة من جنس علم القوم التي تنزل عليهم ، ولماذا هي قريبة من إفهامهم مع قدرة ٱلله علىٰ أن يأتي بما هو أقوىٰ وأعظم ؟ إن في هـٰذا الاختيار أعظم العبر علىٰ أن القهَّار عادل ، فلو

---

(1) هود 13 .

(2) يونس 38 .

(3) تفسير الآلوسي ، ج 4 ، ص 8 .

كانت الحُجة مما يفوق قدراتهم ومعارفهم لاختل ميزان الاحتجاج ، ولسقط التحدي ، من هنا كانت الحجة قريبة تُمكّن من يشاء أن يحاول تحدي هٰذه الحجة ، فالسحرة حاولوا غلبة حجة موسىٰ لٰكن القهار سبحانه وتعالىٰ قهرهم ، والعرب حاولت أن تأتي بمثل القرآن إلا أن تلك النصوص بدت سخيفة سمجة لا ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ فصاحة العرب وبلاغتهم مما جعلهم يستهجنونها قبل غيرهم .

والقهار يقهر ولا يُقهر ، ومن مظاهر قهره قهر الكيد والمكر ، ونقول : إن هٰذا من شأن القهَّار وحده سبحانه وتعالىٰ القادر علىٰ قهر الكيد والمكر وذلك لما فيهما من السرية والكتمان من قبل الكائد والماكر ، ولٰكن القهار عالم علام ، ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (2) من هنا من علمه سبحانه قهر كيد الكائدين ومكر الماكرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ

(1) طه 7 .

(2) المائدة 109 ــ 113 .

ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [1] ، وقد سَألنا معاندٌ عن وصف القهار نفسه بخير الماكرين ، فرددنا عليه بما قال من سبقنا من العلماء حيث فسروا المكر بأن قالوا : « إن أصل المكر في اللغة ، السعي بالفساد في خفية ومداجاة . قال الزجاج : يقال مكر الليل ، وأمكر : إذا أظلم ، وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [2] . وقال : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [3] ، وقيل : أصله من اجتماع الأمر ، وإحكامه .

فالمكر هو إحكام تدبير الأمر ، وهو علىٰ نوعين إما مكر سيِّئ ذكره القهار بقوله جل شأنه : ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [4] ، ومكر حسن ، نسبه القهَّار إلىٰ نفسه ، فقال : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [5] ، وهـٰذا المكر الحسن هو رد مكر السوء عن الناس فهو أفضل وأحسن من مكرهم ، وهو كذلك أقوىٰ وأعلىٰ من مكرهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [6] . وهو أسرع لأن من صفات المكر السرعة في تنفيذه لـٰكن مكر القهار أسرع ، ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [7] .

---

(1) آل عمران 54 .

(2) الأنفال 30 .

(3) يوسف 102 .

(4) فاطر 43 .

(5) الرعد 42 .

(6) النمل 50 ـ 51 .

(7) يونس 21 .

ومكر هٰؤلاء وإن كان عظيماً كما وصفه تعالىٰ بقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [1] ، إلا أن القهَّار قهر مكرهم هٰذا بقدرته التي ليس لهم ولا لغيرهم القدرة علىٰ مطاولتها أو ردها ، ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [2]

ومكر ٱلله جل وعلا « من صفاته التي تطلق مقيدة ، فالله ـ جل وعلا ـ يمكر بمكر من مكر بأوليائه وأنبيائه المستخلفين في الأرض ، وبمن مكر بدينه ؛ وذلك لأنها في الأصل صفة نقص ، ولٰكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة ؛ لأنها حينئذ فيها معنىٰ إظهار العزة ، والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلال والكمال ، فمكر ٱلله ـ جل وعلا ـ من صفاته التي يتصف بها ، علىٰ وجه التقييد ، فنقول : يمكر بأعداء رسله ، ويمكر بأعدائه ، ويمكر بمن مكر به ، ونحو ذلك » [3] .

وتظهر في تفسير اسمه القهار سبحانه قضية اقتران الواحد بالقهار في كل الآيات التي ذكر فيها اسم القهار سبحانه والآيات هي :

1 ـ ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [4] .

2 ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [5] .

---

(1) نوح 22 .

(2) النحل 26 .

(3) التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، ج 2 ، ص 39 .

(4) يوسف 39 .

(5) الرعد 16 .

3 ـ ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (1) .

4 ـ ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (2) .

5 ـ ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (3) .

6 ـ ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (4) .

وللعلماء في تفسير ذلك آراء كثيرة منها :

1 ـ جاء هٰذان الاسمان الكريمان (الواحد ، القهار) في القرآن مقترنين معرَّفين في المواضع كلها ، و كل ذلك في سياق إقامة الحجة علىٰ المشركين في الألوهية الزاعمين أن لله شركاء في استحقاق العبادة . فحصل المقصود مع بقاء الاسم (الواحد) علىٰ معناه المعروف الموافق لسائر الآيات ، هٰذا ولما كان الاسم (الواحد) إنما هو صريح في نفي النظير في الربوبية ، وما يقتضي استحقاق العبادة ، أردف في الآيات كلها بالاسم (القهار) ليتمم المعنىٰ المقصود (5) .

2 ـ واسم ٱلله القهار ارتبط باسمه الواحد في القرآن والسنة وذلك لأن ٱلله قاهر فوق كل قاهر ، فلا يوجد الانفراد في القهر إلا لله وحده ، وذلك لأن كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلىٰ ، حتىٰ تنتهي قوة القهر للواحد القهار ، فالقهر والتوحيد متلازمان (6) .

---

(1) إبراهيم 48 .
(2) ص 65 .
(3) الزمر 4 .
(4) غافر 16 .
(5) القائد إلىٰ العقائد ، عبد الرحمـٰن المعلمي اليماني ، ج 1 ، ص 138 .
(6) أسماء الله الحسنىٰ ، ج6 ، ص 22 .

3 ـ الواحد القهار ، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ما سواه وهـٰذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكناً لكان مقهوراً لا قاهراً ويجب أن يكون واحداً ، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ما سواه ، فالإله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً [1] .

ويمكن لنا أن نقول بالإضافة إلىٰ ما سبق : أن اقتران الواحد بالقهار فيه إيحاء عظيم الدلالة بقدرته عز وجل ، فهو الواحد وغيره يكون أكثر من واحد كآلهة الكافرين ، وكثرة المعاندين ، وأصناف المنكرين فلمن تكون الغلبة ؟ ألهـٰؤلاء المجتمعين ؟ أم للواحد ؟ لاشك أنها للواحد الذي قهر الجميع فهو القهار جل شأنه .

والفرق بين القاهر والقهار : أن القاهر هو الذي له علو القهر الكلي المطلق باعتبار جميع المخلوقات وعلىٰ اختلاف تنوعهم ، فهو قاهر فوق عباده ، له علو القهر مقترناً بعلو الشأن والفوقية ، فلا يقوىٰ ملك من الملوك علىٰ أن ينازعه في علوه مهما تمادىٰ في سلطانه وظلمه وإلا قهره القهار ، ومعلوم : أن المقهور يحتمي من ملك بملك ، ويخرج بخوفه من سلطان أحدهما ليتقوىٰ بالآخر ، لـٰكن الملوك جميعاً إذا كان فوقهم ملك قاهر قادر فإلىٰ من يخرجون وإلىٰ جوار من يلجؤون ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، فالقاهر هو الذي له علو القهر الكلي المطلق .

أما القهَّار فهو الذي له علو القهر باعتبار الكثرة والتعيين في الجزء ، أو باعتبار نوعية المقهور ، فالله عز وجل أهلك قوم نوح وقهرهم ، وقهر قوم

---

(1) تفسير الرازي، ج9، ص 45.

(2) المؤمنون 88.

هود ، وقهر فرعون ، وهامان ، والنمرود ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [1] ، وقهر قوم صالح ، وقوم لوط ، وقهر أبا جهل ، والمشركين ، وقهر الفرس ، والصليبيين ، والله سبحانه قهار لكل متكبر جبار ، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم ، وفيها المجرمون وما أظلمهم ، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلىٰ معين قهار ، وملك قادر جبار . فالقهار كثير القهر قهره عظيم أليم ، يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال ، ويقهر من نازعه في ألوهيته وعبادته ، وربوبيته ، وحاكميته ، وأسمائه ، وصفاته [2] .

اللهمَّ يا القهَّار اقهر العصيان فينا بالطاعة ، والضعف بالقوة ، والقلق والاستعجال بالطمأنينة والصبر ، واقهر الجهل بالعلم الذي يؤتىٰ منك ، وآتنا الحكمة حتىٰ لا نضل ، واقهر الخوف من غيرك بالخوف منك ! اللهُمَّ اقهر المرض بالشفاء والداء بالدواء يا من به آمنا وعليه توكلنا ! اللهُمَّ يا القهَّار اقهر أعداءنا وحاسدينا ، واقهر الظلم بالعدل والإحسان ، واقهر الطغاة بسيادة العباد في البلاد ، واقهر الفساد بالإصلاح ، واقهر سافكي الدماء بغير حق بالقصاص ، واقهر الكره بيننا بالمحبة في غير معصيتك واجعلنا من الوارثين ! اللهُمَّ اقهر الماكرين ومكرهم والكائدين وكيدهم إنك أنت القهار جل جلالك ! اللهُمَّ يا القهَّار هب لنا القوة والقدرة التي بها نتمكن من مغالبة وقهر الأعداء ومعرفة الدواء لكل داء ! اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق : ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ سبحانك مالك الملك الواحد القهَّار !

---

(1) النجم 50 ـ 56 .
(2) أسماء الله الحسنىٰ 72 ـ 73 .

الوَهَّابُ جلَّ جلالُه

الوهَّاب : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ جل جلاله ، وصفة من صفات العطاء بدون منٍّ أو انتظار عائد .

وفي لسان العرب :

الوهَّاب : من صفات ٱلله المُنعِم علىٰ العباد .

والوَهُوبُ : الرجل كثير الهبات .

والهبة : العطية الخالية من الأعواض والأغراض ، فإذا كثرت سمي صاحبُها وهاباً » [1] .

وفي منهاج الحلمي : الوهاب : هو « المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا عن استحقاق عليه » [2] .

قال ابن سيده : الوهاب هو من « وهب كل شيء وهبه وهباً ، ووهوب ووهّابة : كثير الهبة لأمواله » [3] .

وقال الإمام الطبري : الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد للثبات

(1) لسان العرب المحيط ، ج 3 ، ص 990 .

(2) المنهاج للحلمي . ج 3 ، ص 125 .

(3) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث . ج 5 ، ص 231 .

علىٰ الدين وتصديق الكتاب والرسل وهو من يهب لمن يشاء من مُلك ، وسلطان وغيره [1] .

أما الإمام الغزالي فقال : « الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض فإذا كثرت العطايا بهـٰذه الصفة يسمىٰ صاحبها جواداً وهاباً » [2] .

ويقول الخطابي : الوهاب هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة [3] .

والوهاب في نونية ابن القيم جاء علىٰ الآتي :

وكـذلـك الـوهـاب مـن أسمـائـه فـانظـر مـواهبـه مـدىٰ الأزمـانِ
أهـل السمـٰوات العُلـىٰ والأرض عـن تلـك المـواهـبِ ليـس ينفكـانِ [4]

الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض ، فإذا كثرت سمي صاحبها : وهَّاباً » [5] .

ويقول أحمد عبد الجواد : « القهار جل جلاله الجوَّاد المنعم المفضل بالعطايا ، كثير النَّوالِ دائم المعروف علىٰ جميع خلقه ، وسع الخلق بوجوده ورحمته » [6] .

عن عائشة رضي ٱلله عنها قالت : « إن رسول ٱلله ﷺ كان إذا استيقظ في

(1) الطبري ، جامع البيان . ج 3 ، ص 125 .
(2) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ص 57 .
(3) شأن الدعاء للخطابي ، ص 53 .
(4) النونية ، ص 146 .
(5) يوسف المرعشلي ، ولله الأسماء الحسنىٰ . بيروت ـ دار المعرفة ، 2003 ، ص 136 .
(6) أحمد عبد الجواد ، ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . القاهرة ـ دار الريان للتراث ص 59 .

الليل قال : لا إلـه إلا أنت سبحانك اللهُمَّ إني أستغفرك لذنبي وأسألك برحمتك ، اللهُمَّ زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ! »[1] .

الوهَّاب هو الفعَّال لِما يُريد ، فهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء ، ذرية صالحة ذكوراً أو إناثاً ، أو حِكمة أو حكماً أو مالاً حلالاً .

الوهَّاب كثير العطايا وهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئاً ، ولو كان ينتظر شيئاً لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحد لديه ما يعطي للمعطي المطلق ، وذلك لأنه لم يكن من الذين خُلقوا علىٰ الحاجة . فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطاءه عن كل الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئاً ، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطاءه عن الذين كفروا به وأشركوا . فمقابل ماذا يهبُ لهم الرزق والبنين والمُلك والعلم ، هل يُعطِيهم هـٰذا لأجل أن يشركوا ، ويكفروا به ؟ أم من أجل أن يعبدوه ؟ أم مقابل ماذا ؟

لم يكن بمقابل . ولـٰكن لأنهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] .

وهـٰذا لا يعني : أنهم سيتركون هـٰكذا ، بل لإعطائهم الفرص فهو يُمهل ولا يُهمل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[3] .

ولذا فإن الوهَّاب المطلق : هو الغلاَّب المطلق ، الذي لا يقدر علىٰ مغالبته أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه . فهو الغالب بهباته اللامحدودة ، وعطاياه المتنوعة ، وحسناته المتعددة ، وغفرانه للذنوب ، وعفوه وتكفيره عن

(1) سنن أبي داود، ج 14، ص 416.
(2) المائدة، 118.
(3) الطارق، 17.

السيئات والخطايا . إنه الذي يهب الحِكمة والحكم ، والعلم والرزق ، وكل شيء لمن يشاء . ومع أنه يعطي كل ذلك إلا أنَّ البعض يكفر به ويُشرك .

قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (1) . في هٰذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربه لأن يُثبت قلبه علىٰ الإيمان ولا يحيده عنه ، ومع أن هٰذه الآية سابقة علىٰ أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول ٱلله ﷺ ، كان هٰذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتىٰ لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون ، فانتشر بين المؤمنين هٰذا الدعاء لله الوهَّاب الذي يهب الرحمة علىٰ من يشاء دون مِنَّة ولا انتظار مقابل .

وإزاغة القلوب تعني : ميلها وحيادها عن الحق ، فالبعض بعد موت الرسول الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه ولَّوا وارتدُّوا إلىٰ ما كانوا عليه من شرك وكُفر ، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلىٰ الطريق المِعوج . ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح مما جعل أبو بكر يسلك نهج الإصلاح ، وتقويم الأمور ؛ حتىٰ لا يعم الفساد ، وتعود الأحوال إلىٰ ما كانت عليه من ظلمة وجهالة .

وفي قوله ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمَّه الرحمة هبة من ٱلله تعالىٰ . وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالىٰ هو واسع الرحمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ (2) .

فهب لنا ، تعني : امنحنا ، وارزقنا عطاءً من غير حساب يا من ترزق من

---

(1) آل عمران، 8 .

(2) غافر، 7 .

تشاء من غير حساب . ومن (لدنك ، تعني) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها علىٰ من تشاء من عبادك .

وقوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ تأكيد علىٰ أنه لا وهَّاب غيره ، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة ؛ وتدل علىٰ الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد علىٰ عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك . فأنت الوهاب : واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانك لا إلٰه إلا أنت الوهاب .

عن أم سَلَمَة ـ رضي ٱلله عنها ـ : أن النبي ﷺ كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك » ثم قرأ الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (1) .

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها ، مما يجعله متميزاً علىٰ أقرانه أو متميزاً في جيله . يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب ، ويعمل بمهاراته المتنوعة علىٰ إظهاره من فكرة إلىٰ موضوع ليشغل به حيزاً ويملأ به فراغاً حتىٰ يستمده الآخرون من بعده .

وبما أنه موهوب ، إذاً فمن ورائه وهَّاب ، وإلا من أين جاءته المواهب ، ولذا فالوهاب مصدر الهبة التي جاءت في اللغة من المصدر يهب . ولأنه الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء ، مما يجعله هو الآخر يهب من ما وهب إليه الوهاب الأعظم . ولهٰذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهَّاب المطلق حتىٰ أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة الممكن غير المتوقع .

---

(1) سنن الترمذي، ج 13، ص 21. .

قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ (1) في هـٰذه الآية جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاءاً علىٰ ما يقوله المشركون من كبائر ويفعلون ، فما هي حُجَّة هـٰؤلاء فيما يقولون علىٰ ٱلله ورسوله وأيضاً فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أرباباً من دون ٱلله تعالىٰ وهي من تراب ولا روح فيها ، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب ؟ .

فهل هـٰؤلاء وما يدَّعون يملكون خزائن الرحمة التي مفاتيحها عند ٱلله العزيز الوهاب حتىٰ يقولوا ما يفترون؟ . فهـٰؤلاء وما يعبدون من دون ٱلله لا يستطيعون أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا ، ولذا لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم وأريد به لأن يرث الأرض ويُستخلف فيها ، ولا يسفك الدماء بغير حق ، ويتقي ٱلله ربه ، أن يتخذ مع ٱلله إلـٰهاً آخر . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ (2) وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (4) في اعتقادنا فتنة سليمان فتنة مُلك الذي يتعلق أمره بالخاتم الذي به سرا ، حيث ضياعه جعل المُلك يضيع من سليمان صلوات ٱلله وسلامه عليه ، إلىٰ أن وجده بعد ضياع فعاد له المُلك وأزيل من كان متربعاً علىٰ كرسي الحكم جسداً لأيام معدودة دون أن يعمل شيئاً بأمر المُلك والحكم مصداقاً لقوله ﴿ جَسَدًا ﴾ أي صورة فقط

---

(1) ص، 9، 10 .
(2) الفرقان، 55 .
(3) العنكبوت، 17 .
(4) ص، 34، 35 .

ولا صلاحيات لها . و ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ تاب إلىٰ ٱلله تعالىٰ أي حمده وشكره علىٰ ما وهب له من فضل ونِعم بإعادة الخاتم إليه بعد ضياع ؛ ثم قال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ علىٰ الأسباب التي جعلتني أضيع الحكم بإضاعة الخاتم . ثم تلاها قائلاً : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ الوهب عطاء لا يؤخذ ، ولذلك قال : ﴿ وَهَبْ لِى ﴾ ولم يقل أعطني أو أرزقني أو امنحني ؛ وذلك لأن الوهب يبقىٰ ولا يزول إلا بزوال الحاكم الموهوب إليه الحكم ، وهـٰذا ما جرىٰ مع سليمان عليه الصلاة والسلام وحُكمه .

ولذا علينا أن نستقرئ المُطلقية من اسمه الوهَّاب جل جلاله ، فهو الذي إن وهب بث المُطلقية فيه حيث لا يعترضه عارض ولا يحول بينه حائل حتىٰ النهاية ، أو أن ينزعه منه نزعاً إن دخل الحكم الموهوب منه في دوائر الفساد ، ولذلك فهو يؤتي الحكم لمن يشاء مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

وقد يتساءل البعض : عن السر الذي من وراء قوله (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي) ؟ السر : أنه يريده مُلكاً لا يزول إلا بزواله ، أي ربط بقاء الملك ببقائه وزواله بزواله ، فإذا ما وهب له ٱلله ملكاً فلا يأمل أن ينزعه عنه أو منه نتيجة إيمانه بأنه قادر علىٰ أن يؤتي المُلك لمن يشاء وعلىٰ أن ينزعه ممن يشاء مصداقاً لقوله ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ : تعني لا غيرك قادر علىٰ أن يستجيب لهـٰذا المطلب أو هـٰذا الترجي والأمل ، ولوجود الأمل في قلب سليمان قال أنت الوهاب أي لا شك لي في أنك لا تهب لي مُلكاً لا يكون لأحدٍ من بعدي ،

(1) آل عمران، 26.

وهـٰذا لا يعني أن سليمان يعلم بعلم الغيب ، بل يعني وثوق الإيمان في قلب سليمان عليه الصلاة والسلام .

ومع أن غالبية العباد المراد استخلافهم في الأرض يقصرون تفكيرهم علىٰ ما هو متوقع إلا أن القلة والذين منهم سليمان لا يقصرون تفكيرهم في دائرة الممكن المتوقع فقط ، بل يمدونه إلىٰ دائرة الممكن غير المتوقع . ولهـٰذا كان الإيمان راسخاً في قلب سليمان بأن الوهاب الأعظم إن دعوته مخلصاً له الدين استجاب لك بتوبةٍ أو غفرانٍ أو هدايةٍ أو يَهَبُكَ رحمة مما هو أكبر . ولهـٰذا دعاه بما هو أكبر فاستجاب له الوهَّاب الأكبر بأن وهبه ملكاً لم يكن لأحدٍ من بعده .

الوهَّاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّع إذا ما استثنينا الأنبياء والرسل والصالحين الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتمَسَّ المتوقع وغير المتوقع اللذين يخترقهما ٱلله بعلم الغيب .

فيما يتعلق بالأمر المتوقع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث ، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقع وفقاً لحسابات العباد ، ولذا فالعباد المؤمنون برسالة محمد يتوقعون دائماً إعطاء الزكاة وأخذها من قِبل من هو في حاجة ، وهـٰكذا الصدقات تعطىٰ في دائرة الممكن المتوقع لمن هم في حاجة إليها ؛ وهـٰكذا يدخل الصوم والصلاة والحج في دائرة المتوقع في المجتمعات المؤمنة . أما ما يَهبُهُ الوهَّاب تعالىٰ فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقعين مما يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبة له في عقول العباد .

وعليه : فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهَّاب الذي يملك الأمر الذي إن أصدره وقال له كن ، فيكون . ومع ذلك بما أن الوهاب اسم وصفة ، إذاً فاستمداد هـٰذه الصفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقع .

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطىٰ فيؤخذ ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر

(كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي ، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتىٰ يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما مما يجعلهما يقعان معاً في دائرة الزمن المتوقع . أما الرحمة فتوهب ولا تعطىٰ كما هو حال الزكاة والصدقات ، ومع أنَّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقع .

وبالنسبة للوهَّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضاً يهب لمن يشاء ما يشاء بإذاً الوهاب الأعظم والسبب لأنه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم . ومما يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حق في الزمن غير المتوقع ، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبرأ أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحق . وهـٰكذا الحال مع من ينقذ غارقاً أو مظلوماً أو يعتق عبداً ويحرره دون انتظار مقابل .

يُحكىٰ : أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال : « أي اسم من أسمائه يجري علىٰ لسان أبي علي أكثر ؟ فقال الرجل : اسم (الوهاب) فقال الشبلي : لذلك كثر ماله » [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [2] . أي من كل ما دعوتم وطلبتم وهب لكم وأعطاكم ، و (من كل ما سألتموه) تدل علىٰ أشياء أربع :

الشيء الأول : أنه يملك أكثر مما سألتموه ، وهو لم يعطكم إلا ما سألتم .

---

(1) مجدي صور الشورىٰ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 467.

(2) إبراهيم، 34.

والشيء الثاني : أنه يملك أشياء أخرىٰ وأنتم لم تسألوه عنها .

الشيء الثالث : ولأن باب العطاء لم يقفل ما دمتم تسألوه ، فإن سألتم ومتىٰ ما تسألون سيأتيكم مما تسألون سواء بالمزيد مما سألتم منه تعالىٰ ، أو مما لم يسبق لكم أن سألتموه عنه جل جلاله .

الشيء الرابع : ولأن سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإن باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء مما لا تتوقعون .

أمَّا قوله ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ النعمة جاءت مطلقة ، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنه استكثر علىٰ ربه العظيم سؤالاً فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب .

ومهما ظن الإنسان أنه فكَّر في كل شيء أو قادر علىٰ أن يُفكر في كل شيء سيجد نفسه غافلاً وقاصراً عما يفاجئه في الدائرتين الآتيتين :

دائرة علم الغيب :

هي الدائرة التي لا يعلمها إلا هو حيث مهما فكَّرنا فلن نفكر فيما لم يكن لنا به علم أو دراية . قال تعالىٰ : ﴿ **قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ** ﴾ [1] . تحتوي هـٰذه الآية علىٰ اعتراف المؤمن العالم بعلم الغيب الذي لا يعلمه . أي أنه يعلم بما أعلمه ٱلله به بأن هناك بعث وحساب وثواب وعقاب وغيباً ، ولـٰكنه لا يعلم بما سيكون حيث ما سيكون من عند الوهاب هو علم غيب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ** ﴾ [2] . فنحن نعلم بأن الساعة آتية ، ولـٰكننا لا نعلم متىٰ ، ولا نعلم الكيفية التي ستكون عليها أو تأتي لنا بها ، ولذا لا نعلم بما لا نعلم ، فالذي يعلم بما لا نعلم هو العليم الحكيم .

---

(1) الأنعام، 50.

(2) الأنعام، 59.

دائرة الممكن :

الممكن هو الذي (لا شك في حدوثه ، أو ظهوره كلما توفرت معطياته أو شروطه) .

ولهـٰذا لا يعد الممكن مستحيلاً ، ولأنه غير مستحيل فهو سيقع بطبيعة الحال وفقاً لما نتوقع أو وفقاً لما لا نتوقع . فما يبدو متوقعاً من شخص ما قد لا يكون كذلك من شخص غيره .

فالإنسان مهما توقَّع سيجد نفسه قاصراً علىٰ أن يتوقع كل شيء مما خلق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [2] في اعتقادنا الذين لا يؤمنون بهـٰذا الأمر الذي تحتويه هـٰذه الآية الكريمة لا يعدونه أمراً متوقعاً . أما بالنسبة للمؤمنين فيعدونه أمراً متوقعاً في دائرة الممكن ، وذلك لأن الوهَّاب الأعظم وهب لعباده المؤمنين المعرفة الإعجازية التي جعلتهم يسلِّمون بأمر المقدرة الإلـٰهية المطلقة ، ولذا فهم يؤمنون بأنه قادر . أي بما أن ٱلله تعالىٰ خلق الأرض والسمـٰوات العلا إثباتاً ، إذاً بطبيعة الحال من يقدر علىٰ خلق الشيء يقدر علىٰ خلق مثله عدداً ، وذلك لأن الأمر لا مستحيل بالنسبة له ، ولم يعد صعباً بل إن كانت هناك صعوبة أو استحالة وفقاً لما نفكر به علىٰ مستوىٰ العقل البشري أن تكون في الخلق الأول . فقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [3] . تدل علىٰ أنه قادر علىٰ خلق أي شيء ، حيث لا شيء أعظم خلقاً من خلق السموات والأرض التي في عددها تتماثل مع السمـٰوات السبع مصداقاً لقوله (ومن الأرض مثلهنَّ) . وعليه

---

(1) النحل، 17 .
(2) ياسين، 81 .
(3) الطلاق، 12 .

الصعوبة والاستحالة أن تخلق الشيء أو تصنعه ، ولا صعوبة أو استحالة في أن تضاعفه عدداً .

مكونات دائرة الممكن :

دائرة الممكن تتكون من (المتوقع وغير المتوقع) وفقاً للآتي :

المتوقع :

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب) .

ولهٰذا معطيات حدوث المتوقع أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين ، مما يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب والدهشة .

والمتوقع يمكن أن يكون موجباً ، ويمكن أن يكون سالباً :

الموجب المتوقع : كطاعة الوالدين ، وإظهار الزكاة في وقتها والتصدق بأنواعه ؛ فبالنسبة للمسلمين هٰذه من المتوقعات الموجبة مثلها كمثل الإخلاص في العمل ، والتمسك بالعبادة والقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية .

السالب المتوقع : الغش علىٰ سبيل المثال وتطفيف الميزان وشهادة الزور وأكل أموال الناس بالباطل والسرقة بشكل عام ، والاغتصاب وغيره من السلوك السالب المتوقع .

غير المتوقع :

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع ، مما يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقع في دائرة الممكن ، ولهٰذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب .

ولذا ، يقع (غير المتوقع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة ، أو يقع نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة علىٰ وقوعه ، مما يجعله يقع (كما هو) إثباتاً .

وعليه ، ينبغي أن يتم التعرف علىٰ غير المتوقع وعلىٰ علله ومسبباته لاحقاً ليتم التعرف علىٰ نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق .

فغير المتوقع يمكن أن يكون موجباً ويمكن أن يكون سالباً ، فمن الموجب غير المتوقع علىٰ سبيل المثال : من كنت تعتقد بأنه سيخونك كان أول من حمىٰ ظهرك عندما تعرضت للخطر .

أما السالب غير المتوقع أن تجد من كنت تعتقد أن يكون حامياً لظهرك أول الخائنين لك .

ولذا فالممكن ليس بمستحيلٍ .

المستحيل : هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزمن . ولذا فإن كل ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن .

وعليه :

- لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن .
- كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن .

لذلك علىٰ من يراد له أن يكون خليفة في الأرض أن لا يغفل عن إظهار مواهبه وفقاً للقاعدة : (كل ما ليس بمستحيل فهو ممكن) .

ولذا فإن المستحيل من اختصاصات الخالق .

أما الممكن من اختصاص المخلوق .

الممكن له معطيات وله مؤشرات ، ويقع في الزمان والمكان كلما تهيأت له الظروف المناسبة لظهوره .

إذاً الممكن ليس مستحيلاً .

وبما أن الممكن ليس بمستحيل .

إذاً حظ الخليفة من الاسم الوهاب هو :

ـ أن يُفكّر حتىٰ يكتشف مواهبه ، ويخطط ويعمل بلا تردد .

ـ أن يتأكد قطعاً للشك أن كل شيء ممكن .

ـ لا ييأس إن فشل في المحاولة الأولىٰ لإظهار مواهبه .

ـ أن يُقيِّم ما يقوم به من جهد حتىٰ لا يستمر في الخطأ وهو لا يدري .

ـ أن يكرر المحاولة باجتياز ما وقع فيه من أخطاء .

ـ أن يثق بنفسه أنه قوة فليقبل بتحدي الصعاب .

ـ أن لا يلحقه شك في مواهبه التي وهبها له ٱلله تعالىٰ وأن يتمسك بالحق قولاً وعملاً وأن يتحدىٰ الصعاب فهي الهشة التي لا تصمد أمام المتوكلين علىٰ الوهاب الأعظم .

ـ أن يثق بأنه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع .

ولذا فإن القاعدة هي : (كل ما هو متوقع وغير متوقع ممكن) .

بما أن كل ما هو متوقع وغير متوقع ممكنٌ . إذاً بالنسبة لبني الإنسان فالممكن مؤسس علىٰ قاعدة . وغير الممكن مؤسس علىٰ استثناء وذلك نتيجة اختصاص الوهاب المطلق به .

ولهـٰذا فالمتوقع استقراء وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات . أما غير المتوقع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء .

وعليه :

لو لم يكن المتوقع في دائرة الممكن ، ما كان لأحد أن يتوقعه .

وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقع ، ما لم يكن في دائرة الممكن .

وبما أن كل شيء ممكن ، إذاً فلماذا الاستغراب ؟

الاستغراب : لحدوث أو ظهور غير المتوقع ، بدلاً مما هو متوقع . أي ظهور ما لم يكن في الحسبان .

لذا : فالعبد الذي يفكر في المتوقع فقط ، في معالجة الظواهر أو المشاكل ، قد يواجهه غير المتوقع فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يقرر .

فعلىٰ سبيل المثال : قيل لأحد الأصدقاء : إنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كل خير قد قَدِمَ علىٰ أفعال لا أخلاقية مع أحد أقاربه قبل خمس سنوات من هـٰذا العام . فأجاب علىٰ الفور وبكل سرعة : هـٰذا ليس ممكناً . أنا لا أصدق . وطلب الدليل والبرهان .

مع أن الأمر قد وقع قبل خمس سنوات من هـٰذا التاريخ إلا أنّ صديقنا لا زال لم يُصدِّق ، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد . وعندما أثبت له الأمر بدليل وبرهانٍ قاطعٍ دخل في دائرة الاستغراب ، وكأنه لم يُصدِّق .

وعليه :

- فكر في المتوقع .
- فكر في غير المتوقع .
- خطط في دائرة الممكن .
- لا تستغرب .

ـ تطلّع فإن كل شيء ممكن .

ولذا فالوهَّاب بالإضافة مهما امتلك من المواهب فهو علىٰ المستوىٰ البشري يؤمن بالقاعدة التي تقول : (لا تتاح الأشياء للمخلوق إن لم تكن ممكنة) وفي مقابل ذلك يؤمن بالقاعدة التي تنص علىٰ أنه (لا مستحيل علىٰ الوهَّاب المطلق) فكل شيء بالنسبة له ممكن .

هـٰذا صحيح . ذلك لأن المخلوق هو محدود المقدرة .

أما الوهاب المطلق فهو القادر علىٰ كل مطلق . ونحن بني الإنسان لا نخلق مستحيلاً ، ولـٰكننا نؤمن بأنه لا يخرج عن دائرة الممكن بالنسبة للوهاب تعالىٰ ، ويخرج عنها بالنسبة للوهاب بالإضافة .

وعليه فالمستحيل يُخلق عن الخالق الأعظم ، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل . ولهـٰذا يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [1] .

ولذا فإنَّ الموهوب لا يغفل عن دائرة الممكن والتفكير فيها ، والعمل وفقاً للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها ، حيث لا مستحيل في كل أمرٍ ممكن .

وعليه يعمل الموهوب علىٰ الآتي :

ـ إظهار الممكن .

ـ إنجاز الممكن .

ـ بلوغ الممكن .

ـ التخطيط وفق الممكن .

---

(1) الغاشية، 20.

ـ التطلُّع وفق الممكن .

وبما أن كل شيء ممكن .

إذاً فلماذا الاستغراب ؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقع . أي ظهور ما لم يكن في الحسبان ، وعليه يجب علىٰ المؤمن أن يضع في حسبانه كل ما هو ممكن حتىٰ لا يفاجأ . فعلىٰ سبيل المثال : البحث عن العمل لو لم يكن ممكن ، ما كان البحث عنه . ولهٰذا البحث عن العمل ممكن ، والحصول عليه ممكن . وأيضاً عدم الحصول عليه ممكن . هٰذا الأمر هو المتوقع ؛ لٰكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان ، وأنت تبحث عن فرصة عمل ، فهٰذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع .

أمَّا في دائرة المستحيل علىٰ المستوىٰ البشري فإنه من غير الممكن أن :

ـ نأتي بالشمس من المغرب .

ـ ندمج الشمس في القمر .

ـ يطير الإنسان من غير جناحين .

ـ نفكر إن فقدنا عقولنا .

ـ ومن غير الممكن أن نحيي الموتىٰ .

وقد يتساءل البعض : ما الفرق بين الممكن والمستحيل ؟ .

ـ الممكن ، قابل للإثبات والاكتشاف ، أي أنه في حاجة لمن يثبته ويبرهن علىٰ معطياته ومبرراته . ولذا فهو قابل للإثبات والنفي والرفض ، والظهـــور والكمـــون والشـــك والمقـــارنـــة والثبـــات والاهتـــزاز ،

وقابل للدراسة والبحث والتقويم .

أما المستحيل فمثبت . وهو الذي نعلم به ولا نعرفه ، فعلىٰ سبيل المثال :

ـ نعلم بيوم الحساب ولـٰكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك .

ـ الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله .

ـ القمر يعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها .

ـ الموتىٰ لا يعودون إلىٰ الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا .

ـ المستحيل مع أنه موجود إلا أنه لا ينفىٰ .

ـ عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غداً وفقاً لعلمنا ولـٰكن قد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه إذا صدر له الأمر كن من عالم الغيب .

إذاً المستحيل : هو الذي لا يمتلك العباد أمره حيث خروجه عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا .

إذاً المتوقع وغير المتوقع هما اللذان يقعان من قِبل المخلوق أو من طرفه . والمستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق .

ولذا فكلاهما يحدث ، وفقاً لتوقعاتنا . إلا أن الممكن يتحقق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا علىٰ فعله .

وعليه المستحيل نتوقعه ولـٰكن وقوعه من خارجنا ، أما الممكن نتوقعه ويحدث من داخلنا .

بناء علىٰ ما تقدم هل يمكن لنا أن نفرق بين الصعب والمستحيل ؟ .

الصعب فعل يُنفىٰ ويُثبت ، ولهـٰذا فهو ممكن ، وبالرغم من أنه

ممكن إلا أنه ليس سهلاً . ولذا فهو في حاجه لبذل الجهد ، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية . والمستحيل هو الذي لا يتحقق وذلك لانعدام مقومات وجوده أو إثباته .

وعليه : من المستحيل أن يكون الإنسان إلـٰهاً . ومن الصعب أن يصبح الإنسان عالماً .

وبما أنه من الصعب أن يصبح الإنسان عالماً ، إذاً فمن الممكن أن يكون .

قال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) . أي كيف يمكن له الولد وامرأته عاقر لو لم يهبه ٱلله إياه ؟ ولذا قال : (وهبنا له إسحاق) للتأكيد علىٰ أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متىٰ ما يشاء ، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

وإسحاق الذي وهبه ٱلله تعالىٰ لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولد له من بعده هو يعقوب عليه الصلاة والسلام . (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) تدل هـٰذه الآية الكريمة علىٰ أن النبوة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد ، إلا من بعده حيث أصبحت النبوة والرسالات في ذريته عليهم جميعاً الصلاة والسلام . وهـٰذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبياً مثلما إبراهيم نبياً وكذلك جعل من يعقوب حفيداً لإسحاق ونبياً . إذاً الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصَّهم ٱلله باصطفاء الأنبياء منهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) . فآل إبراهيم هم الذين يؤولون إليه في حالتين :

---

(1) العنكبوت، 27 .
(2) آل عمران، 33 .

الحالة الأولىٰ : أنهم من صلبه .

والحالة الثانية : أنهم من دينه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ (2) .

وهٰكذا هو الحال مع الذين من بعده من آل بيته وهم :

آل عمران ، وآل ياسين ، وآل موسىٰ وهارون ، وآل داود ، ومحمد . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (3) وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل موسىٰ وآل هارون وآل داود ثم ذكر أهل البيت في هٰذه الآية فكان المقصود به نساء الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكذلك لم يبق له ولد ذكر حتىٰ ينجب مما يدل علىٰ انقطاع الاصطفاء من بعد محمد الذي يعود كما يعود الأنبياء من قبله إلىٰ آل بيت إبراهيم . وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم وهم الذين أسلموا لله ربِّ العالمين .

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلىٰ آل البيت ينبغي أن يتوفر فيه شرطان :

الشرط الأول : أنه من الذين يؤولون إلىٰ إبراهيم دماً .

الشرط الثاني : أنه من الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولٰكن كان حنيفاً مسلماً . ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام

---

(1) آل عمران، 95.

(2) آل عمران، 67.

(3) الأحزاب، 33.

مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [1] ، والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب المؤمنين وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك ، ولهٰذا فالتوحيد يؤدي إلىٰ الاطمئنان ويحقق الأمن والشرك لا يحقق إلا الخوف قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [3] .

ولأن ما وهبه ٱلله تعالىٰ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا ينقطع فقد أضاف ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : أنه كسب الدنيا بما عمل دعاءً متصلاً مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله جل جلاله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [4] فلما هاجر إبراهيم من أجل دينه وحيداً وهب ٱلله تعالىٰ له ولداً هو إسحاق ، ووهب له ولد ولدٍ هو يعقوب عليهما الصلاة والسلام حتىٰ لا يكون وحيداً ، وبقيت النبوة فيهم إلىٰ الرسالة الخاتمة التي وهبها ٱلله تعالىٰ رحمة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وبقيت الرسالة هداية للعالمين وبقي البيت لله وحده مثابة وأمناً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [5] وذلك استجابة لسؤال موسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ

(1) البقرة، 127.
(2) البقرة، 125.
(3) قريش، 3 ـ 4.
(4) مريم، 49 ـ 50.
(5) مريم، 53.

أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ [1] لذا كانت الاستجابة هبة من رحمته علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

قال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [2] . فالوهَّاب المطلق مثلما وهب هارون لموسىٰ عليهما الصلاة والسلام وهب سليمان لداود عليهما الصلاة والسلام ، وبالتالي بما أن باب الوهب مفتوح لمن يصدر الأمر له رحمة من الرحمـٰن الرحيم فلا يستطيع أحد من العباد غلقه . وبهـٰذا الوهب سينتصر الإسلام حتىٰ يعم المعمورة وحينها يثق الإنسان بأنه في الأرض خليفة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [3] . أي أن يحيىٰ عليه الصلاة والسلام كان استجابة لدعاء زكريا عليه الصلاة والسلام وهِبة من ٱلله تعالىٰ عليه بالرغم من أن زوجه عاقر ولهـٰذا قال (أصلحنا له زوجه) حتىٰ أنجبت يحيىٰ الذي وهبه ٱلله تعالىٰ لزكريا ، حتىٰ لا يتركه منفرداً لا ولد له ليرثه من بعده ، ولأن الوارث المطلق هو ٱلله قال زكريا : (وأنت خير الوارثين) ببقائك الدائم الذي لا يماثلك فيه أحد من خلقك سبحانك أتوب إليك ، لا إلـٰه إلا أنت الحي الدائم .

وحظ الخليفة في الأرض من هـٰذا الاسم والصفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصة لله تعالىٰ ، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية ٱلله ، حتىٰ أنه يخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وأن يهب الطاعة للحق والعدل وأفعال

---

(1) طه، 29 ـ 31 .

(2) ص 30.

(3) الأنبياء 89 ـ 90.

الخير الحسان ، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن .

وحظ الخليفة من اسمه الوهاب أيضاً : أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهداً أو فكرة أو قولاً أو مالاً ، ودون مقابل عائد منتظر . وأن لا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهباً دون منَّةٍ منه أو انتظار ثواب عاجلاً أم آجلاً .

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكِّنه من أن يعطي ولا يمنن ، ويعطي ولا ينهر ، ويعطي ولا يندم ، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطىٰ شيئاً عاجلاً أو آجلاً . وأن يستثمر مواهبه التي وهبها إليه الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقق لهم الأمن والسلام ويجعلهم علىٰ الوحدة والمحبة والوئام لا علىٰ الفُرقة والشقاق والصدام .

إن المواهب التي يهبها الوهاب الحق لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُجحد ، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثراً طيباً بين الناس .

وعليه فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخّر لنا الفلك تجري بأمره في البحر بما ينفع الناس ، ووهب لنا الماء فجعل منه كل شيء حي ، ووهب لنا الرزق وجعلنا النافقين منه ، وهو الذي أرسل الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة ، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السماء والأرض لقوم يفقهون ، وأحل لنا ما تشتهيه الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر ، ووهب لنا من أنفسنا أزواجاً ورحمة لنسكن إليها ، ووهب لنا ذرية صالحة وفضلاً كبيراً .

وعليه ، يوضع اسم ٱلله تعالىٰ (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة الهبة والعطاء وهي (البر ، الكريم ، الواسع) . هٰذه الأسماء تتقارب معانيها ، وتدل كلها علىٰ اتصاف الرب ، بالرحمة ، والبر ، والجود ،

والكرم ، وعلىٰ سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته ، وخص المؤمنين منها ، بالنصيب الأوفر ، والحظ التام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [1] .

(الوهاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه ، فلا يستحق أن يسمىٰ وهاباً إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت ، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً ورزقاً ، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولداً لعقيم ولا هدىً لضال ولا عافية لذي بلاء ، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها « المعطي والمانع » [2] .

واسم ٱلله تعالىٰ (الوهاب) هو مصدر كل هبة ، والهبة هي العطية الخالية من العوض والغرض ، فالهبة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض ، يقال وهبته هبة وموهبة وموهباً ، قال تعالىٰ : ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [3] أما قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ [4] فنسب الملك إلىٰ نفسه الهبة لما كان سبباً في إيصاله إليها . ويوصف ٱلله تعالىٰ بالواهب والوهاب بمعنىٰ أنه يعطي

---

(1) الأعراف 156 .
(2) الأسماء والصفات ، ج 1 ، ص 138 .
(3) إبراهيم 39 .
(4) مريم 19 .

كلاًّ علىٰ استحقاقه [1] ، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من ٱلله تعالىٰ ، إذ لا مالك بالمطلق سواه ، و المالك هو القاعدة الأساسية لكل هبه أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] هـٰذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة علىٰ ملك ٱلله تعالىٰ ، تعظم في أنفسنا عظم ملك ٱلله تعالىٰ ، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل بمجموعها تشكلاً معرفياً يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة ، أبرز ما يسم هـٰذه الدلالات أنها تمركزت علىٰ ملك ٱلله تعالىٰ وقدرته في الهبة والعطاء ، وفي قضايا مهمة جداً ، ومن هـٰذه القضايا هي قضية الذرية ، التي تشغل حيزاً كبيراً في الفكر البشري ، فهي أصل الاستمرار وبقاء النوع ، فضلاً عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا ، يقول رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام : « إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ : إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » [3] . هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها ، وهـٰذه الصورة تبقىٰ ملازمة للخليفة يطلبها حثيثاً مما يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلىٰ تشكل من تشكلات المغفرة التي يسعىٰ لها ، لـٰكن هـٰذا لا يتحقق للجميع ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا

---

(1) المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 533 .

(2) آل عمران 26 ـ 27 .

(3) صحيح مسلم، ج 8، ص 405 .

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (1) النص القرآني هنا يحيل إلىٰ تشكيلات مختلفة من الهبة ، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك ٱلله تعالىٰ ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء ، والتدبير لجميع الأمور ، والهبة المتحققة هنا تجري وفق مشيئة ٱلله تعالىٰ وحكمته ، فالثنائية التي يرتكز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثىٰ وعدم الاستمرار العقم ، والأمور هنا تعود إلىٰ قاعدة واحدة وهي الزواج ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ومن هٰذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه ، فمن الخلق من يهب له ٱلله تعالىٰ إناثاً ، ومنهم من يهب له ذكوراً ، ومنهم من يزوجه ، أي : يجمع له ذكوراً وإناثاً ، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له . وفي كل هٰذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم ٱلله تعالىٰ ، فإنه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه جل جلاله إنه ربي ، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء ، وبقدرته في مخلوقاته . وتتضح صورة علم ٱلله تعالىٰ في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ (3) ، وهنا قتل الغلام رغم أنه إحدىٰ الهبات الثلاث ، إذ يتجلىٰ الأمر ليحيل لنا علم ٱلله تعالىٰ بما يصلح للخلق ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (4) هنا ترتسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالىٰ : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ إلا أن دلالتها هنا موجودة وإن لم ترد في النص القرآني ، إذ أن الهبة تحققت

---

(1) الشورىٰ 49 ـ 50 .

(2) الروم 21 .

(3) الكهف 74 .

(4) الكهف 80، 81 .

هنا بالذكر ، لـٰكن هـٰذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرحمة المتحققة للأبويين ، مما يعزز هنا فكرة الرحمة المصاحبة للهبة . وهـٰذا يحيلنا إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [1] هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنة ، وبطريق هو يختاره دون باقي الطرق ، فضلاً عن ذلك أن هـٰذه الصفة تعنىٰ بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدْعُون ٱلله أن يرزقهم أزواجاً وذرّيّات تقَرُّ بهم أعينُهم ، فالأزواج يُطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه ؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهن في الدين ، والذّريات إذا نَشَأوا نشأوا مؤمنين ، وقد جُمع ذلك لهم في صفة ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقَرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين [2] . هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكلية متعددة تسير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكئ علىٰ الآخر من أجل الوصول إلىٰ نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيل الجنة كما صورت له في القرآن الكريم ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [3] وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلىٰ مرضاة ٱلله تبارك وتعالىٰ .

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] .

(1) الفرقان 74 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 10 ، ص 126 .
(3) الإسراء 19 .
(4) الأنعام 84 .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ (1) إلا لموسىٰ عليه الصلاة والسلام فإن الهبة كانت أن وهب ٱلله تعالىٰ له أخاه هارون عليه الصلاة والسلام ، يقول تعالىٰ : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ۝ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ۝ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ (2) والهبة المتحققة هنا سبقها سؤال من موسىٰ عليه الصلاة والسلام لله تعالىٰ تضمن أن يكون هارون وزيراً له ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ۝ ويسر لي أمري ۝ واحلل عقدة من لساني ۝ يفقهوا قولي ۝ واجعل لي وزيرا من أهلي ۝ هارون أخي ۝ اشدد به أزري ۝ وأشركه في أمري ۝ كي نسبحك كثيرا ۝ ونذكرك كثيرا ۝ إنك كنت بنا بصيرا ۝ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (3) ، والهبتان المتحققتان تدلان علىٰ حكمة ٱلله تعالىٰ في تيسير دعوته ، فكل الهبات عدا هبة موسىٰ عليه الصلاة والسلام جرت ضمن تشكل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترىٰ وختاماً ، قال تعالىٰ : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ (4) .

قال تعالىٰ : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ (5) فهنا يحدث تشكلاً ملازماً ومستمراً للرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو العقوبة المتحققة المستمرة التي لا تنقطع ، فكلما بعث رسول إلىٰ القوم الذين أُرسل إليهم ، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكل الوسائل ، فأهلكهم ٱلله تعالىٰ وألحقهم بمن تقدمهم من المهلكين ، وجعلهم أخباراً وأحاديث يتحدث بها الناس ، فهنا يحصل التزامن

---

(1) ص 30 .
(2) مريم 51ـ53 .
(3) طه 25ـ36 .
(4) الفرقان، 74.
(5) المؤمنون 44 .

بين إرسال الرسل وبين العذاب المتحقق ، وكلا الأمرين في حالة استمرار إلىٰ أن تتحقق الدعوة التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر جل جلاله .

أما هبة موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصلاة والسلام ، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب ، وطلب موسىٰ عليه الصلاة والسلام اشتمل علىٰ أمور كثيرة ذكرها وكلها تتعلق بهارون عليه الصلاة والسلام ، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت ، وهنا نعود إلىٰ سؤال موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد علىٰ الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض ، والقهر للضعفاء ، حتىٰ إنه ادعىٰ الربوبية والألوهية ، فقد أحس أنه يحتاج إلىٰ أمور تعينه وتكون سبباً في إصلاح المرسل إليهم ، فكانت البداية بشرح الصدر ، لأن في سعته تحمل للأذىٰ الذي قد يتعرض له ، وقد يكون أذىً قولياً أو فعلياً ، لأن الصدر إذا ضاق ، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم . وهنا نتذكر قول ٱلله تعالىٰ لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ (2) فهنا صورة التيسير غير محدده فهي مطلقة ، يريد موسىٰ عليه الصلاة والسلام كل الطرق الموصلة لتحقيق الهدف المنشود أو المأمول ، ثم بعد ذلك يعرض عيباً فيه ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن

(1) آل عمران 159 .
(2) طه 26 .

لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام ، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهمة في التواصل والتفاهم والحوار والجدل ، إذ أن مهمته تتطلب هٰذه الأداة فلابد أن تكون مهيأة كي تؤدي عملها المرتقب ، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني . ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير والمهم : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلاً عن المؤازرة والمساعدة وهي أن الاختيار أراده لأخيه هارون عليه الصلاة والسلام فذلك من باب البر وأحق بالبر القرابة ، ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ ولم يكتفِ موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالمشاركة لهارون معه بالأمر بل الإشراك بالنبوة ، بأن يجعله ٱلله تعالىٰ نبياً رسولاً مثله . فكانت الإجابة من ٱلله تعالىٰ : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي أعطيت جميع ما سألت ، فكل ما سأله موسىٰ عليه الصلاة والسلام يصب في صلب دعوة ٱلله تعالىٰ ، فهو علىٰ معرفة تامة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلبه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (1) هٰذه الآية تمثل صورة من صور الدعاء ، والدعاء هو العبادة ، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة ، فلنتعرف علىٰ آداب الدعاء وأسباب الإجابة :

1 ـ النية الخالصة في طاعة ٱلله تعالىٰ .

2 ـ الإخلاص في طاعة ٱلله قولاً وعملاً .

3 ـ الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة .

(1) الأنبياء 89 ـ 90 .

4 ـ الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال .

5 ـ الدعاء في الرخاء والشدة .

6 ـ لا يسأل إلا ٱلله وحده .

7 ـ الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ، والاعتراف بالنعمة وشكر ٱلله عليها .

8 ـ التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

9 ـ التوسل إلىٰ ٱلله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ ، وعليك بمعرفة أن لكل صفة من صفات ٱلله وأسمائه التي لا تحصىٰ استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه .

10 ـ أن يكون الداعي طعامه ومشربه وملبسه حلال .

11 ـ أن يكون مصلحاً في الأرض .

12 ـ أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر .

13 ـ الابتعاد عن جميع المعاصي [1] .

فبعد التعرف علىٰ آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلىٰ دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة ، نجد أن النص القرآني علل سبب الاستجابة بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ هنا أثنىٰ ٱلله تعالىٰ عليهم ، فقد كانوا يبادرون إلىٰ الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها ، إلا انتهزوا الفرصة فيها ، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ، ويرهبون غضب ٱلله تعالىٰ ، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالىٰ .

(1) الدعاء ويليه العلاج بالرقىٰ الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 4 .

أما علاقة الأسماء الحسنىٰ بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام ، فقد اختار اسماً من أسماء ٱلله الحسنىٰ يتعلق بمضمون دعائه ، وهو اسم (الوارث) ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وجملة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ثناء لتمهيد الإجابة ، أي أنت الوارث الحق فاقض عليّ من صفتك العلية شيئاً [1] فزكريا عليه الصلاة والسلام فكَّر في أمر الدعوة ومن يقوم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو ٱلله تعالىٰ ، فالدعوة تحتاج إلىٰ استمرار ، وهٰذا الاستمرار يتضمن البقاء ، فقوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي : خير الباقين ، فذكر صفة من صفات ٱلله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها ، وهٰذا الأمر تحقق أيضاً للنبي أيوب عليه الصلاة والسلام بعد أن مسه الضر ، يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [2] . وهٰذا الأمر لا يقتصر علىٰ الأنبياء بل يشمل كل الخلق ، يعني أن أسماء ٱلله الحسنىٰ تتردد بين ثنيات دعاء الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم ، فالمحتاج للرأفة والرحمة يكون في دعائه (الرحمٰن ـ الرحيم ـ الفتاح ـ اللطيف ـ الرءوف ـ الودود) والمحتاج للهبة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب ـ البر ـ الكريم ـ الواسع) وكذلك بقية أسماء ٱلله الحسنىٰ .

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هٰذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير مما يرىٰ فيه تحقيق حاجة في النفس ، أو مطلب من مطالب الحياة ، من الأمور المادية أو المعنوية ، العاجلة أو الآجلة ، بوصفه نفساً إنسانية ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ

---

(1) التحرير والتنوير ، ج 9، ص 201 .

(2) الأنبياء 83، 84 .

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [1] ولما كان تحقيق ما ترجوه هـٰذه النفس مرتبطاً بالواقع بقضاء ٱلله تعالىٰ وقدرته ومرهوناً بإرادة ٱلله تعالىٰ وقدرته ، ولا يتم إلا بعطائه وهبته ، فهنا لابد من التوجه إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، فهو الرب المتفضل علىٰ عباده بالعطاء ، وهو الذي يحقق ما يريدون ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [2] .

وحظ الخليفة من اسم ٱلله تعالىٰ (الوهاب) أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر استطاعته ، في الحدود والمقاييس البشرية ، فيكون وهاباً كريماً ، واسع العطاء مما تفضل ٱلله تعالىٰ عليه من مال أو جاه ، وذلك بالبذل السخي في أبواب البر التي حضّته علىٰ البذل فيها شريعة ٱلله تعالىٰ .

واسم (الوهاب جل جلاله) في حق ٱلله تعالىٰ يدل علىٰ البذل الشامل ، والعطاء الدائم بغير مكلف ولا عرض ولا عوض ، وكل من يعطي سواه فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا ، أو في الدين عاجلاً أم آجلاً ، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في ٱلله وحده ، لأن الهبات قدر منه سبحانه علىٰ عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاد بل في نماء وازدياد ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] هـٰذه صورة من صور النماء التي بينها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده ، هـٰذا بيان للمضاعفة التي ذكرها ٱلله في قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا

---

(1) الكهف 46 .

(2) غافر 60، 61 .

(3) البقرة 261 .

كَثِيرَةً ﴾ وهنا قال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : في طاعته ومرضاته ، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهـٰذا إحضار لصورة المضاعفة بهـٰذا المثل ، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هـٰذه المضاعفة ببصيرته ، فيقوىٰ شاهد الإيمان مع شاهد العيان ، فتنقاد النفس مذعنة للأنفاق سامحة بها مؤملة لهـٰذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة ، ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ ﴾ هـٰذه المضاعفة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي : بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها ، ويحتمل أن يكون ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ ﴾ أكثر من هـٰذه المضاعفة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ الفضل ، واسع العطاء ، لا ينقصه نائل ولا يخفيه سائل ، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة ، لأن ٱلله تعالىٰ لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء علىٰ كثرته ، ومع هـٰذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هـٰذه المضاعفة ومن لا يستحقها ، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته (1) .

وختاماً ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (2) .

اللهمَّ يا الوهاب هب لنا الرزق الحلال والملك الحلال وهب لنا الصحة والعافية وهب لنا القوة والبركة في كلِّ قولٍ ، وفي كلِّ فعلٍ ، وعمل ! اللهمَّ هب لنا سلطان العلم والحكمة والتقوىٰ والهيبة ، وهب لنا القدرة علىٰ تفادي المخاطر وكيد الكائدين وحسد الحاسدين ومكر الماكرين وسحر الساحرين إنك أنت ربنا الوهاب سبحانك ما أعظم شأنك سبحانك جل جلالك !

---

(1) تفسير السعدي، ج 1، ص 112 .

(2) الفرقان، 74.

اللهمَّ هب لنا نوراً ينير دروبنا وبصائرنا ، وهب لنا قولاً يكون حُجة لنا لا حُجَّة علينا ، وهب لنا سمعاً لا تضيق به أنفسنا ، وبصراً لا يغفل عن رؤية جمالك ، وعقلاً لا يقصر عن معرفة معجزاتك ، ولساناً يذكرك كثيراً ويسبح بحمدك وشكرك كثيراً ! اللهمَّ هب لنا الفطنة التي تمكننا من قول الحق وفعل الحق وتجنب الزلات إنك سميع قريب مجيب الدعوات سبحانك أنت الوهاب جل جلالك ! اللهمَّ هب لنا الفوز علىٰ وسوسة الشياطين من آبالسة الإنس والجن أجمعين ، وهب لنا حفظة كراماً يحيطون بنا وبما نملك ! اللهمَّ هب لنا الثقة التي بها نكون ثابتين علىٰ طاعتك وعبادتك ، وهب لنا من الصالحين أعواناً ، وهب لنا صحة الأنفس والأبدان وسلامة العقل واللسان وسلامة العمل والفعل ! نحمدك يا وهاب يا من جعلتنا من الذين يدعونك واحداً أحداً ولا يشركون بك شيئاً ! وندعوك يا وهاب باسمك الأعظم (الله) أن تجعل في ألسنتنا القوة والقدرة ، وفي سمعنا القوة والقدرة ، وفي بصرنا القوة والقدرة ، وفي جميع حواسنا ومشاعرنا أنت القوة والقدرة سبحانك جل جلالك !

الرَّزَّاق جل جلاله

الرزَّاق : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ وصفة من صفاته الكريمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [(1)] .

وفي لسان العرب المحيط الرزَّاق : هو « خالق الأرزاق وهو من أعطىٰ الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم ؛ والأرزاق نوعان : ظاهرة للأبدان كالأقوات ، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم . والرزق ما يُنفع به وهو العطاء » [(2)] .

والبيهقي يقول : « الرزَّاق هو القائم علىٰ كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وما مكنها من الانتفاع من مُباح وغير مُباح » [(3)] .

ويقول الإمام الغزالي : « الرزَّاق هو الذي خلق الأرزاق والمرزوقين ، وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها » [(4)] .

قال الحليمي : « الرزَّاق هو المُفيض علىٰ عباده بما يجعل لأبدانهم قواماً » [(5)] .

---

(1) الذاريات ، 58.

(2) لسان العرب المحيط . ج الأول ، ص 1160 .

(3) محمد حسين ، شرح أسماء الله الحسنىٰ . الإسكندرية ـ 1996 ، ص 38 .

(4) الإمام الغزالي ، القول الأسنىٰ . ص 79 .

(5) مجدي صور الشورىٰ ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ . القاهرة ـ مكتبة =

وقال الطحاوي : « رازق بلا مؤنة بل لو سألوه جميعاً فأعطاهم ما سألوه لم ينقص ذلك من مُلكه كما قال في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » [(1)] .

وقال الخطابي : « الرزَّاق هو المتكفل بالرزق ، والقائم علىٰ كل نفس بما يقيمها من قوتها » [(2)] .

الرزَّاق : هو الذي له صفتا خلق الرزق ، وإيصاله لمن هم في حاجة ، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق ، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر .

وقد يتساءل البعض عن كونه المصدر الذي به تتعدد المصادر ، فيقال : الرزَّاق هو مصدر الرزق ، والرزق يتعدد بمصادره في السماوات والأرض ، فالرزاق سابق علىٰ السماوات والأرض وهما من المصادر الرئيسة للأرزاق حيث لولاها ما خُلقنا والكائنات وما رُزقنا علىٰ ظهرها . ولذا فالرزاق هو المصدر الذي خلق للرزق مصادر ، فخلق السماوات وخلق الأرض وخلق فيها رزقاً ثم خلق منها الإنسان تالياً علىٰ الرزق ليكون كغيره من المخلوقات علىٰ الرزق يعيش ويحيا مما آتاه الرزَّاق من نصيب ليشبع حاجاته المتنوعة والمتعددة والمتطورة ، ثم يجازىٰ في الحياة الآخرة بالثواب أو العقاب ليكون بما فعل من حسنات أو سيئات من أصحاب الجنة أو أصحاب النار .

= العلم، 1999، ص 265.

(1) الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنىٰ. رسائل جامعية بيروت، دار ابن الجوزية، 2005، ص 322.

(2) حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنىٰ ابن القيم الجوزية. القاهرة، دار الفجر للتراث، 2002، ص 128.

والرزَّاق : مصدر يرزق رزقاً ، ومع أن رَزِقَ مصدر لمن يرزق رزقاً ، إلا أنها لا تأتي إلا من مصدر ، ومصدرها الرزَّاق جل جلاله ، فلو لم يكن رزَّاقاً ما كان للرزق محل من الوجود والإعراب . ولذا فالرزق لا يستمد إلا من رزَّاق أعظم ، ولكي يكون رزَّاقاً أعظم لابد أن يكون خلاَّقاً أعظم ، وهٰذه الصفات الحسان لا تكون إلا لله تعالىٰ . وعليه تتعدد مصادر الأرزاق والرزَّاق واحد .

وقد يتساءل البعض عن الكيفية التي بها تتعدد مصادر الرزق والرزَّاق واحد ، فيقال : لو لم يكن هناك رزَّاقاً ما كان للرزق من مصدر . وفي هٰذا الأمر بالتمام لو لم يكن هناك خلاَّق ما خلقنا ، ولو لم يكن هناك مصور ما صُورنا وهٰكذا لو لم يكن هناك رحمٰن ما رُحِمنا بالأرزاق منه جل جلاله ، ولذا فإن الرزَّاق هو مصدر الأرزاق . وعليه بإمكاننا أن نُرَتِّب مصادر الأرزاق أولوياً وفقاً للآتي :

أولاً ـ المصدر الخالق : وهو الرزَّاق الأول والآخر : فالأول من حيث لم يكن سابقاً عليه أول ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (2) . ولأنه هو الرزَّاق الأول والآخِر فلا خوف من عدم علىٰ حياتنا وحياة أولادنا فالأرزاق منه تأتي إن توجهنا إليه وعملنا عملاً صالحاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (3) .

ولذا فالرزَّاق الأول هو خالق كل مخلوق وسابق عليه وضامن معاشه إلىٰ النهاية التي ينبغي أن يكون عليها ، ولهٰذا فهو الآخِر الذي كما سبق أن كان

---

(1) الروم، 40.
(2) الذاريات، 58.
(3) الأنعام، 151.

رزَّاقاً أولاً فهو الأول الذي ينهي الرزق عمن لم يكن له رزق في الحياة . وعليه فإن القاعدة تقول : (من يرحل رزقه يرحل) . ولا يبقىٰ إلا هو جل جلاله عليماً بما نحن عليه وبما سنكون عليه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

والأول والآخِر تعني : (هو واحد أحد) هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يُعيده ، أي أنه هو الذي يملك أمر البداية والنهاية سبحانه جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (2) . في هٰذه الآية نهىٰ ٱلله تعالىٰ عن تحريم الرزق الحلال فبما أن الرزَّاق أوجد الأرزاق فلماذا تُحرَّم بما أنها تؤخذ وتؤكل حلالاً طيباً ؟ ولهٰذا قوله كلوا مما رزقكم تعني كلوا من لحومها واشربوا من ألبانها ، وكلوا من ثمارها ورحيقها ولا تُحرِّموا شيئاً منها لم يحرمه ٱلله .

ولأنه هو الآخِر فهو المُنهي الأول لِما يجب أن يُنهىٰ ، ولذا يمسك رزقه عمن ليس له نصيب فيه مما يجعل النهاية خيراً بيد الأول والآخر لا بيد من لم يكن بأول ولا بآخِر . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ (3) . بدون شك أنه الأول والآخر (الأول هو الثابت الأول فلم يتغير ، فهو الذي في البداية أعطىٰ وهو الذي في النهاية أمسك) . وقد يتساءل البعض : لماذا هو في الأول أعطىٰ ، ولماذا هو في الآخِر أمسك ؟

بطبيعة الحال لأنه هو الذي يحيي ويميت ، فإعطاؤه الرزق في البداية لأجل الحياة وإمساكه للرزق في النهاية لأجل الموت ، ولذا فنحن كغيرنا من الكائنات نحيا ونموت ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام جل جلاله .

---

(1) الحديد، 3.
(2) المائدة، 87، 88.
(3) الملك، 21.

ثانياً ـ المصدر المخلوق : هو مصدر الرزق الذي تتعدد منه مصادر الأرزاق ، كالسموات والأرض المخلوقات للمخلوق رزقاً . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [3] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [4] . وقوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [5] .

يتضح من هٰذه الآيات الكريمة أن السماوات والأرض هي المصادر الرئيسة التي أبدعها ٱلله عز وجل للرزق فهي التي منها ينزل الماء وعليها تنمو الحياة ، ومنها تُستمد الأرزاق وتؤخذ . فالأرض مصدر خَلقنا ومصدر رِزقنا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [6] فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا ، (منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش) .

ومع أن السماوات والأرض هما مصدرا الرزق ، إلا أن ما بينهما مصادر رزق كثيرة ، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي أسباب مسخرة لمصادر أرزاق ، وكذلك الماء رزق ، ومصدر خلق قال تعالىٰ : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [7] .

---

(1) البقرة، 117.
(2) الأنبياء، 16.
(3) فاطر، 3.
(4) البقرة، 164.
(5) النمل، 64.
(6) الروم، 20.
(7) البقرة، 164.

ولذلك فالرياح والسحب مصادر رزق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ (1) إذاً لو لم يرزق ٱلله عباده بالرياح ما تلاقحت الأشجار وأثمرت ، ولولا الرياح ما حملت المطر وأنزلت رزقاً لكل كائنٍ حي . وبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكان لأخر لتحيي الأرض بعد موتها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (2) .

وإلىٰ جانب المصادر الرئيسة للرزق المباشر للمخلوقات هناك مصادر أخرىٰ ذات أهمية عالية لإبقاء الرزق وبقاء الحياة ، إنها الشمس والقمر والنجوم والكواكب سبحانه لم يخلق شيئا عبثا ، بل كل شيء خلقه وقدَّره بحسبان موزون قال عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ (3) . وقال جل جلاله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ (4) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (5) . ولذلك فكما أن الأرض والسماء مصدرا رزق كبير كذلك فإن ما بينهما من الشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار هي مصادر أرزاق كثيرة ، فالحمد لله الذي خلق لنا عبر الحركة والزمان مصادر أرزاق دون أن تكون من أيدينا ؛ فنحن لم نخلق السماوات العلا ولم نخلق الأرض ولن نبلغ الجبال طولاً ، ولم نخلق الشمس ولا القمر ولا الكواكب والنجوم ، ولم نخلق الليل ولا النهار ولم نخلق الزمان ولا الحركة إنه ٱلله الرزَّاق جل جلاله .

---

(1) الحجر ، 22 .
(2) فاطر ، 9 .
(3) الأنبياء ، 16 .
(4) يونس ، 5 .
(5) إبراهيم 33 .

ومع أن الإنسان خُلق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنه قد خُصَّ بأحسن تقويم وخُصَّ برزق حلال ، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقاً للإنسان في الحياتين ليأكل لحماً مما تلذه الأنفس وتشتهيه . وهـٰكذا جعل له رزقاً من صيد البر والبحر وجعل له لحماً حلالاً مما حوله من ذوات اللحوم ، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق ، وله منها منافع .

وعليه أتساءل : أإلـٰه كريم يخلقك ، ويخلق لك رزقاً ، ويغفر لك ذنباً وخطيئة ، ويُبشرك بالجنة هو أولىٰ بالعبادة أم إلـٰه يُخلق ولا يَخلق شيئاً ولا يحيي ولا يميت ولا يرزق ؟ ! ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [1] .

ثالثاً ـ المصدر الذي يُخلق : هو الذي يُستمد ويشتق مما خَلق ٱلله من أرزاق ، فبالعلم تُكشف الأشياء ويتم التعرف عليها ، ومنها يصنع الرزَّاق بالإضافة (الخليفة) رزقاً يُحسِّن حياته به ويُشبع حاجاته المتنوعة والمتطور .

ولذلك نقَّب في الأرض حتىٰ اكتشف الحديد رزقاً والنحاس والذهب أصفر وأسود ، وعبَّد الطرق وشقها وهو يطوي المسافات مثلما يطوي الحديد ؛ ثم رفع رأسه من علىٰ الأرض التي منها خُلق وعليها يرتزق إلىٰ السماء ، ففكر في طي المسافة بينهما حتىٰ اكتشف قانون الجاذبية الذي به تمكَّن من غزو الفضاء ، ثم طوَّر أحواله وحياته بما تصنع يداه ولا زال يُطوَّر بيديه وبعقله العلوم المتنوعة .

وكما قلنا الأرزاق تتعدد والرزَّاق واحد ، فعلىٰ مستوىٰ البناء الخَلقي للإنسان الذي خلقه ٱلله تعالىٰ في أحسن تقويم ، فقد رزقه بما يميزه عمَّا خَلق ، ورزقه أيضاً بما يماثله مع ما خلق ، وفيما يميزه فقد رزقه بأربعة أشياء عظيمة هي :

---

(1) الغاشية 21 .

الشيء الأول رزقه العقل : مما جعل له ذاكرة تصنع التاريخ وتحفظه ثم تنقله تراثاً ومواعظ حسنة لأجل مستقبلٍ أفضل وأجود وأفيد وأنفع . ولذلك رُزِق الخلاَّق بالإضافة عقلاً يميزه عن تلك الدواب التي لا تدرك شيئاً صم بكم لا يتذكرون ولا يستطيعون أن يتفكروا ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] . ولولا العقل الذي رُزِقَ به ، ما استطاع آدم عليه الصلاة والسلام أن يُنبئهم بأسمائهم ، ولذلك العقل المميز أُمرت الملائكة أن تسجد له طاعة لله الذي أصدر الأمر بالسجود لآدم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [2] أي أن الإنسان الذي ميزه ٱلله بالعقل هو وحده من بين المخلوقات يعقل أمر الرياح والسحاب ويدرك العلاقة بينهما وبين السماء والأرض وبين ما سيترتب علىٰ حياته وحياة المخلوقات التي لم تأت الرياح إليها بالسحب وبين حياة المخلوقات التي سيسقط المطر عليها فتُحيي الأرض بعد موتها .

الإنسان الذي ميزه الرزَّاق بالعقل يفكر ويتذكر ويستقرئ ويستنبط ويخطط ويقوِّم ويستنتج حتىٰ يتبين ما يجب ويُقْدم علىٰ فعله أو عمله ، ويتبين ما لا يجب ويحيد عنه أو يبتعد ويفكر في البديل الأنسب .

الشيء الثاني رزقه الضمير : الضمير حاسة مترتبة علىٰ حاسة العقل الذي رزق ٱلله به العباد ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [3] ولذا فالضمير يتكون من مجموع القيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية التي تُهذِّب الأخلاق ، فهو الضابط للسلوك وفقاً لما ترشد إليه

---

(1) الأنفال، 22.
(2) البقرة، 164.
(3) الحج، 46.

الأديان والقيم الإنسانية وأعراف المجتمع ، وهو الذي له علاقة بذاكرة التاريخ وما ينبغي أن يكون من أجل رضاء يستوعب الآخرين في حدود القيم والفضائل المُرضِيَة لضمير المجتمع .

هٰذه الحاسة المميزة للخلق الإنساني هي التي تجعله يتألم من ارتكاب الأعمال المشينة للدين والأخلاق والقيم ، وهي التي تجعله يغضب من أجل الكرامة ويثأر .

الضمير بيت التقوىٰ ، فالذي يمتلك ضميراً مدركاً لما يجب ولما لا يجب مع وافر التقدير لا يُخِيفُك في شيء إن كنت علىٰ الحق ، وإن لم تكن علىٰ الحق فتكون له مع الشدة قوة وثبات لا يحيده حائد عنه إلا حُجَّة وتقوىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (2) . فأولو الألباب هم المؤمنون أصحاب الضمائر بالقلوب لا بالأفواه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (4) . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (5) .

الضمير رزق نافع من الرزَّاق الأعظم إلىٰ الرزَّاق بالإضافة ليكون عادلاً ومعتدلاً مع ما يستمع إليه ومع ما يقوله أو يفعله ، فالضمير هو الذي به يتمكن الخليفة من حمْل المسؤولية ، وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباء . ولهٰذا فمن

---

(1) المائدة ، 100 .

(2) البقرة ، 179 .

(3) آل عمران ، 167 .

(4) الحج ، 46 .

(5) الحجرات ، 14 .

لا يرزقه الرزَّاق الأعظم بضمير نافع لن يكون قادراً علىٰ حمل المسؤولية وتحمُّل أعبائها الجسام .

الشيء الثالث رزقه القامة السوية : قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [1] في أحسن تقويم تعني في أحسن صنعة يمشي سوياً متميزاً بالقامة والبهاء ليس كمثله شيء مما خلق من المخلوقات الأخرىٰ التي تمشي مُكبة علىٰ وجوهها أو تزحف علىٰ بطونها .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [2] لماذا الغرور أيها الإنسان وأنت تعلم أن الحياة الدنيا حياة متاع وغرور ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [3] واتقِ ٱلله الذي خلقك فسواك فعدلك واتق ٱلله الذي رزقك بالقامة السوية ليميزك عما خلق كما ميزك بالعقل والضمير اللَّذيْن بهما تعرف ، وتدرك ، وتبحث ، وتتذكر ، وتفكر ؛ حتىٰ تتبين الحق من الباطل .

قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [4] في تقديرنا (في كبد) أي خُلق ونحن نعلم بألم والديه ومن لهم علاقة به كلما تألم وذلك لإحساسهم بحاله وما يلم به من مرض أو حاجة إن لم تُشبع ، ويقول القرطبي : في كبد قائم في خلقه في وسط بطن أمه وهو مستوي القامة [5] .

الشيء الرابع رزقه الذوق الرفيع : الذي به يتذوق المعنىٰ والدلالة وبه تُرسم الصور البلاغية وتُستمد لتتجسد في القول الحق والفعل الحق والسلوك

---

(1) التين ، 4 .

(2) الانفطار ، 6 ـ 8 .

(3) لقمان ، 33 .

(4) البلد ، 4 .

(5) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء العشرون ، ص 63 .

الحق . قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (1) أي لا جزاء عظيم للإحسان إلا المكافأة عليه بالجنة ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (2) الذين يمتلكون حاسة الذوق الرفيع يميزون بين الحسن والأحسن ، والجيد والأجود وكذلك الأكثر جودة ، ولذا فبذوقهم يتمكنون من الاختيار الأفضل والأروع والأكثر نفعاً .

قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (3) صورة جمالية ترتسم في ذهن المتذوق حتىٰ تمده بالذوق الرفيع وتجعله من الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هـٰذا باطلاً سبحانك .

وقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (4) . وقـــال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (5) .

فلننظر إلىٰ البناء الذوقي للكلمة والجملة والصورة والأسلوب والمعنىٰ والدلالة حتىٰ نتبيَّن وندرك المقدرة الذوقية التي رزقنا وميزنا ٱلله بها ، ولنتعظ فيما نقول وما نعمل ونتقي ٱلله رباً .

رزقنا ٱلله تعالىٰ بالذوق معاملة رفيعة وحسنة مثلما الدين معاملة رفيعة وحسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

---

(1) الرحمـٰن، 60.
(2) الزمر، 18.
(3) الرحمـٰن 37.
(4) الأحزاب، 28، 29.
(5) الأحزاب، 49.

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) . تحتوي هـٰذه الآية علىٰ مجموعة من الأحكام العادلة للقصاص ، حتىٰ لا يَظلم أحد أحداً . وهـٰذا ما فرضه ٱلله تعالىٰ علىٰ اليهود في التوراة أي أن النفس لا تقتل إلا في مقابل نفس قتلتها ، ولا تُفْقَأ عينٌ إلا في مقابل عينٍ فقأتها ، وهـٰكذا إلا إذا عفىٰ أحد عن أحدٍ فيُكفِّر ٱلله عنه ذنوبه .

قال تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (2) . إنها منظومة من القيم مبثوثة بذوق رفيع في هـٰذه الآيات الكريمة ، فيها من الصور الجمالية ما يُمكِّن المبدعين من رسم لوحة أو كتابة قصة أو رواية لتنسج علاقة صلة جمالية بين المؤمن وما بشر به في الجنة .

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (3) .

وعليه فبهـٰذه الأشياء الأربعة تميَّز الإنسان بما رزقه ٱلله من خصوصية عن غيره من الحيوانات والكائنات الأخرىٰ ، وتماثل معها في حواسه الأخر ، فهي تبصر كما يبصر وتسمع كما يسمع وتشم كما يشم وتذوق المحسوس بطعمه كما هو يذوقه محسوساً بطعمه ، وهـٰكذا للحيوان عاطفته مثلما للطير عاطفته وللإنسان عاطفته . ولأن الإنسان قد رزقه الرزَّاق المطلق العقل والضمير والقامة السوية والذوق الرفيع فهو يختلف عن الحيوانات والكائنات الأخر في

(1) المائدة، 45.

(2) الغاشية، 8، 16.

(3) الغاشية، 17ـ 21.

كونه يُحب ويكره ، وهي لا تحب ولا تكره كما هو يحب ويكره ، فهي فقط تثور وتهدأ ، ولهٰذا فهي قابلة للترويض من قِبل المدركين لأساليب الترويض بما ميزهم به تعالىٰ من مدركات عقلية ، وبما اكتسبوه من مهارات فنية وخبرة وتجربة .

إذاً مع أن الإنسان قد ميزه تعالىٰ علىٰ جميع ما خلق إلا أنه شاركه في بعضها الآخر الذي لا يؤثر علىٰ حسن التصرف وإدراك المجردات ، ولذا فهو يشاهد كغيره لِما يشاهد وفي مقابل ذلك إنه يلحظ عن عمدٍ وغيره لا يلحظ كما هو يلحظ وإن لحظ فلا يلحظ إلا مصادفة .

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أنَّ الملاحظة عميقة وواسعة ، وتحتوي علىٰ الاستنتاج العقلي ، أما المشاهدة فتحتوي علىٰ المعاينة بالعين للشيء ، وذلك عن طريق تفحّصه ككل وكجزء بنظرة نافذة . أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال والصور والأجسام ، وحركتها والتعرف علىٰ مكوِّنها (الأجزاء المتكونة منها) بالتعرف علىٰ كل ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد .

فإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم ، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية ، ومرميين للتهديف ، بوسطهما حارسين ، وجمهوراً متحمساً ، ونشاهد حركة اللاعبين وحركة تسجيل الأهداف . هٰذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات ، والتي تُمكّن الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين ، والمهارات الفنية لهم ولياقاتهم وقدرات تحمّلهم ، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم علىٰ الفوز ، ويلحظ أيضاً علامات الهزيمة ، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة علىٰ أفراد الفريقين والمشجعين والمدربين حسب النتيجة لكل فريق . ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يشاهد الغضب أو الهزيمة ولا الحركة ، هٰذه تُلحظ ، أما الذي يُشَاهَد فهو الغضبان أو المهزوم أو المتحرك ، ومن يخالفنا في الأمر نقول له : إن كنت تشاهد الغضب

أو الهزيمة أو الحركة فارسمها إن استطعت ، حينها يجد نفسه أمام شيء لا يُرسم ولأنه لا يُرسم لا يشاهد ولـٰكنه يُلحظ ملاحظة .

تعتمد المشاهدة علىٰ ما تراه العين ، ولـٰكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة ، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن ، ولهـٰذا فالاعتماد علىٰ المشاهدة في القضايا العلمية ، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها قال تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ ﴾ (1) فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة سكر ، ولـٰكن بملاحظتهم عن قرب ، قد لا يكونون سكارىٰ مع أن حركتهم فيها شبه من هـٰذا الأمر .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (2) . وأيضاً قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (3) . فمن خلال المشاهدة كان يعتقد القمر هو الرب ولما غاب لاحظ أن القمر يفتقد لصفة الرب الدائم هو كما هو سبحانه جل جلاله وهي خاصيّة البقاء دون غياب وذلك بوحدانية الثبات ، واعتقد مرة أخرىٰ بأن الشمس هي الرب فلما غابت عن المشاهدة ليلاً ، لاحظ أنها تغيب وهـٰذه الصفة لم تكن من صفات ٱلله عز وجل وذلك لانعدام خاصية البقاء ، لأنه الحي الذي لا يغيب .

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصادق ، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلىٰ جانب توليد المشاهدات ، فالعمليات العقلية هي : تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات ، وكيفية تفادي المواقف ، وكيفية إدراكها واختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة .

---

(1) الحج، 2.
(2) الأنعام، 77.
(3) الأنعام، 78.

أما توليد المشاهدات فهو : الانتقال من المشاهد إلىٰ الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (1) . إنه أمر لمشاهدة آياته في السماء وهي النجوم والكواكب من خلال النظر إليها ، يمكن مشاهدة حركتها وضوئها الجميل ، وبالمشاهدة يلحظ أن هناك علاقة ، وأن هناك قدرة وراءها ، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلاً ونهاراً وفي البر والبحر ، وهٰذه مشاهدات تولَّدت من خلال الملاحظة والمشاهدة ، وهٰكذا تتولد المشاهدة من المشاهدة ، وتتولد الملاحظة من الملاحظة ، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب ، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب ، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلحظ أن من ورائها خالقاً ، وهٰكذا تتولد الفكرة من الفكرة لنلحظ أو نشاهد ما يترتب علىٰ الفكرة وتوليدها .

ولذا فالفرق كبير بين المشاهدة التي تقتصر علىٰ البصر والرؤية العينية ، وبين الملاحظة التي تعتمد علىٰ المدركات العقلية الواعية قال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ (2) . النظر هو المشاهدة بالعينين أي فلينظروا إلىٰ الصفة التي عليها الإبل من حيث المظهر التي خُلقت عليه ، أما الكيفية التي بها خلقت فهٰذه لا يمكن مشاهدتها فهي تدرك إدراكاً وتُلحظ ملاحظة ، ولذا فأمر النظر إلىٰ الكيفية التي عليها خُلقت الإبل أمر إعجازي مثلها مثل الكيفية التي بها رُفعت السماء بغير عمد ونصبت الجبال وسطحت الأرض ، فمع أن الإبل تشاهد والسماء تشاهد والجبال تشاهد والأرض تشاهد إلا أن الكيفية التي عليها أو الحالة التي عليها خلقت لا يمكن

(1) يونس، 101 .

(2) الغاشية، 17ـ21 .

أن تشاهد بالمطلق ، ولـٰكن المتمعن فيها يلحظ الإعجاز الخلقي ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين .

وهـٰكذا مصادر الرزق المباشرة تشاهد أولاً وتلحظ ثانياً ، فالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحب والغيوم تشاهد أولاً ثم تلحظ ثانياً إن كان هناك أثر علىٰ الرؤية سالباً أو موجباً ، أو أنَّ هناك خسوفاً أو كسوفاً .

أما العلاقات فلا يمكن مشاهدتها فهي التي تُلحظ دون أن تشاهد ، فالأبوة والأخوة والعمومة والجيرة والزواج والطلاق والحب والكره والتعاون والصدام والتكيف والتوافق . كل هـٰذه القيم لا يمكن مشاهدتها وإلا هل هناك من يشاهد الأبوة والتعاون والتكيف ؟ هـٰذه لا يمكن مشاهدتها فالتي تُشاهد هي العناصر ذات العلاقة بها فالأب إنسان يشاهد كمفردة مستقلة بذاته ، والأم كذلك ، والأبناء أيضاً ، ولـٰكن العلاقة التي بينهم هي التي جعلتنا نلحظ سلوكاً أبوياً أو أمومياً أو أخوياً بين العناصر المكونة للأسرة ، ولهـٰذا فالأسرة لا يمكن مشاهدتها ويمكن ملاحظتها فالذي يُشاهد هم الأفراد المكونون لها ، وهـٰؤلاء يشاهدون بشراً فقط . ولهـٰذا فالعلاقات لا تُرىٰ بالعينين السليمتين مثل حال التعاون الذي لا يمكن أن يشاهد ، فالتعاون جهود تُبذل ويستدلُّ عليه استدلالاً ، وهـٰكذا التكيف الذي هو عبارة عن تقديم تنازلات من أجل التأقلم مع الظروف وفي هـٰذا الأمر مثل حال السجين الذي بالزمن يصبح متكيفاً مع السجن ، ولـٰكنه لا يمكن أن يكون متوافقاً معه ، فالتوافق لا يتم إلا بالرضاء وبدون تنازلات أما التكيف فلا يتم إلا بها .

وعليه فالرزَّاق الحق في الحياة الدنيا لا يمكن مشاهدته لأنه لم يكن مادة ، ولذا فالمادة هي التي تشاهد أما ٱلله تعالىٰ يُدرك ويلحظ في خلقه وفي أرزاقه وفي ووحدانيته وجبروته وكبريائه وعظمته ورحمته ، ولهـٰذا فمن طبيعة الخلق أن نرىٰ الهلال أول كل شهر ونرىٰ الشمس كل يوم ولـٰكننا لا يمكن أن

نرىٰ خالقها جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) الجبل مادة قابلة للمشاهدة ووجود ٱلله قد لوحظ من القوة التي دكت الجبل دون أن تخضع للمشاهدة . وهـٰذا الأمر هو الذي جعل موسىٰ عليه الصلاة والسلام بعد أن أفاق من صعقه يقول : ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) . يقال رجل عظيم وفيه نبوة ، ويقال علىٰ الأغلب الرجل الذي مرَّ علىٰ القرية الخاوية علىٰ عروشها هو عُزير وهو الذي أماته ٱلله مائة عام ثم أحياه وسأله : كم لبثت ؟ فظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم فقط . ولما شاهد طعامه وشرابه وهو لم يفسد بالرغم من الزمن الطويل ، وشاهد هيئة حماره وعظامه ولاحظ كيف تعود إليها الحياة بعد أن جُمِّعت واكتست لحماً حتىٰ أخذ الحمار هيئته وصورته التي كان عليها قبل المائة عام التي قضاها ميتاً ، حينها أدرك أنه الحق وأن ٱلله علىٰ كل شيء قدير .

وعليه في هـٰذه الآية مجموعة مشاهدات ومجموعة من الملاحظات ، فالمشاهدات هي التي تمت رؤيتها مادياً وهي الطعام والشراب والهيئة البالية

---

(1) الأعراف، 143 .

(2) البقرة، 259 .

التي كانت صورة الحمار عليها والعظام دون أن يكسوها اللحم ، ثم مشاهدة الحمار حياً من جديد هو كما هو .

أما الملاحظات فهي : إدراك الزمن الذي جعل من العظام بالية وهيئة الحمار لا يمكن أن تكون هيئة الحمار الميت التي اختلفت عن هيئة وشكل الحمار وهو حي ، فلو لم يمضِ عليه زمن طويل ما كان علىٰ الهيئة التي كان عُزير عَلَيْهِ السَّلَامُ شهيداً عليها . ولهٰذا شاهد عُزير الحمار ميتاً ولا حظ في الوقت ذاته انبعاث الحياة فيه ، ولذا فإنه قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فأعاد ٱلله سبحانه وتعالىٰ الحياة إليه وإلىٰ رزقه وإلىٰ حماره وذلك بسبب تقواه ويقينه بأن ٱلله علىٰ كل شيء قدير .

قال الشاعر :

عليك بتقوىٰ ٱلله إن كنت غافلاً سيأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري
فكيف تخاف الفقر والله رازق فقد رزق الطير والحوت في البحرِ
ومن ظن أن الرزق يأتي بقوة فما أكل العصفور رشفاً مع النسرِ
ترحل عن الدنيا فإنك لا تدري إذا جنَّك الَّليْلُ هل تعيش إلىٰ الفجرِ ؟
فكم من صحيح مات من غير عِلةٍ وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتىٰ أمسىٰ وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
يا جامع المال ما أعددت للحفر هل يغفل الزاد من أضحىٰ علىٰ سفرِ [(1)]

أما ابن القيم فقال في نونيته :

وكذلك الرزَّاق من أسمائه والرزق من أفعاله نوعان
رزق علىٰ يد عبده ورسوله نوعان أيضاً ذان معروفانِ
رزق القلوب العلم والإيمان والرزق المعد لهٰذه الأبدان

(1) مجدي صور الشورىٰ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 268.

هـٰـذا هــو الــرزق الحــلال وربنــا رزَّاقـــــه والفضـــــــل للـمنـــــانِ
والثـانـي سـوق القـوت لـلأعضـاء فـي تلـــك المجـــاري ســـوقــه بِـــوزان
هـٰـذا يكـون مـن الحـلال كمـا يكـون مـــن الحـــرام كـــلاهمـــا رزقـــانِ
والله رازقــــه بهـــــذا فـــاعتبـــــر ليـــس بـــالإطـــلاق دون بيــــانِ [1]

الرزَّاق الحق هو الذي يرزق خلقه دون أن ينقص شيء مما يرزقهم به ، بل إنه للرزق يزيد ، ولهـٰذا فالله ذو القوة المتين وهو خير الرازقين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [2] . وذكِّر : جاءت مطلقة دون أي تحديد لما ينبغي أن يُذكِّرَ به ، أي ذكرهم يا محمد بما يعظهم إلىٰ ما هو خير ، فبالتذكُّر لعلهم يسترجعون القصص والأمثال والمعجزات القرآنية ويتفكرون في خلق السماوات والأرض حتىٰ يتبينوا أنها لم تخلق باطلاً ، ولعلهم يتذكرون الحق ويتعظون فجادلهم بالتي هي أحْسَنُ وأَحْسِنْ كما أَحَسَنَ ٱللهُ إليك ، وبشرهم حتىٰ يهتدوا ولا تُكره أحداً منهم ونبئهم بالثواب والعقاب والاستغفار والرحمة وعمل الخير ، وذكرهم بأن عذابي شديد وأني غفور رحيم علىٰ من تاب ، ولهـٰذا فما عليك إلا أن تُذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين .

وقوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ جاءت للتخصيص المطلق ، أي تخص الثقلين ولا تعم غيرهما ، أما كونها مطلقة فهي لم تستثنِ أحداً من الجن والإنس فهما المأموران بالعبادة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] .

---

(1) النونية، 147 .
(2) الذاريات، 55، 58 .
(3) التوبة، 31 .

أمَّا قوله : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ هٰذه الآية مُسلَّمة فهو الرزَّاق المطلق الذي بيده الخير ، وهو خالق الأرزاق ، وهو خير الرازقين ، وهو مالك الملك ، ولأنه كذلك فهو لم يكن في حاجة لأحد من الثقلين ولا لكليهما ، بل هم الذين في حاجة إلىٰ رزق منه . وما يعتقده البعض بأنهم يملكون الرزق ، فليسأل نفسه هل هم السابقون علىٰ الرزق أم أن الرزق هو السابق عليهم ؟ . وهل يمكن أن يكون الرزق لو لم يكن الرزَّاق سابقاً عليه؟ أي هل هم جاءوا ثم أتىٰ الرزق عليهم ، أم أن الرزق هو الذي أتىٰ مسبقاً وهم الذين أتوا عليه ؟ ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ أي أنه السابق علىٰ كل سابق وهو مالك القوة التي أوجدت الرزق الذي منه يرزقون .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [1] الخرج هو العطاء ، ولهٰذا فعطاء الرزَّاق أكبر من أي عطاء يمكن أن يظنه البعض بأنه عطاء كبير ، ولذلك مهما أعطاك البعض من عطاء فلا تجعلهم يمنون عليك أو تطمع في غير وجه ٱلله فعطاء ربك الرزَّاق الأعظم أكبر ، إنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأنه هو جل جلاله كذلك فهو خير الرازقين .

وعليه فإن خير الرازقين يرزق من يشاء كيف يشاء متىٰ ما يشاء وبدون حدود ، أمَّا الرزَّاق بالإضافة فهو الذي يرزق من يشاء بإذن من شاء . ولذا فالخليفة الرزَّاق هو الذي لا يستطيع أن يرزق بدون حدود ، وذلك لأن ما يملكه له بداية ونهاية أما ما يملكه الرزَّاق الأعظم يرتبط بذاته العلية التي ليس لها بداية ولا نهاية ، فهو الأول والآخر سبحانه جل جلاله .

ولذا فإن الخليفة الرزَّاق كلما رزق أحداً مما يملك من رزقٍ نقص ما عنده إن لم يرحمه الرحمٰن الرحيم بالمزيد ، من حيث يحتسب أو من حيث

---

(1) المؤمنون، 72.

لا يحتسب ، فالله يرزق من يشاء من غير حساب ، هٰذه قُدرة إلٰهية وخاصية ربانية لأجل أن يتم ارتزاق الآخرين منه دون منَّة ، فمن يرزقه ٱلله برزق حلال عليه أن يتذكر فضل ٱلله عليه ليجعل فيه نصيباً للآخرين الذين هم في حاجة والأقربون أولىٰ بأن يجود عليهم مما رزقه ٱلله من فضله . ومن يغلق أبواب الرزق علىٰ الآخرين يغلق ٱلله عنه أبواب الرزق والرحمة ويجعله من الخاسرين ، ولهٰذا فالقاعدة (ارزق تُرزق ، وارحم تُرحم) .

وبناء علىٰ هٰذه القاعدة تضرَّع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام إلىٰ ربه فقال في الكتاب العزيز : ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (1) فاستجاب له خير الرازقين بالمائدة الآية التي لم تكن لمن سبق ولن تكون لمن سيأتي من بعد عيسىٰ وقومه الذين رزقهم ٱلله في يوم عيدهم بها سعادة وفرحة .

وفي غير محل للمقارنة فالفرق كبير ، بين من يعطي ولا يممن ولا يندم ولا تُسوِّل له نفسه ، وبين الذي يعطي ويمنن أو يعطي ووسوسة الشيطان في نفسه لم تفارقه في بعض الأحيان ، وحتىٰ إن أعطىٰ وفارقته النفس الوسواسة فهو لم يكن في محل مقارنة .

صفات ٱلله صفات حسان تتداخل حتىٰ الكمال وتتعدد للاختصاص والكثرة ، فالرزَّاق لو لم يكن وهاباً ما رزق ، والوهاب لو لم يكن قهاراً ما وهب ، والقهار لو لم يكن غفاراً ما قهر ، وهٰكذا الغفار لو لم يكن مصوراً ما غفر ، والمصور لو لم يكن بارئاً ما صور ، والبارئ لو لم يكن خالقاً ما برأ ، والخالق لو لم يكن متكبراً ما خلق ، والمتكبر لو لم يكن جباراً ما تكبّر ، والجبار لو لم يكن عزيزاً ما تجبر ، والعزيز لو لم يكن مهيمناً ما عزّ ، والمهيمن لو لم يكن المؤمن ما هيمن ، والمؤمن لو لم يكن السلام ما كان

(1) المائدة، 114.

مؤمناً ، والسلام لو لم يكن القدوس ما كان سلاماً ، والقدوس لو لم يكن الملك ما كان قدوساً ، والملك لو لم يكن رحيماً ما كان ملكاً ، والرحيم لو لم يكن الرحمـٰن ما كان رحيماً ، والرحمـٰن لو لم يكن ٱلله ما كان رحمـٰناً . ولذا فمهما تعددت الصفات فالله واحد لا شريك له بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [1] . يقصد بالدابة كل المتحركات المخلوقات ما دون الإنسان ، التي لا تعقل ولا تفكر ولا تتذكر حتىٰ ينفعها ويفيدها فيما تُفكر أو تتذكر بشأنه ، ولهـٰذا فإن خالقها خلق لها الرزق ثم خلقها لتعيش عليه ، فهي تُرزق رزقاً ، ولا تملك مُلكاً . وحتىٰ إن ادخرت في بيوتها أو في أحشائها فهي لم تدخر إلا مما رزقها ٱلله منه . ولأنها لا تعقل كما الخليفة يعقل فهي لم تستثمر ما تدَّخر ، بل فقط لتستهلكه ، وهـٰذا فارق بين الخليفة الذي ميزه ٱلله بما ميزه به من صفات ليعقل ويتعلم ويُطوِّر ويستثمر وليدرك العلاقة بين الحاجة وأساليب مشبعاتها ، ويتذكر ماضيه ويعيش حاضره ويفكر في مستقبله ويعمل من أجله .

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي علىٰ الآمال وهو غير قابل للتذكُّر مع أنه قابل للتفكُّر ، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة ، بل هو المتطلع إلىٰ ما هو متوقع ، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة ، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن ، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة ، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة ، فلا زمان بلا حركة ، ولا حركة بلا زمان ، ولا حياة بدونهما .

---

(1) هود، 6.

المستقبل لا يُحصىٰ ، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة ، ولهـٰذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية ، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلىٰ النهاية مع الزمان ، فبالضرورة سيأتي غداً لا محالة ، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له ، وهـٰذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة .

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هـٰذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة ، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه ، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع ، والذي من أجله نتنفس ، ونشرب ، ونأكل ، ونفكِّر ، ونتعلم ، ونعمل ، ونتصدق ، ونصلي ، ونحب ، ونتزوج ، وندَّخر وفق حاجاتنا ، ونؤمن علىٰ أرواحنا وممتلكاتنا ، ونخاف ، وهو نهاية البداية وثبات الحركة ، وعليه كل حركة من أجل المستقبل .

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوىً ومضمون) . وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل ، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل ، وعندما تصل الحركة إلىٰ لحظة النهاية ، يكون العدم ، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم ، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة ، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل . ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل ، ولا أمانٍي ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا .

وبناء علىٰ ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية ، لكي نعرف من نحن ، وما يجب علينا القيام به ، ونعرف من أجل ماذا نُفكّر ، ومن أجل ماذا نتعلم ؟ ومن أجل ماذا نعمل ، ونحلل ، ونعالج ؟ ولماذا نحن في هـٰذا الوقت نطرح هـٰذه الأسئلة ؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان ، أم ينبغي أن يقتصر عليه ؟

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر ، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا

نتذكر وننتظر ، نتذكر الماضي ، وننتظر حتىٰ يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية ، أي أننا نُعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر ، لأن الغد لم يأتِ بعد ؛ فكل هـٰذه وتلك الأسئلة تجعلنا نتذكر كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) ، وكذلك يقول تعالىٰ : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) .

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة ، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن ، مع أن هـٰذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة ، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي ، وتكون الشجرة في الآن ، وتكون الثمار في المستقبل . وهـٰكذا في التقاء الزوجين في الزمن الآن يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلىٰ مرحلة الشيخوخة المتأخرة .

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن ، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل ، ومستقبله سواء أكان سالباً أو موجباً ، هو ما كان له حاضراً في الماضي . إذاً الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضراً في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتىٰ يعاقب أو يجازىٰ به ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (3) .

---

(1) الحشر ، 21 .

(2) الأعراف ، 176 .

(3) آل عمران ، 30 .

تؤكد هٰذه الآية علىٰ أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل ، وهٰكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلىٰ أن يجد نفسه في الزمن المستقبل ، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي ، بل إنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل ، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تُفتح بعد الفتحة النهائية ، فهي في الحياة الدنيا لا تُفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب ، ولهٰذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبلاً خيِّراً . وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسىٰ في الماضي وتصبح علىٰ خير المستقبل ، وحتىٰ إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلىٰ سجل الزمان والحركة ، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1] . تؤكد هٰذه الآية علىٰ أن كل شيء وُجِد يمكن إحصاؤه ، ولٰكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصىٰ من قبل الرزَّاق عز وجل ، ولهٰذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء .

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها ، وبالتالي يمكن التعرف علىٰ الأوقات وحصرها وعدها ، ولٰكنه من غير الممكن عد الزمان ، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هٰذه الأولىٰ في الماضي ، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن ، وتكون (98) حبة واقعة في المستقبل ، ولٰكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أكثر من مرة واحدة ، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرىٰ واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرىٰ سيتم التسبيح بها مرة ثانية ، وفي هٰذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي (98)

(1) المجادلة، 6.

حبة ، بل يكون عدد الحبات المتبقية (99) حبة ، وعلىٰ هـٰذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو (99) حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح علىٰ أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع ، ولا يكون العد التناقصي إلىٰ الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة ، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (1) . الذين آمنوا هم الخلفاء في الأرض ، وذلك لمقدرتهم علىٰ التمييز بين الحلال والحرام ، ومقدرتهم علىٰ اتباع ما أحل لهم الرزَّاق من رزقٍ ، ومقدرتهم علىٰ تجنب ما حرَّم عليهم من رزق في الدار الدنيا ، وذلك لقياس ومعرفة درجات إيمانهم والتزامهم بما يأمر به وبما ينهىٰ عنه ليتجاوز بهم إلىٰ ما هو أفضل في الدار الآخرة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) . التفضيل في الرزق جاء للتمييز بين من أُشبِعت حاجته وبين من لم تُشبع حاجته . والرزق يتعدد وله تضاد في عدم العطاء ، فالسعة رزق في مقابل عوز ، والحرية رزق في مقابل عبودية ، والزواج رزق في مقابل وِحدة ، والبنون ، والحفدة رزق في مقابل عقم ، ونيل

---

(1) البقرة، 172 .

(2) النحل، 71، 72.

الطيبات رزق في مقابل الحرمان والحاجة .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [1] فلو بسط ٱلله الرزق ونشره لازداد عدد الطاغين بغير حق ولانتشر الفساد في الأرض ولازداد عدد المُبذِّرين والعاصين الذين لا يُقدِّرون النعمة وفضائل ٱلله عليهم ، ولو استووا في الرزق لانعدم التنوع وانعدمت الطاعة ، وكثرت المعاصي بين الناس ولتنازعوا واختصموا بما يتباهون به علىٰ بعضهم البعض من زينة ومظاهر لا تليق بمن يُراد له أن يكون خليفة في الأرض . ولذا فالرزَّاق هو الذي يُنزِّل بمشيئته الرزق علىٰ من يشاء ليكون غنياً أو يحجبه عمن يشاء ليكون فقيراً . ولذلك ينزِّل الرزَّاق الرزق تنزيلاً علىٰ فترات من الزمن وعلىٰ من يشاء من عباده ؛ ولأن ٱلله يعلم بأمر عباده الذين منهم من لو أفاض عليه برزق لكفر بما رُزق به ، ومنهم من لو آتاه رزقاً لآتاه علىٰ وجهه من أجل فعل خير وإحقاق حق .

حظ العبد : أنه خُلِق عاقلاً ليدرك أن وجود الرزق الواسع سابق علىٰ وجوده ، وأن الحصول عليه أو نيله لا يتم إلا بالعمل فليعمل ويبحث حتىٰ يكتشف مصادر رِزقٍ ليستمد منها رزقه سواء كانت مصادر أساسية كالأرض والسماوات العلا أو من المصادر المستمدة منهما كالنبات والمياه والكائنات والجماد علىٰ سطح الأرض أو من باطنها ، أو ما بينها وما بين السماء .

أن يتقي ٱلله ربه فيما رزقه من نعم وأن يتعظ بالموعظة الحسنة ، فالأرزاق تصان ولا يُعبث بها ، وأن يتصدَّق ويتزكَّىٰ مما رزقه ٱلله ، وأن يعمل حتىٰ يُرزق ويرتزق من ورائه آخرون .

وحظ العبد أيضاً : أن الرزق متاح ، فوجوده سابق علىٰ وجود المخلوق ، ولهٰذا فليعلم الإنسان : أن الرزق متاح وهو وفرة إلا أنه يستوجب

---

(1) الشورىٰ، 27.

العمل من قبل القادرين فإن عملوا ؛ سيجدونه وفرة تُشبع الحاجة وتزيد بكثير . وليعلم : أن الرزق نوعان :

ـ **الرزق المباشر** : من الماء والنخيل والرمان والعنب والزيتون ومن كل شجرة نافعة مثمرة ، ومما تُنبت الأرض من بقول وحبوب وفاكهة ، ومن الطير والحيوان الحلال ومما يُخرجه من البحار وأنهار الأرض ومحيطاتها .

ـ **والرزق غير المباشر** : هو الذي يستمده الإنسان مما أعطاه ٱلله من رزق مباشر من الأرض وما يُستخرج منها من ذهب أسود وما يشتق منه وكذلك من المعادن والحديد والنحاس والفضة والذهب وغير ذلك كثير ، فليُنقب ويبحث ويُفكِّر حتىٰ يرزقه الرزَّاق بالفكرة التي تمده بالرزق الواسع والنافع .

الخليفة هو الذي يؤمن بأن ما بين يديه من رزق هو من الرزَّاق العظيم ، وهو الذي يؤمن بالإنفاق علىٰ ذوي الحاجات مما رزقه ، ويعلم أن ما ينفقه من رزق فإن ٱلله يخلفه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (1) .

ومن حظ الخليفة أن إخراج المال الحلال وإعطاءه صدقة أو زكاة أو هبة لمن هم في حاجة ماسة له يُزكي المال والنفس ويطهرها بالرحمة من الرحمـٰن الرحيم . ولذا فمن أراد طهارة فليتطهر فإن أبواب الرحمة واسعة ، فالصدقة كما يقولون رادة للبلية .

وعلىٰ العبد أن يميز بين الاتكال الذي يجعله في حالة اعتماد علىٰ غير ٱلله ، وبين التوكل الذي لا يجعله معتمداً إلا عليه ، ولهـٰذا يعمل ويكد ويجتهد في سبيل نيل رزقه حلالاً طيباً .

فالإنسان في أغلب الأحيان نجده طائعاً لرب العمل وطائعاً لمن قدم له

(1) سبأ، 39.

إحساناً أو أعطاه صدقة أو قدَّم له طعاماً لسد جوعه مؤقتاً ، إنها طاعة مع خوف وطمع في غير ٱلله ، يطيع ربَّ العمل ليحصل علىٰ أجرة يرتزق منها ، ويطيع الحكومة لترضىٰ عنه ولا تضايقه في أحواله ، ويتملق البعض ليفوز بوظيفة أو ترقية . كل هـٰذه الطاعات والتملقات لأجل أن لا يُقطع رزقه بالخصم أو بالفصل أو بما هو أكبر من ذلك بكثير . مثل هـٰؤلاء ليس من الذين يراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض ؛ فالخليفة هو المؤمن حقاً ، وهو المتوكل علىٰ الرزَّاق الأعظم الذي لا يَكلُّ ولا يَملُّ من العطاء ، ولا يعطي لينال الرضا ، بل يعطي حتىٰ يجد الراضين عنه ، فليؤمن العبد بالرزَّاق ، ويرزق مما رزقه تعالىٰ من هم في حاجة ولا يغلق أبواب الرزق والرحمة في وجوه من هم في حاجة ، فإن غَلَّقهَا أغلق ٱلله عليه أبواب رزقه الواسع . وليتذكر قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1) . قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (2) .

والرزق فيه إجمال عام مطلق غير مقيد ، فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه ٱلله لخلقه أو ملكه لأحد منهم ، أو أنه مقيد في مسمىٰ هـٰذا الرزق كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (3) فالإنفاق لا يكون إلا من الطيبات والذين ينفقون جانباً مما يرزقهم ٱلله به في وجوه الخير والبر ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (4) وهنا أيضاً الرزق مطلق غير مقيد بنوع ، حيث يشمل الأموال والزروع والأنعام وحتىٰ الكلمة الطيبة هي من

(1) الروم، 40 .
(2) الطلاق، 2 - 3 .
(3) البقرة ، 3 .
(4) المنافقون ، 10 .

الرزق ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ (1) ، وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك .

وبما أن ٱلله تعالىٰ هو الواهب الرزَّاق فقد ضمن للخلق رزقهم كما خلقهم ، وإن كان الرزق من الرزَّاق ولـٰكنه وجب علىٰ الإنسان أن يأخذ بالأسباب ويعزم في التوكل ، فمن روض علىٰ ذلك نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير ٱلله تعالىٰ ، كان مطمئن النفس أبداً واثقاً بالله عز وجل ، فتمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب آخر ، فالذي خلق الخلق ضمن رزقهم ، وهـٰذا لا يأتي علىٰ موعد كان مضروباً للمرزوقين بما يرد عليهم من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنهم وحساباتهم ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (2) وفىٰ السماء أمْر رزقكم وتقدير ما توعدون من جوانب عديدة ، وهي أن أسباب الرزق ليست بيد أحد ، وإنما هي في السماء ، وسواء أكان مقصوداً بها الغيث والماء الذي يحيا به الخلق ، أو أرزاق أخرىٰ مثل العلم والهدىٰ والرشاد والبنين ، فكل ذلك من أنواع الرزق التي هي في السماء ، فإن كان هـٰذا الرزق مقدراً بالغيث الذي يحمله السحاب فلا سلطة لكم عليه ، وإنما أمره إلىٰ الرزَّاق يسقيه من يشاء من خلقه ، وإن كان من الأنواع الأخرىٰ فقد سبق به الكتاب ، ومضىٰ لكل مخلوق رزقه وأجله ، لذلك ترىٰ العقلاء من الخلق لا يسألون ٱلله تعالىٰ الرزق ، وإنما يسألونه تيسير هـٰذا الرزق والبركة فيه لأنهم علموا أن ٱلله تعالىٰ قد كتب لكل مخلوق رزقه كما كتب عليه أجله ، وهـٰذا معنىٰ القناعة في الرزق . ومع

(1) النحل 75

(2) الذاريات 22، 23 .

هـٰذا فإن الإنسان يجب عليه أن لا يكون منتظراً للأسباب بل لمسبب الأسباب ، فترك التوكل والاهتمام بالرزق غاية الضعف والقصور ، ومن نظر إلىٰ مجاري سنة ٱلله تعالىٰ علم أن الرزق ليس علىٰ قدر الأسباب ، ولذلك فإننا نرىٰ أحمقاً مرزوقاً وعاقلاً محروماً ، ومن هـٰذا الأمر أراد الرزَّاق أن يدل علىٰ نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه ، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال أبو تمام :

ولو كانت الأرزاق تجري علىٰ الحجا   هلكـن إذاً مـن جهلهـنَّ البهـائمُ [1]

وليس الرزق من الرزَّاق يقتصر علىٰ جوانب مادية دون المعنوية ، وليس بالضرورة أن يكون رزقاً مباشراً ، فالإنعام والإحسان وغير ذلك من الحفظ واللطف ، فهـٰذا من إحسانه ومن رزقه فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان ٱلله تعالىٰ وهـٰذا من أعلىٰ مراتب الرزق ، إذ هو الذي نقله تعالىٰ ولهـٰذا سُمِّي الإنعام إحساناً فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلا من يعلمك ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن علىٰ الدوام فإنه يراك علىٰ الدوام لأنه يعلمك دائماً وليس الإحسان في الرزق موقوفاً علىٰ الطعام والشراب والمال والمتاع الذي هو زينة الحياة الدنيا مما فطر عليه البشر من حب هـٰذه الأشياء التي كثيراً من الناس ما يحصرون الرزق فيها وقد قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [2] لذلك نرىٰ البشر جبلوا علىٰ حب الشهوات التي تتمثل في النساء والبنين والكثرة من الذهب والفضة ، والخيل الحسان المعلمة ، والأنعام التي منها الإبل والبقر والغنم ، وتتمثل أيضاً في الزرع الكثير . لـكن

(1) ديوان أبي تمام، ص 243.

(2) آل عمران 14 .

ذلك كله متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية ، وهو لا يعد شيئاً إذا قيس بإحسان ٱلله إلىٰ عباده فيما أسبغ عليهم من نعم رزقهم بها وهم عنها لاهون لا يدركون قيمتها ، ولا يعلمون أنها من الرزق في شيء ، فكل ذلك لا يقاس بشيء مما عند ٱلله الذي أعدّه لعباده في الحياة الآخرة من الرزق . فلا ينبغي للناس أن يجعلوا همّهم في هـٰذا المتاع العاجل بحيث يشغلهم عن باقي الأرزاق التي هي خير من الذهب والفضة مثل الصحة والعافية وهـٰذا الماء الذي ينزله الرزَّاق من السماء ليكون رزقاً للبشر والشجر والدواب حيث قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، وبعضه ينبت منه الشجر ، وفي هـٰذا الشجر ترسلون أنعامكم لتأكل منه ، وتمدكم باللبن واللحوم والأصواف والأوبار والأشعار ، وينبت لكم بالماء الذي ينزل من السماء الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب ، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي تأكلونها ، فبعد أن ذكر ٱلله نعمة رزقه علىٰ الناس بتسخير الدواب والأنعام ، شرع يذكّر بنعمته عليهم بإنزال المطر وتسخير الكون كله لهـٰذا الإنسان ، إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذباً زلالاً تشربون منه وتسقون الشجر والنبات ، وهـٰذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم بما ذكر من أبواب ، ثم إن هـٰذا الماء الذي ينزله ٱلله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات ويجعله رزقاً لكم ونعمة منه عليكم ، وفيما ذكر من الآيات الدالة علىٰ قدرة ٱلله وما فيها من نعم لا تحصىٰ لأدلة وحججٌ لقوم لهم عقول تفكر بالرزَّاق ، وبها يدركون حكمة ٱلله ، ويفهمونها حق الفهم ذلك أنه أيضاً رزقهم

---

(1) النحل 10، 11 .

العقل والفهم والحكمة ، فالسعيد من استخدم هـٰذا النوع من الرزق في الشكر للرزَّاق علىٰ أنواع أخرىٰ من الأرزاق المادية التي يعاش وينتفع بها . ففي إيجاد هـٰذه الأشياء لعلامة هادية لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون في الرزق الذي أوجده الرزَّاق ، ولذلك أوجب ٱلله الإنفاق من هـٰذا الرزق الذي هو من خزائن رحمته حتىٰ لا يكون حكراً علىٰ أحد فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (1) فالله سبحانه وتعالىٰ جعل الكسب رزقاً ، وإن بذل الإنسان الكد والجهد والعمل في تحصيله ، ذلك أنه رزق أولاً الصحة والعافية التي كانت مدعاة لتحصيل الكسب ، فجعل كونها رزقاً بالأسباب التي أدت إليها ، والله الذي يرزقكم من السماء بما ينزل منها من أرزاق الأرواح ومن الأرض بما يخرج منها من أرزاق الأجسام فهو الرازق الذي بيده هـٰذا الرزق ، غير أن الحجب التي يرسلها ٱلله علىٰ بعض أبصار عباده ، جعلهم لا يدركون إلا مسمىٰ الرزق ، ولم يدركوا مسمىٰ الرزَّاق ، لأنهم آثروا المال والولد علىٰ الخالق الرازق ثم أمر بالإنفاق مما رزق وقرنه بالإيمان وأخبر أنه استخلفنا في ملكه اختباراً لنا فقال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (2) فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا ، وعقل العاملون كل الكلام فآمنوا وأنفقوا وما يعقلها إلا العالمون المستخلفون فيها بالحق .

ومن أنواع الرزق الذي منحه الرزَّاق لبعض خلقه دون البعض ، والذي لا يلتفت إليه إلا أصحاب البصائر ، ولا ينتبه له إلا أولو الألباب ، ولا يعلم قيمته إلا من ملك عقلاً رشيداً ورأياً سديداً ، ألا وهو الصبر حيث قال

(1) البقرة 267 .

(2) الحديد 7 .

تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (1) فالذي رُزِقَ الصبرَ فإن ٱلله تعالىٰ قد اختصه بنوع من الرزق له من المكانة والقيمة ما ليس لغيره من بقية الأنواع الأخرىٰ وما يُرزَق هـٰذه السجايا إلا الذين عندهم خُلق الصبر ، وما يُرزقها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس ، فضلاً عن ذلك فإن هـٰؤلاء الذين اختصهم ٱلله بأن رزقهم الصبر في الدنيا كان لهم جزاء عظيم في الآخرة علىٰ صبرهم هـٰذا حيث قال تعالىٰ في جزاء الصابرين : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (2) أي أنهم لا يحاسبون كما يحاسب بقية الخلق ، والمفهوم من ذلك أن الصبر أشق شيء علىٰ النفس وأكرهه وأمره علىٰ الطبع وأصعبه ، لما فيه من الألم والتحمل والتجمل والحلم ، ومنه التواضع والكتم وفيه الأدب وحسن الخلق وهو رزق مخصوص ، فبه يكون كف الأذىٰ عن الخلق واحتمال الأذىٰ من الخلق ، وهـٰذه من عزائم الأمور التي تضيق منها أكثر الصدور وفيه إكراه النفوس وحملها علىٰ الشدة والبؤس ، وقد جاء أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ، ولأجل ذلك اشترط ٱلله تعالىٰ علىٰ المتقين والصادقين الصبر في الشدائد والمكاره ، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال برهم فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (3) ، فمعنىٰ الصبر حبس النفس عن السعي في هواها وحبسها أيضاً عن مجاهدتها لمرضاة مولاها بمثل ما يوجب المجاهدة علىٰ قدر ما يبتلي به العبد لأن المجاهدة علىٰ قدر البلاء ، والامتناع عن الشرود وحبسها علىٰ دوام الطاعة ، وصبرها عن شره الطبع الذي يظهر سوء الأدب بين يدي ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وصبرها علىٰ حسن الأدب في المعاملة ، ثم يتفرع الصبر إلىٰ

---

(1) فصلت 35 .

(2) الزمر 10 .

(3) البقرة 177 .

معان شتىٰ ، فمنها الصبر عن تفاوت الأهواء والصبر علىٰ الثبات ، فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عن الهوىٰ ، وتطهير القلب من خطرات الهوىٰ ونزعات الأعداء وتزيين الدنيا ، ومن الآفات ما يوجب الصبر كف الجوارح عنها وحبس النفس عن المشي فيها ، ومن الصبر حبس النفس علىٰ الحق وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم ، وبذلك وصف ٱلله تعالىٰ عباده الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر وأخبر أن الناس كلهم في خسران إلا من كان من أهل الحق والصبر ، وعظّم الصبر فأفرده بإعادة التواصي به ولما كان ذلك كذلك فإن الصبر يكون رزقاً مخصوصاً لأناس مخصوصين لا يدخل فيه العموم ، وإن الخلق كلهم مرزوقون ولـٰكن بدرجات متفاوتة ، ومن الصبر حبس النفس علىٰ القناعة بما قسمه سبحانه وتعالىٰ ، وصبرها علىٰ القناعة وعلىٰ صنع الرازق ، ومن الصبر كف الأذىٰ عن الخلق الذي يدخل في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [1] فالأمر بالإحسان هو أمر بالأخذ من أفضل أنواع الرزق الذي يهبه الرزَّاق لمن يشاء من الخلق ، حيث أن الإحسان هو الإنعام الذي ينعمه الرزَّاق علىٰ عباده ، ثم احتمال الأذىٰ عن الخلق وهو مقام المحسنين الذين ينفقون مما رزقهم الرزَّاق من الإحسان ، ومن الصبر ، الصبر علىٰ الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب ، ومن كان كذلك فقد أدىٰ حق ما رزقه ٱلله لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ ومنه الصبر علىٰ الفحشاء وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان ، ومن كان بعيداً عن الفحشاء فقد رزق الحياء ، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء وأهل العقل ، ومن صبر علىٰ المنكر فقد رزق المعروف ، والصبر عن البغي وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا ، فمن ابتعد عن البغي فقد رزق العدل ، فمن كان من

---

(1) النحل 90 .

الصابرين فقد رزق العدل والإحسان والإنفاق ، فأخذ بأفضل ثلاث خصال ، وابتعد عن أسوأ ثلاث خصال وهي الفحشاء والمنكر والبغي ، ومن يكون كذلك فقد رزق مكارم الأخلاق ، فالذين صبروا ، ما أنعم أجرهم حتىٰ وصفهم بالصبر ، وما أكرم رزقهم ووصفهم حتىٰ مدحهم بالصبر ، والصبر يُحتاج إليه قبل العلم ، ومعه وبعده ، غير أن كثيراً من الخلق لا يدركون هـٰذه المعاني من دلالات الرزَّاق التي تفضل بها علىٰ بعض خلقه دون البعض الآخر لعلمه تعالىٰ ولمشيئته حيث قدَّر ذلك علام الغيوب فقد قال تعالىٰ : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (1) لأنه أراد سبحانه أن يفيدنا فضل بيان ويعلمنا اقتران الرزق بالخلقة ، وأنهما مسببان عن القدرة ، فالمتوكل قد أيقن أنه لم يكن علىٰ ٱلله أن يخلقه ، فلما خلقه كان عليه أن يرزقه ، وهـٰذا الذي ذكرناه من أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو المعطي المانع الضار النافع حيث كان هو الخالق الرازق كيف شاء ، ومتىٰ شاء ، ولمن شاء ، بما شاء ، ومن تذمر من رزقه فقد تذمر من الرزَّاق جل شأنه ، وأوكل نفسه إلىٰ الحسد ، وهـٰؤلاء إنما فيهم جهلٌ بالحكمة وغفلة عن الحاكم ، وجهلٌ بالرزق وجحودٌ بالرزَّاق ، حيث يحيلون ذلك إلىٰ عاداتهم وحظوظهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث ما اعتادوا عليه ، أو من حيث معقولهم باختيارهم ، ومعقولهم بالعز والفخر والتطاول ، لا علىٰ الذل والتواضع والفقر والمسكنة ، ولا يكلون أمورهم إلىٰ ٱلله ويرضون بتدبيره وتقديره أن يرزقهم كيف شاء وبيد من شاء فيؤثرون أخلاق المسرفين علىٰ أخلاق المتواضعين ، لبعدهم من مشاهدة اليقين ولاستيلاء أخلاق النفس الأمارة بالسوء عليهم ، ثم إن نفوسهم مع علمهم أن الخلق والأرض كله لله عز وجل ، وأن الحمد والملك له ، قد تطمع في غير ٱلله وترجو سواه ، وقد تضطرب بجبلتها عن أثقال الحقائق ، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات ، ولا تصبر للخالق علىٰ استبطاء الرزق الذي هو مكتوب

---

(1) الأنبياء 23 .

من الرزَّاق فقد قال ﷺ : « ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم ، وإن روح القدس نفث في روعي ، وأخبرني أنها لا تموت نفس حتىٰ تستوفي أقصىٰ رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فيا أيها الناس اتقوا ٱلله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء رزقه أن يخرج إلىٰ ما حرَّم ٱلله عليه » (1) .

إن ٱلله تعالىٰ يعطي ما شاء لمن شاء فيزيد وينقص كما يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي يوسع ويضيق علىٰ خلقه بما جرىٰ عليهم القلم ، فإن الإنسان لو هرب من رزقه لأدركه كما لو هرب من الموت لأدركه الموت ، وإن رزق الدنيا لا ينقطع عن العبد حتىٰ يأتيه أجله ، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل في رزق الآخرة ، فيكون أول رزق الآخرة آخر رزق الدنيا ولا آخر لهٰذا الرزق ، لو أن إنساناً سأل ٱلله أن لا يرزقه لم يستجب له ، فالله سبحانه وتعالىٰ خلقه وضمن له رزقه إلىٰ أجله المعلوم بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية ، فهو خلقه ولا بد من أن يرزقه أبداً ، ولو أن إنساناً آخر سأل ٱلله أن يكون له مثل ما أوتي غيره من الناس في الرزق من زينة الحياة الدنيا لما استجاب ٱلله له أيضاً لأن ذلك مخالف لما قضاه ٱلله تعالىٰ وقدره ، حيث نقف علىٰ مثل ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (2) فالتكسب والأسباب طرق أودعها ٱلله العطاء ، والأرزاق لا هي تعطىٰ وترزق بمنزلة الأشياء من الأشخاص حيث تكون في متناول يده متىٰ أراد ، ولا يستطيع أحد أن يؤجلها لوقت حاجته ، فالمتوكل موقن أن ٱلله سبحانه هو المعطي والمانع ،

---

(1) مصنف عبد الرزاق 11 ، 125 .

(2) القصص 79ـ80 .

وأنه هو المسبب الرازق ، وأنه هو الأول في التصريف والآخر في التقليب .

ونحن نعلم أن الرزَّاق لا يتوقف رزقه علىٰ ما يعتاش به المخلوق من الطعام والشراب ، ولـٰكن هناك أرزاق مخصوصة للإنسان الذي رزقه ٱلله العقل ، لذلك ترتب علىٰ هـٰذه الهبة الإلهية أرزاق أخرىٰ تتناسب مع طبيعة هـٰذا المخلوق ، وكذلك الأمر بالنسبة للمخلوقات غير العاقلة فقد رزقت أشياء أخرىٰ غير التي تعتاش بها من الطعام والشراب ، وهـٰذه الأرزاق متفاوتة ومتباينة بين المخلوق العاقل وبين غيره من المخلوقات ، ومتفاوتة ومتباينة بين كل نوع من المخلوقات ، فأما الذي يشترك به جميع المخلوقات هو ما يعم الجميع من الرزق المحسوس الذي يشترك جميع الحيوانات وجميع الناس من طائع وعاص وسعيد وشقيّ حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) فمن هنا نتبين أن قدرة ٱلله ونعمه وعلمه ورزقه شامل لكل شيء ، فلا توجد دابة تتحرك في الأرض إلا وقد تكفَّل ٱلله سبحانه برزقها المناسب لها في مختلف البيئات تفضلاً منه لأن الذي خلق الخلق ضمن لهم الرزق ، وهو يعلم مكان استقرارها في حال حياتها ، والمكان الذي تودع فيه بعد موتها ، وكل شيء من ذلك مسجل عنده سبحانه في كتاب موضح لأحوال ما فيه ، وهـٰذا النوع من الرزق الذي وهبه الرزَّاق لخلقه هو رزق العموم المطلق الذي ليس فيه استثناء ، وهو الغذاء الضروري لحياة جميع الأحياء من إنسان وحيوان ونبات ، بما يتناسب مع طبيعة خلقه ، ثم يأتي التفاوت والاختلاف في الكم والنوع حسب طبيعة الخلق ، وأول هـٰذه المخلوقات المرزوقة ـ غير الغذاء ـ هو الإنسان ، فالله تعالىٰ رزق جميع البشر عقلاً يتساوون به ، إلا في حالتين استثنائيتين هما العبقري والمجنون ، وبين هـٰذا وذاك درجات ولكل خصوصية سبحانه إنه

---

(1) هود 6 .

علىٰ كل شيء قدير ، وكل ذلك لحكمة أرادها الرزَّاق جل جلاله ، وسنتكلم عنهما بشكل مقتضب والحكمة الإلهية من ذلك ، ثم نبسط القول في أرزاق العقول الطبيعية وتنوع تلك الأرزاق واختلافاتها .

أما المجنون الذي لم يرزق العقل ، فإن الحكمة التي أرادها الرزَّاق هي أن يتفكر أصحاب العقول بأي نوع من الرزق أكرمهم الرزَّاق به في تصريف أمورهم والمحافظة علىٰ هيبتهم وما إلىٰ ذلك مما يمتاز به العاقل عن المجنون ، فيعلم قدر النعمة وقيمتها التي أكرمه الرزَّاق بها ، فيحمده ويشكره ويتوب إليه ، وأما العبقري الذي خصه ٱلله بعقل امتاز به عن جميع العقلاء فهي حاجة إنسانية لا تعني الشخص نفسه لأننا نجد النتاج العقلي لأمثال هـٰؤلاء يتعدىٰ الخاص إلىٰ العام ، وهـٰذا يعني أنه من خصوص العموم ، لذلك لم نجد أحداً من هـٰؤلاء علىٰ الرغم من انتمائهم لأمم مختلفة ، أنهم يكنون العداء لأمة أخرىٰ وهـٰذا من حكمة الرزَّاق الذي جعل عقولهم رزقاً للبشرية التي أساءت استخدام هـٰذا الرزق فيما بعد ، فمن هـٰؤلاء آينشتاين في النظرية النسبية ، وأديسون الذي اخترع المصباح الكهربائي ، ونوبل الذي اخترع المتفجرات ، ومدام كوري التي اكتشفت اليورانيوم ، وغيرهم كثير ، فلم يكن أحد من هـٰؤلاء يفكر في جانب الشر الذي يكمن في هـٰذا النوع من الرزق ، وما كان همهم وانشغالهم إلا بما يقدمون من الخير للإنسانية التي أساء بعض أفرادها التصرف بهـٰذا الرزق ، لذلك وجدنا ردة الفعل عظيمة عند نوبل عندما رأىٰ اكتشافه يستخدم للقتل والدمار ، فما كان منه إلا أن نذر جميع ثروته علىٰ شكل جوائز لمن يقدم خدمة تفيد الإنسانية في وجوه الخير شعوراً منه أن هـٰذا النوع من الرزق استخدم في غير مجاله . وأما بقية بني البشر فهم متساوون في دائرة التوسط في أن رزقوا هـٰذا العقل ، وهو تساوٍ فطري في الارتزاق به ، وإن كان للذكاء بينهم درجات ، ولهـٰذا يكون التفاوت فيما بينهم يعود إلىٰ الذكاء المكتسب من مجالات الحياة في العلوم والآداب والفنون علىٰ اختلاف أنواعها ، وكل ذلك ينطوي تحت راية الرزق من الرزَّاق في هبته تعالىٰ لهـٰذا

الوجه من الخير ، وأول أرزاق العقل هو العلم والمعرفة علىٰ اختلاف أنواعها دون تحديد أو استثناء لأي نوع من أنواع هـٰذه العلوم الشرعية أو الوضعية ، ونحن لا نفاضل بين أنواع الرزق العقلي لأن الرزَّاق هو الذي قدَّر المقادير والحاجات لهـٰذا العلم أو ذاك ، علىٰ أننا نجد الغالبية العظمىٰ من بني البشر لا يطلقون اسم عالم إلا لمن كان له باع طويل في الطب أو الهندسة أو الجينات الوراثية أو في عوالم الأحياء المائية إلىٰ آخر ما هنالك من أنواع هـٰذه العلوم الوضعية ، ولا يطلقون هـٰذه التسمية علىٰ الذين يشتغلون بالعلوم الشرعية والإلهيات التي هي من أرفع أنواع العلوم وأشرفها ، حتىٰ أن الفلاسفة الذين هم وضعوا أسس المعرفة جعلوا الميتافيزيقا والإلهيات أعلىٰ درجات المعرفة ، ذلك أن أمر العلوم التي رزقها الرزَّاق للخلق إنما تتدرج من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ ، فكان أول العلوم وأدناها هو علم التشريح بصرف النظر عن توجيهه سواء إلىٰ الإنسان أو الحيوان أو النبات ، فلو أخذنا قطعة من الخشب وشرحنا هـٰذه القطعة فنكون بدأنا بأول العلوم التي سوف تظهر لنا عدداً من القطع من خلال التشريح ، فإذا أحصينا هـٰذه القطع نكون قد انتقلنا من التشريح إلىٰ الحساب الذي هو أرفع درجة لأنه اشترك بين الواقع والذهن ، وبعد ذلك سوف نجد الدوائر والزوايا والمستقيمات في هـٰذه القطعة أو تلك فيظهر لنا علم الهندسة الذي هو أرفع من الحساب ، وكلما تقدمنا مرحلة تبدأ عملية التسامي من الواقع إلىٰ الذهن ، فكلما ترفعت العلوم عن الواقع زادت رتبة في الشرف ، وهـٰكذا فالجبر أعلىٰ من الهندسة لأنه يتجرد من الواقع إلىٰ الفرضيات التي تثبت النظريات بحيث تؤسس علم الفلك ، ولذلك كانت الموسيقىٰ والشعر والفنون بشكل عام هي أرفع من العلوم لتجردها عن الواقع ، فكلما ازداد التسامي والتجريد في علم من العلوم كانت درجته أشرف من سابقه ، ولذلك كانت الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة والبحث في علم الإلـهيات من أشرف العلوم لأنها تبحث في الغيبيات لذلك كانت العلوم الشرعية أشرف العلوم من هـٰذا الباب ، وهـٰذا لا يعني أن العلوم الطبيعية منقوصة الشرف ، بل العاملون في

مجالاتها هم شرفاء بالبحث والتجريب والتطوير الذي هو في حركة دائمة لأجل تحسين أحوال العيش وتطوير مصادر الأرزاق للعباد ، وعليه لا شرف في العلم مهما كان إن لم يكن عائداً بالنفع علىٰ العباد . قال تعالىٰ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [1] ولذا فمن رُزِقَ هـٰذا العلم المنتج والمبدع والمؤدي للإصلاح في الأرض وإعمارها فقد أوتي خيراً كثيراً ، ولا يتوقف هـٰذا النوع من الرزق علىٰ العلم فقط ، وإنما يحتاج من يشتغل بهـٰذا النوع من الرزق إلىٰ أن يرزق الفهم .

وعليه كل هـٰذه الأرزاق إشارة إلىٰ نعيم الدنيا ولـٰكن من حيث أنه معين علىٰ الآخرة فهو نعمة ، ولذلك قال رسول ٱلله ﷺ : « من أصبح منكم معافىً في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » [2] .

وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفىٰ وجه الحاجة إليهما وأنهما رزق من الرزَّاق ، إذ قال ﷺ : « ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء ، المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » [3] فهـٰذا خير من رزق الذهب والفضة والمتاع ، وقال رسول ٱلله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ، من صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » [4] .

وعليه فالرزق من الرزَّاق الكريم لا يقتصر علىٰ الأقوات والمعاش كما يفهمه البعض ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [5] حيث يدخل في ذلك كل أنواع الرزق وأدناها الرزق

---

(1) الأنعام 38 .
(2) سنن ابن ماجه ج 12، ص 171 .
(3) المستدرك للحاكم، ج 7، ص 418 .
(4) سنن النسائي، ج 11، ص 424 .
(5) النحل 53 .

المادي وأعلاها الرزق العقلي وما اجتمع بينها كالسمع والبصر والتذوق والشم وما تختص به الجوارح التي يملكها المرزوق . وصفوة القول وخيره ما قاله ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ (1) .

اللهمَّ يا الرزاق ارزقنا الطاعة التامة لك ، ولا تجعلنا طائعين لوسوسة الشياطين من الجنة والناس ، وارزقنا العلم والحكمة وارزقنا بحلالك عن حرامك ، وجنِّبنا عمَّا نهيت عنه ، وأنزل علينا الحفظة الكرام يحفظوننا من كل شر وضيق وظلم ، وارزقنا رضاك ورحمتك لنكون علىٰ ما تحبه وترضاه ! اللهُمَّ يا الرزَّاق لا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم من الدنيا ولا تفتنا فيها ، وارزقنا نعيم الجنة ولا تحرمنا منها ! اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ اللهمَّ يا الرزَّاق إن رزقنا عليك فاجعلنا من الأغنياء الوارثين ولا تجعلنا من الفقراء لغيرك ولا تجعلنا محتاجين ! اللهُمَّ ارزقنا يا الرزاق بالأبناء الصالحين واجعلنا في مرضاتك لآبائنا محسنين ! اللهُمَّ إنك ترزق من تشاء بغير حساب ارزقنا يا الرزَّاق كما تشاء بغير حساب ، عليك توكلنا فأنت نعم المولىٰ ونعم النصير .

اللهمَّ أنت الرزاق تهب لمن تشاء ما تشاء ! اللهُمَّ ارزقنا نصراً كبيراً وعلماً مفيداً وصبراً جميلاً !

اللهمَّ ارزقنا ألسناً شاكرة ، وقلوباً ذاكرة ، وعقولاً تتذكر ما كان ، وتفكر فيما يكون ، وارزقنا حبك وحب رسولك الكريم محمد ﷺ وارزقنا محبة الصحابة ، والصالحين ! اللهُمَّ ارزق أسرانا فرجاً ميسراً ، ومرضانا شفاءً عاجلاً ، وطلابنا علماً نافعاً ، ومظلومينا نصراً قريباً !

✍ ✍ ✍

---

(1) إبراهيم 34 .

الفَتَّاحُ جلّ جلاله

الفتَّاح : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّـاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [(1)] .

يقول الحلمي : « الفتاح هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم ، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ليبصروا الحق ، والفاتح هو الناصر » [(2)] .

« فهو سبحانه وتعالىٰ يفتح الخير علىٰ عباده ويسهل عليهم ما كان صعباً ، ثم يفتح عليهم في أمور الدين وهو العلم ، وفي أمور الدنيا فيغني فقيراً وينصر مظلوماً ويزيل كربة » [(3)] .

وقال الزجاج : « الفتاح هو ٱلله تعالىٰ الذي فتح بين الحق والباطل ، فأوضح الحق فبينه ، وأدحض الباطل وأبطله » [(4)] .

---

(1) سبأ، 26 .

(2) حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنىٰ ابن القيم الجوزية. القاهرة ـ دار الفجر للتراث، 2002ن ص 223.

(3) المرجع السابق، ص 223.

(4) مجدي صور الشورىٰ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 241.

وقال ابن الأثير : « هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده » [(1)] .

قال الإمام الغزالي : « الفتاح هو الذي بعنايته ينفتح كل مغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل ، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ، ويخرجها من أيدي أعدائه ، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلىٰ ملكوت سمائه وجمال كبريائه » [(2)] .

وقال ابن القيم في نونيته :

وكــذلــك الفتــاح مــن أسمــائــه ... والفتــح فــي أوصــافــه أمــران

فتــح بحكــم وهــو شــرع إلـٰهنــا ... والفتــح بــالأقــدار فتــح ثــانــي

والــربُّ فتَّــاح بــذيــن كليهمــا ... عــدلاً وإحســانــاً مــن الــرحمـٰـن [(3)]

الفتَّاح اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته الكريمة التي خص بها ذاته العلية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [(4)] . لا فتح إلا بوجود طرفين يكون أحدهما أقوىٰ حُجَّة من الآخر حتىٰ يُذعِنَ من لا حُجَّة له للذي يمتلك الحُجَّة الحق ، وبالتقاء الطرفين أو اجتماعهما تُبثُّ المعلومة الحُجَّة لدحض المعلومة الخاطئة ، وإن لم يتم ذلك موضوعياً ستكون المناصرة من قبل المؤمنين للمعلومة الصائبة ويكون التضاد من القوة المناصرة للمعلومة الخاطئة . والذين يؤمنون بالحق ويعملون علىٰ إحقاقه يُسمَّون الفاتحين أي الذين يزيلون الصعاب من الطريق حتىٰ يتم عبور المناصرين والمؤيدين والمؤمنين بالحق .

---

(1) يوسف المرعشلي ، ولله السماء الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص 172 .

(2) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ . بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ص 61 .

(3) النونية ، 2 ، ص 234 .

(4) سبأ ، 26 .

وقوله ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي أن يُمكِّن ٱلله بعضنا من بعض بالحُجَّة حيث لا إكراه في الدين ، وبالقوة حيث كسر الاعتداء ومغالبة المعتدين . وفي كل الحالات هو فتح .

في الحالة الأولىٰ : تتم مغالبة الحُجَّة بالحجَّة ، حتىٰ يؤمن الناس . وإن آمنوا فقد اهتدوا .

وفي الحالة الثانية : إن لم يؤمنوا بالحجة ولم يناصبوا المؤمنين العداء فهم أخوة في ظل نظام الدولة المسلمة ولا عدوان عليهم .

وفي الحالة الثالثة : إن أشركوا وأعلنوا العداء لمن أسلم واهتدىٰ للحق فقتالهم حق حتىٰ يستسلموا للقوة ويعم السلام بدين السلام .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّـاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تعني : أن ٱلله تعالىٰ هو الفتَّاح الذي لا يصعب عليه شيء فهو الفعَّال لما يُريد .

والفتاح العليم : تدل علىٰ أنَّ خالق كل شيء قادر علىٰ أن يفتح كل ما ينبغي أن يُفتح مما خلق ، فهو عليم بأمره وهو يمتلك مفاتحيه ولذا سيكون الفتح دون معاناة فهو القادر لأن يفعل .

وعليه فالفتَّاح هو :

- الذي يمتلك القدرة علىٰ الفعل متىٰ شاء دون أن تواجهه مغالبة .
- الفتَّاح هو الغلاَّب الذي لا يغلبه غالب .
- هو مذلل الصعاب وقاهرها بالقوة .
- هو فاتح أبواب الرحمة علىٰ عباده .
- هو حاق الحق وزاهق الباطل .
- هو القادر بدون تردد علىٰ أن يفعل فيفعل .
- هو من يمتلك مفاتيح العلم ومفاتيح الغيب معاً .

ـ هو ٱلله عز وجل الذي بيده مفاتيح الجنة فيعطيها لمن آمن وتاب ، ومفاتيح النار فيعطيها لمن كفر وأشرك .

والفتح : فعل خير ، والفتاح فاعل الخيرات الكثيرة والحسان . ولذا فإن الفتح تيسير وتذليل للصعاب والعوائق التي تعترض سبيل الخيِّرين من عباده ، والفتاح هو الميسِّر للأمر في حالة استعصائه .

والفاتح : هو القائم بالفعل مباشرة دون إنابة عن أحد ، وهو أيضاً الذي تَصدُر له الأوامر فيقوم بفعل الفتح تنفيذاً للأمر الذي يُطاع . ولهٰذا فالفتح جهد يُبذل من أجل غاية .

أما الفتوح : فهو ذاتي ، وهو الذي يهب هبة ، دون وسائط أو معاناة أو جهد يُبذل ، وهو القابل لأن يتجسد في الأعمال والأفعال حتىٰ يُحدث النقلة إلىٰ ما هو أفضل وأنفع وأجود .

والفاتحة : هي الوسيلة المستخدمة والمدخلة في أبواب الخير والرحمة ، ولهٰذا فإن البسملة هي فاتحة الفاتحة ، والفاتحة هي فاتحة الكتاب وهي المدخلة الرئيسية المُمكِّنة من دخول الآيات العظام . وهي أيضاً المدخلة بأدبها ورقيها الذوقي لمخاطبة ٱلله تعالىٰ مباشرة في أي دعاء كريم . وهٰكذا شهادة أن لا إلـٰه إلا ٱلله هي الفاتحة لدخول الإسلام ، وهٰكذا أيضاً يُذكر اسم ٱلله علىٰ الذبيحة ليدخل لحمها حلالاً علىٰ من أسلم ، فالحمد لله ربِّ العالمين الذي بيده مفاتيح الحياة والممات فلا يظلم ربُّنا أحداً .

ولأن الفتح تمهيد لعمل عظيم . فإن الفتَّاح هو الفاعل للعمل العظيم ، ولذلك كانت الفتوحات الإسلامية تمهيداً لنشر الإسلام الذي به يُحق الحق ويُزهق الباطل .

وعليه إن أردت أن تكون الخليفة فعليك بفعل الآتي :

ـ أغلق أبواب الشرك تُفتح لك أبواب التوحيد .

- أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصدق .
- أغلق أبواب العبودية لغير ٱلله تُفتح لك أبواب الحرية .
- أغلق أبواب الظلم تفتح لك أبواب التسامح .
- أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال .
- أغلق أبواب الاتكال علىٰ غير ٱلله تُفتح لك أبواب التوكل عليه .
- أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبة .
- أغلق أبواب الظن تُفتح لك أبواب اليقين .
- أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير .
- أغلق أبواب التكبُّر تفتح لك أبواب التواضع .
- أغلق أبواب الذل تفتح لك أبواب العزة .
- أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثقة .
- أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطمأنينة .
- أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطاعة .
- أغلق أبواب الشقاء تفتح لك أبواب السعادة .
- أغلق أبواب الشح تُفتح لك أبواب المكارم .
- أغلق أبواب الشر تُفتح لك أبواب الخير .
- أغلق أبواب الرذيلة تُفتح لك أبواب الطهارة .
- أغلق أبواب الحقد تُفتح لك أبواب الرحمة .
- افتح أبواب الرحمة تفتح لك أبواب الجنة .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [1] . قال الشعبي : المقصود بالفتح هو الحديبية حيث أصاب بها ما لم يُصب في غزوة . ووردت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي وفي تفسير الجلالين : أنها تدل علىٰ أن مكة فُتحت عنوة بدون قتال وهـٰذه الآية وعد بفتحها [2] . والذي يهمنا من قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ هو ما تحتويه هـٰذه الآية من تيسير وتمهيد لانتشار الإسلام ، ويقصد بفتح مبين : فتحاً لا شك فيه في الزمنين الحاضر بفتح الحديبية ، والمستقبل بفتح مكة وغيرها من المدن والأمصار في المعمورة . ولذلك فمن ينظر إلىٰ ما نحن عليه في زماننا ، يتيقن بأنه قول الحق فقد كان فتحاً مبيناً علىٰ العالمين .

وقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ في اعتقادنا أن الذنب الذي تقدم هو الذنب الذي تأخر ، حيث لا ذنب للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الاصطفاء والتكليف بالرسالة ، والذنب الذي تقدم هو ما كان عليه قبل الرسالة ، وما تأخر هو ذلك الذنب الذي لم يبق بعد الرسالة ، وفي هـٰذا القول تماثل مع ما ينطبق علىٰ قوله هو (الأول والآخِر) ، أي هو ٱلله لا شريك له فهو هو واحد أحد لا ثاني معه (الأول والآخِر) هـٰكذا يكون الحال مع قوله ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ . أي لا ذنب لمحمد عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة فأول الذنب هو آخره .

وقوله ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ تدل علىٰ أن بالإسلام تتم النعمة حيث لا ذنب لك يا محمد من بعده وهـٰذه نعمة وهداية حق علىٰ الصراط المستقيم الذي بالسير علىٰ نهجه يتحقق لك النصر المعزز بقوة العزيز الحكيم جل جلاله .

---

(1) الفتح ، 1 ـ 3 .

(2) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء السادس عشر ، ص 260 .

وعليه فكان الفتح علىٰ محمد بالرسالة والفتح علىٰ الرسالة بالفتح المبين الذي هو دليل إثبات تشهد عليه الحديبية ومكة وكل مصر من الأمصار التي فُتحت والتي ستُفتح لا محالة .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [1] . ما يقصده بالتجارة هو الآتي :

ـ الإيمان بالله تعالىٰ .

ـ الإيمان برسوله الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه .

ـ الجهاد في سبيل إعلاء كلمة ٱلله عز وجل .

ـ أن يكون الجهاد بالأموال ثم بالأنفس . والمترتب علىٰ هـٰذه التجارة هو :

ـ مغفرة الذنوب .

ـ دخول الجنة التي تجري الأنهار المتنوعة والمتعددة بخيرات كثار من تحتها ، والتي فيها مساكن طيبة في جنات عدنٍ . وهـٰذه الخيرات والجنان هي نتاج الفوز العظيم الذي تحقق للرسول ﷺ والذين أمنوا معه بما التزموا به من إيمان وطاعة لله وللرسول .

أما قوله ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ ﴾ تدل علىٰ أن الذين لا يزالون علىٰ قيد الحياة سينالون من تجارتهم وهي الإيمان والطاعة مكاسب ومغانم كثيرة في حياتهم الدنيا وسيعيشون انتصارات متعددة وكثيرة وفتوحات ، تعود

(1) الصف، 10 ـ 13 .

عليهم بالفوائد والمنافع الكثيرة ، وبهـٰذا فهم كمن يعيش جنتين الأولىٰ في الحياة الأولىٰ ، والثانية في الحياة الآخرة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (1) . الإيمان ليس سهلاً كما يظن البعض أنه يتعلق باليقين ، ورؤية اليقين ليست سهلة فهي تحتاج للمعلومة الصائبة والدليل والبرهان الثابتين والحُجَّة المطلقة التي تتوحد في الزمن حيث الصلاحية الدائمة ، فالعدل علىٰ سبيل المثال هو العدل ، والظلم هو الظلم سواء في الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، ولذا فمن يؤمن بالعدل حقّاً والظلم باطلاً ستكون حُجَّته باقية عبر الزمن وهـٰذا هو الدليل الإيماني المتضمن للثبات والاستمرارية علىٰ الحق الدائم . وعليه لو آمن أهل القرىٰ بالحق الدائم عبر الزمن لكانوا القوة التي لا تُقهر ولا تظلم أحداً مما يجعل قلوب الناس تتطلع وتنفتح للحق الذي يمتد بالإيمان قوة .

وقوله ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هـٰذه الآية مثوبة ورحمة تعود علىٰ الذين آمنوا ، وهم الذين ينالون الأجر في الدارين : رضاء ٱلله عليهم بتيسير معاشهم وأرزاقهم في حياتهم ، ورضاهم عن أنفسهم المطمئنة في الدار الدنيا ، ولأجل ذلك فهم يكافؤون بالجنة في الدار الآخرة . ولـٰكن لو راجعنا ما تدل عليه كلمة (لفتحنا) للاحظنا المعنىٰ الاشتراطي الذي تتضمنه والذي يعود علىٰ قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ وذلك لأن كلمة (لو) كلمة احتمالية المعنىٰ وليس يقينية المعنىٰ فهي لا تثبت إلا بالجواب أو الفعل المترتب عليها . ولقد تبين الأمر بالجواب ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي أن أهل القرىٰ لم يُصدقوا الحق الذي جاء به رسل ٱلله تعالىٰ صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، فظلموا أنفسهم ، فأخذهم ٱلله تعالىٰ بما كانوا يكسبون .

(1) الأعراف، 96.

وكانت نتيجة الأخذ إزالة المعوقين الذين بإزالتهم ذللت الصعاب أمام الفاتحين بالحق بالدعاية والتبشير والهداية للتي هي خير . ولهـٰذا فمن يتمسك بالحق يفتح ٱلله عليه خيراً ومن يتمسك بالباطل ليس له إلا أن يُزهق . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [3] هـٰذه الآية جاءت علىٰ لسان شعيب عليه الصلاة والسلام ، وهو يدعو ربه بأن يفتح بينه ومن آمن معه وبين قومهم الذين هم منهم ، ويقال حسب ما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي « أن شعيباً عليه الصلاة والسلام بعثه ٱلله إلىٰ أمتين : أهل مدين وأصحاب الأيكة » [4] . والأمتان الاثنتان هما قومه أي من بني دمه وأصله . ولذلك فللفتح أبعاد محلية وقومية وله أبعاد إنسانية :

البعد المحلي والقومي : أن يُبعث الرُّسُل والأنبياء إلىٰ قراهم ومدنهم وشعوبهم وأهلهم فكانت جميع الرسالات السماوية لا تخرج عن هـٰذا البعد المحلي إلا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قد جاءت بقضايا جامعة لا مانعة . أما الرسالات التي سبقتها فجميع قضاياها جامعة مانعة ، جامعة للقوم أو أهل القرية أو القرىٰ ذات العلاقة ، وذلك لأنها تخصهم ولا تعم الآخرين ، فهي جاءت لمعالجة قضية معينة أو بعض من القضايا المحلية أو الخاصة . فنوح عليه الصلاة والسلام بُعث ليُنذر قومه مصداقاً لقوله

---

(1) التوبة، 55.

(2) الأنبياء، 18 .

(3) الأعراف، 89.

(4) القرطبي، الجزء العاشر، ص 250.

تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [(1)] ، قال : (قومك) ولم يقل (الناس كافة) وقومك هم الذين تربطك بهم علاقة . ويونس عليه الصلاة والسلام بُعث لمائة ألف أو يزيدون هـٰذه قضية جامعة مانعة تجمع القوم الذين بُعث إليهم عدداً فقط مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [(2)] . ومثل لوط عليه الصلاة والسلام الذي بعث لقومه ولقضية الفساد الأخلاقي التي تفشت بينهم . وكذلك شعيب عليه الصلاة والسلام الذي بُعث لمعالجة قضية الفساد الاقتصادي التي تفشت بين قومه . وقضية موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع فرعون وملئه الذي طغىٰ في أرض مصر وأكثر فيها الفساد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [(3)] .

أمَّا البعد الإنساني : أن تكون الرسالة غير مقتصرة أو خاصة بقومٍ واحد أو قرية أو مصر من الأمصار بذاته . وهـٰذا الاشتراط جاءت به رسالة الإسلام الخاتمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [(4)] تحتوي هـٰذه الآية الكريمة القضية الجامعة لا المانعة التي ذكرناها في الأسطر السابقة ، فهـٰذه القضية لم تكن مقتصرة علىٰ قوم أو شعب بعينه ولا تقفل أبوابها في وجه الآخر من يكون فهي المستوعبة للجميع وذلك بفتحها أبوابها أمامهم بدون استثناء . وسميت بالجامعة لا المانعة ذلك لانعدام التخصيص فيها ولا تمنع أحداً من الدخول فيها من يكون ذكراً أو أنثىٰ يهودياً أو

---

(1) نوح ، 1 .
(2) الصافات ، 139 ـ 148 .
(3) طه ، 24 .
(4) سبأ ، 28 .

مسيحياً أو منتمياً لأي دين من الأديان غير السماوية فهي للجميع دون ممانعة .

ولهـٰذا أرسل ٱلله تعالىٰ رسوله محمداً ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ إلىٰ الناس كافة . (بشيراً ونذيراً) تعني التبشير بالقول الحق ونشره بين الناس حتىٰ يُدركوا الجنة التي جاء الرسول ليبشر بها كافة الناس إن آمنوا . والنذير : هو الرسول محمد ﷺ الذي جاء بدين الحق ليُنذر بالقرآن عن ارتكاب المظالم والشرك بالله تعالىٰ حيث من أشرك وكفر واقترف ذنباً ولم يتب فستكون النار هي مثواه في الآخرة إن لم يؤمن . ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (1) .

وعليه كل الرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم جاءوا فاتحين لا لقضايا سياسية بل لقضايا أخلاقية واجتماعية واقتصادية وروحية حيث لا طمع لهم في مصلحة أو منفعة خاصة سواء الذين بعثوا إلىٰ الخاصة أو الذي بُعث للكافة . وهـٰؤلاء هم الأنموذج الأمثل للخليفة في الأرض ، لذا فمن يُرد أن يكون خليفة في الأرض فعليه بالاقتداء بما قالوا وبما فعلوا وسلكوا وعليه بالهداية للتي هي أحسن وأقوم . أمَّا أولـٰئك الذين لا علاقة لهم بذلك فهم المعرَّضون للمساءلة والعقاب .

والفتاح بالإضافة هو الخليفة في الأرض الذي اتخذ رسول ٱلله الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه الأسوة فيما يقول وفيما يعمل ويفعل ويسلك . ولذا فلم ينته التبشير والإنذار بانتهاء الرسل الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم بل المعمورة لم تهتدِ بعد مما يستوجب علىٰ المؤمنين التبشير بالحق قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً لا سياسة ومخادعة وطمعاً شخصانياً في غير مرضاة ٱلله تعالىٰ .

فالفتاح بالإضافة هو المؤمن الذي مثلما يعمل من أجل نفسه يعمل من أجل الآخرين الذين في حاجة للعلم والهداية من أجل القضاء علىٰ الجهل ،

---

(1) الصف، 9.

والذين في حاجة للدواء من أجل المعافاة والشفاء ، والذين في حاجة للماء من أجل الارتواء ، ومن أجل المحرومين من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم . وأن يعمل ذلك لا لبلوغ غاية خاصة في نفسه كأن يفوز بمكانة اجتماعية أو سلطة أو ثروة ، بل من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل حتىٰ تعم العدالة والتسامح والإخاء بالحق في الدار الدنيا ، وينجو من النار ويفوز بالجنة في الدار الآخرة . ولذلك فبطبيعة الحال من ينجو ويفوز في الدار الدنيا يفوز بالجنة في الدار الآخرة ، وهـٰذه لا يُلقَّاها إلا خليفة في الأرض .

وعليه فمن أراد أن يفوز بالجنة فعليه بالخليفة ولكي يكون خليفة عليه بالحق واتباع القدوة الحسنة حتىٰ تكون القدوة في نفسه وفي روحه إيماناً راسخاً وفي قوله عملاً وفعلاً وسلوكاً نافعاً . وبهـٰذه يصبح الخليفة الذي لا يقول إلا الحق صادقاً ، ولا يعمل إلا مفيداً نافعاً ، فلا يشرب مُحرَّماً ، ولا يأكل أموال الناس بالباطل ، ولا يقتل النفس التي حرَّم ٱلله إلا بالحق ، ولا يزني ، ولا يوقد نار الفتنة ، ولا يُحلِّل ما حرَّم ٱلله ، ولا يعتدي ظلماً وبهتاناً ، ولا يركع أو يسجد إلا لله تعالىٰ . يتطهر بالصدقة والزكاة وبالعمل الصالح يؤدي جميع الفرائض إيماناً تاماً بالله تعالىٰ ، يتقدم لأعمال الإحسان وإذا ما أخطأ يُكفِّر عن سيئاته ، ويتوب إلىٰ ٱلله ربه ولا يشرك به شيئاً .

ولأن الفتح يُستمد من الفتَّاح الأعظم ، فعلىٰ العباد أن لا يتأخروا عن استمداد هـٰذه الصفة الحسنة منه تعالىٰ ، وهـٰذه ليست بمستحيلة فبما أنها صفة فهي قابلة لأن تستمد حتىٰ تتجسد في السلوك والفعل ، ولأنها كذلك فالذي خلقه ٱلله عز وجل في أحسن تقويم هو القادر علىٰ استمدادها من مصادرها المكتوبة في الكتاب (اللوح المحفوظ) ومن السنة العملية التي تجسدت في أعمال الرسول ﷺ وأفعاله الحسان .

وحتىٰ لا يعم اللبس والغموض بعض معاني الكلمات وما تدل عليه من مفاهيم ، علينا أن نميز بين الفتح وبين الحرب .

ـ فالفتح يؤسس علىٰ معطيات إنسانية من أجل الهداية والمساواة لا من أجل المغالبة ، وهـٰذه المعطيات هي :

ـ التبشير بالحق الذي يقضي علىٰ الفساد في الأرض وذلك لأجل البقاء والاستخلاف فيها حتىٰ النهاية . قال تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ (1) .

ـ التبشير بالجنة للذين رضوا بأن يكونوا خلفاء في الأرض ولم يرضوا أن يكونوا مع الخوالف عندما تدق ساعات الفتح المبين . قال تعالىٰ : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (2) . وقال جل جلاله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ (3) .

ـ الإنذار بالعيوب والتحريض والعمل علىٰ إصلاحها بالتي هي أحسن . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (4) .

ـ الإنذار بالنار في الحياة الآخرة لكل من كذَّب وتولىٰ أو اقترف ذنباً أو سفك دماً أو أكل مالاً حراماً أو شهد شهادة زوراً بهتاناً بغير حق . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(1) الأعراف، 169 .
(2) التوبة، 87، 88 .
(3) البقرة، 25 .
(4) القصص، 77 .
(5) الليل، 12ـ17 .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ ﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ (2) .

ـ إعلان المحبة في الله تعالىٰ والعمل بها لأجل تقوية اللحمة والقضاء علىٰ التفرقة . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ (3) .

وفي حالة ما إذا أحسَّ المسلمون بخطر علىٰ دينهم من أي مصر من الأمصار المحيطة بهم كانوا لا يعلنون الحرب ولا يدخلونها إلا إذا كتبت عليهم ، ولذا فالإحساس بالخطر هو الذي كان يُحفِّزهم للفتح الذي من معطياته الآتي :

ـ القضاء علىٰ الكفر والشرك بالله تعالىٰ . قال عز وجل : ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ (4) .

ـ إنذار المستهدفين بالفتح وإبلاغهم بموضوعه . قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (5) .

ـ تبشيرهم بالرسالة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن

(1) المائدة، 8 .
(2) المائدة، 33 .
(3) آل عمران، 103 .
(4) التوبة، 12 .
(5) آل عمران، 64 .

يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [(1)] .

ـ تقديم الحُجَّة التي دعتهم إلىٰ التداعي لمستوجبات الفتح . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [(2)] . وقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [(3)] .

ـ التأكيد علىٰ الغاية وهي تحقيق السلام بين الناس ليعيشوا إخوة متحابين في ٱلله تعالىٰ . قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [(4)] .

ـ استيعاب الأقوام المفتوحة قراهم وأمصارهم دون إكراه في الدين . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [(5)] . يُفهم من هـٰذه الآية الكريمة أنه لا غاية شخصانية أو طمعاً في سلطة أو ثروة من وراء الفتح ، بل الغاية من ورائه هي الإيمان والتقوىٰ لله تعالىٰ .

ـ إعداد القوة وإظهارها مع الميل إلىٰ التفاوض الذي يُمكِّن من دخول الأمصار بدون قتال . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا

(1) آل عمران، 84.
(2) البقرة، 208.
(3) البقرة، 256، 257.
(4) النساء، 94.
(5) الأعراف، 96.

تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

ـ عندماتكون الشعوب تعبد الأصنام شركاً بالله تعالىٰ يتخذ المؤمنون قرار الفتح ويُقْدمون عليه فعلاً وسلوكاً . قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ (2) .

أمَّا الحرب فتؤسس علىٰ معطيات المغالبة ، والمخادعة والدهاء وتقليب الأمور فتعلن الحروب وتشب نيرانها مما يجعلها تؤسس علىٰ الآتي :

ـ السيطرة علىٰ مقاليد القوة من ثروة ومنجزات مادية .

ـ التوسع الجغرافي من أجل مستقبل بعيد .

ـ القضاء علىٰ ما يُخيف أو يُنذر بخطر .

ـ اختلافات فكرية أو ثقافية أو عرقية أو دينية .

ـ بسط سيادة القوي علىٰ الضعيف وجعله في حالة تبعية وقهره بالمغالبة .

ـ الخوف من التحكم في مصادر الحياة كمنابع المياه ومنابع النفط .

ـ الحيلولة بين أصحاب القضايا وامتلاكهم لمقاليد القوة .

وعليه فالفرق كبير بين الفتح الذي تكمن غايات السلم فيه وبين الحرب الذي تظهر غايات الاضطهاد والاستعباد والاستعمار فيه ، ولذا فإن الفتح وضوح بالمصادق والحرب غموض بلا حُجَّة ، والفتح لا تترتب الأضرار

---

(1) الأنفال، 60 ـ 62 .

(2) الأنفال، 19 .

عليه ، والحرب والاقتتال نيرانها لا تقف إلا بمغالبة وضرر شديد وخسائر مؤلمة وموجعة ، وخير مثال علىٰ ذلك للمقارنة فتح مكة الذي تم بسلم دونما أضرار أو خسائر حيث لم توجَّه ضربة واحدة لإنسان فالضربات التي وجهت يوم فتح مكة هي تلك التي بها هُدِّمت الأصنام وجعلتها دكاً تتهاوىٰ بين أيدي الفاتحين وهم يعلنون أن ٱلله واحد أحد لا شريك له وأن المسلمين أخوة وأنه لا إكراه في الدين . أما الحرب فنيرانها تأكل الأخضر واليابس تضر ولا تبقي كما هو الحال في العراق وفلسطين والحرب في جنوب لبنان وفي أفغانستان . أناس يقتلون وتدمر مساكنهم وتهتك أعراضهم ، وتسفك دماؤهم بغير حق ، ويُهَجَّرون كرهاً ؛ حتىٰ إنهم فقدوا كل شيء فلا حول ولا قوة إلا بالله !

قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) . تُثبت هـٰذه الآية بأن فاتح الرحمة هو الذي بيده مفاتيحها وهو ٱلله عز وجل ، وهو الذي إن فتح رحمته (أي رحمة منه) فلا أحد قادر علىٰ منع وصولها لمن يُراد لها أن تصله بإرادته تعالىٰ . وإن أراد أن يحجب رحمته عن أحد فلا راحم له غيره ، ولذا فهو العزيز الذي إن فتح رحمته علىٰ من يشاء يعزه بها كيف يشاء وإن أراد إذلاله فيمسك رحمته عنه فيظل في فاقة إلىٰ أن يرحمه ٱلله العزيز الحكيم ، والحكيم : هو الذي يعلم الأسرار من وراء عطائه بفتح أبواب رحمته علىٰ من يشاء ، وإغلاقها عمن يشاء . فهـٰذه أسرار والأسرار هي التي تكمن فيها الحكمة والعلل المفسرة لأسباب العطاء والرحمة ولأسباب الإمساك والمنع .

وفي الحديث الذي أسنده الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : « خرج علينا رسول ٱلله ﷺ يوماً كالمُوَدِّع فقال : « أنا محمد النبي الأمي

(1) فاطر ، 2 .

ثلاث مرات ، ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ، وتُجُوِّزَ بي ، وعُوفيتُ ، وعُوفِيَتْ أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذُهِب بي فعليكم بكتاب ٱلله ، أحلُّوا حلاله وحرموا حرامه » (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

علم الغيب سر نحن لا نعلمه ، أبوابه مقفلة ومفاتيحه بيد من يعلم أسراره سبحانه لا إلـٰه إلا هو جل جلاله ، يعلم ما في البر والبحر ، ويعلم متىٰ تسقط الورقة من نبتتها قبل أن تسقط ، ويعلم الحبة في مكمنها كيف تنمو وكيف تمتص غذاءها ، ومتىٰ تنضج ومتىٰ تجف ومتىٰ تؤكل ، ومن الذي سيأكلها بالتحديد ، ومتىٰ سيأكلها بالتحديد وأين يأكلها ؟ ولذلك فهو علاَّم الغيوب فكل شيء أحصاه وعده عداً ، رطب أو يابس أو غيره مما خلق هو الذي يعلمه ويعلم مواقيت نهاياته مثلما يعلم مواقيت بداياته وإلىٰ ما يصير إليه قبل أن يصير علىٰ ما سيصير عليه .

فالغيب أسرار من ورائها حِكم ، ومع أننا لا نعلم الغيب إلا أننا نعلم به ونؤمن ، وللغيب ثلاث معطيات :

الأولىٰ المعطية المطلقة : وهي لا يعلم الغيب بالمطلق إلا ٱلله جل جلاله ، ولذلك كل شيء أحصاه وعده عداً وكل آتيه يوم القيامة فرداً . قال تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ

(1) مسند أحمد، ج 15، ص 198.
(2) الأنعام، 59.

عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [1] . ومن علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا هو :

ـ **قيام الساعة** : قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

ـ **علم الموت** : الموت نهاية مجهولة لبداية معلومة ، ومع أن كل العباد يؤمنون بالموت نهاية لبداية ، إلا أنهم جميعاً لا يعلمون متىٰ يموتون بالتحديد الدقيق ، ولا يعلمون أين سيموتون بالتحديد ، ولا يعلمون كيف سيموتون بالتحديد ، ولذا فالجميع ترك هـٰذا الأمر لمن يعلمه ولن ينشغل به إلا إذا ضاقت الدنيا به واشتد عليه الألم قد نجده في حالة انتظار لمتىٰ؟ وأين؟ وكيف ؟ . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [3] .

ـ **العلم الخَلقي** : فالله وحده يعلم متىٰ تحمل الأنثىٰ ، وممن ستحمل ، وبما تحمل ، وهل ما ستحمله سيكون ذكراً أم أنثىٰ ؟ أمَّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلا بالحمل إذا ما تم بإذن من ٱلله تعالىٰ ، فبعدها تكون المتابعة والرعاية والعناية . قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [4] وقال عز وجل : ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [5] .

---

(1) مريم، 93ـ95.
(2) الأعراف، 187.
(3) لقمان، 34.
(4) الرعد، 8.
(5) الحج، 5.

ـ **أمر الروح** : الروح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنسبة للبشر الذين خلقهم ٱلله في أحسن تقويم ، أما بالنسبة له فأمرها معلوم قال تعالىٰ : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (1) .

ـ **أمر الرحمة** : فمع أننا نعلم أن الرحمة توهب هبةً ، إلا أننا لا نعلم علىٰ من ستكون الرحمة ؟ ومتىٰ ستكون ؟ وأين تكون ؟ فهـٰذه جميعها تقع في دائرة علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلا ٱلله تعالىٰ . ولذا فأمور الغيب يُبشر بها ٱلله عز وجل عباده المؤمنين تبشيراً ، قال تعالىٰ : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ (3) . وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (4) .

ـ **أمر العقاب** : مع أن أمر العقاب أمر معلوم وأنه حدث ويحدث وسيحدث ، إلا أننا لا نعلم كيفيته حتىٰ وإن وقع مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (5) هـٰذا الأمر هو حال قوم عاد وثمود ، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذبوا شعيباً فأخذهم عذاب يوم الظلة ؛ وهـٰكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإننا لن نعلمه ولا نعلم علىٰ من سيكون حتىٰ وإن ظننا فإن بعض الظن إثمٌ . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (6) .

---

(1) الإسراء، 85.

(2) التوبة، 21.

(3) الأنعام، 12.

(4) الأنبياء، 107.

(5) النحل، 36.

(6) الرعد، 42.

ـ **أمر الثواب** : بما أن من الناس من يعمل شرّاً فيعاقب عليه فكذلك من الناس من يعمل خيراً فيثاب عليه بالجزاء الأوفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [1] . وقــال عــز وجل : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [2] وقال جل جلاله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [3] .

ـ **أمر السماء** : المؤمنون يعلمون بأن السماء سيأتي عليها يوم تكون فيه وردة كالدهان ، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء بل ستكون بلون الدهان في جماله وروعته . قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [4] . ولأن المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقيناً بأن السماء ستنشق وتصبح وردة كالدهان إلا أنهم لا يعلمون ساعته ولا كيفيته ولا روعته وحسنه .

ـ **الأمر الآتي** : كل مفكر عاقل يعلم علم المستقبل وفقاً لانتظامه في الزمان والحركة ، ولٰكن لا أحد يعلم أن ما يتوقعه للمستقبل قد يقع ، فبدون شك إن لم يحدث أمر الغيب سيكون غداً الجمعة بما أن اليوم هو الخميس ، وسيسقط المطر غداً بما أن للسحب تكاثفاً وتلبداً بالماء ، ولأننا نعلم علم المستقبل فإننا نعلم أننا سنتعلم ونعمل ونتزوج فنبني مسكنا ونسعىٰ دون كلل ولا ملل للحصول علىٰ العيش الرغيد ومع ذلك نعلم أننا سنموت يقيناً وأننا سنجازىٰ علىٰ أعمالنا ثواباً أو عقاباً ونعلم أن ٱلله غفور رحيم ودود ، ولٰكننا

---

(1) الأعراف، 128 .
(2) النساء، 17 .
(3) هود، 61.
(4) الرحمـٰن، 37 .

لا نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتىٰ نضمن بأننا سنتعلم ونعمل ونبني مساكن لأسرنا المتوقعة وأن الخميس سيأتي غداً ممطراً ، وأننا سنجازىٰ كما نحن نتمنىٰ .

ـ **أمر البعث** : المؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به ، ولذا فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به . أمَّا المنكرون فلا يعلمون بأمره حتىٰ يفاجؤوا به مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] .

الثانية المعطية الخاصة : إنها معطية الرسل والأنبياء الذين يُوحىٰ لهم ويُنبؤون بما لم يُنبَّأ الآخرون به ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ﴾ [3] . أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمد هو من أنباء الغيب ، وإلا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم يُوْحَ إليك أمر كل منهما ؟ ولذا فقوله (نوحيه إليك) تعني نُطلِعُك عليه مسلمات وبراهين وحُججاً مثبتة ذات دلالة حتىٰ لا يأتيك الظن ولتكون علىٰ اليقين بالبينة . ولأن الوحي هو إظهار علىٰ علمٍ من علم الغيب فأوحىٰ ٱلله إلىٰ نوح عليه الصلاة والسلام أن يصنع الفلك فصنع ، وهٰكذا أوحىٰ إلىٰ يوسف وهود عليهما الصلاة والسلام ، وأوحىٰ إلىٰ الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فآمنوا ، كما أوحىٰ ربُّك للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً .

قال تعالىٰ : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن

(1) الروم، 55، 56.
(2) آل عمران 179.
(3) آل عمران، 44.

رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ (1) هـٰكذا في حدود التخصيص أوحىٰ ٱلله عز وجل لمن شاء من خلقه ما شاء .

الثالثة المعطية النسبية : الساعة معطية ومسلمة لا شك في وقوعها بالنسبة للمؤمنين وهـٰؤلاء هم القلة الذين يعلمون بأمرها ، أما الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها ، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا يؤمنون بالبعث من بعده هـٰؤلاء هم الكثرة ، ﴿ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (2) تدل هـٰذه الآية علىٰ أن بعض الناس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالساعة مع أنهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكنهم من معرفة الزمان الذي ستقوم فيه . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (3) ترشد هـٰذه الآية إلىٰ أن أمر الإحاطة بعلم ٱلله المطلق مقصور عليه جل جلاله ، أما ما هو نسبي منه فمنقوص وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحي إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين ، فقد مكَّن ٱلله من يشاء من عباده مما يشاء علماً ولم يُمكِّن الجميع من علمه ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ (4) . وعلىٰ سبيل المثال : أمر انشقاق القمر الذي أنبأنا به ٱلله تعالىٰ في مُنزل كتابه الحكيم فآمنا به بالمطلق قد شهده غزاة الفضاء بأمهات عيونهم ولذا فهو علم غيب بالنسبة لغير المؤمنين إلىٰ أن تم اكتشافه حقيقة بين أيدي العلماء والبحاثة في علوم الفضاء .

وهناك أمر آخر لم يقع بعد والمؤمنون يعلمونه ويؤمنون به يقيناً وسيأتي لا محالة إنه اليوم الذي ستكون فيه السماء وردة كالدهان ، ومع أننا نعلم هـٰذا

---

(1) الجن، 26، 27 .

(2) الأعراف، 187 .

(3) البقرة، 255 .

(4) يوسف، 76 .

اليوم سيأتي يقيناً إلا أننا لا نعلم متىٰ سيأتي فهـٰذا الأمر من علم ربِّي ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً . فزدنا من علمك علماً يا ٱلله حتىٰ نعلم ونحن مؤمنون من علمك الواسع .

وحظ العبد من اسمه الفتاح أن يكون كما قال رسول الله ﷺ وفقاً لما رواه أنس بن مالك أنه قال : « إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبىٰ لمن كانت مفاتيح الخير علىٰ يديه ، وويل لمن جعل مفاتيح الشر علىٰ يديه » (1) .

ولأن ٱلله يريد للإنسان أن يكون خليفة له في إحقاق الحق وإزهاق الباطل فلذا ينبغي علىٰ العباد أن يفتحوا أبواب العلم للجميع حتىٰ يُسهموا في نقل الناس من الظلمة إلىٰ النور ، ونقلهم من الفقر إلىٰ الغنىٰ وذلك بغنىٰ النفس حتىٰ تطمئن بعد خوف من فاقة وحاجة ، وأن يعملوا علىٰ تمكين الفرد والجماعة والمجتمع بكامله من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم ، والسعي إلىٰ تحويل الأفراد إلىٰ الإنتاج الذي به يُحقق لهم الوفرة الحلال ، وليفتحوا أبواب الزكاة وأبواب الصدقات ، وأن يفتحوا أبواب الصحة والمعافاة ، وأن يفتحوا أبواب الدين وتيسيره للعباد برأفة ومحبة ومؤاخاة وبأسلوب يشوق المتعطشين إليه وبحجة تلجم أفواه المزايدين والمشركين والجهلة دون إكراه ، وأن يفتحوا أبواب الاستغفار والتوبة والرحمة والهداية علىٰ العباد حتىٰ تنعم البشرية بقيم السماء وفضائله وتزداد الرحمة علىٰ المستخلفين في الأرض من أبواب ٱلله الواسعة جل جلاله .

الفتَّاح هو مالك القدرة والقوة المطلقة المُمكنة للفتح متىٰ شاء وكيف شاء ، وأينما شاء ، فالقادر المطلق هو الذي يفتح ويغلق ما يشاء من أبواب الخير والشر ، فلا يمكن أن يتدخل أيٍ كان من الخلق مهما وصلت درجة قربه

(1) شعب الإيمان للبيهقي، ج 2، ص 260.

من ٱلله سبحانه وتعالىٰ في أن يغيّر ما أراد الخالق تعالىٰ ، فإذا أراد أن يفتح باب العذاب أو العقاب علىٰ قومٍ وفي وقتٍ معين لا يمكن أن يقدر أحد علىٰ غلق هـٰذا الباب ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (1) ، وإذا أراد القادر علىٰ أن يفتح باب الرحمة علىٰ قومٍ ما فلن يستطيع أي مخلوق أن يغلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) ، فالعقاب والرحمة يتطلبان قدرة مطلقة لكي تسع كل الخلق وكل زمان ومكان ، لذلك فالفتَّاح لابد أن يكون قادراً مقتدراً .

وهو القادر أيضاً علىٰ فتح أبواب العلم لمن يطلبه ويسعىٰ إليه ، هـٰذا العلم النافع المفيد الذي يصل بصاحبه إلىٰ أرقىٰ الدرجات ، فلا يمكن أن يصل أي إنسان إلىٰ درجة معينة من العلم والمعرفة دون أن يفتح ٱلله له هـٰذا الباب ، لأن العلم بحد ذاته نعمة عظيمة من نعم ٱلله علينا ولا يملك النعم إلا خالقها عز وجل ، فلا يأخذ الإنسان الغرور والكبرياء إذا وصل إلىٰ درجات رفيعة من العلم ، بل يجب أن يتذكر أن الذي فتح عليه هـٰذه النعمة هو نفسه القادر علىٰ إمساكها ومنعها عنه ، والعلم الحقيقي هو الذي يصل بصاحبه إلىٰ أقصىٰ درجات التواضع والعطاء .

فعلىٰ الخليفة أن يكون فاتحاً لأبواب العلم والخير أمام الآخرين علىٰ قدر استطاعته وإمكانياته ، فلا يبخل بعلمه وعمله علىٰ مسلم بل يجب أن يجعل من علمه وعمله رادعاً لكل جاهل في أمور دينه ودنياه ، فيغلق بذلك أبواب التخلف والجهل المؤديين لفتح أبواب الكفر والعصيان واتباع العادات التي من

---

(1) الأنعام 65.
(2) فاطر 2.

شأنها إبعاد الإنسان عن خالقه بالخرافات والأباطيل والمزاعم الكاذبة ، وأن يعمل صالحاً يرضاه الفتاح جل جلاله ليكون خليفة مصلحاً وفاعلاً للخيرات الحسان .

فخليفة ٱلله في الأرض لابد أن يملك القدرة علىٰ فتح كل منافذ الخير والرحمة والعلم في الأرض ، وأن يسعىٰ فيها مصلحاً بين الناس ، فلا يجعل الجهل والكفر يسودان الأمة وتتفشىٰ الأمراض النفسية والاجتماعية بين المسلمين بذلك ، من هنا نستطيع أن ندرك أهمية القدرة علىٰ نشر الفضائل وفتح أبواب الخير بكل أنواعه ، هٰذه هي الأمة التي أرادها ٱلله للمؤمنين أن تكون ، قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، فلا يمكن أن نكون فتَّاحين للخير مبشرين به إلا إذا كان المعروف هو السائد بيننا ، ولا يمكن أن نكون مغلقين لكل أبواب الفساد والشر إلا إذا انتهينا عن المنكرات والشرور ، لتخرج الأمة سليمة ومعافاة من كل مرض فاسدٍ ، وتكون بمثابة درع أمام الكفر والجحود .

الفتَّاح ودود ، والود من المشاعر التي قد تكون خافية علىٰ البعض منا فلا نشعر به إلا متأخراً ، وقد لا نستطيع أن نتفهَّمه بسهولة ونصل إلىٰ عمقه وخفاياه ، فالود من الأحاسيس الراقية التي تتطلب رداً راقياً وسامياً عليه ، فمن الصعب أن نقابل الود بالجفاء والقسوة والنفور ، ولٰكن للأسف فإننا نجد أن الكثير من الخلق يقابل ود الخالق المطلق بالجفاء والعصيان ، مع أنه الغني عن ودهم لٰكنه يطلبه منهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ (2) ، من الآية الكريمة السابقة ندرك أن الخالق فتَّاحٌ لباب الود

(1) آل عمران 110 .
(2) الأنعام 133 .

الذي يأتي علىٰ هيئة رحمة بالعباد ، فالله تعالىٰ يفيض علىٰ عباده بالود المتمثل برحمته بهم أجمعين ، سواء كان هـٰذا العبد مؤمناً أو عاصياً أو مذنباً ، فإذا أراد الودود أن يفتح باب رحمته في وجه أي عبد فلا يملك أحد أن يغلق هـٰذا الباب ، لأن الفتَّاح بعلمه المطلق يدرك متىٰ وأين وكيف ينزّل رحمته بخلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (2) ، فالفتَّاح المطلق هو الودود المطلق الذي يوزّع وده ورحمته وحبه كيفما يشاء عز وجل .

والخليفة من صفاته أن يكون ودوداً بل أن يكون مفتاحاً للود والمحبة بين نفسه وخالقها وبين نفسه وبين الناس ، فلا يغلق باب الحوار والتسامح مع غيره ممن أخطأ في حقه ، بل هو من ترك بابه مشرّعاً أمام غيره ليدخلوا عن طريقه إلىٰ ربوع الخير والمحبة والأخوة .

ولابد لكي ينجح بكسب محبة من حوله أن يكسب محبة وود نفسه أولاً ، وهـٰذا لا يستطيع الخليفة الحصول عليه والشعور به إلا إذا وجد طريقه إلىٰ ٱلله تعالىٰ بحبه ووده وطاعته وخضوعه له عز وجل ، فيصل بذلك لأن يجعل من قلبه مفتاحاً للخير والإيثار والتضحية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (3) .

وللخليفة العليم بالإضافة دور كبير يستوجب القيام به قولاً وعملاً وفعلاً وفي كل ذلك عليه مسؤوليات من شأنها أن ترفع درجاته عالياً عند خالقه جل

(1) البقرة 160 .
(2) البروج 14 ـ 16 .
(3) الحشر 9 .

جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (1) ، فما خصص ٱلله تعالىٰ هٰذه المكانة للعلماء إلا لأهمية دورهم في فتح أبواب الهداية والدعوة للحق بين الناس ، فما من خير أو معروف يسود بين الناس إلا ويكون العلم دافعاً له ومحرضاً عليه ، وما من طريقة لنشر فضيلة إلا وكان العلم أساسه ، ولٰكن العلم ليس سواءً في الخير والشر ، لأن العقل البشري مثلما يكون مفتاحاً للعلم أحياناً يكون بعلمه مفتاحاً للشر والجحود ، يقود فيه العلماء الناس إلىٰ الباطل والضلال ، كالذين قال فيهم ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (2) ، فهٰؤلاء علماء بني إسرائيل جلبوا بعلمهم الهلاك والكفر لشعبهم بالرغم من علمهم بالحق والهدىٰ ، فالعلم بدون الإيمان والخشوع لا يمكن أن يكون مفتاحاً للتقدم والرقي بل يكون قفلاً علىٰ كل حضارة وعلىٰ كل فوزٍ وانتصار .

فطوبىٰ لمن كان علمه فاتحاً للخير والحق في وجوه العباد ، مغلقاً أبواب الضلال والفساد والهلاك ، هٰذا العلم الذي أمرنا بالسعي عليه الفتاح جل جلاله .

وعليه علىٰ الخليفة أن يكون قلبه فتَّاحاً للآتي :

أولاً : للأمل :

الأمل بذرة إذا غُرست في الأرض الصالحة أنبتت نفساً صلبة وقوية

(1) فاطر 28 .
(2) الشعراء 192 ـ 206 .

لا تنحني مع الهموم والأحزان ، لأنه بوجود الأمل بقدرة ٱلله ورحمته ووده وحلمه لا يمكن أن تنغلق أمامنا أبواب الفرج والفرح بنصر ٱلله لنا علىٰ أنفسنا وعلىٰ من كاد لنا وظلمنا ، فالأمل يجعل من القلب مفتاحاً للقوة والصبر اللذين يرفعان من درجة المؤمن عند ٱلله تعالىٰ .

فإذا تغلغل الأمل في النفس نزع اليأس من هـٰذه النفس ، لأنه لا يمكن أن يجتمع الأمل واليأس في نفسٍ واحدة ، وهناك الكثير من الأمور لا تأتي إلا بوجود القوة التي تنبعث في النفس المملوءة بالأمل ، فمثلاً النصر لا يمكن أن يأتي إلا بفتح باب الأمل في ٱلله وفي نصره وتأييده عز وجل في القلب ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [1] ، فالآيات الكريمة السابقة تدعونا بشكل مضمون إلىٰ إحياء الثقة بالله والأمل بنصره ، الذي من شأنه أن يلغي الفرق في القوة والعدد بين الفئتين ، ولكي نكون علىٰ هـٰذا النحو لابد من فتح باب حب ٱلله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام في قلوبنا ، هـٰذا الحب الذي هو أساس فتح ٱلله لنا باب النصر والفوز علىٰ من يعادينا ، والذي نراه اليوم من هزيمة للمسلمين وتصنيفهم من العالم الثالث فمرجعه كله لعدم فتح باب المحبة والثقة بالله عز وجل ، لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يكون مليئاً بالأمل بقدرة ٱلله ونصره للحق دائماً عندها فلن تُغْلق في وجهه أبواب النجاح والنصر والرقي ، فمن فتح باباً مع ٱلله فتح ٱلله أبواباً من الخير عليه .

ثانياً : فتَّاحاً للحب :

لا يمكن للمؤمن أن يصل إلىٰ درجة رفيعة عند ٱلله تعالىٰ بدون أن يكون داعياً وفتَّاحاً لكل باب يأتي منه الحب والود ، وهـٰذا الحب إذا أردناه أن يكون

---

(1) آل عمران 13 .

في الطريق الحق لابد أن يكون منبعه هو حب ٱلله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ قبل أي حبٍّ آخر ، لأن من شأن هـٰذا الحب أن يفتح باباً من أبواب الجنة له ، فيكون بذلك الحب من الفائزين ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، « أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ مَتَىٰ السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ حُبَّ ٱللهِ وَرَسُولِهِ . قَالَ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » [1] .

وبالتالي فإن فتح المؤمن الحقيقي باب الحب الصادق لله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يجعله محباً لنفسه ولمن حوله ، فينغلق قلبه بهـٰذا الحب عن أي شعور بالعدوانية والبغض والحسد لمن حوله ، فينأىٰ بذلك عن أي مرض اجتماعي من الممكن أن يصيب الإنسان الفاقد للحب والمودة .

وبالحب الصادق للحياة والخير والأرض والسماء يكون القلب البشري مفتاحاً لكثير من المشاعر النبيلة مثل :

الرحمة : التي طالما كانت مطلب الإسلام والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانت الرحمة بمثابة دعوة للمشاركة في الإحساس والتعاطف فيما بينهم : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ » [2] .

التواضع : من المستحيل أن يسكن الكِبْر قلباً يفيض بحب ٱلله ورسوله ﷺ وجميع المسلمين ، فالكِبْر علامة جحود ومرض يجعل من الإنسان مغلقاً علىٰ حب ذاته لا يعترف بالحقيقة ويرفض التعايش مع غيره ممن هم أقل منه في المستوىٰ طبعاً كما يراهم بغروره ، وهـٰذا ما نهانا ٱلله تعالىٰ عن التخلق به لما فيه من خلقٍ ذميم ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

---

(1) صحيح مسلم، ج13، ص91.

(2) صحيح مسلم، ج 12، ص468.

(3) الإسراء 37.

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (1) ، من الآيتين السابقتين نستنبط مبدأً رائعاً إذا سار عليه المسلمون فلن نجد معه أي مسلم ذليلاً مهاناً ضعيفاً . وهٰذا المبدأ هو الاعتدال الذي يتمثل في التواضع في الحياة فلا يكون الإنسان ذليلاً ولا يكون مغروراً بل واثقاً قوياً بالحق ، لأن من مضار الغرور هو فتح باب الجحود ونكران النعم وغلق العقل عن تقبل الحقيقة .

أما التواضع فيجعل من الإنسان مرآة للحق تنعكس فيها الصورة الحقيقية دون تشويه أو تزوير فيها ، فيكون بذلك قريباً من خالقه عز وجل ومن نفسه ومع من حوله .

ثالثاً : فتّاحاً لسبل التضحية الحقة :

من أروع صور الإنسانية التي يتجسد فيها الحب الصادق هي التضحية والإيثار ، وهي من الأمور التي لا تسهل علىٰ أي إنسان ، من السهل الدعوة والمناداة بالتضحية كشعور فاضل ونبيل ويجب علىٰ المسلم التحلي به ، إلا أن تنفيذه يبقىٰ أمراً صعباً علىٰ الكثيرين ممن يواجهون مواقف تتطلب التضحية في سبيل الأحبة ، ولٰكنها تسهل إذا كان القلب فتّاحاً لحب ٱلله جل جلاله وحب رسوله الكريم وحب الصالحين ، فمن كان حب الخالق مهيمناً علىٰ فؤاده كان حب الخالق له مفتاحاً للسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) ، والتاريخ الإسلامي مليء بالقصص والمواقف التي تتجسد فيها أروع وأنبل صور الإيثار والتضحية ، لذلك فقد فتح المستخلفون فيها مشارق الأرض ومغاربها بهٰذه الأخلاق النبيلة التي تمكنوا بها

---

(1) لقمان 18.

(2) الحشر 9.

من فتح القلوب قبل المدن والحصون ، فكانوا فاتحين الأبواب الحصينة وفتَّاحين للقلوب العاصية والعقول الجاحدة بإذنه تعالىٰ .

وإذا أراد الخليفة أن يكون مستحقاً للتحلي بصفات الخالق عز وجل فلابد أن يكون أولاً فاتحاً لباب الحوار مع الخالق ومع نفسه ومع من حوله :

أولاً : مع الخالق :

من المعروف أن الحوار يكون بين اثنين يتشاركان الحديث والسؤال والإجابة ، وتبادل الآراء بينهما ، وهـٰذا من الممكن حدوثه من الفتّاح جل جلاله إذ يخلو الخليفة بنفسه ويتكلم إلىٰ ٱلله يشكو همه ويشكر نعمته ويطلب فرجه وستره ويسأله الحل والجواب الشافي من كل تعب وحيرة ، وبالتأكيد فإن ٱلله عز وجل سيفتح قلبه وعقله وسيهديه لما فيه خير ، فالخالق قريب من الإنسان يسمعه ويعلم ما به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [2] ، فاليقين بقرب ٱلله منا هو بحد ذاته من شأنه أن يفتح باب الحوار واللجوء إليه لقربه منا .

وقد قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3] إن لقربه علامات تفتح باب الحوار معه ومن هـٰذه العلامات نزول رحمته بالمستغيث به ، فتكون بمثابة ردٍّ شافٍ ومرضٍ للمؤمن الذي لا يمكن أن يطلبها من غيره ، إذاً فرحمة ٱلله تعالىٰ بعبده تكون مفتاحاً لأن

---

(1) البقرة 186 .

(2) سبأ 50 .

(3) الأعراف 55، 56 .

يتابع المؤمن حواره ومناجاته مع الرحيم المطلق .

وكذلك فإنه جل جلاله يحاور المؤمن التائب بقبول توبته ، فيفتح له باب الاستغفار والعودة عما كان فيه ، بذلك يمكن أن يستشعر المؤمن برد الخالق علىٰ خوفه من عقابه وطلب السماح والمغفرة منه عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (1) .

وكذلك أيضاً الدعم المعنوي للإنسان ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) ، فالسكينة إذا حلت بالنفس البشرية فإنها تفتح أبواب الطمأنينة والثقة والمحبة فيها ، ولا يستطيع منحها لها إلا الفتاح عز وجل .

ثانياً : مع نفسه :

لابد أن يترك خليفة ٱلله تعالىٰ باب الحوار مفتوحاً دائماً مع نفسه ، التي قد تحتاج إلي الطمأنينة أحياناً ، وإلىٰ العقاب والتوبيخ أحياناً أخرىٰ لما ارتكبته من ذنوب وأخطاء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) ، فالإسراف الذي جاء ذكره في الآية الكريمة السابقة إنما هو الشدة في عقاب النفس ولومها علىٰ ما اقترفته من ذنوب وخطايا ، لذلك جاءت رحمة ٱلله تعالىٰ بهٰذه النفس

(1) هود 61 .

(2) التوبة 40 .

(3) الزمر 53 .

التي تحاورت مع نفسها ووصلت إلىٰ حد التوبيخ والعتاب والندم ، هـٰذه النفس البشرية التي تتعرض دائماً للزلات والأخطاء بسبب وسوسات الشيطان الرجيم الذي حذّرنا منه ٱلله تعالىٰ ، وفتح لنا باب العلم بما يضمره لنا هـٰذا الشيطان من عداوة وبغضاء في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (1) ، فالشيطان الرجيم توعد الإنسان بالإغواء وزحزحته عن الصراط المستقيم ، لذلك انقسم البشر ثلاثة أقسام :

أ ـ **القسم الأول** : من ليس له سلطة عليهم لقوة إيمانهم وحبهم لله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) ، فهـٰؤلاء خلفاء ٱلله تعالىٰ في الأرض فتّاحين للخير داعين لحب ٱلله .

ب ـ **الخطاءون** : الذين يخضعون لوسوسات الشيطان في أوقات معينة ثم لا يلبثون أن يندموا علىٰ خطئهم ويرجعوا إلىٰ الحق ، فيتوبوا إلىٰ ٱلله ويستغفروه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى

(1) الأعراف 16 ، 17 .
(2) الحجر 32 ـ 43 .
(3) الأعراف 153 .
(4) النور 5 .

ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [1] .

ج ـ **اتباع الشيطان** : وهم من يطيعونه ويتبعون خطواته ، فيملك بذلك الشيطان السلطة عليهم فيأمرهم بالسوء والفساد ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3] .

ثالثاً : مع من حوله :

الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يبقىٰ لوحده في هـٰذه الدنيا ، ولذلك تطلَّب وجوده ضمن مجتمع أن يكون هـٰذا الإنسان محاوراً لمن حوله وإلا لأصبح وحيداً رغم كثافة البشر حوله ، فلا يستشعر المرء بمن حوله إلا بفتح باب الحوار معهم فيأخذ منهم ويعطي لهم ، فيكون بذلك إنساناً إيجابياً ذا قيمة في مجتمعه ، لأن من شأن الحوار أن يفتح مئات الأبواب للتفاهم والحلول الصائبة لأصعب المشاكل التي تواجهنا ، بالإضافة إلىٰ اتساع ثقافة المرء وإدراكه من هـٰذا التحاور البنّاء ، ومن شأن هـٰذا الأسلوب إذا اتبعه كافة فئات المجتمع أن يفتح أبواب الفائدة والمنفعة لجميع المسلمين ، فالأب مثلاً عليه أن يكون محاوراً جيداً متفهماً لطلبات زوجته وأبنائه أيضاً ، فيكون بذلك فتَّاحاً للثقة بينه وبينهم والمودة والارتباط القوي الذي يجب أن يكون ، ويغلق بهـٰذا الأسلوب جميع الطرق المؤدية للانحراف والفساد وغيرهما ،

---

(1) آل عمران 155 .
(2) القصص 50 .
(3) النحل 63

وكذلك علىٰ المعلم أن يكون محاوراً لطلبته ورب العمل لموظفيه وهٰكذا ، ليصبح المجتمع بأكمله متفاهماً مترابطاً لا ينقصه العلم بفائدة الحوار .

فكم من الأمور الدنيوية من السهل حلها بواسطة الحوار والمناقشة ، لأن كل مشكلة من الممكن أن تُحل أو علىٰ الأقل تصغر بوجود أسلوب التفاهم والمشاورة والأخذ بالرأي الآخر ، ولا يمكن أن نخسر أو نضيع طالما أننا متكاتفون في الرأي ومتفاهمون ، فبذلك نفتح أبواب التبادل النافع بيننا في الرأي والتفكير .

والفتَّاح عز وجل يفتح علينا أبواب الخير لكي نفتح بدورنا أبواب المنفعة والخير لغيرنا ، وذلك مثل :

1 ـ في نزول الأمطار المحيية للأرض فتح لباب الخيرات علىٰ البشر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، فمن الآية الكريمة السابقة يفتح ٱلله بابين للخير وهما :

أ ـ **الباب الأول** : هو باب سد حاجة الإنسان من الطعام ، لأن في نزول المطر وخروج الزرع فائدة عظيمة تسد حاجة الإنسان من طعام ومن أموال ، بالتالي فعلىٰ هٰذا الإنسان الذي فتح ٱلله عليه هٰذا الخير أن يفتح هو بدوره هٰذا الباب علىٰ المحتاجين ممن حوله ، فلا يبخل بطعامه ولا بماله علىٰ الفقراء والمساكين ، بل يجب أن يكون فاتحاً لباب الصدقات والعطايا ، فيعطي مما أعطاه الفتَّاح ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (2) ، وكذلك قوله

---

(1) الأعراف 57 .

(2) البقرة 254 .

تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] ، فيكون بذلك قد فتح باب الخير علىٰ نفسه أولاً باتباع أوامر ٱلله عز وجل ونيل رضاه ، وبفتح باب الخير علىٰ غيره ممن هم في حاجة وعوز .

ب ـ **الباب الثاني** : هو فتح باب التذكرة والعبرة والإدراك لأصحاب العقول التي تبحث عن الحق ، وفي ذلك الخير الكثير ، فالإنسان بدون عقل مفتوح علىٰ الحق والهداية فهو أقرب للدواب كما أخبرنا بذلك رب العالمين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] ، فالمتأمل في قول ٱلله تعالىٰ والمدرك لحقيقة رحمته بالعباد وحبه لهم فإنه بذلك يفتح باباً للجنة والنعيم الخالد ، أما من أغلق باب عقله وقلبه عن أوامره جل جلاله وترك نفسه للشيطان يقودها للباطل والهلاك فإنه يفتح بذلك باباً للوصول إلىٰ النار .

ونحن ندرك أن مصير الإنسان في الآخرة محصور بين مكانين يوم

---

(1) البقرة 261 ـ 264 .

(2) الأنفال 21 ـ 23 .

(3) الأنفال 55 .

القيامة ، وهما إما الجنة وإما النار ، ولـٰكن كيف يكون الإنسان فتَّاحاً لأحد هـٰذه الأبواب ؟ .

يكون كذلك بالعمل الذي يسعىٰ في الدنيا به ، والذي يحكمه تغلب الخير أو الشر في النفس البشرية المسؤولة عن هـٰذا العمل ، فيختلف البشر بذلك في اختيارهم لفتح أي البابين منهما ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) ، فالخالق عز وجل بهداه ورحمته يفتح للعباد باب الجنة والنعيم ، ولـٰكن منهم من يتبع الشيطان معرضاً بذلك عن أوامره عز وجل .

2 ـ فتح باب العلم لنا : ليكون هـٰذا الباب بمثابة نور من ٱلله علينا نهتدي به إذا ضللنا الطريق ، فالفتَّاح إذا فتح علىٰ المؤمن باب العلم النافع والمعرفة الصحيحة فذلك لكي يكون هـٰذا الإنسان بدوره داعياً لنبذ الجهل الذي يؤدي للضلال ، فيحارب كل ما هو بدع وخرافات ويعمل علىٰ نشر الحق وسيادة العلم في العقول والقلوب ، إذاً فالخالق بفتحه هـٰذا الباب فإنه يأمرنا بأن لا نغلقه في وجه أحد ، فكل أمور وتفاصيل حياتنا بحاجة إلىٰ المعرفة والعلم لكي نكون علىٰ دراية كاملة ببواطن الأمور قبل ظواهرها .

إذاً فالفتَّاح المطلق هو من يريد بنا الرحمة والنجاح في الدنيا والآخرة بفتح

(1) البقرة 139 .
(2) القصص 51 ـ 56 .

باب العلم لنا والإدراك والخير والنعم التي لا تعد ولا تحصىٰ وكذلك بفتح باب التوبة والاستغفار والرجوع عن الخطيئة ، لذلك علىٰ الخليفة أن يتصف بهـٰذه الصفة الكريمة بأن يكون فتّاحاً للخير والمعروف في الأرض ومع من حوله ومع نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ جل جلاله : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (2) ، فلا خير أبداً في عبدٍ يكون مفتاحاً للشر والفساد والرذيلة ، لأنه بذلك يفتح أبواب جهنم له بإتباعه خطوات الشيطان الذي يأمر بالباطل وبالمفاسد ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، فكيف يكون باب الجنة مفتوحاً لمثل أولـٰئك المفسدين ؟ .

فعلىٰ الخليفة أن يكون معيناً ومساعداً لنفسه أولاً ولغيره ثانياً بأن لا يتوانىٰ عن أن يكون فاتحاً ومفتاحاً للحقيقة التي تصل بالمرء للهداية وإدراك رحمة وحب وعظمة الخالق عز وجل ، وأن يكون فاتحاً لأبواب الجنة التي لا تفتح إلا بالصبر علىٰ الحق والخير والعمل بهما :

أولاً : الصبر :

فلا تغلبه الدنيا بل هو الذي يغلبها بفتح الباب بينه وبين الرحمـٰن

---

(1) آل عمران 110 .

(2) آل عمران 113 ـ 115 .

(3) النور 19 .

الرحيم ، بذلك فلن تُغلق في وجهه أبواب الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (2) ، إذاً الصبر أحد مفاتيح الجنة التي تجعل من الإنسان علىٰ الأرض مستحقاً لأن يكون خليفةً لله جل جلاله ، وأن يكون في الآخرة مستحقاً لجنان الخلد . قال تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

ثانياً : العمل الصالح :

الإنسان في الحياة الدنيا حياته كلها أعمال منذ أول النهار إلىٰ آخره ، لأنه يتعرض للتعامل مع غيره فيعطي ويأخذ وهـٰكذا ، فالمجتمع قائم علىٰ تبادل الأعمال والمنافع بين الناس ، ولـٰكن اختلف البشر في نوعية الأعمال التي يتبعونها منهجاً ومسلكاً لحياتهم ، فليست كل الأعمال صالحة وليست كلها فاسدة وهـٰذا ما يحدده إيمان المرء وإخلاصه لله ، فكلما زاد الإيمان نتج عن ذلك العمل الصالح الطيب الذي يرضاه ٱلله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (4) ، وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً

---

(1) البقرة 155 ـ 157 .

(2) آل عمران 142 .

(3) النحل 96 .

(4) البقرة 62 .

﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [1] ، أما من كان عمله سيئاً ومفسداً فهو الذي يفتح بيده باب جهنم وبئس المصير ، بما عملت أنفسهم وبابتعادهم عن الحق الذي أظهره ٱلله لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ [2] .

فالعمل الصالح هو أحد مفاتيح الجنة التي أعدها ٱلله تعالىٰ لهم بعد أن فتح عليهم باب العلم بكيفية الوصول إليه والتمتع بنعيمها الدائم ، والأعمال الصالحة التي من الممكن أن تُنجي العبد من الهلاك لا تحصىٰ ولا تعد ، مثل : بر الوالدين والإنفاق في وجوه الخير ، والجهاد في سبيل ٱلله ، والقيام بالعبادات علىٰ أكمل وجه ، وغيرها من الأعمال التي يمكن للمرء أن يقوم بها في الحياة الدنيا فيكسب بها رضا ٱلله ورضا نفسه ورضا الناس ، فيفتح ٱلله عليه الخير في الدنيا وفي الآخرة .

ثالثاً : حب ٱلله ورسوله عليه الصلاة والسلام :

هـٰذا الحب هو أساس الفتح الصحيح لكل أبواب الجنة ، ولا يمكن أن يُفتح أي باب من أبوابها في وجه إنسان إلا بهـٰذا الحب النبيل ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، « أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرسول الله ﷺ مَتَىٰ السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ : حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » [3] ، فسر جميع مفاتيح الجنة هو إذاً كامن في هـٰذا الحب الذي لابد أن يتجسد في الأقوال

---

(1) النحل 97.

(2) البقرة 94ـ96.

(3) صحيح مسلم، ج 13، ص91.

والأفعال التي تصدر من الإنسان نفسه ، فلا يمكن أن يدخل الجنة من كان فاقداً لهـٰذا الحب الكبير .

رابعاً : إدراك حقيقة الشيطان الرجيم ولعنه :

ومن الممكن أن نصل لهـٰذه الحقيقة بالتأمل في الآية الكريمة الآتية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (1) ، فرد الشيطان علىٰ الخالق عز وجل عندما أمره أن يسجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله : (أنا خير منه) من هـٰذه الجملة ندرك مدىٰ حقد الشيطان علىٰ بني آدم وتكبره عليه ، وحب الانتقام منه ، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هـٰذا الشعور ووصل إلىٰ الإحساس بدرجة بغض وحسد الشيطان الرجيم للإنسان الذي كرّمه ٱلله تعالىٰ عليه فإنه بذلك يكون قد امتلك أحد مفاتيح الجنة الأساسية ، لأنه من أدرك هـٰذه الحقيقة نأىٰ بنفسه وحماها من وسوساته ، بل وغلب الشيطان وقهره بحب ٱلله ورسوله الكريم ﷺ ، لأنه من رضي بأن يكون تابعاً لعدوه لا يستحق جنان الخلد التي أعدها ٱلله وفتحها أمام كل راغبٍ بها ساعٍ إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن

---

(1) الأعراف 11ـ18 .

(2) البقرة 168 .

دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (1) ، فحقيقة الشيطان أوضحها لنا الخالق ليفتح لنا باب إدراك نيته ورغبته في إلحاق الأذىٰ والضياع والهلاك بنا ، ومن أجل ذلك يجب أن يكون الخليفة دائم التذكر لهٰذه الحقيقة المنجية له من العذاب وسوء المصير ، فلا يكون فاتحاً لذلك الشيطان باباً من الاستماع له واتباع أوامره بل عليه أن يغلق كل باب يمكن أن يدخل منه ذلك الشيطان ولا سبيل لذلك إلا باللجوء لله جل جلاله ، والإخلاص له في العبادة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (2) ، فالذي يغلق باب جهنم هو الإخلاص لله في الحب والعمل .

خامساً : العلم النافع :

العلم المفيد النافع هو الذي يجعل من الإنسان فاتحاً لأبواب إدراك الخالق في كل شيء ، والعلم المقصود هنا ليس هو الوصول إلىٰ أعظم الاختراعات والاكتشافات فقط ، بل هو المقرون بالبحث والسعي وراء حقيقة هٰذا الكون وهٰذا الخلق ، فلا يكتفي بالمعلومات يحشو بها عقله دون تنوير

---

(1) الكهف 50 ـ 53 .

(2) ص 71 ـ 83 .

ولـٰكن لابد أن يمعن نظره فيما وراء كل شيء ، فكم من عالِم وصل إلىٰ أرقىٰ الدرجات في العلم الحديث لـٰكنه بالرغم من ذلك مازال جاهلاً بأمور نفسه وما ينفعها ، ولأن علىٰ عاتق العلماء رسالة عظيمة يجب عليهم أن يؤدوا ما فيها علىٰ أحسن وجه فهم مكلفون بها ، إذ أنهم بالعلم يكونون فاتحين لباب المعرفة والحقيقة أمام الكثير من العباد الذين ما يزالون يجهلون ما لهم وما عليهم من أمور دينهم ودنياهم ، فبالعلم النافع لا يمكن أن يبقىٰ أي باب مغلقاً في وجه الإنسان فلا يتخبط هنا وهناك ليس يدري أي الطرق هي الأصح ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : « سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ ٱللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » [(1)] ، فمن شأن العلماء أن يكونوا فاتحين أو مضلين ، إذ أن العالِم الحق يجب أن يكون خليفة ٱلله في الأرض يسعىٰ بالإصلاح والإعمار ولا يمكن أن يتمكن من ذلك ومن حوله يغرقون في ظلمات الجهل والضلال ، بل عليه أن يبدأ بفتح الأبواب واحداً تلو الآخر حسب إمكانياته ، لكي يرقىٰ بمجتمعه إلىٰ أعلىٰ درجات الإيمان الصادق الصحيح الخالي من الخرافات والأباطيل التي أدخلها الجهلة في ديننا ، فأغلقت الباب بينهم وبين الوصول للحق واليقين .

ولكي يفتح العلماء هـٰذه الأبواب لابد أن يفتح ٱلله عليهم أولاً السبل لذلك ، ولـٰكن كيف يفتح ٱلله عليهم هـٰذه السبل ؟ .

بتقرب العلماء إلىٰ ٱلله أولاً ، فلا يأخذهم الكِبْر والغرور عن ذلك ، فلا خير في علم لا يرويه الإيمان ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [(2)] ، فلا يقف علىٰ حدود هـٰذه الخشية إلا من

---

(1) صحيح البخاري ، ج1 ، ص176 .

(2) فاطر 28 .

امتلك العلم الكافي بما يستحقه هـٰذا الخالق من خشية وحب ، ففتح له الفتَّاح المطلق باباً للهداية والنجاح ، ولا يدخل مع خلفاء ٱلله في الأرض من كان جاهلاً بأمور دينه ودنياه ، فقد فرّق ٱلله بين من يعلم وبين من لا يعلم في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، حيث كان العلم الفيصل بين من يستحقون فتح باب الجنة لهم وبين من يستحقون فتح باب جهنم لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (1) ، فمن الآيات السابقة نصل إلىٰ نتائج مهمة وحقائق عديدة لأصحاب العقول الصحيحة منها :

أ ـ أن ٱلله تعالىٰ بعلمه المطلق والمسبق بعباده أدرك أنه من عباده من أغلق علىٰ نفسه باب الجهل والكفر ، ويرفض أي إشارة للهداية والصلاح .

ب ـ بعث الرسل والأنبياء أكبر دليل علىٰ أن الخالق عز وجل هو الفتَّاح المطلق لعباده ، فهو ببعثه لهم فإنه يفتح لعباده أبواباً من الهداية والنصح والرشاد ، ويبقىٰ بعد ذلك اختيار الإنسان نفسه لأي باب سوف يتجه .

ج ـ هناك بعض الأمراض التي تصيب الروح فتغلق باب العلاج في وجه

(1) البقرة 6 ـ 16 .

المصلحين ، كالكفر والنفاق والعصيان والجحود والغرور وغيرها ، وكلها أمراض تصيب النفس البشرية بيد صاحبها ، لأنه لا حجَّة لأي إنسان علىٰ ٱلله بعد أن أرسل الرُّسُل وبعث الأنبياء والمصلحين ، ولـٰكن هناك من البشر من رفض الطاعة والهداية ففتح بذلك باب العذاب وسوء المصير بيده ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

د ـ في سرد هـٰذه القصص والحقائق عِبَر ومواعظ لمن أرادها ، فمن شأن النصح والمواعظ أن تفتح باباً للتراجع والعودة للحق .

هـ ـ نستطيع من هـٰذه الآيات أن نلمس رحمة الفتَّاح بعباده أجمعين ، ذلك من خلال فتح باب النصح والموعظة وإرسال الرسل وترك باب العودة والرجوع له مفتوحاً .

فعلىٰ الخليفة أن يكون ناصحاً ومرشداً بعلمه وبصبره ، فلكل إنسان أسلوبه الخاص والمميز له في الصبر والتعامل مع الآخرين ، ولابد أن يكون له الأثر الكبير في تغيير النفوس المغلقة بأن يفتح أمامها أبواب المعرفة والحب والأخوة ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة فكان هو المعلم الذي فتح ٱلله له باب العلم الحقيقي ليعلمه للعالم أجمعين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (2) ، فطوبىٰ لمن تلقىٰ هـٰذا العلم عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولمن علّمه لغيره من البشر مؤدياً بذلك أروع رسالة للبشرية وهي فتح باب المعرفة والمودة والنصر ، فالمعرفة لا تأتي إلا بالسعي وراءها والجهد في الحصول عليها وفتح العقل أمام الحقيقة الماثلة أمامنا ، والمودة

(1) النساء 165 .

(2) النجم 1 ـ 5 .

لا تسكن النفس البشرية إلا بفتح باب التسامح والرحمة اللذين نستمدهما من رحمة الخالق وتسامحه ، وكذلك النصر فلا يمكن أن ننتصر في أي شيء مهما صغر دون أن نفتح أبواب القرب من ٱلله تعالىٰ فنكون بذلك خلفاء ٱلله في الأرض كما أرادنا عز وجل ، نعمّرها ونصلحها وننشر الفضيلة والحب فيها .

لذلك فمن أدرك أن الفتاح المطلق هو الذي يفتح خزائن الرزق بفتح باب العمل الجاد الصحيح ، وهو الذي يفتح باب الهداية والحق لمن طلبها ، وهو الذي يفتح باب الراحة النفسية بفتح باب الرضا عليه ، وهو الذي يفتح باب الاستجابة بفتح باب الدعاء واللجوء إليه ، فلا يستعصي عليه شيء وكيف ذلك وهو القادر والمهيمن علىٰ كل شيء ؟ .

قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) ، فالإجابة للدعاء هي بحد ذاتها فتح لأوسع الأبواب وأكثرها طلباً من العبد ، لحاجته لله ولفتحه عليه أبواب الحياة المختلفة والتي يهيمن عليها الخالق عز وجل .

اللهمَّ إنك الفتَّاح فأنر عقولنا بالعلم النافع وأنر نفوسنا بما تطمئن به ، وافتح علينا أبواب السماء رحمة ، وافتح علينا بالحكمة التي بها نُعمِّر الأرض ونستخلف فيها ونرث الجنة ، قلت يا الفتَّاح وقولك الحق : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ! اللهُمَّ يا الفتَّاح افتح علينا رحمة لا ممسك لها إلا أنت وأنت خير الفاتحين ! اللهُمَّ افتح صدورنا للإيمان ، واجعلنا من الذين يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ولَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا وآذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ! اللهُمَّ اجعلنا من الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، ولا تجعلنا من الضالين وارضَ عنا إنك أنت الفتَّاح العليم عليك توكلنا والحمد لله رب العالمين !

---

(1) النمل 62 .

اللهمَّ يا الفتّاح افتح أبواب الأمل والرجاء في حبك وقربك ! اللهُمَّ إننا ندعوك يا الفتّاح أن تفتح لنا من العلم واليقين ما يكفينا لأن نصل إلىٰ جنتك فترضىٰ عنا ونرضىٰ عن أنفسنا ، يا الفتّاح اجعلنا فاتحين لعمل الخير فلا نغلق أبوابه في وجه عبدٍ من عبادك ، وفاتحين للكلمة الطيبة التي تسعد النفوس ، وفاتحين للعلم النافع الذي يرقىٰ بالعقول !

اللهمَّ يا الفتّاح افتح بيننا وبين من ظلمنا بالحق كما فتحت علىٰ عبادك المؤمنين في قولك : ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [1] !

(1) الأعراف 89 .

العَلِيمُ جلّ جلاله

العليم : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته الكريمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) وقال عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (3) .

في لسان العرب : « العليم هو ٱلله العالم بما كان وما يكون قبل كونه » (4) .

قال الخطابي : « العليم هو العالم بالسر والخفايا التي لا يدركها علم الخلق » (5) .

قال الإمام الغزالي : « العليم هو المحيط علماً بكل شيء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، أوله وآخره ، عاقبته وفاتحته » (6) .

وفي اسم العليم قال ابن القيم في نونيته :

---

(1) النساء، 12 .
(2) البقرة، 127 .
(3) المائدة، 76 .
(4) لسان العرب المحيط، ج الثاني، ص 870 .
(5) محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنىٰ . مرجع سابق، ص 41 .
(6) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ . مصدر سابق، ص 61 .

وهــو الــذي أحــاط علمــاً بــالــذي   فــي الكــون مــن ســرٍّ ومــن إعــلان
وبكـــل شـــيء علمـــه سبحـــانـــه   فهـــو المحيـــط وليـــس ذا نسيـــانِ
وكــذاك يعلــم مــا يكــون غــداً ومــا   قــد كــان والمــوجــود فــي ذا الآن
وكــذاك أمــر لــم يكــن لــو كــان   كيــف يكــون ذاك الأمــر ذا إمكــانِ (1)

العليم : « الذي خلق الخلق هو أعلم به ، وهو القوَّام عليه والمدبر له بعلمه المحيط ، وإرادته النافذة وقدرته المنفذة » (2) وفي ذلك يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « إن ٱلله عز وجل يفتح أبواب العلم لمن يشاء من عباده ، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر ، إلا أن الكافر قد يفتح ٱلله عليه أبواب العلم بالدنيا ، ولا يفتح عليه من العلوم الأخروية شيئاً ، ولو فتح له باباً منها لأسلم » (3) .

العليم : صفة يمكن استمدادها من قِبل المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُوهب لهم هبة من العليم المطلق مما يجعلهم علماء في دائرة النسبية .

العليم : هو المُدرِك لِما يَخلق قبل خلقه ، والمُدرك لأمره أثناء خلقه ، وهو الذي لا تخفىٰ عليه خافية فيما جرىٰ قبل الخلق وأثنائه ، وهو المُذكِّر لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحق الذي به هو أعلم . إنه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلىٰ النور . العلم الذي لا يقتصر علىٰ الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلىٰ البصيرة فيدرك إدراكاً . العلم الذي تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحُجَّة والبرهان والآية الدالة علىٰ الإثبات بالمطلق .

العليم المطلق : هو السابق علىٰ العلم حيث لا علم إلا منه جل جلاله ،

---

(1) حصة بنت عبد العزيز، شرح أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ وصفاته الواردة في الكتب الستة . الرياض ـ دار القاسم للنشر ، ص 180 .

(2) محمد بكر إسماعيل ، أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . مرجع سابق ، ص 84 .

(3) المرجع السابق ، ص 86 .

ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم . فالعليم هو السابق علىٰ كل سابق ولا سابق عليه . فهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث ، وهو الدائم الذي يَنهىٰ ولا يُنهىٰ .

أما العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقىٰ مهما ألمَّ من علم من علمه الواسع ، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة) .

والعالم : هو المدرك لأمر الغيب والشهادة ، وهو الذي يحيط بكل شيء علما ، والمحتوي للكل والجزء والمتجزئ منه ، فيسع كل شيء ولا شيء يسعه .

والعالم بالإضافة : هو المتمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشرة كما هو حال الرسل الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرسل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة .

والعلاَّم : هو الباقي الذي لا تخفىٰ عليه خافية في السماوات والأرض .

ويتساءل الشيخ الشعراوي عن علم الغيب بقوله : « ما الغيب الذي أراد ٱلله أن نؤمن به ؟ . ويجيب علىٰ ذلك بقوله : إنه الغيب الذي لا يكون مصدره إلا ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ذلك أن الإيمان لا يمكن أن يتعلق بشيء محسوس أبداً . فلا يقال علىٰ سبيل المثال : أنا أؤمن بأن الشمس ساطعة ، أو أنا أؤمن بأن القمر يكون بدراً في منتصف الشهر العربي . فهٰذه حقائق ماثلة وليس بغيب . ويقول في رواية عن سيدنا عمر رضي ٱلله عنه قال ما معناه : بينما نحن جلوس عند رسول ٱلله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، وشديد سواد الشعر ، ووضع ركبتيه علىٰ ركبتي رسول ٱلله ووضع يديه علىٰ فخذي رسول ٱلله ، وسأل السائل رسول ٱلله : ما الإيمان ؟ أجاب

رسول ٱلله : أن تؤمن بالله (وهو غيب) ، وملائكته (وهو غيب) ، ورسله (وهو غيب) ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره (وهو غيب) وأضاف السائل سؤالاً لرسول ٱلله ﷺ : ومتىٰ تقوم الساعة ؟ أجاب الرسول : « ما المسؤول بأعلم من السائل » وانصرف الرجل ، فقال الرسول : أتعلمون من كان هـٰذا الرجل ؟ قلنا : لا نعلم يا رسول ٱلله . أجاب الرسول : (إنه جبريل جاء ليعلمكم أمر دينكم) »[1] .

وعلم الغيب : هو العلم الذي لا تدري به عقول وأذهان من يُسألون أو يتساءلون . وهو العلم المتعلق بالزمن وفقاً للآتي :

ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن المستقبل : من حيث أنه العلم الذي لم يأتِ زمن ظهوره بعد ، ولا شواهد له في الزمن الآن . إنه العلم الذي سيحدث وتظهر معطياته وبراهينه بقوة علاَّم الغيوب في الزمن المستقبل دون أن يعلم بها أحد ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[2] . بطبيعة الحال بما أن يوم الجمع لم يأتِ بعد فهو يُعدُّ علم غيب إلىٰ أن يُنفىٰ بعلمه يوم يأتي في الزمن الآتي .

ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن الماضي : فعلىٰ سبيل المثال : زمن بداية الخلق مع أنه وقع في الزمن الماضي إلا أنه غير معلوم بالنسبة لمن خُلق ، ولذا فأمره أمر علم غيب الذي لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جل جلاله ؛ وكذلك ما وقع في الزمن الماضي مع أن الخالق أحصاه وعده عدّاً إلا أن العقل البشري لا يُدرك منه إلا القليل ، ولذلك فهو يجهل الكثير منه ، مما يجعل المجهول منه في عِداد علم الغيب الذي لا تُخفىٰ عليه خافية . قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

---

(1) محمد متولي الشعراوي، أسماء الله الحسنىٰ. مرجع سابق، ص240. ونص الحديث في صحيح مسلم، ج 1، ص 28.
(2) المائدة، 109.

ﭐلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) . لقد علّم العليم جل جلاله آدم الأسماء كلها ، أي الأسرار كلها ، ثم طلب من الملائكة التي لم تعلم بها أن تُنبئَه بها فعجزت عن ذلك . فالذي يتضح من هـٰذه الآية أن الأسماء لم تعد من علم الغيب بالنسبة لآدم بعد أن علَّمه وأعلمه ٱلله بها ، ولـٰكنها علم غيب بالنسبة للملائكة التي لم تعلم بها بعد مثلما علم بها آدم صلوات ٱلله وسلامه عليه . ولذا فعلم الغيب أصبح بالنسبة لآدم علماً ظاهراً ، ويعده كما نحن نعده من علم الماضي . ولـٰكن الملائكة الكرام في الزمن الذي طلب ٱلله فيه منهم أن ينبئوه بالأسماء التي سبق أن علَّمها لآدم يعد الأمر بالنسبة لهم علم غيب ، وظل العلم الذي أنبائهم به آدم علم غيب خلال الفترة الممتدة من علم آدم به إلىٰ زمن ما قبل أنبأهم وإظهارهم عليه .

ـ ما يتعلق بعلم الغيب في الزمن الآن الحاضرة : إنه العلم الذي يحتوي الآتي :

1 ـ ما لا نتذكره من أحداث وقصص وآيات قد وقعت في الزمن الماضي .

2 ـ ما لا نفكر فيه وسيحدث لا محالة في الزمن المستقبل .

ولذا فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم الإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكراتنا ولا نحيط به شيئاً . وهو العلم الذي إن سُئلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل .

---

(1) البقرة ، 31 ـ 33.

والأصل في العلم هو الغيب ، والاستثناء منه هو الظهور ، وإلا ما معنىٰ أن ٱلله خلق الشيء من لا شيء؟ إنه يعني قد خلق ٱلله مما لا نعلم شيئاً نعلمه ، أي أننا عُلِّمنا مما لا نعلم علماً . ووسيلة الإطلاع علىٰ علم الغيب هي الرسالات التي نزلت علىٰ الرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، الذين بُعثوا لأممهم وقراهم وشعوبهم ومن بعث للكافة جميعهم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات ، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر ٱلله عليه أبانا آدم عليه الصلاة والسلام الذي اصطفاه ٱلله بالعلم مما خلق وخصَّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر ٱلله في الاصطفاء . وهٰكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلومها علىٰ بقية الرسل الذين منهم نوح وآل إبراهيم وآل يعقوب وإسحاق وإسماعيل ويوسف وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم جميعاً صلوات ٱلله وسلامه .

وبما أن علم الغيب هو الأصل ، والظهور هو الاستثناء ، إذاً من حق الجميع أن يقولوا صدق ٱلله العظيم فيما قال : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ، وصدق ٱلله العظيم فيما قال : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ . وبناء علىٰ هاتين الآيتين الكريمتين ، تتأكد المعطية التي تقول : (إن الاستثناء جزاء قليل من كل كثير) ولهٰذا فالاستثناء هو ما أُوتينا من العلم إلا القليل ، وهٰذا يدل علىٰ أن العلم الوفير هو علم غيب وهو القاعدة ، مما يستوجب علىٰ المؤمن أن يسعىٰ والأمل معه وهو ويقول : ربي زدني علماً من علمك الواسع يا عالماً بأسرار الغيب يا مجيب !

وعلاَّم الغيوب : هو المدرك لِما لا تدركه العقول إلا بعلمٍ منه . وعلاَّم صفة مبالغة في العلم بالدليل والحجة والبرهان والآية . والعلاَّم : هو الذي تسبق معرفته بالشيء قبل أن يكون شيئاً .

والعلم : محتوًى ، ومضمونٌ لكامنٍ ، وظاهر ، يُعلَّم من عالمٍ ، ويُستمدُّ من عليم حكيم .

وللعلم علاقة مباشرة بالحكمة ، والسمع والخلق والعزة والقدرة والفتح والخبرة وفقاً لما جاء في قوله تعالىٰ في الآيات التالية :

1 ـ علاقته بالحكمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] .

2 ـ علاقته بالسمع كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] .

3 ـ علاقته بالخلق كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [3] .

4 ـ علاقته بالعزة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [4] .

5 ـ علاقته بالقدرة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [5] .

6 ـ علاقته بالفتح ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [6] .

7 ـ علاقته بالخبرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [7] .

والعليم بالإضافة هو المُلِم إلماماً بالعلوم التي أظهره عليها العليم

---

(1) البقرة، 32.

(2) الأنفال، 61.

(3) الحجر ـ 86.

(4) الزخرف 9.

(5) الروم 54.

(6) سبأ، 26.

(7) التحريم، 3.

المطلق ، مما يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هـٰذه خصوصية لمن يصطفيهم ٱلله لسرٍّ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (1) . ولأن أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هيناً فيتولىٰ ٱلله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهـٰذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها ، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهاراً ، فتصبح رؤاهم سابقة علىٰ حدوث الفعل ، أي : أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتىٰ يصبحوا أهل قدرة علىٰ الإنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ . ووفقاً لهـٰذه القاعدة كان يوسف عليه الصلاة والسلام خير مُفسر للأحاديث ، التي علمه العليم تأويلها . وقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾ يقصد بالنعمة النبوة التي خصَّ بها ٱلله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ فهي تدل علىٰ علمه ، وحكمته من وراء العلم ؛ الذي أظهره ٱلله ليوسف ، والنبوة التي أتمها عليه ، كما أتمها علىٰ أبويه من قبلُ : إبراهيم ، وإسحاق .

وفي آية أخرىٰ يقول تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (2) . فإذا نظرنا لخاتمة هـٰذه الآية ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ نلاحظ أن العلم الذي علَّمه ٱلله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصَّ ٱلله به يوسف

---

(1) يوسف ، 6 .
(2) يوسف ، 21 .

ليظهره للمستهدفين به من قومه ، وليبقىٰ من بعده آية تروىٰ مع قصص الأنبياء كما نحن في هـٰذه الموسوعة نحلل ونفسِّر ونروي .

ولنعود لقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بعد ما رماه إخوته في الجب لا لذنب إلا لأن محبته في حالة تميُّز عند أبيه صلوات ٱلله وسلامه عليهما أصبح في محبة الملك ، الذي اشتراه حتىٰ تمكَّن من بيت التخطيط والمال ، مما جعل سمعته قدوة حسنة لدىٰ الملك وفي محيطه الاجتماعي القريب والبعيد . وإلىٰ يومنا هـٰذا بين أيادينا آية .

وقوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ ولنمكنه من معرفتها وكشف أسرارها وتفسيرها لمن يتعلق الأمر بهم أو ذوي العلاقة ، وهـٰذه حكمة خصَّ بها ٱلله تعالىٰ يوسف عليه الصلاة والسلام .

وتأويل الأحاديث : التمكن من التعرف علىٰ عللها وتفسيرها وفقاً للأحداث المتعلق الأمر بها ، وهي أيضاً كما يقول القرطبي : تأويل الرؤيا والكلام وأحاديث الأمم ودلائل التوحيد [1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [2] . بلوغ الأشد ، بلوغ النضج والاكتمال العقلي والبدني والاستعداد لحمل المهمة التي ستناط به من ربِّ العالمين . حينها آتاه العليم سرّاً فقضىٰ له بالحكم في سلطان الملك وآتاه النبوة ، ثم آتاه علماً نافعاً به تمكَّن من تأويل الأحاديث . وهـٰكذا ربنا يُكرِم الذين يتولاهم بإحسان ، ولذا فالمحسنون هم الذين يكثرون من أفعال الخيرات الحسان ويتمسكون بصفات ٱلله تعالىٰ في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم ، وهـٰكذا كان يوسف عليه الصلاة والسلام خليفة ٱلله في الأرض ليصلح فيها ويعمر .

---

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء التاسع ، ص 190 .
(2) يوسف ، 22 .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) . يوسف عليه الصلاة والسلام قد عرف أنه لم يؤت المُلك وتأويل الأحاديث بالمطلق ، بل أوتي شيئاً من الملك ومن تأويل الأحاديث مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (2) أي أن الكمال لله وحده ولهٰذا لا يمكن أن يكون أحد مماثلاً له جل جلاله في شيء ، ومع ذلك فالذي يُراد له أن يكون خليفةً في الأرض يُراد له أن يسعىٰ ويبحث ليزداد علماً من علم العليم الذي بيده مفاتيح العلم ، ولذا قال تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ (3) أي زدني إلماماً وفهماً ومعرفة بما أحطتُ به علماً .

وقوله : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خالقهنَّ من لا شيء نعرفه سبحانه علىٰ كل شيء قدير ، ومن هٰذا الأمر كانت الفطرة التي خلق ٱلله عليها طبيعة الأشياء كما هي عليه في الوجود ، والفطرة ترتبط بخالقها ولا ترتبط بمن سواه ، ولذلك خلق السماوات والأرض علىٰ الفطرة رحمة للعباد .

وقوله : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ تحتوي هٰذه الآية الكريمة علىٰ أمر التسليم المطلق لله تعالىٰ في الدارين ، والمراد من وراء ذلك طلب المناصرة والعون علىٰ مغالبة النفس وأهوائها ومغالبة الصعاب ، وطلب الرحمة والمغفرة حيث الكمال لله وحده . وتُظهر هٰذه الآية رغبة يوسف في الالتحاق بمن سبقه من الصالحين رضوان ٱلله وسلامه عليهم .

وعليه فالعليم هو مصدر العلم من الأدق إلىٰ الأدق منه والأشمل ، وهو

---

(1) يوسف ، 101 .

(2) الإسراء ، 85 .

(3) طه ، 114 .

الذي لا تخفىٰ عليه خافية فأينما تكون لا تخفىٰ عليه فهو خالقها وخافيها حتىٰ يظهرها علىٰ من يشاء من عباده متىٰ ما شاء . قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] . علَّم آدم الأسماء كلها : أظهره علىٰ الأسرار ، وعرَّفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ ؛ حتىٰ إنه ألمَّ بها إلماماً وإدراكاً تاماً غير منقوص ، ولإظهار عدم معرفتها خُضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها ، فقالوا : سبحانك ، وفي هـٰذا القول ـ كما قال القرطبي ـ تنزيه ٱلله تعالىٰ عن أن يعلم الغيب أحد سواه [2] . وقوله : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ أي : لا علم لنا بشيء لم تُظهرنا أو تطلعنا عليه ، فأنت سبحانك العليم بكل اسم ومسمىٰ .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في هـٰذه الآية تحديد لاسم ٱلله الذي لا يحده حد ولا تحوطه نهاية بأنه هو العليم الحكيم ، أي أن العلم والحكمة اسمان من أسمائه الحسنىٰ وصفتان من صفاته الكريمة .

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [3] . لقد كان إبراهيم خائفاً من الملائكة الذين لم يعلم بأمرهم وهم علىٰ هيئة بني آدم وليؤمنهم أعد لهم طعاماً يليق بضيافتهم .

وفي هـٰذا الشأن قال عمرو بن دينار : قالت الملائكة لا نأكل إلا بثمن . قال : كلوا وأدوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ . قال : تسمون ٱلله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلىٰ بعض وقالوا : لهـٰذا اتخذك ٱلله خليلاً . وبشروه بغلام عليم هو إسحاق الذي سيولد له من زوجته سارة ، وله

(1) البقرة، 31 - 32 .
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول. ص 287 .
(3) الذاريات ، 28 .

من العلم ما يجعله عليماً من علم ٱلله عليه [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [2] . بعد أن علَّم العليم جل جلاله آدم بأسمائهم قال له : أنبئهم بها ، فأنبأهم ، وذلك ليُثبت لهم بأن آدم هو أعلم من علمه منهم ، وفي هـٰذا الأمر تفضيل كبير لآدم علىٰ بقية من خلق ، وبهـٰذا التفضيل أصبح بنو آدم هم المستخلفون في الأرض . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [3] .

وعليه فبأسباب العلم التي ميَّز بها العليم آدم جعله بها خليفة في الأرض ليعمرها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء وبهـٰذه الحُجَّة (حُجَّة العلم) كان الاستخلاف في الأرض ، وعلينا أن نقول : العلم الذي وهبه ٱلله وعلَّمه لآدم هو سبب الاستخلاف ، ولذا فمن كان علىٰ علمه تعالىٰ كان خليفة ، ومن لم يكن علىٰ علمه تعالىٰ فليس له علاقة بالاستخلاف في الأرض ولـٰكنه من المخلَّفين عليها . ولأن الملائكة مؤمنون فكان حال قلوبهم يقول وهم ينفذون أمر السجود لآدم : سبحانك جل جلالك ما فعلت هـٰذا باطلاً ، وذلك ليستغفروا علىٰ قولهم : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ . وبسجودهم هـٰذا كانوا يظهرون إيمانهم وتسليمهم لقوله : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ . والعلم الذي يعلمه ٱلله ولا تعلمه الملائكة هو أن ٱلله يعلم أن آدم وحده هو القادر علىٰ الإنباء بالأسرار التي علمه

---

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السابع عشر ، ص 46 .

(2) البقرة ، 33 .

(3) البقرة ، 30 .

إياها . ولذا فإن الذين يفسدون في الأرض من بني آدم ويسفكون الدماء فيها بغير حق هم ليسوا بخلفاء ، وذلك لأن الخلفاء في الأرض هم المصلحون فيها . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] من الآيتين السابقتين يبرز وضوح العلاقة بين الأرض والاستخلاف فيها علىٰ الإصلاح ، ويتضح في الوقت ذاته أنه لا علاقة للاستخلاف مع من يفسد فيها .

وقوله ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ تحتوي هـٰذه الآية علىٰ أربع قضايا من علم الغيب :

ـ القضية الأولىٰ علم غيب السمـٰوات : السمـٰوات مليئة بالأسرار ولم يكشف أمرها بالتمام ، فنحن بني آدم من المستخلفين في الأرض تمكنَّا من أن نلم بشيء من علوم الأرض ولم نتمكن إلا بالقليل القليل من علوم السمـٰوات التي لا نعلم إلا بعددها (سبع سمـٰوات) وما يحيط بها من كواكب ومدارات فلكية ولـٰكن أين بداياتها ونهاياتها بالتحديد الدقيق وعلىٰ ماذا تحتوي وأين الحياة فيها فهـٰذه في مُعظمها علم غيب لا يعلمه إلا العليم بأمر خلقها سبحانه عز وجل . فأمر السماوات أمر علو طبقي من السماء الدنيا التي تحيط بكوكبنا وهي تحمل في مداراتها مالا يستطيع بشر إحصاءه من المصابيح العاكسة للضوء ليلاً حتىٰ يتمكِّن الإنسان من مشاهدتها وملاحظة حركتها وهي تتلألأ من اتجاه إلىٰ اتجاه وذلك ليرينا بعضاً من آياته العظام .

إذا كان أمر السماء الدنيا هـٰكذا فما بالنا بأمر السماوات التي لم يتم كشفها بعد ، وكما سبق أن قلنا لا علم لنا إلا بعددها إبلاغاً خبرياً ، أمَّا ما هي عليه

---

(1) الشعراء، 151، 152 .

(2) الأعراف، 142 .

وكيف هي بالتمام فهـٰذا الأمر لا زال علم غيب ، والحكمة من وراء إبلاغنا بالعدد دون أن يظهرنا علىٰ مكوناته هو لكي نفكر ونسعىٰ ونبحث ونتعرف ونتطلع إلىٰ ما خلق الخالق العظيم لنجله ونعبده ولا نشرك به أحداً . وإلىٰ أن يظهرنا ٱلله عليها أو علىٰ بعض منها سيظل علمها علم غيب .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [1] . يا ٱلله سبحانك ما أعظم شأنك أشهد أنك لم تكن في حاجة لمن يعبدك ، وأشهد أن من يعبدك هو في حاجة إليك ، لقد خلقت كل هـٰذا ولا زلت تخلق فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر لا إلـٰه إلا أنت . أنت الذي خلقتنا وأنت الذي تعلم بحالنا ، وأنت الذي يُتَوَدَّدُ إليه فنستغفره ونؤمن به ونفوز برحمته ، ونحن منَّا من يعتقد بأنه لا ضرورة لذلك ويطغىٰ ، هـٰؤلاء حالهم يا ٱلله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن يخرج منها ، فهم يظنون كما هو يظن ، أنه لا عالم أكبر وأوسع وأعظم من العالم الذي يحوطه بجدار البيضة .

ولأجل أهمية التوضيح بالمقارنة بين من يدرك وبين من لا يدرك علىٰ مستوىٰ ما خلقت يا واحد يا أحد يا من لا يقارن بأحد ، أعيد علىٰ القراء الكرام كتابة جزءٍ من قصة عالم الكتكوت التي اقتبستها من كتابنا المعنون بـ(البستان الحلم) والتي تطرقنا إليها في الكتابة عن اسم المهيمن جل جلاله .

قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي ، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غداً ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهاراً وينامون علىٰ أغصانها ليلاً ، فسأل أحد الكتاكيت أمه : هل هناك عالم

(1) نوح ، 15 ، 16 .

أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه ؟

فأجابته بنعم .

وما هو يا أمي ؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرىٰ وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدَّم لكم الخدمة من أيادي البشر المفضلين عليكم في الخلق .

إنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدِّمون لنا الخدمة .

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرون لي الغذاء والمأوىٰ والتدفئة اللازمة للبقاء .

ولـٰكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم .

إنكم سترون غداً بعد خروجكم إلىٰ عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته ، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرىٰ ، وستعرفون من يمشي سوياً ، ومن يمشي مُكِبّاً علىٰ وجهه ، وستميزون بين الطائر ، والزاحف ، كما تميزون بين اليابسة والماء ، بعدها تعرفون : أن ما قلته لكم هو الحق .

نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلىٰ عالمكم الذي تدّعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه .

أنتم وعالمكم الذي تدَّعون باتساعه كلكم من أحشائي ، وأنا في هـٰذا العالم لم نشبع نهم ثعلب .

ومن هو هـٰذا الثعلب ؟

عدوي وعدوكم .

بما أن الأمر هـٰكذا ، إذاً يبدو أنكِ مُصرة علىٰ بيعنا بلا ثمن .

لا ، لم أقصد يا أبنائي ولـٰكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية ، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية ، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية ، ولكل أسباب ، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب .

ولهـٰذا نحن لن نخرج حتىٰ لا نكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية ، ونحن علىٰ يقين أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه .

غداً سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت « لن » .

وما هو سر « لن » هـٰذه ؟

أن تموتوا داخل البيض أو أن غداً لن يأتي عليّ وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمراً .

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلىٰ صوته فتساءلت : وما هـٰذا الصوت المدوي يا أماه ؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلىٰ الحياة الطبيعية ليراكم بأم عينيه تأكلون الحب وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو ، وسأفرح أنا مثله .

إنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلىٰ عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب .

ستخرجون بالقوة لا بالإرادة .

سنصرخ ونبكي .

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هـٰذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلىٰ المستقبل) .

صُراخ . . . صُراخ . . . يُكسَّر البيض من شدة الصراخ ، ما هـٰذا النور ؟

وما هٰذه الأرجل التي تحملنا ؟ وما هٰذه المساحات الشاسعة ؟ وما هٰذا الليل الطويل ؟ ومن ذا الذي يُقدِّم لنا الخدمة ويسهر علىٰ راحتنا ؟ .

بكاء . . . بكاء وفرحة . . . فرحة . . . صدقتِ يا أمنا صدقت ، ولٰكن أين الغذاء ؟

ها هو يملأ الأرض .

ولٰكن كيف يؤخذ ؟

افعلوا مثل ما أفعل ، اضربوا مناقيركم في الأرض ، فأنا لا أُرْضِع .

إنَّ ما نستنتجه من هٰذه القصة اللطيفة هو أن الذي يجهل الأمر لا يدرك عاقبته فحاله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن ينضج للخروج ، وهٰؤلاء هم الذين لا يدركون ما يُلحظ وذلك لقصر عقولهم علىٰ ما يُحس به أو يُبصر . وهٰكذا حال الذين يظنون بأن ما علىٰ الأرض لا يساويه شيء آخر ، ولا يوجد ما هو أعظم منه ، بل إن بعضهم يظن أن لا وجود لشيء خارج الأرض والسماء الدنيا ، فلا خالق ولا جنة ولا سماوات سبع ولا حساب ولا عقاب إلىٰ أن يفاجئوا كما فوجئ الكتكوت يوم أن خرج بالقوة من البيضة . والفرق بين أمرهم والكتكوت هو أن الكتكوت وجد العالم الواسع بمقارنة عالمه داخل البيضة مع العالم الذي تمتد الأرض فيه حتىٰ تلامس السماء ، أما أولٰئك البعض الذين عرفوا وأنكروا أو أنهم ظنوا ولم يدركوا أو أنهم عرفوا وأشركوا هٰؤلاء ومن هم علىٰ مثلهم ليس لهم مناقير ليضربوا بها الأرض ؛ فيوم أن تُطوىٰ السموات وتُنقص الأرض من أطرافها سيجدون كل ما فعلوه محضراً ، ولا تظلم نفس بذنب لم تقترفه .

ويومها يصبح الحق للذين آمنوا بأن يعيدوا علىٰ الذين أشركوا وكفروا ما قاله ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ . يومها لا تنفعهم الإجابة وهم بما عملوا حطب في نار جهنم .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [1] بطبيعة الحال خالق الأشياء لا تُخفىٰ عليه خافية ، ولهـٰذا تُعد عملية الخلق معلومة للخالق ومجهولة لِمن سواه ، مما يجعل أمر علمها أمر غيب علىٰ من لم يكن بخالق . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [2] .

علم الغيب مع أنه حقيقة إلا أن المشركين ناكرون له ، وللمغالبة جاء بقوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ أي لو جئنا بهم صعوداً مع أبواب السماء المفتَّحة لصعودهم ورأوا بأمهات عيونهم الحقيقة لأنكروها وكأن عيونهم فاقدة للبصر الذي به رأوا ملائكة السماء وشاهدوا معجزاته العظام لأنكروا وهم يصرون علىٰ الكفر . ومع أن في السماء علماً معلوماً ظاهراً كالكواكب والنجوم ومنازلها الواسعة التي تحتوي الشمس والقمر ومدارتها الفلكية ، إلا أن معظم ما في السماء هو علم غيب ولم يؤت الخليفة منه إلا قليلاً . قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [3] بناء علىٰ هـٰذه الآية نحن بني آدم المؤمنون حقاً نعتقد بأن لكل بداية نهاية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [4] ولذا فالأمر الطبيعي كما بُسطت الأرض وسُطحت في البداية فهي ستعود إلىٰ الحالة التي كانت عليها قبل أن تبسط وتُسطح مطوية حالها كحال الصحيفة المطوية في اليدِ الواحدة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ

(1) آل عمران، 5 .
(2) الحجر، 14ـ16 .
(3) الأنبياء، 104 .
(4) الأنبياء، 104 .

مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (1) والغيب في هـٰذا الأمر هو متىٰ ستطوىٰ ؟ لا أحد يجيب . وكيف تطوي في يمينه مع التشبيه بطي السجل للكتاب ؟ وكيف حال يمينه هـٰذا الأمر لا يعلمه إلا ٱلله عالم الغيب والشهادة الذي لا نراه ولا نتخيله في أي صورة فهو المصور المطلق الذي لا يُصوَّر بالمطلق .

القضية الثانية علم غيب الأرض : الأرض هي الـكنز الكبير وبيت الكسب الممتلئ بالوفرة لِمن أراد أن يكسب منها حلالاً ، وعلىٰ أديمها نعيش فنحرث ونزرع ونحصد ثم نأكل ، ومن باطنها نستمد الـكنوز المتنوعة من ماء وذهب أسود وأصفر وجميع أنواع المعادن النفيسة ، ومع ذلك وُزِّعت الأرزاق علىٰ العباد في سهولها وجبالها وصحاريها وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها وينابيعها ووديانها وأنهارها ، وإذا ما غضبت وتزلزلت قذفت بقوتها الحجارة والصخور الصماء ونيران البراكين علىٰ رؤوس الذين يُفسدون فيها ولم يحسنوا إصلاحها .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (2) . علم الزلزلة من علم الغيب من حيث متىٰ ستهتز الأرض وتتزلزل ، وفي أي مكان بالتحديد ، ومدىٰ قوة زلزلتها ؟ . وما هي الخسائر المترتبة علىٰ ما تُلحِقهُ الزلزلة من دمار؟ . فالذي يعلمها قبل أن تظهر مؤشراتها هو العليم المطلق . أمَّا العليم بالإضافة لا يعلم أمرها إلا بعد أن يصدر لها صاحب الأمر أمر الزلزلة حينها تبدأ في حالة امتداد وثوران قابلين للقياس والرصد بالعلم الذي تَمكَّن العليم بالإضافة من معرفته من العليم المطلق . فالذي لا يعلم بأمر الزلزلة يفاجأ بزلزلتها وهي تخرج أثقالها وتقذفها

(1) الزمر، 17 .

(2) الزلزلة، 1ـ6 .

مع براكينها بعيداً مما يجعله يتساءل : مالها ؟ أي ما الأمر ؟ وما الذي يحدث ؟ . أسئلة استغرابية حتىٰ يعلم أنها الزلزلة أو يُخبر بأمرها في يوم من الأيام ليجاب علىٰ استفساراته الاستغرابيه عن حالة الأرض وما ألمَّ بها بقول الذين يعلمون بأن ربَّك هو الذي أوحىٰ بأمره للأرض بأن تتزلزل ، يومها يعلم الناس : أنَّ زلزلة الأرض من علم الغيب . أمَّا المؤمنون المستخلفون فيها ؛ فهم يدركون يقيناً : أنَّ أمرها من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا ٱلله عز وجل .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [(1)] . أهواء المشركين تظن أن في الأرض آلهةٍ متعددة وليس إلـٰهاً واحداً ، ولأنه لا إلـه إلا ٱلله فلا وجود لآلهة إلا قولاً وشركاً وكفراً ، فلو كانت في الأرض آلهة لكان الاختصام والمواجهة بينهم علىٰ من يصدر الأمر ، ولمن يُصدر ؟ ، ومن الذي يطيعه ؟ ؛ ولو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض بالأوامر المختلفة للآلهة ، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يكن له والد ولا والدة ولا ولد ، ولا صاحبة ولم يشاركه في الملك أحد سبحانه جل جلاله .

القضية الثالثة علم غيب الظاهر (ما تبدون) : ما تبدون تعني ما تُظهِرُون وتُعلنون وهي أيضاً تعني ما يبدو لكم ظاهراً ؛ فالله يعلم أمره قبل إعلانه وبعد ، حيث لا سر عن علاَّم الأسرار والحِكم التي من ورائها . قال تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [(2)] وكان بكل شيء عليما : تدل علىٰ أسبقية علمه بالأشياء بالمطلق .

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [(3)] مع أننا نؤمن به يقيناً ونعرف صفاته الحسان يقيناً إلا أننا لا نراه بأمهات أعيننا ، وذلك

---

(1) المؤمنون، 71.
(2) الأحزاب، 54.
(3) الحديد، 3.

لأنه لم يكن مادة مجردة ولا روحاً مجردة بل هو ٱلله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فهو الذي نَعلمه ونُدركه ونَخافه ونتقيه ونسجد له ونركع ، ولا نسجد ولا نركع لسواه ، هو ٱلله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، وهو الحي الباقي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، خلق كل شيء ويحيط بكل شيء علماً سبحانه لا إلـٰه إلا هو الواحد القهَّار .

وفي علم الظاهر قال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ (1) جاء في هـٰذه الآيات شواهد للظاهر مع استفسار عن الكامن الذي من ورائه وهو أننا نظرنا إلىٰ الإبل والسماء والجبال والأرض ولمسنا منها ما لمسنا وعرفنا منها ما عرفنا ونظرنا ومشينا وشربنا ولبسنا وبنينا ، ولـٰكن هل نستطيع أن ننظر إلىٰ الكيفية التي بها وعليها خُلقت لأجل أن نعرف ؟ . إنه من حقنا أن نسعىٰ لنعرف ، ولـٰكن كلما عرفنا منها شيئاً آمنَّا بأن أمر الكيفية التي عليها وبها خلقت هو أمر غيب ؛ ولأنه أمر غيب ، لذا فنحن لأمر الغيب ليس بناظرين . وهـٰكذا حال المخلوقات وفقاً لما تنص عليه القاعدة : (المخلوق لا يرىٰ خالقه في الدنيا والخالق يرىٰ ما خلق) .

القضية الرابعة علم غيب الباطن (ما تكتمون) : الكتمان الإخفاء وعدم الإباحة بالسرِّ الذي ليس بسرٍّ علىٰ من يعلمه ، قال تعالىٰ : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (2) أي أنه أخفاها ولم يظهرها لهم مع أنه شعر بذنبهم نحوه بما رموه به من سرقة ، وهو لم يكن من السارقين ، إلا رمياً بغير حق يوم أن أخذ الصنم من جدِّه أبي أمه وكسره (3) . ومع أن أخذ الصنم وكسره ليس

---

(1) الغاشية، 17 ـ 21.

(2) يوسف، 77.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص 239.

بعمل باطل إلا أن إخوته كانوا من الظانين به ، لا لشيء إلا لحب أبيه له وكأنه المُفضَّل عليهم ، فما قام به يوسف عليه الصلاة والسلام هو عمل حق وفعل حق ، وليس بفعل سرقة . فالسرقة سِرُّها أن تُخفىٰ ويتم الاحتفاظ بالمسروق للفائدة الشخصانية غير المشروعة ، وهـٰذا ما لم يحصل مع يوسف والصنم الذي أقدم علىٰ تكسيره . إنه عمل خير من قبل من كانت النبوة فيهم .

قال تعالىٰ : ﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [1] ما يخفونه في أنفسهم هو الذي يعلمه العليم الحكيم ، فهم يعلنون الإيمان ويخفون في صدورهم حقيقة أمرهم وهو الشرك والكفر والتكذيب ، وهم علىٰ هـٰذه الحالة يظهرون للرسول بأنهم من الذين آمنوا ويخفون له في أنفسهم ما لا يظهرونه وهو الشرك بالله تعالىٰ .

وعلم الغيب هو العلم المُدرَك لِما لا يُدرَك ، وهو ينقسم علىٰ جزأين :

الجزء الأول : كل ما خلقه الخالق هو يعلمه ، وهو العلم الذي لم يطَّلع مخلوق عليه ، فهـٰذا الجزء علمه يقع في دائرة الغيب المحاطة بالاستحالة . فمع أنه علم كامل بالإنجاز الخلقي ، إلا أنه بالنسبة لبني آدم هو خارج دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، وسيظل أمره مستحيلاً إلىٰ أن يخرج أو يخرج شيء منه من دائرة المستحيل ويدخل في دائرة الممكن ، التي من بعدها يتم التعرف عليه أو التعرف علىٰ شيء منه . وهـٰذا الأمر لن يتم إلا إذا أراد العليم المُدرك لما خلق أن يظهرنا عليه أو يظهرنا علىٰ شيء منه .

الجزء الثاني : هو الذي لم يُخلق بعد وسيخلق لا محالة هو الآخر علم غيب لا يعرفه إلا الذي سيخلقه حيث لا مستحيل أمامه ، فهو الذي إذا أراد شيئاً أن يكون ، يقول له كن فيكون ، سبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير وبكل شيء

---

(1) آل عمران، 154 .

عليم . وعليه لا ينبغي الاستغراب لأن ٱلله علىٰ كل شيء قدير وبكل شيء محيط وعليم .

الاستغراب حدوده محيط دائرة الممكن ، التي هي في حدود العلم البشري ، الذي يمتد ويتقيد بالقدرة والاستعداد ، أما دائرة المستحيل فهي الدائرة التي لا يمكن أن يدخلها العلم البشري ، وذلك لأن أمر علمها أمر غيب ، والغيب لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جل جلاله . ولذا فمحيط دائرة الممكن أبعاده نسبية . أما محيط دائرة المستحيل فأبعاده مطلقية .

قال تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ (1) . ولبيان ما تتضمنه هـٰذه الآيات الكريمة علينا أنْ نعرف دلالة المعنىٰ لكل من العالم ، والغيب حتىٰ نُدرك دلالة عالم الغيب جل جلاله :

العالم : هو المدرك للزمان والحركة وما يُحتوىٰ فيهما .

والغيب : علىٰ وجه الاختصاص هو ما يعلمه الخالق ولا يعلمه المخلوق .

وعالم الغيب : هو الذي بيده المشيئة ، وهو الذي لا يتمكن مخلوق من الاطلاع علىٰ علمه مهما سعىٰ ، إلا من ارتضىٰ بمشيئته من يشاء من الرسل ، وفي هـٰذا الأمر كان الاستثناء في قوله (إلا من ارتضىٰ من الرسل) وهم الذين تهيئوا بمشيئته للاطلاع علىٰ ما يؤتيهم من علم الغيب بعد أن يحيطهم تعالىٰ بحفظه يرعونهم برعايته من كل وسوسة وخوف ، فأمر الأنبياء والرسالات ليس بهين إنه الأمر الذي تهتز له السماوات والأرض وتخشع ، ولذلك يحاط الأنبياء

---

(1) الجن، 26ـ28.

والرسل بملائكة كرام يفعلون ما يؤمرون ، لا يكلُّون ولا يملُّون يعملون طاعة لله وهم يروننا ونحن لا نراهم .

وقوله : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ إنَّ إحاطة الملائكة الحفظة الكرام بالأنبياء ليُمكَّنوا من إتمام رسالاتهم للناس رحمة . مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1] . وقال قتادة ومقاتل : « ليعلم محمدٌ أنْ الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم كما هو يفعل . وقيل ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل إليه الرسالة . وقيل : ليعلم الرسل : أن الملائكة بلَّغوا رسالات ربهم . وقال ابن جبير : المعنىٰ ، ليعلم الرسل : أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم ، فيبلغوا رسالاته » [2] .

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [3] يقذف يرمي فيُصيب ، أي أن ٱلله تعالىٰ يُظهر الحُجَّة وهي البيان الحق ليرمي به الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

والحُجَّة دائماً بيد من يعلم ، ولا يمكن أن تكون الحجة بيد من يجهل . وعلاَّم الغيوب هو الذي لا تُخفىٰ عليه خافية في السمٰوات ولا في الأرض سبحانه إنه بكل شيء محيط وعلىٰ كل أمرٍ قدير .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [4] . اليوم الذي يجمع فيه ٱلله تعالىٰ الرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم هو يوم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، وفي ذلك

---

(1) الانفطار، 10 ـ 12 .
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع عشر، ص 29 .
(3) سبأ، 48 .
(4) المائدة، 109 .

اليوم سيُسألون بقوله ﴿ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ ﴾ ؟ فستكون إجابتهم واحدة ؛ لأنهم رسل . سيقولون : ليس لنا إجابة إلا التي تعلمها أنت . أي أنهم لا يجيبون إلا بما سجله عنهم المكلفون بهم من الملائكة الكرام الذين لا يظلمون أحداً ، ولأنهم يؤمنون بالمطلق : أنَّ ما سجله الحفظة هو الحق الذي يعلمه عنهم فكانت إجابة التسليم بعلمه أصدق مما لو أجابوا بغيرها اجتهاداً مع شيء من النسيان ، فكانت إجابة الإيمان المطلق هي : ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ ﴾ . ولا علم لنا لا تعني الإنكار ، بل تعني الاعتراف بأن ما يعلمه عنهم هو الحق ، وهم في هٰذا الأمر ليس لهم إلا الطاعة والتصديق .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [1] . هاتان الآيتان تؤكدان علىٰ ما جاء في الآية (109 من سورة المائدة) التي سبق الاستشهاد بها ، حيث تماثل إجابة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مع إجابة الرسل بما فيهم عيسىٰ صلوات ٱلله وسلامه عليهم حين أجابوا بقولهم : ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ . ولذلك كان التماثل بإجابة عيسىٰ حين سأله ٱلله تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ فكانت الإجابة : ﴿ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾ وهٰذا الأمر يدل علىٰ ثبات أقوال الرسل مع أفعالهم ، ولهٰذا كانت إجاباتهم الصادقة بما فعلوا وليس بما سيقولون أو يجيبون ، وما فعلوه هو بين يدي ٱلله تعالىٰ في سجلات الصادقين المكلفين بهم من السائل جل جلاله .

---

(1) المائدة، 116، 117 .

وللتأكيد قال عيسىٰ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ تتضمن هٰذه الآية الطاعة والتسليم المطلق لعلم ٱلله الذي لا يكون مجالاً للمقارنة بعلم البشر حيث لا كمال إلا لله تعالىٰ ، ولهٰذا أكد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ علم ٱلله المطلق ودرايته بما في نفسه وهو الأدق والأوضح مما يعلمه عيسىٰ عن نفسه . ولزيادة التأكيد أكَّد عيسىٰ علىٰ قصوره عن معرفة ما في نفس علام الغيوب جل جلاله .

وفي التفاسير لقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ ﴾ تعلم ما في غيبي ، ولا نعلم ما في غيبك . وقيل : المعنىٰ : تعلم ما أعلم ، ولا أعلم ما تعلم . وقيل : تعلم ما أريد ، ولا نعلم ما تريد . وقيل : تعلم ما في سري ، ولا أعلم ما في سرك [1] .

ولزيادة التأكيد قال : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ ﴾ بما أنه قال لهم ما قاله ٱلله فالله الأعلم بما قال ، ولذا فهو يعلم بأن عيسىٰ لم يقل لهم إلا ما قاله تعالىٰ جل جلاله ، وهو أن يعبدوا ٱلله ربهم وربه مخلصين له الدين . وكما أكد عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ علم ٱلله المطلق بكل أمر ، أكد علىٰ أنه كان شهيداً عليهم أثناء فترة تكليفه بالرسالة ، ولم يكن بشهيدٍ عليهم بعد وفاته ، حيث أن فترة ما بعد وفاته تُعد بالنسبة له في علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا ٱلله تعالىٰ . ولذلك قال : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [2]
تحتوي هٰذه الآية الكريمة علىٰ ثمانية علوم هي :

---

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء السادس ، ص 376 .
(2) لقمان ، 34 .

1 ـ علم الساعة الذي لا يعلمه إلا هو جل جلاله . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ .

2 ـ علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالىٰ . ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ .

3 ـ علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ .

4 ـ علم النفس وما تخفي في باطنها لا يعلمه إلا هو . ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ .

5 ـ علم الاكتساب والجزاء ثواباً أو عقاباً في الآخرة لا يعلمه إلا هو . ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ ﴾ .

6 ـ علم الزمن المطلق الذي سينقلنا إلىٰ يوم غدٍ علم غيب . وهو الزمن المستنبط مما تحتويه الآية بداية من الساعة إلىٰ ما ستكسبه النفس غداً .

7 ـ علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو . ﴿ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ .

8 ـ علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ .

ومع أن ٱلله هو عالم الغيب والشهادة ، إلا انه يُظهر علىٰ علمه من يشاء من رسول ، وما يظهره من علم لرسول يشاؤه يظهره علىٰ يديه للآخرين ليعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً ، وليعلموا أن وراء العلم عليمٌ يعلم ما في السمـٰوات وما في الأرض فإن أرادوا علماً فعليهم بالتوجه إلىٰ عالم الغيب الذي بيده مالا يعلمون ، مصداقاً لقوله : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ (1) .

(1) الجن، 26 ، 28 .

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [1] بطبيعة الحال الذي أنشأنا من الأرض هو أعلم منا وذلك وفقاً للقاعدة التي تقول : (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها) ، ولذلك لا يُعقل أن يكون الشيء المنشأ أدرىٰ بأمره من الذي أنشأه . وللتوضيح الذي أنشأ الجنين في بطن أمه هو أعلم بالجنين من الجنين نفسه ، فالجنين هو المنشأ بالقوة ، حيث لا رأي له في نشأته ولا صورته ولا نوعه ، فهٰذا الأمر بيد من أنشأه إنشاء . ولأن أمر الخلق بالمطلق هٰكذا وفقاً لقاعدة : (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها) ، إذاً فمن أين لنا أن نزكي أنفسنا ؟ والتزكية : الظهور ، أي إظهار ومدح النفس وإعطاؤها صبغة ليس لها ، وهٰذه لا تعد من القيم المفضلة عند ٱلله تعالىٰ ولا من القيم المفضلة في أخلاق المؤمنين . فهي تحمل العيب علىٰ حساب الاستقامة بعلم ٱلله تعالىٰ .

ولذا فمن يتوجه بالإيمان إلىٰ عالم الغيب ليزيده علماً من علمه يزده حتىٰ يرفعه درجة ، ومن يطلب المزيد يزده ليرفعه إلىٰ درجة من العلم أكبر ، وهٰكذا ينبغي أن يكون الخليفة في الأرض دائماً يطلب المزيد العلمي الذي يظهره علىٰ الآيات العظام ويُمكِّنه من العمل الذي به تُصلح الأرض ولا تُفسد . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [2] . الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجل أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومماتهم ويوم بعثهم .

ولذا فمن مهمة الخليفة أن يسعىٰ بكل جهده وأساليبه الأخلاقية إلىٰ إظهار

---

(1) النجم 32 .

(2) المجادلة ، 11 .

علم ٱلله الذي أظهره عليه ليكون بين الناس ألفة ومحبة وعمل صالح يرضاه . ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند ٱلله عن عباد ٱلله ، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقىٰ علىٰ درجته إن لم يسع لتعميمه ، فالذي يُسقِط العالم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالىٰ عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض ، وليتخذوا الرُّسُل قدوة حسنة لهم في ذلك ، فهم الذين ظلوا علىٰ أعلىٰ الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض علىٰ القول الحق والفعل الحق والسلوك الحق طاعة لأمر ٱلله تعالىٰ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (1) . ولذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم ٱلله عليه للعباد حتىٰ يؤمنوا ويهتدوا إلىٰ الحق والسبيل السليم . والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلىٰ النور ليروا الحق ويتبينوه من الباطل . قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (2) .

ومع أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد المؤمن هو الذي دائماً يذكر ربه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل ، ولذا فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ بالحلال لا بالحرام ، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربه ومأكله ومركوبه ، وفي الحديث : (فمن غشنا ليس منا) أي لا ينبغي أن تغش بما عرفت من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذىٰ البشر ، ولا تغش الدواء الذي به يعالجون أمراضهم ومرضاهم ، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر الخلق والخلائق ، فالعلم النافع هو الذي ينفع الناس ولا يضرهم ، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرراً ، فإن هـٰذا

(1) الملك، 26.
(2) الزمر، 9.

العلم لا يعد بالعلم الحق ، إنه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحق النافع .

ومع أن الخليفة يسعىٰ دائماً لأن يستمد صفة العلم من العليم الحكيم ، إلا أنه يعلم ويؤمن بأنَّ ما أُوتيه أو سيؤتاه من علم لم يكن إلا قليلاً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] .

العليم اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان ، العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [3] ، فعلمُ العليم محيط بكل شيء ؛ لأنه خالق كل شيء ، فهو أعلم به ، ولأنه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك ، ومن انتفت عنه هٰذه الصفات امتلك العلم التام المطلق ، فعلىٰ الخليفة أن يكون عارفاً عالماً يحيط من حوله يعرف عنهم دقائق الأمور ، يسعىٰ للذكرىٰ وعدم النسيان والانتباه وعدم السهو لأن هـٰذه الصفات هي ما تجعله عليماً بالإضافة .

والعليم الواسع العلم المحيط قدّر المقادير بعلمه الواسع فكانت بأمره كاملة تامة في فعلها وأثرها علىٰ الناس ، فالأجرام السماوية دقيقة الحركة وشديدة التأثير في حياة الناس قدرها العليم بعلمه مقادير نافعة فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ

---

(1) الإسراء، 85 .

(2) المجلىٰ شرح القواعد المثلىٰ في الأسماء والصفات الحسنىٰ، لابن عثيمين .

(3) طه 52 .

سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ [1] ، فتصور أن الشمس كانت أقرب إلىٰ الأرض أو أبعد لاشك سيحدث ما لا يحمد عقباه من حر شديد بسبب القرب ومن برد شديد بسبب البعد ، وسيكون هـٰذا ضد إرادة العليم في الاستخلاف وإعمار الأرض وحاشاه أن يكون التناقض في أفعاله . ثم تصور أن تكون حركة الشمس والقمر في غير هـٰذه الأفلاك ، لاشك أن المتغيرات الحاصلة بناءً علىٰ ذلك ستكون كثيرة ومن أهمها ضياع واختلاف المواقيت التي جعلها العليم لتنظم حياة الناس ، ولأن العليم سابق علمه علىٰ كل علم وهو علام الغيوب ، فخلق كل شيء بحسبان وبمقدار من الدقة والنظام ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [2] .

وقد وردت إضافة حركة الأفلاك والأجرام إلىٰ العليم سبحانه في عدة مواضع في القرآن الكريم ، وما تضمنه من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها ، وأخبر أن هـٰذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ، ولا يثنىٰ عليه به كسائر الأمور الاتفاقية [3] .

وهو العليم الكامل في علمه ، فهو « العليم المحيط علمه بكل شيء : بالواجبات ، والممتنعات ، فيعلم تعالىٰ نفسه الكريمة ، ونعوته المقدسة ، وأوصافه العظيمة ، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها ، ويعلم الممتنعات حال امتناعها ، ويعلم ما يترتب علىٰ وجودها لو وجدت . كما قال تعالىٰ : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ

---

(1) يـٰس 38 ـ 40 .

(2) البقرة 189 .

(3) المجلي، مرجع سابق، 4، 13 .

(4) الأنبياء 22 .

وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1] ، فهٰذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها وإخباره بما ينشأ عنها لوجدت علىٰ وجه الفرض والتقدير ، ويعلم تعالىٰ الممكنات ، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده ، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان ويعلم الغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، والجلي والخفي ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، والنصوص في ذكر إحاطة علم ٱلله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأنه لا يغفل ولا ينسىٰ ، وأن علوم الخلائق علىٰ سعتها وتنوعها إذا نسبت إلىٰ علم ٱلله اضمحلت وتلاشت ،كما أن قدرتهم إذا نسبت إلىٰ قدرة ٱلله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه ، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأقدرهم علىٰ ما لم يكونوا عليه قادرين . وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي ، وما فيه من المخلوقات ذواتها ، وأوصافها ، وأفعالها ، وجميع أمورها ، فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يميتهم وبعد ما يحييهم ، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار ، فالله تعالىٰ هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والإسرار والإعلان ، وبالواجبات ، والمستحيلات ، والممكنات ، وبالعالم العلوي ، والسفلي ، وبالماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، فلا يخفىٰ عليه شيء من الأشياء » [3] .

---

(1) المؤمنون 91 .

(2) التوبة 115 .

(3) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 47 .

العليم معناه ظاهر وكماله أن يحيط بكل شيء علماً ، ظاهره وباطنه دقيقه وجليله أوله وآخره عاقبته وفاتحته وهٰذا من حيث كثرة المعلومات وهي لا نهاية لها ثم يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف علىٰ أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه [1] ، ويمكن للخليفة أن يكون عليماً مع انتباهه إلىٰ النقص الحاصل في علميته ، فالخليفة مهما حرص علىٰ إحصاء المعلومات وحصرها فلن يمكنه الإتيان بها جميعاً لا من حيث النوع ولا من حيث الكم ، فمن حيث النوع فالخليفة يستطيع الحصول علىٰ الظاهر أو المعلن أما المخفي المكنون فلا يمكنه ذلك بينما العليم يعلم أكثر منه ، فهو الذي يقول عن نفسه جل شأنه : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [2] ، أما من حيث الكم فلا يمكن للخليفة أن يحيط بكل المعلومات لأن قدرته محدودة علىٰ الحفظ وعلىٰ الاستيعاب ، لـٰكن ذلك لا يثني الخليفة عن القيام بدوره فيعمل علىٰ قدر استطاعته ويترك الباقي للعليم وله في ذلك عذر لأن العليم يقول سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] .

ومن وجوه النقص عند الخليفة التي تمنعه من أن يكون عليماً بالمطلق أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية في معرفتها ، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكرن درجات الكشف فإن البصيرة الباطنة كالبصر

(1) المقصد الأسنىٰ 1 ، 86 . .

(2) طه 7 .

(3) البقرة 286 .

الظاهر ، كما أن علم العليم سبحانه وتعالىٰ بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة منه وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها [1] .

العليم هو الذي يَعلم علماً مطلقاً ، ويقوم بتعليم من يشاء من خلقه ، ولـٰكن يجب أن نعرف أن العليم لا يهب العلم مطلقاً وهـٰذه إرادته سبحانه نص عليها بقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2] ، وهي حقيقة يعرفها الأنبياء قبل غيرهم من العباد ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [3] .

وتعليم العليم ينقسم علىٰ قسمين :

القسم الأول : علم عام غير مخصوص وهو لكل العباد كما يقول الخالق سبحانه : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [4] ، والمراد من الإنسان هو الجنس .

والقسم الثاني : هناك العلم المخصوص ، والمخصوص يحتمل خصوصية الاختيار للمُعَلم ، والعلم المخصوص ، فالعليم سبحانه يختار من يشاء من خلقه فيخصهم بالعلم كسيدنا الخضر ، ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [5] ، وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [6] ، فقد علّم داود صناعة الدروع : ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ

---

(1) المقصد الأسنىٰ 1 ، 86 .
(2) الإسراء 85 .
(3) الملك 26 .
(4) الرحمـٰن 1ـ4 .
(5) الكهف 65 .
(6) النمل 15 .

لِنُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (1) ، وهو علم تطور فيما بعد ليصل إلىٰ مراتب دقيقة ومتطورة وصلت الآن إلىٰ ما يسمىٰ بالدرع الصاروخي وسيستمر الإنسان بتطوير علم داود إلىٰ أن يشاء ٱلله .

وعلّم سليمان منطق الطير بكل أصنافه وأممه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (2) ، وعلم لغة النمل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (3) ، وإذا كان العليم قد ذكر الطير والنمل فإن في ذلك آية لذوي الألباب لفهم أن العلم المخصوص هنا (منطق الحيوان) شامل لما هو موجود في السماء والأرض من الكائنات يمثلها الطير ، والنملة .

وعلّم يعقوب علماً يعمل به فقال سبحانه من قائل : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4) ، ثم علّم ابنه يوسف عليهم الصلاة والسلام علمين الأول تأويل الأحاديث : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (5) ، والثاني المحاسبة والإدارة : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ

---

(1) الأنبياء 80 .
(2) النمل 16 .
(3) النمل 18ـ19 .
(4) يوسف 68 .
(5) يوسف 21

ﭐلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [1] .

وأشار العليم سبحانه إلىٰ تعليمه طالوت فقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [2] .

أما سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام فقد علمه كل العلوم التي خص بها بشراً من خلقه : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ [3] ، لٰكنه منع عليه علماً مخصوصاً هو علم الشعر ، فهو من العلم الممتنع علىٰ المصطفىٰ كما يخبر العليم سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾ [4] ، ولذلك تفسير مفاده : أن ادعاء الكفار كان ينصب علىٰ وصف قرآن محمد بالشعر ، ومحمد بالشاعر : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ [5] ، وهو ما أراد العليم أن ينزهه منه .

العليم عليم بالمطلق وهو من معاني اسمه الحَسن ، العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات [6] ، فهو العليم بالكليات والجزئيات ؛ وقد وصف تعالىٰ نفسه بعالم وعليم وعلاّم .

وعلمه تعالىٰ واحد لا تكثير فيه ، فلما تعلق علمه تعالىٰ بالجميع كلية

(1) يوسف 55 .
(2) البقرة 247 .
(3) النجم 1ـ5 .
(4) يس 69 .
(5) الأنبياء 5 .
(6) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 294 .

وجزئية دقيقة ، وجليلة معدومة وموجودة ، وصف نفسه تعالىٰ بالصفة التي دلت علىٰ ذلك فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وناسب مقطع هٰذه الآية بالوصف بمبالغة العلم ، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء ، وكل ذلك يدل علىٰ صدور هٰذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء .

وعلم ٱلله تعالىٰ يتميز علىٰ علم عباده بكونه واحداً يعلم به جميع المعلومات ، وبأنه لا يتغير بتغيرها ، وبأنه غير مستفاد من حاسة ولا فكر ، وبأنه ضروري لثبوت امتناع زواله ، وبأنه تعالىٰ لا يشغله علم عن علم ، وبأن معلوماته تعالىٰ غير متناهية (2) .

ويمكن أن ندرك سعة علم العليم بالبحث في دقائق علمه ، فهو يعلم الظاهر من الأشياء بالمطلق ، وهو واضح لأن الإنسان يمكن له أن يعلم الظاهر من الأشياء من دون إطلاق ، لٰكن الذي لا يمكن لكل إنسان أن يدركه فهو علم السرائر والمخفيات ، فهو علم اختص به العليم سبحانه وتعالىٰ وعدد قليل من خلقه اصطفاهم ، ومن هٰذه الدقائق علم الأسرار ، فهو عَلِيمٌ بِالسَّرَائِرِ وَالْخَفِيَّاتِ الَّتِي لا يُدْرِكُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ (3) ، فهو الذي يعلم السر ، ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (4) ، ووصفه تعالىٰ بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولىٰ للإيذان بانطواء ما أنزله علىٰ أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض

---

(1) البقرة 29 .

(2) تفسير البحر المحيط ، أبو حيان محمد بن حيّان ، ج 1 ، ص 168 .

(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 124 .

(4) الفرقان 6 .

بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالىٰ [1] .

والسرُّ علمٌ اختصَّ به العليم سبحانه ، وهو يعلمه بعلمه المطلق الذي لا ينقصه شيء ولا يحجبه شيء ، وهو بعد ذلك يعلم المخفي في صدور وعقول عباده لأنه خالقهم ، ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [2] ، ويلاحظ في الآية تقديم المخفي علىٰ المعلن دلالة علىٰ القدرة المطلقة للعليم في كشف المخفي قبل المعلن لينتبه العبد إلىٰ أن أفعاله كلها إنما هي معلومة ، فعليه أن يعمل في الخفاء كعمله في الظاهر عملاً صالحاً يرضاه رب العرش العظيم ، لأن العليم مطلع ، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [3] .

ولأن السر يتيح للعبد أن يتخذ باطناً غير الظاهر ، نبهنا العليم إلىٰ بعض حقائق الأسرار ، فنبهنا إلىٰ موقف المنافقين فقال جل من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [4] .

ثم نبهنا العليم أن سرائرنا ستكون حكماً علينا في يوم القيامة ، فما من سر مخفي إلا ويظهره العليم للعبد ليعرف ويطلع علىٰ ما كان يعمل في الخفاء ، ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [5] .

وهو عليم بالنوايا ، والنية هي من عمل النفس ، والعليم وحده قادر علىٰ معرفة النية الصادقة من غيرها لأنه مطلع علىٰ دواخل الإنسان .

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 14 ، ص 37 .

(2) النمل 25 .

(3) غافر 19 .

(4) آل عمران 118 .

(5) الطارق 9 .

وقد ارتبط عمل الصالحين باسمه العليم ، فقد قال العليم سبحانه عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لحظة بناء البيت : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (1) ، لأن العمل لا يُعرف المراد منه حقيقة إلا من خلال علم المطلع العليم ، فقد يكون العمل رياءً ، وقد يكون خالصاً لله ، والعليم هو الذي يعرف خالصه من زائفه ، ولهـٰذا قالت امرأة عمران ، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (2) . وهنا تناجي امرأة عمران ربها السميع لدعائها ، والعليم بصدق نيتها .

والنية صادقة كانت أم كاذبة يعلمها العليم كما يعلمنا سبحانه وتعالىٰ في آياته إذ يقول جل شأنه : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (3) .

وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللَّهِ أي فوض أمرك إليه سبحانه ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية علىٰ المكر والكيد أَنَّهُ جل شأنه هُوَ السميع فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع ، والعليم فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم في نحرهم (4) .

ويشع اسمه العليم ببعض الدلالات اللغوية ومنها :

إن العليم من الأسماء الحاصلة بسبب العلم ، وفيه وجوه :

الأول : إثبات العلم لله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

(1) البقرة 127 .
(2) آل عمران 35 .
(3) الأنفال 61 .
(4) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 124 .

عِلۡمِهِۦٓ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [2] .

الثاني : العالم ، قال تعالىٰ : ﴿ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [3] .

الثالث : العليم ، وهو كثير في القرآن ، فقد ورد الاسم معرفاً (32) مرة ، ومن غير التعريف (128) مرة ولذا فهو صفة ، ومجموع ما ورد في القرآن (160) مرة ، ويأتي بعد اسم الجلالة الأعظم من حيث الذكر في القرآن الكريم ، ولذلك تعليل هو أن كل شأن من شؤون الخلق إنما يسير بعلم ٱلله ، وما من أمر يدبر في السماء والأرض إلا بعلم ٱلله سبحانه وكل شيء من صغير وكبير هو من علم ٱلله وبعلم ٱلله وللعلم فضيلته ، لأنه مفتاح تحقيق إرادة ٱلله في إعمار الأرض وإقرار العدل عليها فعلىٰ الخليفة أن يُعنىٰ عناية خاصة بالعلم والعلماء ، حتىٰ يكون عليماً ويتمثل صفات العليم المطلق في أرضه التي استخلفه فيها .

الرابع : العلام ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [4] .

الخامس : الأعلم ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [5] .

السادس : صيغة الماضي ، قال تعالىٰ : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [6] .

---

(1) البقرة 255 .
(2) الطلاق 12 .
(3) الزمر 46 .
(4) المائدة 116 .
(5) الأنعام 124 .
(6) البقرة 187 .

السابع : صيغة المستقبل ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [1] .

الثامن : لفظ علم من باب التفعيل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [2] .

واعلم : أنه لا يجوز أن يقال إن ٱلله معلم مع كثرة هـٰذه الألفاظ لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة ، كما لا يجوز إطلاق لفظ العلامة علىٰ ٱلله تعالىٰ ؛ لأنها وإن أفادت المبالغة لـٰكنها تفيد أن هـٰذه المبالغة إنما حصلت بالكد والعناء ، وذلك في حق ٱلله تعالىٰ محال [3] .

أما قوله : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] ، فعليم يصح أن يكون إشارة إلىٰ الإنسان الذي فوق آخر .

كما وصف العليم نفسه بأنه يعلّم خلقه فقال : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [5] ، وقال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [6] .

وقد اقترن اسم العليم بعدد من الأسماء الحسنىٰ لـٰكنه أكثر ما اقترن باسم السميع ، فقد اقترن العليم بالحكيم في أربع آيات ؛ وقدم سبحانه الوصف بالعلم علىٰ الوصف بالحكمة لأن الحكمة لا تبعد عن العلم [7] .

---

(1) البقرة197 .
(2) البقرة 31 .
(3) الرازي، ج1، ص 127 .
(4) يوسف 76 .
(5) العلق 3 - 6 .
(6) النساء 113 .
(7) تفسير الآلوسي، ج1، ص 266 .

والعزيز بالعليم في ست آيات ، ذكر ٱلله هـٰذين الاسمين مقترنين بعد بيان قدرته في تسيير الأجرام الفضائية والكواكب الدرية وترتيب مواقيتها الزمنية كما ورد في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (1) ، وذلك ليعلم الجميع أن كل شيء موجود إنما هو بعلم ومشيئة وليس أمراً تلقائياً عفوياً دون عزة وحكمة ، فهـٰذا التقدير لمسير الشمس والقمر والليل والنهار وحركات النجوم في مطالعها ومغاربها تقدير ناشئ عن عزته وعلمه ، وذلك متضمن وقوعه علىٰ وجه حكمته وأمره ، والغاية التي وجدت من أجلها ، وأنها مهما عظمت أجرامها واتسعت أرجاؤها فلا يعز إيجادها وتدبير أمورها علىٰ العزيز العليم (2) ، فقال جل شأنه : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (3) .

والخلاق بالعليم في آيتين ، وذلك لبيان : أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك ، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هـٰذا التفاوت ، ومع العلم بذلك التفاوت فلأجل المصلحة والحكمة (4) .

والسميع بالعليم في خمس عشرة آية لبيان أنه السميع لجميع المسموعات ، والعليم أي بجميع المعلومات ، وقيل أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ويدخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم دخولاً أولياً اعتراض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بمجازاتهم علىٰ ما صدر

---

(1) يس 38 .
(2) مرجع سابق ، أسماء الله الحسنىٰ ، ج 33 ، ص 69 .
(3) فصلت 12 .
(4) تفسير الرازي ، ج 6 ، ص 330 .

منهم [1] ، وتأخرت صفة العليم في وقوله سبحانه : ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لكونها فاصلة ولعمومها ؛ إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات [2] .

وقد اقترن الواسع بالعليم لكي لا يستبعد العبد هـٰذه المضاعفة ولا يضيق عنها فكره ، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنىٰ واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هـٰذه المضاعفة وهو أهل لها ، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها ، فإن كرمه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه [3] .

وما من اسم اقترن باسم من الأسماء الحسنىٰ إلا لفضيلة الموافقة بينهما لزيادة الدلالة ، وقوة المعنىٰ ، وبيان الغاية ، فيشرق الرجاء بالرحمة للعبد الصالح ، وترتعد فرائص الكافر خوفاً من المنتقم العليم ، وهـٰذا أعظم درس للخليفة يعلمه أن يكون في نهج حياته مؤثراً إيجاباً وسلباً ، فلا ينقطع فيه الرجاء إيجاباً ، ولا تغيب عنه الصولة في الحق علىٰ المستحق سلباً .

اللهمَّ إنك العليم بأمر الغيب والشهادة فاجعلنا في الأمرين من المحسنين الوارثين ! اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فزدنا يا العليم علماً من علمك الواسع به نكسب ولا نخسر وننفع ولا نضر ونخافك ونتقيك ولا نغتر ! اللهُمَّ يا العليم اجعلنا وأبنائنا علىٰ علم من علمك ، اللهُمَّ إنك العليم السميع المجيب فنمد أيادينا إليك ونشد قلوبنا إليك وعقولنا إليك وأنفسنا إليك فأجبنا بعلمك حتىٰ لا تكون لنا حاجة إلا إليك سبحانك لا إلـٰه

(1) تفسير الآلوسي ، ج 12 ، ص 326 .
(2) البحر المحيط ، ج2 ، ص 8 .
(3) المجلىٰ ، ج 4 ، ص 16 .

إلا أنت جل جلالك لا عزة لنا إلا بك ! اللهُمَّ يا العليم اجعلنا من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والذين يعلمون الحق فلا يشركون فيه الباطل ، وإذا ما علموا بالباطل ؛ دمغوه فإذا هو زاهق ، سبحانك جل جلالك ، أنت العليم العظيم !